إصدارات المكتبة الوطنية
النصوص والدراسات التاريخية 5

المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن

تأليف
محمد ابن مرزوق التلمساني

دراسة وتحقيق
الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا
الأستاذة بكلية الآداب بجامعة سرقسطة

تقديم
محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية الجزائرية

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
1401 الجزائر 1981

إصدارات المكتبة الوطنية
النصوص والدراسات التاريخية 5

المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن

تأليف
محمد ابن مرزوق التلمساني

دراسة وتحقيق
الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا
الأستاذة بكلية الآداب بجامعة سرقسطا

تقديم
محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية الجزائرية

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
1401 الجزائر 1981

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر ـ 1981

المحتـــوى

تقـــديم

بقلم : محمود بوعياد

مدير المكتبة الوطنية

لا نجد فى المكتبة العربية القديمة على غناها ، وتنوع المـواد التي تناولتها ، كتبا كثيرة تشبه كتـاب ((المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبي الحسن)) لمؤلفه محمد بن مرزوق التلمساني المعروف بالخطيب، فهو كتاب ينتمي الى التاريخ ولكنه ليس كالكتب التاريخية المعهودة ، اذ أننا ألفنا أن نجد فى كتب التاريخ مهما كانت قيمتها ، سلسلة من الأحداث والتواريخ ، ومجموعة من الأبحاث الضافية عن الملوك وتحركاتهم والمعارك التي خاضوها ، والفتوحات التي أحرزوها . أما كتاب محمد ابن مرزوق فهو يخالف مضمون جل هذه الكتب التاريخية التي تعودنا مطالعتها ، والرجوع اليها لانجاز أبحاثنا ، فتأسفنا على خلوها من كل ذكر لحياة المجتمع ولحياة الانسان فيه . فان ((المسند)) على عكس هذه الكتب يؤرخ للحياة داخل البلاط المريني اذ خصصه صاحبه لوصـف حياة بلاط السلطان أبي الحسن المريني الذي تمكن للمرة الثانية والاخيرة فى التاريخ ، بعد عبد المؤمن الموحدى ، أن يوحد ولو لمدة قصيرة ، أراضي المغرب الاسلامي ، ويجعلها تحت حكم واحد ، وقد عرف هذا السلطان بتشييد المساجد والمدارس التي ما زال أكثرها قائما ، كما عرف بتقريبه أجل العلماء ، وبسيرته العادلة فى الناس ، وبمساهمته الفعالة فى رد هجومات النصارى المغيرين على دار الاسلام فى الأندلس .

ومن ذا الذي كان بامكانه أن يترك للأجيال اللاحقة ، وصف تلـك السجايا ، ويسجل تلك المآثر ، غير شاهد عيان جمع بين العلم الواسع، والذكاء النافذ ، وعايش السلطان عن كثب ، ورافقه فى حله وترحاله ، وفى سلمه وحربه ؟ كان محمد بن مرزوق الخطيب ذلك الرجل ، لقد كان للسلطان أبي الحسن كما قال ابن مريم فى ((البستان فى ذكـر الأولياء والعلماء بتلمسان)) (ص 186) ((مفضي سره ، وامام جامعه ، وخطيب منبره ، وأمين رسائله)) ، فعرف تفاصيل الحياة اليومية كلها فى القصر وعرف كل ما يحيط بها من أسرار ، وأطلع على المراسلات

والوثائق المحفوظة ، فعلقت هذه الأمور كلها بذهنه ، وانتظر الفرصة لتسطيرها على الورق . وكان ذلك بعد وفاة السلطان أبي الحسن بعشرين سنة ، وكان ابن مرزوق مقيما وقتذاك في تونس عند ملوك بني حفص ، فألف كتابا وفاء لذكرى ذلك العاهل الذي غمرته نعمه ، وتقربا للدولة المرينية الحاكمة في فاس آنذاك ، علا يسترجع مكانته في البلاط ، وتعاد له ممتلكاته وأمواله ، بعد أن نكب وأبعد عن البلد الذي عرف فيه الجاه وسعة الأموال .

وان قراءة عناوين بعض الفصول من « المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن » تكفينا للاطلاع على مضمونه ، وادراك قيمته التوثيقية ، ولا يسعنا أن نذكر عناوين هذه الفصول كلها هنا بل ننتقي منها ما يلي :

« في نسب أبي الحسن (وهو تلخيص لتاريخ الدولة المرينية) ، في تربيته .. في ملاحظاته لأحوال رعيته .. في محبته أهل العلم وايثاره لمن أنصف به ، فيما كان يؤثر من العلوم ، في محوه للمناكر والمكوس والبدع وقيامه لذلك .. في ذكر وزرائه وجلسائه وكتابه ، في تمهيده طريق الحج ، في أعماله في الجهاد وغزو الكفار ، في انشائه المحارس ، في بنائه الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والمارستانات والقناطر والجسور والسقايات ، في رعايته الشيوخ ، في أسفاره ، فيما اختص به من نسخ كتاب الله .. وغيرها من الفصول الخمسة والخمسين التي يحويها « المسند » والتي تفتح لنا الأبواب لأول مرة بفضل هذا الكتاب، لنتعرف من الداخل على حياة دولة مغربية من العصور الاسلامية ، وعلى بعض الأوجه من حياة المجتمع فيها ، وتعطينا معلومات نادرة ، لا نجدها في أكثر كتب التاريخ الأخرى عن الأنظمة الادارية ، والحياة العقلية والقيم الدينية والأخلاقية التي كان يقوم عليها المجتمع المغربي في تلك العصور الزاهرة من الحضارة ، المعروفة عند المؤرخين اليوم بالقرون الوسطى .

ولا شك في أن ما قاله ابن مرزوق عن أبي الحسن ، وبلاطه ووزرائه، وكتابه ، والأنظمة الادارية التي سار عليها في دولته ، وما قاله عن سلوك الناس أعلاهم وأدناهم في درجات السلم الاجتماعي ، وفي ظروف الحياة المختلفة ، ينطبق على الدول المغربية المعاصرة لتلك الدولة ، وعلى شعوب المغرب كلها . وهذا مما يزيد من القيمة التوثيقية للكتاب الذي سيفيد عند نشره مؤرخ الدولة الزيانية ، ومؤرخ الدولة الحفصية ، ومؤرخ الشعور الديني عند الشعوب المغربية الأندلسية ، والاختصاصي في النظم الادارية ، والاختصاصي في التطورات الاجتماعية وغيرهم من الباحثين على اختلاف مقاصدهم .

وإذا قلنا أن المؤلف هو من سلالة أسرة عريقة في العلم ، فذلك عن حق لأن أسرة ابن مرزوق التي ترتبط بأوثق الصلات وأعرق الجذور بأرض المغرب الأوسط ، قد أنجبت سلسلة من العلماء الأجلاء وقد التبست أسماء هؤلاء العلماء على معاصريهم وعلى المترجمين لهم بعد ذلك، فاضطروا الى التمييز بينهم بتسمية أحدهم بالجد والآخر بالخطيب والثالث بالحفيد وهكذا . وقد لمعت أسماؤهم في سماء العلم والدين والحضارة بهذا الجزء من العالم الاسلامي المشتمل على شمال أفريقيا والأندلس .

وقد ولد محمد بن مرزوق في تلمسان عاصمة الدولة الزيانية في بداية القرن الثامن ، الرابع عشر الميلادي ، وعرف حياة كحياة أكثر معاصريه من العلماء الذين كانوا لا يعرفون حدودا بين أقطار العالم الاسلامي ، فينتقلون من حاضرة الى أخرى ، ومن قطر الى آخر طلبا للعلم قبل كل شيء ، وطلبا للرزق والجاه ان حادوا عن طريق العلم الصرف ، واقتربوا من السلطان ، وقد غادر محمد بن مرزوق مسقط رأسه ووطن أجداده تلمسان برفقة والده ، ورحل وهو صبي الى المشرق حيث اتصل ببعض العلماء المشهورين ودرس على بعضهم .

ونوه كل من ترجم له بسعة علمه ، وتنوع فروع المعرفة التي حذقها، وبوفرة المؤلفات التي أنتجها ، وعرف بين الناس بلقب الخطيب لأن خطب الجمعة التي شرع في القائها بمصر وهو صبي ، تميزت بفصاحتها وجزالتها ، ويقال أنه خطب على « ثمانية وأربعين منبرا في الاسلام شرقا وغربا وأندلسا » (البستان ، ص 187) .

لم يتفرغ ابن مرزوق للعلم والتدريس فقط ، بل اهتم أيضا بالسياسة، وخدم الأسر الأربع الحاكمة وقتذاك في المغرب الاسلامي من ملوك بني زيان في تلمسان مسقط رأسه وموطن أجداده ، وملوك بني مرين في فاس حيث خدم السلطان أبا الحسن ، وملوك بني الاحمر في غرناطة وأخيرا في تونس حيث اتصل بملوكها من بني حفص . وقد انتهى به المطاف في القاهرة حيث توفي ، وقد رحل اليها يوم تيقن أنه لا سبيل لاعادة ثروته وجاهه في البلاط المريني بفاس .

ان هذه الحياة بتغييراتها وتقلباتها تطابق مطابقة كاملة حياة معاصريه وصديقيه اللذين ربطته بهما صلات الود والتقدير ، وهما عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب ، اذ ترك مثلهما ميدان العلم سعيا وراء المناصب السياسية العالية والجاه ، وصعد مثلهما الى القمة ، وعرف مثلهما تقلبات الدهر ومحنه فابتلي كما ابتليا بالسجن بعد المجد ، وعرف النكبة بعد الحظوة . وان كان لم يمت مقتولا مثل ذي الوزارتين

لسان الدين بن الخطيب ، فان نهايته كانت شبيهة بنهاية مؤلف ((تاريخ العبر)) الذي غادر مثله مسقط الرأس ومسرح النشاط حيث أذاقهما الدهر مسراته وتقلباته ، ليموتا بمصر مغتربين بعيدين عن الاهل والوطن.

وتمثل حياة هؤلاء العلماء المفكرين الثلاثة وحدها حياة العصر في المغرب الاسلامي بخيرها وشرها ، ولاشك في أن مؤلفاتهم أصدق مرآة للمجتمع الذي عاشوا فيه وذاقوا حلو الحياة فيه ومرها ، غير أننا لم تمكنا الظروف من الاطلاع الى يومنا عما خلف ابن مرزوق من كتابه تاريخية مع أن كتب صديقيه كتب لهما النشر والذيوع . ومما يجدر التنبيه اليه مرة أخرى هنا ، هو أن ((المسند)) كما قلنا سابقا ، يخالف المؤلفات التاريخية التي خلفها ابن خلدون وابن الخطيب في كونه سجلا تاريخيا للحياة من الداخل، لا تاريخ أحداث وتاريخ ملوك ومعارك وانقلابات . ولقد بقي كتاب ((المسند)) غير منشور الى اليوم ، وان كان المؤرخون الغربيون قد اهتمـوا به ، واستعملوا القسم الذي نشره وترجمه الى اللغة الفرنسية منذ حـوالي نصف قرن ، المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال ، الا أن النص الاصلي الكامل بقي غير معروف رغم وجوده في مكتبة الاسكوريال باسبانيا ، ورغم العثور منذ سنوات ، على نسخة جديدة من الكتاب في مكتبة بجنوب المغرب الاقصى. وبقي المؤرخون محرومين من المعلومات القيمة التي يشملها عن بعض أوجه حياة المجتمع ، وعن حياة الدول من الداخل الى أن التفتت الى هذا المصدر التاريخي الهام ، الآنسة ماريا خيسوس بيغيرا استاذة اللغة العربية بجامعة سرقسطا (ساراغوس) في اسبانيا . والآنسة بيغيرا معروفة لدى الجمهور المثقف الجزائري وغير الجزائري الذي تمكن من التعرف عليها ، ومن تقدير ابحاثها ، في ملتقيات الفكر الاسلامي المتعددة التي شاركت فيها ، وأعجب كل من لقيها بسعة علمها وبتواضعها . وقبل أن تعين في سرقسطا كانت الآنسة تعلم في جامعة مدريد حيث قدمت سنة 1973 رسالة جامعية نالت بفضلها درجة الدكتوراه . وكان موضوعها ((المسند)) لابن مرزوق الذي ترجمته الى الاسبانية وقدمت له بدراسة ضافية عن المؤلف وآثاره . فأعجب الجمهور العلمي بهذا الانجاز التاريخي الذي تمكن أخيرا من الحصول عليه كـاملا ، بعد أن كثر عنه الكـلام ، والأخذ عنه أحيانا في حين نشر وترجم قسم منه . وقد نشر نص الرسالة بعد مناقشتها اذ أصدر المعهد الاسباني العربي في مدريد الكتاب ضمن مجموعاته ، واستقبله جمهور المؤرخين الغربيين بما يليق به من اكبار وتقريظ .

غير أن الدكتورة بيغيرا لم تقف عند هذا الحد ، ولم تكتف باصدار النص مترجما الى لغة أوروبية ، بل أبت الا أن تتحف المكتبة العربيـة والمؤرخين العرب وغير العرب بالنص الأصلي لهذا الأثر التـاريخي . فأخرجته في حلة علمية ، وقد اعتمدت لتحقيق النص عـلى النسختين المخطوطتين المعروفتين ، نسخة الاسكوريال في اسبانيا ، والنسخة المغربية

المحفوظة حاليا فى « الخزانة العامة » بالرباط ، واردفت النص بتعاليق واحالات بيبليوغرافية تليق بمثل هذا الأثر .

وكم كنت سعيدا يوم عرضت علي الآنسة بيفيرا اصدار هذا الكتاب المحقق ضمن « منشورات المكتبة الوطنية » التي اكتسبت بعد سنوات قليلة من ولادتها ، سمعة طيبة عند أكثر الباحثين فى العالم ، والمهتمين منهم بماضي هذه الناحية وحاضرها ، واني لأرى فى هذا التعاون بين باحثة اندلسية ومؤسسة علمية جزائرية لاصدار اثر تاريخي لعالم انجبته ارض الجزائر ، وتقلب فى أطراف المغرب الاسلامي كلها ، وتشبع بثقافتها المغربية الأندلسية ، قلت اني أرى فى هذا التعاون بعثا لتلك التيارات الثقافية المتينة التي كانت تربط العدوتين ، واصبحت على مر الدهر جسرا ينقل الى كلا الطرفين ، طيلة قرون متتالية ، العلماء ، والكتب ، والأفكار ، والأزياء ، والاختراعات ، والأساليب الفنية .

وفى الختام اتمنى أن يستفيد جمهور المؤرخين والباحثين والاختصاصيين العاكفين على دراسة الجوانب المختلفة للحضارة العربية ، من هذا الأثر النادر المثال الذي الفه قديما مؤلف من أبناء الجزائر ، وأنقذته من الأرضة والغبار ، باحثة أندلسية ، وأخرجته أخيرا الى الوجود المكتبة الوطنية الجزائرية .

الجزائر فى اول يناير 1980

محمود بوعياد

مدير المكتبة الوطنية الجزائرية

القسم الأوّل

ابن مرزوق

حياته وآثاره

دراســة (1)

ابن مرزوق : حياته وآثاره

لقد صور التاريخ السياسي للمغرب العربي في العصــور الوسطــى المتأخرة مرات عديدة صورا مختلفة العمق والامتداد : ابتداء من أمهات الكتب العربية التي عاصرتها الأحداث حتى الدراسات الحديثة • ومن المعلوم أن أية دراسة قيمة يجب عليها أن تضع في اعتبارها المصادر المتاحة. ومع ذلك فان أية دراسة تاريخية عامة لهذه الفترة غير ممكنة ــ كما انها غير معروضة على بساط البحث ــ الا اذا استحضرت بالمصادر القديمة المحفوظــة •

واحدى هذه المصادر تبدو ، لأسباب مختلفة ، ذات أهمية عظيمــة ولكنها بالرغم من ذلك لم تنشر بعد • والمصدر الذي أشير اليه هــو « المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحســن » الــذي قمت بتحقيق نصه • لقد قدم ليفي بروفنسال (2) (Levi - Provençal)

1 ــ قد نشرت الترجمة الاسبانية **المسند** قبل سنتين تحت عنوان :

El Musnad : *Hechos memorables de Abu l-Hasan, sultan de los benimerines.* Instituto hispano-arabe de Cultura, Madrid 1977.

ولقد أوضحت في تقديم هذه الترجمة أصل عملي في هذا الموضوع واعترفت بالدين الذي كان علي لبعض الاساتذة والمؤسسات • أجدد هنا لهم تلك الاعتبــارات وأوسع شكري الى الاستاذ محمود بوعياد الذي قبل نشر هذا الكتاب في مجموعات المكتبة الوطنية التي يديرها ، كما أشكر الاستاذ اسماعيل العربي لمراجعتــه أسلوب دراستي عن حياة ابن مرزوق •

ومن الجدير بالملاحظة أخيرا وليس آخرا أنني أعدت النظر في تحقيقي الاول **المسند** وحصلت أحيانا على قراءات أفضل من القراءات المنعكسة في النص المترجم • لقد اقترح علي بعدد كبير من هذه التصحيحات الاستاذ فيديريكو كورينطي الذي أقدم له كل احترامي •

(2) *Un nouveau texte d'histoire mérinide : le « Musnad » d'Ibn Marzuk,* Hesperis, V (1925) 1-82.

المسند تقديما علميا متعمقا للبحث الحديث فى عام 1925 مركزا على اكتشافه مخطوطا له فى مكتبه الريال موناستيريو بالاسكوريال (Real Monasterio de El Escorial) • وقبل ذلك الحين كان كاسيري (3) (Casiri) قد صنفه تصنيفا سيئا •

ومع أنه توجد أخطاء محدودة عند ليفي بروفنسال (فى تحديد تاريخ تأليفه أو فى ظنه مخطوط الاسكوريال هو الوحيد ـ مما خلق مشكلة بسبب تأثيره فى المؤرخين المغاربة ـ فان الفائدة التي تنجت عن اكتشاف المسند فى دراسات المغرب ، تظهر فى الدراسات الحديثة كدراسات ثرية بمعلومات جديدة .

والاهمية التي يعطيها ليفي بروفنسال لنشاط ابن مرزوق ككاتب التاريخ لم تكن عاملا يمكن أن يقلل من كتب ليفي بروفنسال الاخرى ، أو كتب الآخرين • ففي عام 1953 ، على أثر انكباب علمي متواصل ، عاد ليفي بروفنسال الى الموضوع ليقرر أن المؤرخين الثلاثة الأساسيين للمغرب العربي فى نهاية العصور الوسطى ، هم : ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون (4) •

وفى غضون السنوات التالية (فى عام 1928) قام بلاشير (R. Blachère) بنشر ترجمة فرنسية لصفحتين من الفصل الرابع من كتاب المسند • وأعلن

(3) M. Casiri. — *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis,* Madrid, 1770, II, p. 69, n° 1161 ; *Les manuscrits arabes de l'Escurial,* par H. Derenbourg, Tome 3e par E. Lévi-Provençal, Paris, 1928, p. 196, n° 1666.

(4) Lévi-Provençal. — *Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade* (1350), « Mélanges William Marçais », Paris, 1950, 205-224, p. 205.

عزمه على تحقيق النص الكامل (5) . ولقد قمت أنا بانجاز هذا العمل بعد ذلك المشروع الذي لم يتم بحوالي نصف قرن .

ويمكن استخلاص هدف عملي هذا مما قلته في البداية : ان دراسة ما عن المغرب العربي لا يمكنها أن تتم بدون معرفة المسند لابن مرزوق الذي ظل مخطوطا حتى الآن . وفيما يلي ألخص الأخبار التي نعرفها عن ابن مرزوق وعن الدور الثقافي الذي قامت به عائلته التي عاشت عدة قرون في تلمسان ، كذلك أذكر أعمال ابن مرزوق وخاصة المسند ونبذة من سيرته ، على المنهج التالي :

المواضيع

أ ـ المرازقـة :

أ ـ 1 : أسلاف ابن مرزوق

أ ـ 2 : ابن مرزوق ، حياته وآثاره

أ ـ 2 ـ 1 : مصادر ترجمة حياتـه

أ ـ 2 ـ 2 : ترجمة حياته

أ ـ 2 ـ 3 : شيوخه

أ ـ 2 ـ 4 : تلاميذه

أ ـ 2 ـ 5 : آثاره

أ ـ 3 : سلالتـه

ب ـ المسنـد

ب ـ 1 : وصف المخطوطين

ب ـ 2 ظروف تأليف المسند

(5) R. Blachère. — *Quelques détails sur la vie privée du sultan Mérinide Abu 'l-Hasan,* « Mémorial Henri Basset », Paris, 1928, I, 83-89.

ب ــ 3 : قيمة محتواه وأسلوبه

ب ــ 4 : آثار المسند فى التراث العربي

ب ــ 5 : المسند والأبحاث المعاصرة

فهرس تفصيلي بالأعمال التي ذكرت بايجــاز

أ ــ المرازقــة (6) :

ينحدر ابن مرزوق (7) من عائلة كبيرة أصلها من القيروان . وعندما نزل بنو هلال فيها ، هاجرت من هناك واستقرت فى تلمسان فى أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فى عهد المرابطين (8) .

وتلقيبه بالعجيسي يدل على أن أسرته كانت تنتسب الى العجيسة وهي قبيلة بربرية استقرت فى أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فى جنوب بجاية فى ضواحي قلعة بني حماد (9) .

---

6 ــ أنظر جدول نسبهم ، لا بد من أن أنبه انني أشير الى عائلة ، لا الى قبيلة ، كالمرازقة الذين درس تاريخهم الاجتماعي واللغــوي غ . بوريس (G. Boris)

Le chameau chez les Marâzig (*Sud Tunisien*), Tunis, 1951.

Lexique du parler arabe des Marâzig, Paris, 1958.

وأسرة ابن مرزوق ، لا علاقة لها مع هؤلاء فبنو مرزوق هم من القبيلة البربرية العجيسية ، وجد أولئك المرازقة هو سيدي مرزوق الذي نزل فى جنوب تونس حوالي 781 هـ ــ 1380 م .

(انظر : J. Seran : *Parcours Marazig*, Tunis, 1949. على كل حال ، سمينا عائلة ابن مرزوق المرازقة مثلما فعله الحاج صدوق (M. Hadj-Saddock) فى مقالته فى دائرة المعارف الاسلامية (Encyclopédie de l'Islam) ط . 2 ، الجزء الثالث ، ص 890 .

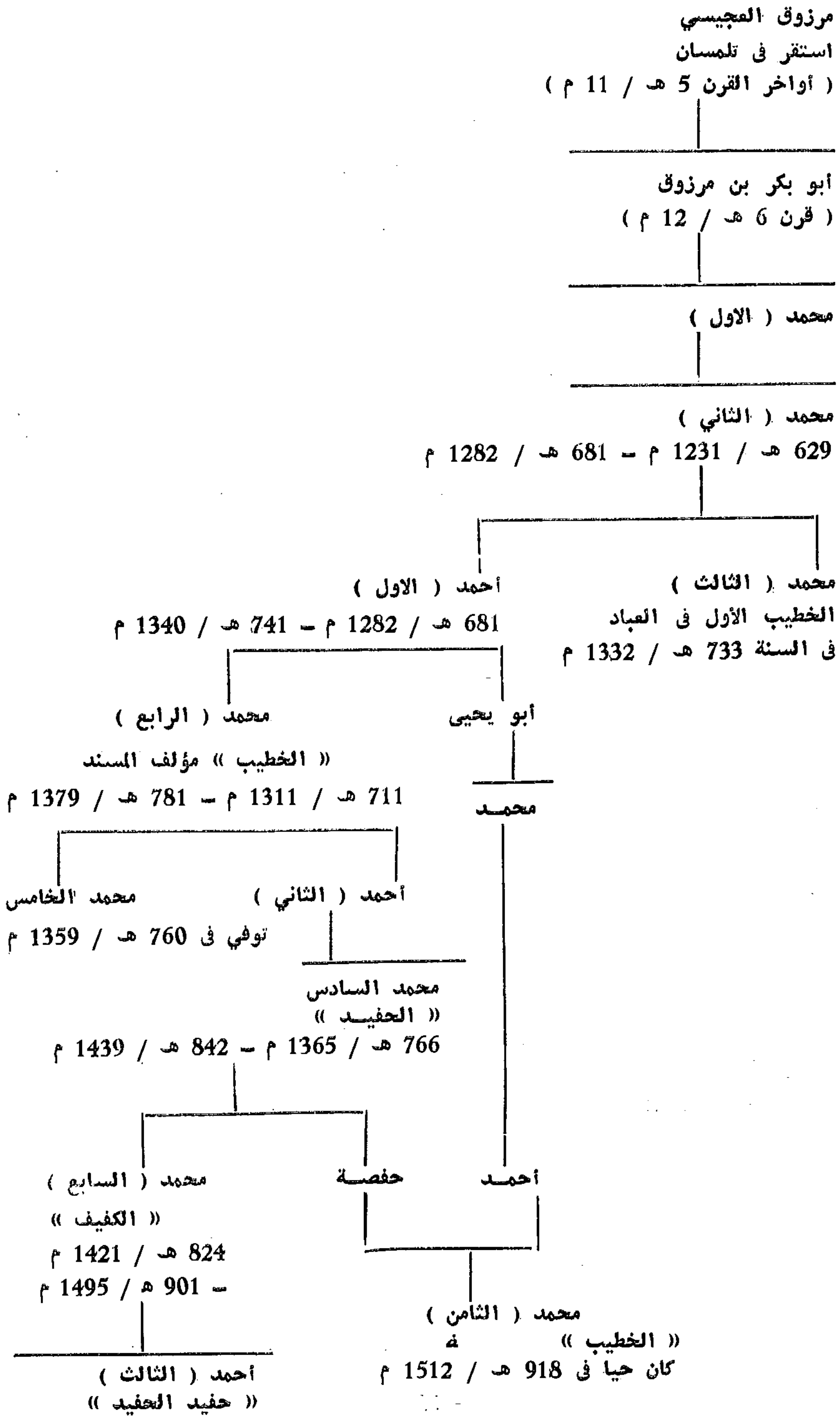
7 ــ سنحتفظ باسم « ابن مرزوق » في كاتبنا ، وعندما نشير الى فرد آخر من نفس العائلة سنذكر اسمه العلم .

8 ــ بغية الرواد ، 61 ; *Bostan*, 258 ; Bargès: *Complément*, 101

9 ــ عن العجيسة ، أنظر :

Berbères : 1, 285 ; G. Marçais : *Les Arabes en Berbérie*, 617

شجرة نسب المرازقة :



لقد حفل تاريخ عائلة ابن مرزوق لمدة ثلاثة قرون بشخصيات مرموقة في العلم برزت واشتهرت بالتقوى مما يجعل منها ذات وضع اجتماعي وثقافي ممتاز في جميع بلدان المغرب العربي ، كما اعترف بذلك ليفي بروفنسال حين يقول (10) :

« La qualité de savant... est d'ailleurs, si l'on peut dire, héréditaire. On rencontre à chaque pas... des ethniques semblables à deux ou trois siècles d'intervalle, si bien que l'on est tenté de croire que quelques grandes familles privilegiées ont, de père en fils, au cours des générations, monopolisé la science ».

أ ـ 1 : أسلاف ابن مرزوق :

كان مرزوق العجيسي التلمساني أول من استقر في تلمسان في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

كان أبو بكر بن مرزوق خليلا وفيا للولي المشهور أبي مدين شعيب المغربي (وهو أندلسي المولد) (520 / 1126 ـ 594) (11) .

وبهذه العلاقة بقيت العائلة مرتبطة بخدمة هذا الولي وقبره (12) .

محمد (الثاني) بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (13) ولد ومات في تلمسان (629 / 1231 ـ 681 / 1282) فقيه ومحدث ، صوفي

---

10 ـ ليفي ـ بروفنسال : *Chorfa* 12-11. ليفي ـ بروفنسال يوجه بحثه الى المغرب الاقصى ، وأنا أستعمله ، بنفس الصلاحية ، لهذه الأسرة في المغرب الاوسط .

11 ـ أنظر : Encyclopédie de l'Islam, I., 142-141 (G. Marçais)

12 ـ وتوجد معلومات في **أنس** ، 94-93 ; *Bostan*, 210؛ التعريف ، 49 ، أنظر كذلك المسند لابن مرزوق ، 8 أ .

13 ـ أنظر معلومات عن حياته في **بغية الرواد** ، 62-61 ; *Bostan*, 232, 258, 538, Bargès, *Complément*, 15-16, 100 ; Bargès, *Tlemcen*, 296 ; Brosselard, *Tombeaux* 137.
بقيت قبة سيدي مرزوق محفوظة في الزاوية الجنوبية الغربية بجامع تلمسان ويمكن أن تكون من تشييد يغمراسن ، أنظر
R. Bourouiba. — *L'Art religieux musulman en Algérie*, Alger, 1973, 133-134.

وزاهد، مات فى صومعة الزهد ودفن فى دار الراحة، قريبا من القصر القديم بتلمسان ، بجوار يغمراسن السلطان الزياني . ويذكر عن ولديه ، محمد وأحمد ، بعض الأخبار ، وبينها :

محمد (الثالث) بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، أبو عبد الله (14) .

كان السلطان أبو الحسن قد كلفه (15) ببعض المهام التي تتصل ببناء واصلاح ضريح أبي مدين وفى سنة 733 / 1332 عينه خطيبا بجامع العباد الجديد بتلمسان .

كان معلم المقري (16) حسب ما يشير اليه المسند (17) . ما زال على قيد الحياة عندما توفي السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر (747 / 1346) (18) .

أحمد (الأول) بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، أبو العباس (19) : أخو السابق ، ولد فى تلمسان فى محرم 681 / أبريل 1282 ، وتوفي

---

14 ـ أنظر معلومات عن حياته فى : *Bostan* 211 ; Bargès *Complément* 100 كما أنه مذكور تقريبا فى جميع المصادر والدراسات حول ابن أخيه ابن مرزوق .

15 ـ تقدم لنا معلومات **المسند محمد** بن مرزوق هذا كشخص مقرب جدا من بلاط بني مرين . أنظر المسند : 7ب ، 11 أ ، 17 أ ، 83 ب ، 84 أ ، 98 أ ، 121 أ ، 122 أ ، 124 ب ، 126 أ .

16 ـ حفيد العالم المشهور . أنظر **نفح الطيب** (ط . القاهرة 1302 ج 3 ، ص 112) احاطة (ط . القاهرة ، 1319) الجزء الثاني 136 ، 165 ، درة ج 1 ، 170 ، **بغية الرواد** ، 73 ، نيل ، 249 ، **التعريف بابن خلدون** ، **59** ، **الحلل السندسية** ، 833 *Bostan* 169 - 182 Ben Cheneb رقم 102 ، NWYIA : *Ibn Abbâd* XXI

17 ـ **المسند** ، 116 ب . وردت هذه المعلومات فى مراجع أخرى ، مثل *Bostan* 171

18 ـ أنظر المسند ، 84 ب ، 85 أ .

19 ـ معلومات عن حياته فى : **بغية الرواد** ، 62–63 ، **انس** ، 93 ، *Bostan* 28 – 30 ، 171 ، 232 ، وفي **المسند** 9 أ 11 أ ، 20 أ ، 47 ب ، 48 أ ، 53 ب ، 73 ب ، 84 أ ، 89 أ ، 120 أ ، 122 أ ، 123 أ ، 126 أ . ابن مريم Bostan 32 يخبرنا أن هناك كتابا خاصا فى ترجمة حياته ، عنوانه **مناقب أحمد بن مرزوق** ، لا نعرف كاتبه ؛ وأحمد ابن مرزوق مذكور كذلك فى المصادر والدراسات التي تختص بابنه ، ابن مرزوق .

فى مكة (ذو القعدة 741 / أبريل 1341) . وقد كان قبره مزارا مقصودا من الناس . (20) . تزوج بخديجة (سنة 707 / 1307) بنت أبي الحسن التنسي (21) الذي كان ينتسب الى عائلة أخرى كبيرة من تلمسان (22) ، وولدت هي ابن مرزوق ، مؤلفنا . تقلد مهام سفير فى حضرة بني مرين بفاس ، ولاشك أن ذلك كان بمناسبة عقد الصلح تلو غزوة 714 / 1314 (23) .

خرج الى الحج مع ابنه فى الفترة ما بين 717 / 1317 و 720 / 1320، ومكث فى الحرمين حتى أواخر أيامه ، مما زاده شهرة وفضلا .

أ ــ 2) ــ ابن مرزوق :

محمد (الرابع) بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ، أبو عبد الله : كان يلقب « شمس الدين » ، ويعرف بالخطيب ، الأكبر ، الجد والرئيس . ولد فى تلمسان سنة 711 / 1311 ومات فى القاهرة سنة 781 / 1379 .

هو كاتب المسند وموضوع هذه الدراسة . ولذلك سنتعرض لترجمته بما ينبغي من العناية والدقة .

---

20 ـ ابن مريم *Bostan* 30-28 يشير الى وجود قبره فى « المرج » خارج « باب الجياد » :

21 ـ انظر *Bostan* 30

22 ـ انظر *Bostan*, 29, 30, 31, 134, 248

23 ـ انظر أخبار هذه السفارة فى **المسند** 9 أ ، 73 أ ، ومن هذه الغزوة انظر *Berbères* IV 190

أ ـ 2 ـ 1) مصادر ترجمة حياة ابن مرزوق (24) :

ـ ابن الخطيب : الاحاطة (ط . القاهرة) 1 ، 223 ، 226 ، 2 ، 136 / تحقيق عبد الله عنان ، 1 ، 35 / مخطوط الاسكوريال 121 ـ 130 .

ـ يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، 50 (فى الترجمة الفرنسية ، ص 63).

ـ عبد الرحمن بن خلدون : عبر ، 2 ، 462 ، 4 ، 347 (فى الترجمة الفرنسيـــة ، 3 ، 165 و 4 ، 330 ، 347 ، 394 .)

ـ عبد الرحمن بن خلدون : التعريف بابن خلدون ، 49 ـ 54 .

ـ ابن فرحون : الديباج ، 270 ، 305 .

ـ ابن حجر : الدرر ، 3 ، 350 ـ 352 ، رقم 3476 .

ـ ابن قنفذ : الوفيات ، 60 ، سنة 780 .

ـ ابن الأحمر : روضة ، 53 ، 197 .

ـ السيوطي ، بغية الوعاة ، 18 ـ 19 .

ـ السيوطي ، حسن المحاضرة ، 2 ، 104 .

ـ ابن القاضي ، جذوة ، 140 ـ 142 .

---

24 ـ ونذكر الاعمال التى نظنها مهمة لأسباب عدة ، وتوجد معلومات قليلة فى أعمال أخرى وكذلك فى مؤلفين مشرقيين مثل العيني فى **تاريخ البدر** (انظر :

E. Fagnan. — *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, Alger, 1924, 262-270.

ونستطيع كذلك أن نذكر دراســات حـديثة تتحدث عن ابن مرزوق ، مثل :

M. Talbi. — *Les contacts culturels entre l'Ifriqiya hafside* (1230-1569), Actas II coloquio Hispano-Tunecino de Estudios Historicos, Madrid, 1973, 75-76.

R. Arie. — *L'Espagne musulmane au temps des nasrîdes* (1232-1492), Paris, 1973, 190, 195, 425, 440, 459.

ـ ابن القاضي ، درة ، 1 ، 288 ، رقم 764 .

ـ أحمد بابا ، نيل ، 267 .

ـ المقري ، نفح ، 5 ، 390 ـ 419 .

ـ ابن مريم البستان ، BOSTAN ، 210 ـ 218 .

ـ الزركشي ، دولتين ، 83 ، 96 (في الترجمة الفرنسية : 237 ـ 239)

ـ مخلوف ، شجرة النور ، 275 ، رقم 1027 .

ـ ابن عمار ، نحلة ، 110 ـ 111 .

ـ ابن العماد ، شذرات ، 6 ، 271 ـ 272 .

ـ الوزير السراج ، الحلل السندسية ، 598 ، 615 ، 623 ، 657 ، 670 ، 682 ، 835 .

ـ الحفناوي ، تعريف ، 136 ـ 144 .

ـ الناصري ، الاستقصاء ، 206 ، 210 ، 286 .

ـ الكتاني ، فهرس ، 1 ، 181 ، 394 ـ 396 .

ـ حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 104 ، 154 ، 306 ، 550 ، 1164 ، 1170 ، 1333 ، 1628 .

ـ البغدادي ، ايضاح ، 1 : 155 ، 344 ، 2 : 93 ، 482 ، 510 ، 521 ، 650 .

ـ البغدادي ، هدية العارفين ، 2 : 170 .

ـ الزركلي ، الأعلام ، 6 : 226 .

ـ كحالة ، معجم 9 : 16 .

ـ ابن سودة ، دليل ، 161 ، 195 ، 305 .

— البستاني ، دائرة المعارف ، 4 : 32 .

— الجلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزائر 1375 هـ / 1955 م ، 2 : 104 .

— Ben Cheneb, *Idjâza* 212

— Bargès, *Complément* 99 - 114

— Brockelman, *G.A.L.* II : 239, 345; S. II 62 - 63 - 335 - 336.

— BEL, *Inscriptions,* 47 - 50.

— Lévi-Provençal, *Le Musnad* 5 - 9.

— Blachère, *Vie Privée* 83.

— M. Hadj-Sadok, *Ibn Marzoûk* « *Encyclopédie de l'Islam* », 2e éd., 3, 890-2.

— Benchekroun, *Vie Intellectuelle,* 283-293.

أ — 2 — 2) ترجمة حياة ابن مرزوق :

ولد ابن مرزوق في تلمسان سنة 711 / 1311 (25) وترعرع في تلك المدينة ، وقبل أن يبلغ سن المراهقة — في الفتـرة التي تتراوح حسب مصادرنا بين 717 / 1317 و 720 / 1320 (26) — رافق أباه أحمد ابن مرزوق في سفره الى الشرق لأداء فريضة الحج .

لم يحرم ابن مرزوق من الزاد الثقافي الذي تعده هذه الأسفار لكل مسلم مجتهد : زيارته لأكبر مدن الاسلام في الشرق (المدينة ، مكة ، القدس ، دمشق ، الاسكندرية ، القاهرة الخ .) وقد استغل هذه الرحلة لجمع العلم وللقاء العلماء .

---

25 — **التعريف بابن خلدون 49 ، والبستان 210** ، يذكران أن مولده كان في 710 —1310،

26 — ويقدم **التعريف بابن خلدون** تأريخ هذا السفر في سنة 713 — 1313 لكنه نظرا لتقدمه في السن يبدو من الصعب أن يسافر ابن مرزوق سفرا طويلا كهذا ، وعلى ذلك فقد استنتجنا أن أباه كان في هذه السنة 714 — 1314 في حضرة بني مرين (أنظر الفقرة المخصصة لترجمة حياته مسبقا) هذا ولا يتفق ابن مريم أيضا (البستان ، 211) مع جملة المصادر مشيرا ان السفر كان في سنة 728 — 1327 .

ولقد زار ابن مرزوق كبار معلمي العالم الاسلامي المعاصر واستمع اليهم حسب تصريحه فى كتابه « عجالة المستوفز » (27) .

وفى 729 / 1329 أو / 730 / 1330 ارتجل بطلب من الشيخ الفاضل المرشدي خطبة فى جامعة الاسكندرية ومن هنا خص لسائر حياته بالخطابة (28) .

ولقد قرر أبوه أن يمكث طول حياته فى الحجاز ، ولذا ألح عليه فى الرجوع الى المغرب . وهذا ما فعله فىفترة تقع بين 733 / 1332 و 735 / 1334 حين شرع فى الاياب ببطء متوقفا فى اسكندرية ، بلبيس ، طرابلس الجريد ، تونس وبجاية ، وذلك ليستمع فى كل واحدة من هذه المدن الى أشهر الأساتذة . ولقد وصل الى تلمسان يوم 17 أو 18 رمضان لسنة 737 (موافق 20 أو 21 أبريل سنة 1337 (29) ، وبعد تسعة أيام من وصوله ، فتح السلطان المريني أبو الحسن تلمسان ، محققا احدى المطامح التي تصبو الى تحقيقها الدولة المرينية . ولقد كان عمه محمد (الثالث) ابن مرزوق مقربا من أبي الحسن ، فاستمال السلطان ابن مرزوق وأدخله الى حاشيته (يوم 27 من نفس الشهر والسنة) (30) وعند موت عمه عين خطيبا لجامع العباد (31) وهذا لا يعني ابن مرزوق

27 — انظر الفقرة التالية المخصصة لمعلمي ابن مرزوق .

28 — الرواية الاكثر تفصيلا لهذا الحادث فى نيل ، 268 وفى **البستان** ، 216 .

29 — انظر معلومات **المسند** : 19 أ ، 47 أ ، 115 ب ، 122 أ .

30 — انظر **المسند** : 122 أ . ابن خلدون (**التعريف بابن خلدون ، 50**) يقول لنا كيف كان كل يوم يرفع (أبو الحسن) من مرتبه (ابن مرزوق) .

31 — وفى الجملة : تعطي المصادر انطباعا بأن انضمام ابن مرزوق الى الحاشية وتنصيبه خطيبا فى العباد قد تم فى آن واحد تقريبا .. لكن عمه مات بعد سنة 747 — 1346 (انظر **المسند** : 83 ب) . والمرة الأولى التي حضر بها أبو الحسن صلاة يؤمها ابن مرزوق كانت فى السنة 740—1339 (حسب **المسند** : 120 أ) .

لم يكن قد خطب ، من قبل هذا ، أمام أبي الحسن (32) الذي كان يستمع له بكامل الرضى . فان ذلك أمر حرصت المصادر على الاشارة اليه بعناية .

ولقد مارس ابن مرزوق مهمة الكتابة أيضا (33) .

وشارك فى وقعة طريف ((Batalla del Salado)) عابرا بلاشك المضيق مع أبي الحسن يوم 19 صفر 741 . (موافق 14 أغسطس 1340) وساهم فى العمليات الحربية التي أدت الى هزيمة المسلمين (7 جمادى الأولى 741 ، موافق 6 أكتوبر 1340 (34) .

وتنعكس صورة المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها ابن مرزوق فى حاشية الدولة المرينية خلال هذه السنين بوضوح فى المسند (35) . ولقد أرسل ابن مرزوق الى قشتالة من طرف أبي الحسن لابرام معاهدة الصلح وفداء ابن أبي الحسن ، أبي عمر تاشفين الذي وقع أسيرا فى وقعة طريف (36) . وتسمح لنا الحوادث بتأريخ هذه السفارة بهذه الطريق فابن مرزوق رافق الحملة المرينية ضد تونس ، ومن المؤكد انه بعد فتح العاصمة (8 جمادى الثانية 748 موافق 15 سبتمبر 1347) طرح على السلطان رغبته فى القدوم على الحج من جديد ، وينقل لنا ابن مرزوق الكلمات التي أوصاه بها أبو الحسن (37) :

---

32 ـ ولقد خطب فى البلاط أيضا فى أيام خطيب الحضرة عبد الرحمن الجزولي الذي حل محله ابن مرزوق فيما بعد (انظر **المسند** : 19 ب و 52 ب) . ويشير ابن خلدون *Berbères* 4 ، 348 الى مواعظ ابن مرزوق وكيف أنها تحتوي على أمداح كبيرة للسلطان وهكذا كسب صداقته (أنظر كذلك **المسند** : 120 أ) .

33 ـ انظر **المسند** : 44 ب و 45 أ .

34 ـ لا زال THODEN *Abû l'Hasan* يؤرخ المعركة فى 30 أكتوبر ، لكن انظروا: T.. Seco de Lucena : *La fecha de la batalla del Salado*, Al-Andalus, 19 (1954) 228-231

35 ـ انظر المسند : 14ب ، 16أ ، 17أ ، 18ب ، 19أ ، 20أ ، 20ب ، 21أ ، 22أ ، 23أ ، 24ب ، 25ب ، 26أ ، 29أ ، 31ب ، 34ب ، 35أ ، 35ب ، 40ب ، 41أ ..

36 ـ **المسند** : 127 ب ، 128 ب .

37 ـ **المسند** : 117 أ .

ونعلم بواسطة ابن خلدون (38) ، أن ابن مرزوق لم يحضر مع أبي الحسن في معركة القيروان (محرم 749 / أبريل 1348) ويضيف أنه علم بهزيمة أبي الحسن عند رجوعه ، في مدينة قسنطينة .

وهكذا ارتحل ابن مرزوق الى تونس للاجتماع مرة أخرى بالسلطان أبي الحسن ، وذلك قبيل أن تحدث الفوضى التي عقبت هزيمة القيروان في شكل ثورة سمحت لأبي عنان بولاية الأمر (ربيع الثاني 749 / يونيو يوليو 1348) . وخلال هذه المشاغبات و فيبحر الفتن ضد بني مرين (عادت أسرة بني زيان الى كرسي السلطة في تلمسان في جمادى الآخرة 749 الموافق لشهر سبتمبر من عام 1348) اقتحمت دار ابن مرزوق في تلمسان (39) .

والمسند (40) يشير بطريقة مبهمة الى أهداف سفرته الى الأندلس وقشتالة ، تلك الرحلة التي يبدو أنها أحرزت نصيبا من النجاح ، فلقد فكت الامير السجين من الأسر ، وفضلا عن ذلك فان عددا من الشخصيات القشتالية قد اصطحبوا ابن مرزوق الى تونس لتهنئة السلطان أبي الحسن بانتصاره في افريقية ، ولكن التهنئة وصلت متأخرة : في شوال لعام 750 الموافق ديسمبر 1349 — يناير 1350 كان أبو الحسن قد غادر تونس . ولقد عاد ابن مرزوق الى المغرب بطريق البر — فيما يبدو — قبل سفر أبي الحسن في التاريخ المذكور (41) .

---

38 — **التعريف بابن خلدون** ، 50 ، وقد أخبرنا ابن خلدون كذلك (في *Berbères* 3 ، 37 عن هذه المفاوضات ، ولكنه لا يذكر دور ابن مرزوق فيها .

39 — **المسند** ، 42 ب .

40 — **المسند** : 95 ب .

41 — **التعريف بابن خلدون** ، 50 . **البستان** ، 211 ، ولقد اصطحب ابن مرزوق في عودته زعماء قشتالة وزوجة أبي الحسن أم أبي عنان الذي كان قد تولى السلطة في مدينة فاس .

ولم يمكث ابن مرزوق فى فاس بل انتقل الى تلمســـان المدينة التي استردها بنو زيان ، حيث اجتمع فيها بالسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن معضدا بأخيه أبي ثابت . وبين كل هذه الأحداث وضع أبو الحسن رحاله فى الجزائر مستعدا لمهاجمة تلمسان ، ولهذا كلف السلطان الزياني ابن مرزوق فى السر بأن يخرج الى جانبه لتوقيع اتفاق . ولم يوافق أبو ثابت وأتباعه على هذه الخطة ، ولهذا اعترضوا طريق ابن مرزوق واقتادوه أسيرا للمرة الأولى (42) . ولقد استبدل عقاب الأسر بعد ذلك بالنفي الاجباري الى الأندلس فى عام 752 / 1351 (43) .

وفى غرناطة التقى بعدد من الأصدقاء لديه منهم السلطان النصري أبو الحجاج يوسف ووزيره ابن الخطيب (44) ، وفى غرناطة أيضا وطد صداقة ذات شأن كبير مع ابن لأبي الحسن ، هو أبو سالم السلطان المرتقب لفاس والذي كان أبو عنان قد أبعده (45) .

ولقد استقبل استقبالا حسنا لائقــا فى غرناطة ، فقد عينه السلطان النصري خطيبا (46) للحضرة ومدرسا فى المدرسة البلاطية (47) (صفر

42 — وتقول المصادر انه سجن فى مطبق ، عن تصوير هذا السجن انظر :
Torres Balbas. — *Las mazmorras de la Alhambra,* « Al-Andalus », 1949, 98-118.

43 — ويعد ابن الخطيب أهم من فسر وجود ابن مرزوق فى غرناطة ولكن المعلومات قليلة (انظر الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال 1673 ، ورقة 125 ونفح 5، 392 :

44 — ويفخر هذا السياسي والكاتب المشهور أنه تتلمذ على ابن مرزوق (انظر قسم تلاميذة ابن مرزوق بعد) .

45 — **الاحاطة** ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة 126 ، *Berbères* 4، 348 ، نفح 5 ، 99

46 — لم يكن ابن خلدون يرتبط بعلاقات حسنة مع ابن مرزوق ، ولكنه مع ذلك تحدث عن ابن مرزوق فى كتابه **التعريف** (ص 51) بموضوعية .

47 — عن هذه المدرسة انظر

L. Seco de Lucena. — *El hâyib Ridwân, la madraza de Granada las murallas del Albaicin,* « Al-Andalus », 21 (1956) 285-296.

M. J. Rubiera. — *Datos sobre una madrasa en Malaga anterior a la nasri de Granada,* « Al-Andalus », 35 (1970), 223-226.

753 / مارس 1352) ، وقد قام هنا بتدريس التصوف فنعلم أن ابن زمرك حضر دروسه (48) .

ولقد احتفظ لنا ابن الخطيب بالقطعة الشعرية الكاملة الوحيدة التي بقيت لنا من آثار ابن مرزوق والتي نظمها فى الفترة التي قضاها فى غرناطة (49) .

وفى عام 1353/754 ناداه السلطان أبو عنان الى حضرته فى فاس (50) وفى عام 758 / 1357 أرسله السلطان سفيرا الى تونس ليخطب احدى بنات السلطان أبي يحيى الحفصي (51) ، ولكن ابن مرزوق لم يوفق فى مهمته فاتهم فى فاس بالتضامن مع الرفض التونسي . ولقد سجن أبو عنان ابن مرزوق للمرة الثانية فى حياته ، ولم يخرج من السجن الا قبيل مصرع أبي عنان (28 ذو الحجة 759 / 5 ديسمبر 1358) .

وخلال الفتنة التي تلت مقتل أبي عنان ، كرس ابن مرزوق جهوده لمساعدة أبي سالم ابن أبي الحسن للاستيلاء على السلطة . فان أبا سالم كان صديقا له فى منفاه . وفى النهاية تبوأ أبو سالم الى عرش السلطنة فى المغرب يوم الجمعة 15 شعبان لعام 760 الموافق 12 يوليو عام

48 ـ انظر قائمة تلامذة ابن مرزوق فيما بعد .

49 ـ انظر « آثار ابن مرزوق» فيما بعد .

50 ـ ويعطينا ابن خلدون خبرا يكشف عن المكانة السامية التي تمتع بها ابن مرزوق فى بداية عهده فى فاس ، وفى عام 754ـ1353 استولى النصارى على طرابلس . فاستغاث التونسيون بأبي عنان ، الذي أرسل اليهم خمس شحنات من الذهب من بيت المال مكلفا ابن مرزوق بنقاله اليهم (*Berbères* 3 ,165).

51 ـ المتوفي فى 1346/747 .

1359 (52) ، ووجد ابن مرزوق نفسه على قمة السلطة ، بالرغم من أن القائمة الرسمية لكبار رجال البلاط لا تسجل اسمه لوظيفة معينة (53) .

ومما يدلنا على المكانة الرفيعة التي احتلها ابن مرزوق فى حضرة أبي سالم أنه دفن أحد أبناء ابن مرزوق فى الضريح الملكي فى الجامع الكبير فى فاس ، وكان ابنه هذا قد مات بعد تنصيب أبي سالم بأيام قليلة (54) .

ولكن السلطان اغتيل (فى 21 من ذي الحجة لعام 762 / 23 من سبتمبر لعام 1361) (55) وسجن ابن مرزوق للمرة الثالثة ، وبعد عامين خرج عن سجنه ورحل الى تونس ، وهنالك استقبله السلطان أبو اسحاق ابراهيم (الذي مكث فى الحكم من عام 751 / 1350 الى عام 770 / 1368) ووزيره ابن تفراجين بكل حفاوة ، وعين خطيبا لمسجد الشماعين (56) .

---

52 — لقد ضاق حال أبي سالم فى غرناطة فسافر الى اشبيلية حيث استقبله الملك القشتالي بدرو الاول الذي قدم اليه ما يعينه على السفر الى المغرب (انظر **التعريف بابن خلدون** ، 53) .

53 — انظر **روضة** ، 87 . اخبرنا عن سلطة ابن مرزوق : *Berbères* 4، 330، 347 الزركاشي ، Chronique 159 ; *Bostan* 507 ولقد كان دين أبي سالم لابن مرزوق كبيرا حيث كان له الفضل الاكبر فى توليته المغرب ، ويذكر ابن خلدون أن منزلة ابن مرزوق الخاصة هي تسببت فى عداوة الناس للسلطان .

54 — توفي فى 21 ذو الحجة 760–14 نوفمبر 1359 (*A. BEL : Inscriptions'* 47)

55 — فى خندق القصاب على يد جندي نصراني بتحريض من الوزير عمر الياباني (*Berbères* 4 ، 351 ، **روضة** ، 86) .

56 — أو مسجد الموحدين (انظر : *BEL' Inscriptions'* 49 ، **نفح** ، 5، 408 عن مناقشة فى تونس لأمور الفقه والدين اختلف فيها الفقهاء المشهورون ابن عرفة ، ابن حيدرة وابن مرزوق انظر الونشريسي (**معيار** ، 8 ، 161 كما يقول F. de la Granja. — *Fiestas cristianas en al-Andalus, Materiales para su estudio ; 2, Textos de Turtusi, el cadi 'Iyad y Wansarisi,* « Al-Andalus », 35 (1970) 123.

ويكشف لنا ابن أبي دينار القيرواني (57) عن مكانة ابن مرزوق الرفيعة فى تونس فيما يرويه من أنه عقد زواج السلطان أبي اسحاق بابنة الوزير ابن تفراجين ، فى عام 766 / 1364 .

ويبدو أن ابن مرزوق قد بدأ كتابة المسند بعد ذلك بوقت قليل ، وهذا ما يقوله هو نفسه (58) فى معرض حديثه عن جده لأمه ، أحمد المديوني ، الذي مات (فى عام 768 / 1366) لثلاث سنوات قبل البدء فى تأليف المسند ، وقد انتهى العمل فيه فى رمضان 772 / مارس 1371 (59) ، حين تولى الحكم فى المغرب ابن آخر لأبي الحسن ، هو أبو فارس (بين الفترة من ذي الحجة 767 / أغسطس 1366 وربيع الثاني 774 / أكتوبر 1372) .

ويبدو أن ابن مرزوق كان يخطط لمشروع العودة الى الحضرة المرينية فى فاس فى هده الفترة . ويمكننا أن نستخلص أنه قد ألف المسند فى فضل السلطان الجديد (60) ، ولكن موت أبي فارس قد قضى على خططه فى العودة . ومن المؤكد أن الموقف الذي تعرض له ابن مرزوق فى تونس كان سببه موت السلطان الحفصي أبي اسحاق (فى رجب 770 / فبراير 1369) الذي كان يرعاه ويرفع من شأنه . ولقد خلفه ابن له كان صغيرا ، هو أبو البقاء خالد الذي أغصب منه الملك ابن عمه أبو العباس (فى ربيع الثاني 772 / نوفمبر 1370 (61) .

---

57 ـ **المؤنس** ، 150 .

58 ـ **المسند** ، 55 ب ، وكذلك فى درة 1، 29 .

59 ـ انظر هذا التأريخ فى الصفحة الاخيرة لمخطوط الرباط .

60 ـ أنظر **المسند** ، مخطوط الرباط ، 2 : هذه الصفحة المهمة ناقصة فى مخطوط الاسكوريال ، ولقد سبب هذا النقص أخطاء كثيرة لدى الباحثين ، حيث تصوروا أن **المسند** مكتوب بطلب السلطان أبي سالم (المتوفي فى 762–1361) (أنظر : ليفي ـ بروفنسال *Le Musnad* 11) وسنعود الى معالجة هده المشكلة فى تحليلنا **للمسند** فيما بعد

61 ـ أوقف السلطان الجديد ابن مرزوق عن ممارسة مهام ولايته (انظر : **التعريف بابن خلدون** 54 ، R. BRUNSCHVIG : *La Berbérie* (I) 185

ومن المحتمل أن ابن مرزوق الذي لم يظهر نفسه قط متشيعا لأبي العباس كان قد فكر فى الهجرة من تونس . وازاء عدم تحسن أموره بعودته الى فاس رحل بحرا الى الاسكندرية (773 / 1372) ثم تحرك لتوه الى القاهرة حيث استقبله الملك الاشرف ناصر الدين شعبان بن حسين (62) الذي كرمه كثيرا ، بتعيينه قاضيا وخطيبا ومدرسا فى مساجد صلاح الدين الثلاثة : الشيخنية والصرغتمشية (63) والقمحية .

وفى شهر ربيع الاول لعام 781 هـ الموافق يونيو / يوليو 1379 م توفي ابن مرزوق فى القاهرة ، وقد دفن بين الشيخين الموقرين ابن القاسم والاشهب .

وفى أيام حياته الاخيرة عاد الى الراحة وحسن الحال وعلو المكانة ، وذلك بعد حياة طويلة مليئة بالنشاط السياسي (حيث عمل فى بلاط ثمانية ملوك : فى فاس وتلمسان وغرناطة وتونس والقاهرة) ومليئة كذلك بالجهود الثقافية والروحية كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

ان الحالة التي عاش فيها ابن مرزوق أمام أحداث القرن الذي عاش فيه قد أثرت على حياته وعلى عمله كما أثرت فى اتجاهات عصره . وتشبه ظروفه الشخصية ظروف ابن الخطيب وابن خلدون لأكثر من سبب . فقد

---

62 – المتوفى فى 778–1376 .

63 – هذه الكلمة مكتوبة بصور مختلفة فى المصادر (أنظر البستان ، 508) .

برز الثلاثة معا كمثال ثقافي وسياسي فى المغرب العربي فى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) (64) .

والصورة التي تكونت عندنا لابن مرزوق هي من وضع ابن الخطيب ، حيث يقول (65) : « هذا الرجل من طرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة ، مليح التوسل ، حسن اللقاء ، مبذول البشر ، كثير التودد ، نظيف البزة ، لطيف التأتي ، خير البيت ، طلق الوجه ، خلوب اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الالفاظ ، عارف بالابواب ، درب على صحبة الملوك والأشراف ، متقاض لايثار السلاطين والامراء يسحرهم بخلابة لفظه ، ويفتلهم فى الذروة والغارب بتنزله ، ويهتدي الى أغراضهم الكمينة بحذقه ، ويصطنع غاشيتهم بتلطفه ، ممزوج الدعابة بالوقار والفكاهة بالنسك وبحشمة بالبسط ، عظيم المشاركة لأهل وده والتعصب لاخوانه ، ألف مألوف كثير الأتباع والعلق ، مسخر الرقاع فى سبيل الوساطة ، مجدي الجاه ،

---

64 ــ لقد ذكر هذا الثلاثي المثالي عدة مرات فى : ليفي ــ بروفنسال (8) *Le Musnad*

Lévi-Provençal. — *Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade,* « Mélanges W. Marçais », 2, 205 : « Les trois principaux historiens de l'Occident musulman à la fin du Moyen Age, Ibn al-Khatîb, Ibn Marzûk et Ibn Khaldûn... ».

R. Blachère. — *Le Vizir-Poète Ibn Zumruk et son œuvre,* A.I.E.O., 2 (1936) 291 : « La carrière étonnante d'un Ibn al-Khatîb ne doit pas être considérée comme un fait isolé, en Occident musulman, au XIVe siècle. Celle d'Ibn Marzuq et des deux Ibn Khaldûn en fournit la preuve ».

ومن المهم ما يقول الاستاذ غارسيا غوميس عندما يتكلم عن المستشار القشتالي أبالة « الذي يعرف كيف يعالج الامور بمهارة وكيف يبحر بين تيارات القدر ، هـــذه المهارة التي يضرب بها المثل ، فهذا يذكرنا بما كان يحدث فى القصور الاسلامية حيث كان ابن خلدون وابن مرزوق وابن الخطيب » .

(E. Garcia Gómez. — *Ibn Zamrak, el poeta de la Alhambra,* Madrid, 1943, 20).

والمصادر العربية قد جمعت بين الثلاثة مرات عديدة .

65 ــ **الاحاطة** ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة 120 و **نفح** 5، 391 ، **بستان** ، 213 .

غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخط أنيقه ، عذب التلاوة متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف ، فلا يعدو السداد في ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هياب » .

أ ـ 2 ـ 3) شيوخ ابن مرزوق :

كتب ابن مرزوق تأليفا كرسه لعرض الاساتذة الذين درس عليهم وعنوانها : « عجالة المستوفز المستجاز فى ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز » (1)

ومن خلال هذا العمل بقيت لنا (2) أسماء الشيوخ الذين تردد عليهم ابن مرزوق سواء على مرات متقطعة أو بانتظام .

ولتكملة ما نحن بصدده ، نجمع المصادر التي وجدناها ، ونعيد البناء المفترض بفهرسة ابن مرزوق ، حتى ولو كان ذلك بصفة جزئية . فنحن نجهل امتداد ومضمون كل القوائم تقريبا .

فى المدينة يقول ابن مرزوق ان أساتذته هم :

1 ـ عز الدين أبو محمد الحسن بن علي بن اسماعيل الواسطي (1256/654 ـ 1340/741) (3) .

2 ـ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي المطري (1272/671 ـ 1340/741) (4) .

---

1 أنظر القسم عنوانه : آثار ابن مرزوق ، فيما بعد ص 35 .

2 ـ *Vie Intellectuelle* : Benchekroun.

3 ـ أنظر ترجمة حياته فى **الدرر** ، 2 : 103 ، رقم 1524 .

4 ـ أنظر ترجمة حياته فى كحاله ، 8 : 357 (**والدرر** ، 3 ، 403 ، رقم 3364) .

3 ـ محيي الدين أبو زكرياء يحيى بن محمد المغراوي التونسي (5) .

4 ـ نور الدين أبو الحسن علي بن محمد الحجار الفراس (6) .

5 ـ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني (توفي فى عام 726 / 1325) (7) .

6 ـ شرف الدين ابن محرز الاخميمي ابن الاسيوطي .

7 ـ عز الدين خالد بن عبد الله الطواشي .

8 ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعيشي .

9 ـ بهاء الدين موسى بن سلامة المدلجي الشافعي المصري (665 / 1266 ـ 1343/744) (8) .

10 ـ أبو طلحة الزبير بن أبي صعصعة بن علي الاسواني (660 / 1261 ـ 748 / 1347) (9) .

11 ـ عفيف الدين عبد الله المطري (10) .

12 ـ أبو البركات أيمن بن محمد بن محمد بن أيمن التونسي (توفي فى عام 734 / 1333) (11) .

13 ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي (توفي فى عام 769 / 1367) (12) .

---

5 ـ أنظر ترجمة حياته فى **الدرر** ، 5 ، 203 ، رقم 5047 .

6 ـ أنظر ترجمة حياته فى **الدرر** ، 3 : 198 ، رقم 2904 ، **الحلل السندسية** ، 833 ، ولعله المذكور فى **المسند** لابن مرزوق (صفحة 54 ب) وقد كان شيخ ابني الامام .

7 ـ **درر** ، 1 ، 335 ، رقم 793 .

8 ـ **درر** ، 5،146 ، رقم 4883 .

9 ـ **درر** ، 2 ، 205 ، رقم 1733 .

10 ـ مذكور فى درر ، 2 ، 449 ، رقم 2341 .

11 ـ **درر** ، 1 ، 460 ، رقم 1134 .

12 ـ كحالة VI, 137, Brockelmann. I.S., 606, (II), 221,

14 ـ أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي ركبون (أو : ابن زكنون) التونسي (توفي في عام 746 / 1345) (13) .

في مكــة :

15 ـ شرف الدين أبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجبي المكــي (641 / 1243 ـ 740 / 1340) (14) .

16 ـ زين الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي (673/1274 ـ 770/1368) (15) .

17 ـ شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي (16) .

18 ـ حيدر بن عبد الله المقريء .

19 ـ برهان الدين ابراهيم بن مسعود بن ابراهيم الأربلي (17) .

20 ـ مصلح الدين الحسن بن عبد الله العجمي .

21 ـ أبو الصفاء خليل بن عبد الله القسطلاني التوزري .

22 ـ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي (698 / 1298) 768/1367) (18) .

23 ـ فخر الدين عثمان بن أبي بكر النويري المالكي (19) .

---

13 ـ **درر** 2، 479 رقم 2430 .

14 ـ **العقد الثمين** 6، 459ـ461 ، رقم 3186 . درر ، 3 ، 283 ، رقم 3118 .

15 ـ **العقد الثمين** ، 3 ، 119 ، رقم 616 . **درر** ، 1 ، 270 ، 259 ؛ رقم 629 .

16 ـ مذكور في **الحلل السندسية** ، 699 . نفح ، 2 ، 642 .

17 ـ **العقد الثمين** ، 3 262 ، رقم 727 . درر ، 1 ، 74 ، رقم 191 .

18 ـ Brockelmann : *G.A.L.* (II), 176

19 ـ نيل 197 ، « *Bostan* ». 240

24 ـــ شهاب الدين أحمد بن الحرازي اليمني .

25 ـــ نجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبد الله بن المحب الطبري المتوفى في (1363/765) (20) .

26 ـــ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن براجين القشيري التلمساني .

27 ـــ شرف الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر بن أيوب (المتوفى في 1331/732) (21) .

28 ـــ فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن أيوب (أخت المذكور من قبلها) .

29 ـــ فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم الطبري المكية (22) .

30 ـــ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان المراكشي السفاح .

31 ـــ عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني (1294/694 ـــ 1366/767) (23) .

---

20 ـ درر ، 3 ، 450 ، رقم 3475 ، عن أبيه انظر : كحالة ، 1 ، 298 .

21 ـ درر ، 3 ، 287 ، رقم 3123 .

22 ـ **العقد الثمين** ، 8 ، 291 ، رقم 3430 .

23 ـ عن بني جماعة انظر : Brockelmann : *G.A.L.* (II) 72 S.K. SALIBI « *Encyclopédie de l'Islam* », 2e éd., ; « Studia Islamica » (1958).

في القاهرة (24) :

32 ـ علاء الدين القونوي (668/1270 ـ 729/1329) (25) .

33 ـ تقي الدين محمد الاخنائي (المتوفى في 750/1349) (26) .

34 ـ جلال الدين القزويني (المتوفى في 739/1338) (27) .

35 ـ البرهان الحنبلي (688/1289 ـ 741/1340) (28) .

36 ـ محمد بن محمد بن نباتة الفارقي (المتوفى في 768/1366) (29).

37 ـ أبو محمد بن المنير (المتوفى في 733/1333) (30) .

38 ـ أحمد الجوهري الحلبي (المتوفى في 738/1337) (31) .

39 ـ يحيى المقدسي بن المصري (المتوفى في 737/1336) (32) .

40 ـ محسن القرشي (664/1266 ـ 738/1337) (33) .

41 ـ الشهابي الحنبلي (المتوفى في 725/1324) (34) .

42 ـ 43 ـ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس اليعمري وأخوه شمس الدين أبو بكر (35) .

---

24 ـ عن دورها الثقافي انظروا
« L'Egypte, centre de rihla pour les savants de l'Ouest musulman », I. Salama : *L'enseignement islamique en Egypte,* Le Caire, 1939, 28.

25 ـ كحالة : 7 ، 37 ، مسند ، 54 ب ، 57 ب .

26 ـ درر ، 4 ، 27 ، رقم 3599 (وهو مذكور كذلك في المسند ، انظر فهرسه) .

27 ـ كحالة ، 10 ، 145 .

28 ـ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (ط . القاهرة ، 1375-1956) 1، 15 .

29 ـ Brockelmann *G.A.L.* : (II) 10 - 12

30 ـ كحالة ، 6 ، 214 ، مسند ، 106 ب .

31 ـ درر ، 1 ، 339 ، رقم 803 .

32 ـ درر ، 5 ، 205 ، رقم 5056 .

33 ـ BEN CHENEB *Etude* رقم 297 .

34 ـ *Brockelmann : G.A.L.* : (II) 44-45

35 ـ لعلهما المذكوران في درر ، 4 ، 335 ، رقم 4437 ورقم 4439 .

44 ـ أبو حيان (المتوفى ، 1344/745) (36) •

45 ـ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر الزبيري المصري (المتوفى فى 1340/740) (37) •

46 ـ الشمس بن عدلان (38) •

47 ـ الشهاب البوشي المالكي (39) •

48 ـ تـاج الدين أبو عبد الله بن أحمد بن ثعلب المصري « ابن الكشتغري » (40) •

49 ـ تقي الدين السبكي (1284/683 ـ 1355/756) (41) •

50 ـ شمس الدين الاسواني (المتوفى فى 1335/735) (42) •

51 ـ أحمد الفاربي (المتوفى فى 1356/758) (43) •

52 ـ أحمد بن عبد الرحيم السمرنائي (44) •

53 ـ البرهان الحكري (المتوفى فى 1378/780) (45) •

54 ـ شمس الدين محمد بن جابر الوادي آشي •

---

36 ـ أنظر S. GLAZER, (*Encyclopédie de l'Islam*) ط ، 2 ، ، 129–130
(وعن تدريس أبي حيان فى القاهرة أنظر
(*The Zahiris, their doctrine and their history*). (I) GOLDZIHER
180-177 (1971) Leiden (Trad. ingl. W. Behn.)

37 ـ **درر** ، 1 ، 118 ، 306 .

38 ـ ابن بطوطة ، **رحلة** ، 1 ، 91 ، 487 *Bostan*

39 ـ **نيل** ، 68 .

40 ـ المذكور فى نيل ، 237 ، النص الاصلي لفهرسة ابن مرزوق .

41 ـ كحالة ، 7 ، 127

42 ـ كحالة 1 ، 5

43 ـ كحالة ، 3 ، 4 (ومذكور فى **المسند** 100 أ) .

44 ـ **المسند** ، 99 ب .

45 ـ كحالة ، 1 ، 52 .

ونقل المقري نص فهرسة ابن مرزوق ، ثم مضى يقول : (46)
« وعاشرته كثيرا سفرا وحضرا ، وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي ، وقرأت عليه الكثير ، وقيدت من فوائده ، وأنشدني الكثير ، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمسجد (....) وقرأت عليه بمدينة فاس ، وبظاهر قسنطينة ، وبمدينة بجاية وبظاهر المهدية ، وبمنزلي من تلمسان ، وقرأت عليه عوالي من تخريج الدمياطي ، وفيها الحديث المسلسل بالاولية . وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطي بشرطه ، ثم قرأت عليه أكثر كتاب « الموطأ » رواية يحيى ، وأعجله السفر فأتممته عليه فى غير القاهرة ، وحدثني به عن جماعة ، ومعوله على الشيخين قاضي القضاة أبى العباس ابن الغماز الخزرجي وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبي محمد بن هارون وهو عبد الله بن محمد القرطبي الطائي الكاتب المعمر الاديب ، بحق سماعه لأكثره على الاول وقراءاته بأجمعه على الثاني ... ولا غرابة فى اتصال سماع الموطأ وقراءته ، فقد وقع لي على قلة التحصيل متصلا من طرق ولله الحمد ، وقد رويته عن قرطبي ، وهو أبو العباس ابن العشاء ، ثم قرأت عليه كتاب الشفاء لعياض ، وحدثني به عن أبي القاسم عن أبي عبد الله ابن أبي القاسم الانصاري المالقي نزيل سبتة ويعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبي صالح ... (والى أخيره) » .

55ـ أبو محمد عبد الكريم التوسي (المتوفى فى 1333/734) (47) .

56 ـ صالح بن عبد العظيم العسقلاني (المتوفى فى 1333/734) (48).

---

46 ـ نفح ، 5 ، 200 ، انظر :
J. M. FORNEAS : *El « Barnâmay » de... al-Wâdî Asî. Materiales para su estudio y edicion critica,* « Al-Andalus » (1973) 1-67.

47 ـ درر ، 3 ، 11 ، رقم 2482 .

48 ـ درر ، 2 ، 229 ، رقم 1963 .

57 ــ شمس الدين محمد بن القماح (656/1258ــ741/1340) (49).

58 ــ تاج الدين علي التبريزي (المتوفى فى 740/1340) (50) .

59 ــ شمس الدين محمود الاصبهاني (المتوفى ف 749/1349) (51) .

60 ــ برهان الدين ابراهيم السفاقسي(697/1298ــ743/1343)(52).

61 ــ فاطمة بنت محمد البكري (635/1237 ــ 748/1347) (53).

فى بلبيس (54) :

62 ــ أسد الدين يوسف بن داود الايوبي .

فى بيت المقدس :

63ــ ــعلاء الدين علي الايوبي (المتوفى فى 749/1348) (55) .

64 ــ نور الدين محمد بن الصائغ (المتوفى فى 749/1348) (56) .

65 ــ محمد بن علي الاندلسي (610/1213 ــ 726/1325) (57) .

66 ــ برهان الدين الجعبري (640/1242 ــ 732/1331) (58) .

---

49 ــ BEN CHENEB *Etude* ، رقم 167 ، كحالة ، 8 ، 225

50 ــ كحالة 7 ، 49

51 ــ كحالة 12 ، 173

52 ــ **التعريف بابن خلدون** ، 49 ، درر ، 1 ، 55 ، **ديبــاج** ، 92 ، ابن بطوطة ، **رحلة** ، 1 ، 92 ، كحالة ، 1 ، 82 .

53 ــ **درر** ، 3 ، 903 ، رقم 3190 .

54 ــ أنظر ياقوت ، **معجم البلدان** ، تحقيق Wüstenfeld ط . طهران ، 1965 ،

55 ــ **درر** ، 3 ، 107 ، رقم 2713 .

56 ــ الصفدي ، **الوافي بالوفيات** (ط . اسطنبول ، 1931ــ1934) ، 3 ، 375 ــ 378 .

57 ــ **درر** ، 4 ، 246 ، رقم 4201 .

58 ــ السيوطي ، **بغية الوعاة** ، 1 ، 420 ، ابن تفري بردي ، المنهل الصافي (ط . القاهرة ، 1375 ــ 1956) ، 1 ، 112ــ116 .

في دمشق :

67 — برهان الدين بن الفركاح (59) .

68 — شمس الدين بن مسلم (660/2161 — 726/1326) (60) .

في الاسكندرية :

69 — أحمد المرادي بن العشاب .

70 — أبو القاسم بن علي بن البراء .

71 — ناصر الدين بن المنير (651/1253 — 733/1333) (61) .

في طرابلس :

72 — أبو محمد جابر بن عبد الغفار .

في تونس :

73 — محمد بن حسن القرشي الزبيدي (المتوفى في 740/1339)(62).

74 — عمر بن عبد العزيز بن عبد الرفيع (المتوفى في 766/1367)(63).

75 — محمد بن عبد السلام الهواري (المتوفى في 749/1348) (64).

76 — محمد بن راشد القفسي (65) .

---

59 — لعله : برهان الدين بن الفلاح الذي ترجم له ابن تفري بردي في الكتاب المذكور تحت الرقم 13 .

60 — ابن طولون ، **قضاة دمشق** ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق 1956 ، 278 .

61 — كحالة ، 6 ، 214 ، 8 ، 56 .

62 — **التعريف بابن خلدون** ، 14 ، **نيل** ، 237 ، ابن بطوطة ، **رحلة** 1 ، 15 ، *Bostan* 489 الزركاشي ، *Chronique* 113 وكذلك في **المسند** ، 53 ب .

63 — **التعريف بابن خلدون** ، 65 ، درر ، 1 ، 23 ، **ديباج** ، 89 ، ابن الشماع ، تاريخ ، 127 ، **الحلل السندسية** ، 592 ، ابن تفري بردي ، **المنهل الصافي** ، 1 ، 45 ، الزركاشي ، *Chronique* 57 ، **استقصاء** ، 253 .

64 — **التعريف بابن خلدون** ، 19 ، الزركاشي *Chronique* 106 135 ، **ديباج** ،336، **نيل** ، 242 ، **الحلل السندسية** 594 ، **الاستقصاء** ، 249 ، Brunschvig *Hafsides*, 114, 119, 293 **دائرة المعارف البنانية** ، 4 ، 341 .

65 — **الحلل السندسية** ، 631،669،817،821 .

77 ـ أبو موسى هارون (المتوفى ف 1323/724م) (66) .

78 ـ أبو عبد الله التلمساني (ولعله : محمد بن عبد النور التلمساني ، المتوفى ف تونس ف 1348/749) (67) .

79 ـ محمد بن هارون الكناني (1281/680 ـ 1349/750) (68) .

80 ـ يحيى بن عصفور التلمساني (69) .

81 ـ أبو محمد بن سعد الله بن أبي القاسم بن البراء .

ف الجـريد (70) :

82 ـ أبو عبد الملك بن حيون (71) .

ف الزاب (72) :

83 ـ أبو محمد بن راشد .

ف بجـاية (73) :

84 ـ أبو علي ناصر الدين المشذالي (المتوفى ف 1331/731) (74) .

---

66 ـ نيل ، 348 ، **الحلل السندسية** ، 592 ، الزركاشي ، 327 *Bostan*, 99 *Chronique*

67 ـ **المسند** ، 16أ ، 25ب ، 51أ، 54أـب ، كحالة ، 8، 240 .

68 ـ **المسند** ، 15أ ، **درة** ، 218 ، **دولتين** ، 74 ، **نفح** ، 5 ، 251 ، **الحلل السندسية** ، 598 ، 491 *Bostan* 377 142 139 II Hafsides BRUNSCHVIG

69 ـ **بغية الرواد** ، 159 ، رقم 71 .

70 ـ انظر مقال J. DESPOIS ف *Encyclopédie de l'Islam* (II), 474-476

71 ـ لعله من سلالة محمد بن حيون المذكور ف **الحلل السندسية** ، 390 .

72 ـ انظر الادريسي : *Description de l'Afrique et de l'Espagne.* 4

73 ـ هكذا ف *Bostan*, 211

74 ـ نيل 344 ، **التعريف بابن خلدون** ، 59 ، كحالة ، 13 ، 10 .

85 ــ محمد بن عبد الله بن يللبخت الزواوي .

86 ــ محمد المسفر (المتوفى فى 1342/743) (75) .

في تلمســـان :

87 ــ محمد بن هدية (76) .

88 ــ عبد الله بن عبد الواحد المجاصي « البكاء » (77) .

89 ــ محمد بن علي الآبلي (78) .

90 ــ سعيد بن ابراهيم بن علي ، أبو اسحاق الخياط (79) .

91 ــ عبد الرحمن بن الامام (المتوفى فى 1340/714) (80) .

92 ــ عيسى بن الامام (1348/749) (81) .

---

75 – ديباج 286 ، جذوة ، 186 ، نيل ، 240 ، ابن بطوطة ، رحلة 1 ؛ 16 ؛
259, *Bostan* ; 16, 1

76 – *Bostan*, 28, BARGES : *Complément* 77 ، 78 ؛ كحالة 12 ، 52 .

77 – المسند ، 94 ب ، نيل ، 142 ، نفح ، 5 ، 230 .
187, 171, 199, 132, *Bostan*,

78 – المسند ، 115 ، 155 ، نيل ، 245 ، نفح (كثير المعلومات) ، التعريف بابن خلدون،
21 ، 32 ، بغية الرواد ، 71 ، *Bostan*, 246 ، 246 ، الحلل السندسية ،
616 ، الزركاشي *Chronique*, 137, 197 دائرة المعارف اللبنانية 1 ، 45 .
XXVII-XXVI, *Ibn 'Abbad : P. NWYIA.* « Studia Islamica ». 1964, 103-105.

79 – بغية الرواد ، رقم 22 ، عن أبيه انظر
176, *Complément* BARGES. 61, Bostan

80 – نيل ، 166 ، نفح ، 5 ، 215 .
43, *Histoire* Tanasi, 133, *Bostan,* 386, III, *Berbères,*
V, 56, *Complément* BARGES. (أنظر كذلك فهرس المسند) .

81 – نيل،190،بغية الرواد ،63،90،190،12،ديباج ، 152 ؛ نفح ؛ 5 ؛ 218 ..
الحلل السندسية 832 ، الاستقصاء ،291 *Berbères,* 3 ، 412 ؛ 4 ، 223 .
G. Marçais. — *Note sur l'épitaphe d'un savant tlemcénien : Abû Mûsa, Fils de l'Imâm,* « Revue Africaine », 1918, 114-130.
(أنظر كذلك فهرس المسند) .

93 — حسن بن يوسف بن يحيى بن محمد الحسيني (82) .

في حضرة فاس :

94 — محمد بن علي بن سليمان السطي (83) .

95 — محمد بن عبد الرزاق الجزولي (84) .

82 — **بغية الرواد** ، 180 ، **نفح** ، 5 ، 395 ، (انظر كذلك **المسند** ، 9 ا ، 57ب) .
عن الحياة الفكرية في تلمسان انظر : عبد الحميد حاجيات : **ابو حمو موسى الزياني** ، الجزائر ، 1394–1974 ، ص 35–66 .

83 — رقم الحلل ،82 ، **التعريف بابن خلدون** ،31،**الجذوة** ، 142 ، **نفح** ، 3 ، 130 ؛ **الحلل السندسية** 670 ,*Bostan*, 114, 132, 171, 219, *Berbères*, IV, 285
(أنظر كذلك فهرس المسند) .

84 — **بغية الرواد** ، 63 ، **روضة** ، 78 ، **الجذوة** ، 135،143،**نيل** ، 249 ؛ **نفح** ؛ 2 ، 634 ؛ 5 ، 241 ، 366 **الحلل السندسية** ، 622 ، **التعريف بابن خلدون** ، 65 ; *Berbères* IV ,210 ,*Bostan* ,490
(عن أبيه أنظر **انس** ،35،61) . أنظر كذلك فهرس **المسند**) .

أ ــ 2 ــ 4 : تلاميذ ابن مرزوق :

كان لابن مرزوق عدد كبير من التلاميذ نورد من بينهم أسماء المذكورين في المصادر ، وهم :

1) لسان الدين بن الخطيب (713/1313 ــ 776/1374) (1) .

تشير المصادر الى أن ابن الخطيب كان تلميذا لابن مرزوق ، والمقري (2) بوجه خاص قد كتب ترجمة حياة ابن مرزوق في خبر متسع رواه عن أساتذة ابن الخطيب . كان الفرق بينهما في العمر صغيرا . وعلاقة التلمذة هي مؤكدة ، حيث يشير اليها ابن الخطيب بفخر كبير ويعيد الفضل فيها لدراسات ابن مرزوق في الشرق .

بدأ ابن مرزوق وابن الخطيب العلاقة بينهما في الاندلس ، وذلك أثناء الحملة التي انتهت بوقعة طريف والتي بدأها بنو مرين في صفر من عام 741 هـ الموافق أغسطس 1340 م . ولقد شارك ابن الخطيب في المعركة وكانت سنة حينئذ 27 أو 28 عاما ، وعلى امتداد حياته التقى

---

1 ــ عن هذا الوزير والكاتب والمؤلف المشهور أنظر مقال J. Bosch Vila *Encyclopédie de l'Islam* ط 2 ، ج 3 ، 859 ــ 860 .

2 ــ **نفح** ، 5 : 390 ، ناقلا عن مشيخة ابن الخطيب نفسه (أنظر محمد بن ابي بكر التطواني ، **ابن الخطيب من خلال كتبه** ، تطوان ، 1954 ، 1 ، 49) .

بابن مرزوق عدة مرات فى المغرب (3) كما كانا يلتقيان فى الاندلس ، وتبادلا رسائل علمية عديدة التي احتفظ لنا بها المقري (4) .

وكان ثمة تبادل شعري بينهما ، وسوف نذكر مراسلة ابن الخطيب الى ابن مرزوق مثنيا على شرحه على كتاب الشفــاء (5) . ومن ناحية ابن مرزوق قد وجه من جانبه الى ابن الخطيب ترحيبا شعريا ، عندما وصل الاخير للمرة الاولى الى فاس (6) وذلك فى قصيدة مطلعها :

يا قادمــا وافى بكل نجــاح
أبشره بما تلقاه من أفراح ..

2) أحمد بن قنفذ القسنطيني (7) (1339/740 – 1907/810) .
3) أبو القاسم البرزلي (8) (1339/740 – 1438/842) .

---

3 – رحل ابن الخطيب الى المغرب فى أربع مناسبات : 752–1351 ، 761–1359 ، 763–1362 و 773–1371 ، حيث مات ، وبالاضافة الى ما ذكرناه من قبل عن ابن مرزوق فانه قد ذهب الى الأندلس فى عام 748–749/1347–1348 و 752/1351–754/1353 ، ويرجع الفضل فى خروج ابن الخطيب من سجنه فى غرناطة الى ابن مرزوق ، وقد قام أحمد مختار العبادي (فى مقالين منشورين فى **Hesperis** 46 1959 ، 247 – 253 وفى **M.E.A.H.** ، 12 – 13 ، 1963 – 1964 ، 27 ومحمد عبد الله عنان (فى كتابه : **لسان الدين ابن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري** ، القاهرة ، 1968) بدراسة علاقات ابن الخطيب ببني مرين .

4 – **نفح** ، 5 ، 145 ، 152 ، ناقلا من **الاحاطة** ، مخطوط الاسكوريال ، 122 – 123 ؛ 129–130 .

5 – أنظر قائمة آثار ابن مرزوق فيما يلي

6 – **الاحاطة** ، مخطوط الاسكوريال ، ص 121 ، **الاستقصاء** ، 310 ، أما رد ابن الخطيب على هذه القصيدة فهو موجود فى ديوانه (**ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام** ، دراسة وتحقيق محمد الشريف قاهر ، الجزائر ، 1973 ، 374–375) . ولابن الخطيب قصيدة أخرى موجودة فى صفحة 403 من ديوانه ، وهي التي أرسلها الى ابن مرزوق ، وفيها نلمس المشاعر الودية لا الرسمية .

7 – عن ترجمة حياته أنظر : **نيل** ، 75–76 ، جذوة ، 79 ، **الحلل السندسية** ، 657 ، أنس ، 93 ، *Bostan* 214 ، الزركاشي *Chronique*, 198
M., Ben Cheneb. : *La fârisiyya*, « Hesperis » 8 (1928) 39

8 – **الحلل السندسية** 701 ، *Bostan* 164 ، محمد الحبيب الهيلة ، **الامام البرزلي**، تونس ، 1972 ، ص 179–180

4) عبد الله بن محمد « الشريف التلمساني » (9) (1347/748 — 1390/792) ، كان أستاذا بالتالي لابن مرزوق الحفيد .

5) محمد بن أحمد بن علوان المصري التونسي (10) (المتوفى فى 1423/827) .

6) محمد بن يوسف الصريحي « ابن زمرك » (1333/733 — بعد 1393/795) (11) ، وابن زمرك كاتب شاب فى البلاط النصري بدأ علاقات التلمذة مع ابن مرزوق خلال عام 753 هـ / 1352 م ، حيث مكث فى غرناطة وعين خطيبا رسميا ، ولقد حضر ابن زمرك درسا له فى التصوف ، وبناء على طلب أستاذه مدحه لشرح الشفاء للقاضي عياض ، وهو من عمل ابن مرزوق (12) .

7) ابراهيم بن محمد بن علي التازي (13) : يعتبر واحدا من كبار متصوفي عصره وهو كذلك عالم مبرز .

---

9 – Bostan 126, Bargès, *Complément,* 195

10 – نيل ، 287 ، **الحلل السندسية** ، 682 .

11 – أنظر مقال فرناندو دي لاغرانخا فى *Encyclopédie de l'Islam* ، ط 2 ، 3 ، 997 والمظاهر التربوية والثقافية والسياسية لهذه العلاقة قد أشار اليها ايميليو غارسية غومس فى *Ibn Zamrak, el poeta de la Alhambra* Madrid, Discurso de recepcion R. Academica de la Historia, 1943, 27, 28, 29, 30, 38, 44, 58.

12 – أنظر قسم : آثار ابن مرزوق ، فيما يلي .

13 – نيل ، 54 ، وعن علاقاته مع ابن مرزوق أنظر Ben Cheneb *Etude,* رقم 58 .

أ ـ 2 ـ 5 : آثار ابن مرزوق

لم ينشر عمل كامل من أعمال ابن مرزوق ، ولكن البحث المعاصر قد توقف بشكل جزئي عند كتابة المسند وعند قصيدته المولدية ، وهكذا فان أعمال ابن مرزوق توجد مخطوطة في بعض المكتبات أو في شكل مقتبسات متضمنة في أعمال أخرى ، أو منشورة معها .

وهذه قائمة بأعمال ابن مرزوق المعروفة :

1) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن
هذا هو العمل الذي قدمناه . وانظر عنه القسم الثاني لهذا التقديم .

2) برح الخفاء في شرح الشفاء (1)

وهذا العمل هو شرح لكتاب الشفاء للقاضي عياض المتوفى في 1149/544 .

ويبدو أنه العمل الخاص الذي يعتز به ابن مرزوق على الرغم من أنه لم ينته منه ولقد أطلع ابن مرزوق الحفيد ابن حجر في القاهرة على النسخة المكتوبة بيد جده (2) . وهذه النسخة المخطوطة محفوظة في مكتبة غوطة (Gotha) (3) وتقع في خمسة مجلدات .

---

1 ـ هكذا عنونه ابن مرزوق (أنظر **المسند** : 27أ ، 58ب) بالرغم من أنه ذكر في فقرات باسم « شرح الشفاء » (أنظر **المسند** : 33 أ ، 111 ب) وهذا العنوان الاخير هو يذكر في المصادر الاخرى عادة .

2 ـ أنظر في درر ، 3 ، 452 .

3 ـ أنظر مقال الحاج صدوق في *Encyclopédie de l'Islam* ، ط 2 ، 3 ، 891 .

ولقد عرف معاصروه مكانة عمله فقدروه حق قدره ، فابن الخطيب من مدينة سلا أرسل اليه مدائح شعرية (4) ، بعد قراءة بعض فصوله .

3) تيسير المرام فى شرح عمدة الاحكام

هذا الكتاب هو شرح لكتاب عمدة الاحكام عن سيد الانام (5) من تأليف تقي الدين الجمائلي (المتوفى فى 1203/600) .

ويصف الحاج صدوق هذا العمل لابن مرزوق بأنه تلخيص لشرحي العمدة لمحمد ابن دقيق العيد (1227/625 — 1302/702) وعمر الفاكهاني (1256/654 — 1333/734)
مع اضافات لمؤلفنا هذا .

ولقد بقي لنا مخطوطان من هذا العمل الضخم الذي يقع فى خمسة أجزاء ، فى تركيا وفى مصر (7) .

4) عجالة المستوفر (أو « المستوفي ») المستجاز فى ذكر من سمع (من المشايخ) دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز .

---

4 ـ مذكورة فى **احاطة** ، مخطوط اسكوريال ، ص 129 وفى **نفح** ، 5 ، 408 — 411 . أنظر كذلك **ديوان** ابن الخطيب ، تحقيق محمد الشريف قاهر ، الجزائر 1973 ، 378 — 379 .

5 ـ أنظر **المسند** : 38 ب . Benchekroun 289

6 ـ فى *Encyclopédie de l'Islam* ط . 2 ، 3 ، 891 ، معتمدا على ما قاله ابن مريم (217, *Bostan*) والمقري (**نفح** ، 5 ، 418) ، ولكن تعليقا لبروفنسالي (410, *Bostan*, Provenzali) يخبرنا أن شروح ابن دقيق والفاكهاني وابن مرزوق كلها شروح **عمدة** أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي (المتوفي فى 1113/507 ـ كما يقال فى **كشف** 4 ، 263) ونظرة واحدة الى هذه الأعمال تبين لنا على أي كتاب من كتب **العمدة** أقام ابن مرزوق شرحه . ويقول الكتاني (فى **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة** ، ط.3 ، دمشق 1964 ، ص 180) أن ابن مرزوق شرح **كتاب عمدة الاحكام** .. لتقي الدين أبو محمد بن سرور المقدسي الحنبلي (وكذلك ابن دقيق العيد) .

7 ـ أنظر الحاج صدوق فى المكان المذكور . ويضمن ابن مرزوق فى **المسند** (38 ب) انموذجا من هذا العمل .

وبقي لنا من هذا العمل بعض النماذج التي اقتبسها ابن الخطيب وابن فرحون وأحمد بابا وابن حجر والمقري وابن عمار ويوجد هذا الكتاب مخطوطا فى الرباط (8) .

ولقد كتب ابن مرزوق فى عمله هذا قائمة عريضة بأسماء كل الشخصيات ــ رجال ونساء ــ الذين تتلمذ عليهم بصفة دائمة أو الذين استمع الى بعض شروحهم على فترات متقطعة .

وهذا العمل يتبع أسلوب الفهرسة (9) وبقي لنا منه (وهو عمل قيم بلا شك) قائمة للاسماء لأن بعض المؤلفين ــ وخاصــة المقــري ــ قد نقلوا لنا بعض المعلومات التي يحتوي عليها هذا الكتاب (10) ، وبفضل ما نقل منه فاننا قد صنفناه كفهرسة .

وفى خبر يرويه لنا ابن مريم (11) نعلم أن أحد أحفاد ابن مرزوق واسمه كذلك محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب قد قــام بتدريس فهرسة سلفه ابن مرزوق .

5) شرح الاحكام الصغرى

شرح كتاب الاحكام الصغرى لعبد الحق بن عربي الاشبيلي (12) .

---

8 ــ فى **احاطة** (مخطوط الاسكوريال ، ص . 121) **وديباج** 305 ، **ونيل** 237 ، **درر** 1 ، 335 ؛ 2 ، 103 ، 3 ، 198 فى 360 **ونفح** 5 ، 200 ، 390 ؛ 396 ؛ **ونحلة** 147 وشذرات الذهب 294 Benchekroun : *Vie Intellectuelle*, 284, 6, 271

9 ــ وفى هذا الصدد راجع

Repertorios biobibliograficos arabigo-andaluces : J.M. Forneas
رسالة الدكتوراه ، جامعة مدريد (ومنها قد نشر ملخص ، فى مدريد 1971)
(أنظر سابقا ما قلناه على قائمة شيوخ ابن مرزوق) .

10 ــ فى **نفح** 5 ، 200 وكذلك فى **نيل** 237 وفى درر ، 1، 335؛2؛103؛3؛198

11 ــ *Bostan* 294

12 ــ أنظر عن الكتاب هذا ما يقول *Brockelmann* G.A.L. 1, S. 34, 6, الكتاني (أنظر « **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة** ، ط.3 ، دمشق ، 1964 ، 179) ذكر شرح ابن مرزوق **للاحكام الشرعية** لعبد الحق الاشبيلي « ابن الخراط » (أنظر كذلك **نفح** ، 5 ، 418) .

6) جنى الجنتين فى فضل الليلتين

وبقي منها بعض الأجزاء يذكرها ابـن عمـار فى شرح تفضيل ليلة المولد عن ليلة القدر : (Ibn Marzuq) leur a consacré un opuscule dans lequel il n'en a pas énuméré moins de vingt-et-une [sur la préférence du mawlid] ; puis, sentant sans doute sa démonstration peu convaincante, il y ajoute de longs développement en guise de réponse préalable aux objections possibles (13). ويوجد هذا الكتاب مخطوطا فى الرباط (14).

7) ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب

شرح كتاب المختصر فى الفروع لابن الحاجب (15)

ولقد بقيت لنا ــ الى جانب المؤلفات السابقة ــ بعض المعلومات الناقصة عن مؤلفات أخرى لا نعرف عنها الا القليل . ومثل هذا حدث للكتاب الذي عنونه ابن مرزوق : ايضـاح المراشد فى أجوبـة أبي راشد (16) . وبالاضافة الى ذلك وجدت سلسلة من الاعمـال التي تنتسب الى ابن مرزوق بدون أساس (17) وفى هذا الصدد يتضح لنا خبر غريب يورده دي هربيلوت(d'Herbelot)(18) حيث ينسب الى مؤلفنا كتاب أشرف الطرف للملك الاشرف .

13 - Hadj-Sadok ط . 2 ، 3 ، 891 .
Hadj-Sadok : *Le mawlid d'après le mufti-poète d'Alger Ibn 'Ammar,* « Mélanges L. Massignon » Damas, 1957, 280.

14 - Benchekroun : *Vie Intellectuelle*, 289.

15 – انظر : M. Bencheneb فى Encyclopédie de l'slam ط . 2
(وكذلك مذكور فى **نفح** 5، 418 .

16 – أنظر فهرس الكتب المذكورة فى **المسند** . وليست لدينا كذلك مصادر أخرى ، ولكن أخبار المقري تبدو لنا حقيقية ، فى احدى أعمال ابن مرزوق التي استوفى فيها تعريف المقري جد المقري المعروف ، وعنوان الكتاب هذا : **النور البدري فى التعريف بالفقيه المقري** (أنظر **نفح** 5 ، 204) .

17 – **هدية العارفين** ، 2 ، 180 ، 191 – 192 .

18 – فى كتابه : *Bibliothèque Orientale* 4, 166
عن مخطوطات أخرى لبعض أعمال ابن مرزوق أنظر :
Casiri, *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis,* Madrid, 1770, 1, 82 ; 188 ; 524. Ma J. Viguera, Trad. espagnole du *Musnad,* Madrid, 1977, 59.

وفى النهاية نذكر النماذج الشعرية التي بقيت لنا من تراث ابن مرزوق، والتي اختارها ابن الخطيب وبعده المقري ، (19) وهي :

— بيت واحد من قصيدة ألفها ابن مرزوق فى سجنه فى تلمسان ، وهو : (20)

رفعت أمـــوري لبـــاري النســـم   وموجدنا بعـــد سبـــق العـــدم

— ثلاثة أبيات فى وداعه لتونس (21)

أودعكـــم وأثنـــي ثـــم أثنـــي   على ملـــك تطاول بالجميـــل
وأسأل رغبـــة منكـــم لربـــي   بتيسير المقاصـــد والسبيـــل
ســـلام الله يشملنا جميعـــا   فقد عزم الغريب على الرحيل

— أربعة أبيات ألفها فى غرناطة يوجهها الى السلطـــان النصري أبي الحجاج يوسف « الأول » (732 / 1332 — 754 / 1354) (22) :

انظر الى النوار فى أغصانـــه   يحكي النجوم اذا تبدت فى الحلك
حيا أمير المسلمين وقال : قد   عميت بصيرة من بغيرك مثلك
يا يوسفا حزت الجمال بأسره   فمحاسن الأيام تومي هيت لك
أنت الذي صعدت به أوصافه   فيقال فيه : اذا ملاك أو ملـــك

19 — فى **الاحاطة** ، مخطوط الاسكوريال ، ص . 121 ، **نفح** ، 5 ، 396 ، 418 .

20 — من المتقارب ، كتبه ابن مرزوق فى 1350/751 .

21 — من الوافر ، كتبها ابن مرزوق فى 1372/773 .

22 — من الكامل ، يقول لنا ابن الخطيب أن ابن مرزوق قد ارتجل هذه الأبيات فى نزهة على ظهور الخيل مصاحبا للسلطان فى قصر الحمراء ، ولقد استعمل ابن مرزوق فيها « تورية » تستخدم كثيرا : فالشخص الحقيقي هو . يوسف الاول ولكن الشخص المصور هو يوسف ابن يعقوب ذو الجمال الذي يضرب به المثل . أنظر نفس التورية مثلا فى

S. Gibert : *Una coleccion de « tawriyas » de Abû Ga'far Ahmad Ibn Hâtima.* « Etudes d'Orientalisme... Lévi-Provençal », Paris, 1962, 1, 548.

وتبقى (23) لنا من ابن مرزوق قصيدة مولدية كاملة تتكون من 117 بيتا ألفها بمناسبة احتفالات المولد النبوي فى عام 763 / 1361 التي شهدها فى البلاط الغرناطي ، ويقول فى بدايتها (24) :

أيا (25) نسيم السحر　بالله بلغ خبري
ان أنت يوما بالحمى　جررت فضل المئزر
ثم حثثت الخطو من　فوق الكثيب الاعفر
مستقريا فى عشبه　مخفي وطء المطر ..

---

23 ـ وهناك قطعة شعرية أخرى لابن مرزوق موجهة الى ابن الخطيب ، ضمناها الجزء الخاص بابن الخطيب كتلميذ لابن مرزوق . وفى **المسند** حفظ ابن مرزوق بعض الأبيات التي ارتجلها عن الصبر (أنظر 39 أ ـ ب) .

24 ـ فى **الاحاطة** ، مخطوط الاسكوريال ، ص . 123–125 ، وفى **نفح** 5 ، 397 ـ 402 هذه المولدية من مجزوء الرجز . درسها وترجمها بشكل جزئي الى الفرنسية A. Salmi. — *Le genre des poèmes de Nativité* (*mauludiyya-s*) *dans le royaume de Grenade et au Maroc, du XIII*ᵉ *au XVIII*ᵉ *siècle,* « Hesperis », 43 (1956) 419-423.

أ ـ 3 : سلالة ابن مرزوق

7) أحمد (« الثاني ») بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (1) كان فقيها عالما ، وهو ولد ابن مرزوق مؤلف المسند .

8) محمد (« السادس ») بن أحمد (« الثاني ») .. (2)

المسمى بالحفيد (ولد فى تلمسان ، يوم الأحد 14 ربيع الأول 766 / 9 ديسمبر 1365 ، وتوفي أيضا فى تلمسان يوم الخميس 14 شعبان 842 / 30 يناير 1439 . وقد أدى فريضة الحج فى عام 792 / 1389 . احتل مكانة هامة فى الحياة الثقافية والدينية فى المغرب ، حسب ما ثبته لنا خبر طويل عن معارفه ونشاطاته التي تذكرها المصادر بكثير من المدح . وطد علاقات مع أهم علماء عصره حسب ما يستخلص من قوائم أساتذته وتلاميذه . ويعد من شيوخه ابراهيم المصمودي (3) ، ناصر الدين الاسحاقي (4) ، سعيد العقباني (5) . عبد الله الشريف (6) علي الغماري

---

1 ـ مذكور فى *Bostan* 218 ,232. الرقم الذي يسبق اسمه يشير الى الرقم المنسوب اليه فى شجرة نسب بني مرزوق (أنظرها قبلا) .

2 ـ مصادر ترجمة حياته ، **نفح** ، 5 ,420 ,433 ، **شجرة النور** ، 252 ، **الضوء اللامع** 7 ، 50 الشكاني **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** ، القاهرة 1384 ، 2 ، 119 ، **نيل** ، 293–299 ، **الحلل السندسية** (أنظر الفهرسة ص . 1948) ، **كشف** 1984 ، ايضاح 1 ، 7 ، 84 ، 106 ، 143 ، 147 ، 480 ، 588 ، 592 ، 2 ، 229 ، 230 ، 465 ، 684 **هدية العارفين** 2 ، 191 الاعلام 6 ، 228 **فهرس** 1 ,382 .Bostan ,230 .Bargès : *Complément* 218 كحالة 7 ، 317 Encyclopédie de l'Islam, Hadj-Sadok 247, 2 *G.A.L.*, Brockelmann.

3 ـ *Bostan* 69 ,71 ,88 ,89.

4 ـ *Bostan* 107-108

5 ـ *Bostan* ,114.

6 ـ *Bostan* ,126

التلمساني (7) ، البلاوي القيرواني (8) ، ابن عرفة (9) ، ابن قنفذ (10)، ابن خلدون (11) .

ولقد كان من تلاميذه : التجاني (12) ، ابراهيم التازي (13) ، علي القلصادي (المتوفى فى 891 / 1486) (14) ، أبو الفرج الشريف التلمساني (15) ، أبو زيد الثعالبي (16) ، المازوني (17) ، أبو ابراهيم القسنطيني (18)، أبو محمد الوريجلي (19)، محمد الحافظ التنسي (20) ولقد احتفظ لنا أحمد بابا بقائمة الأعمال التي رواها عنه (21) .

وقد ألف عددا كبيرا من الأعمال ، ومن بينها :

ثلاثة شروح للبردة ، روضة الاعلام (أرجوزة عن الحديث) ، نهاية الأمل فى شرح الجمل (شرح كتاب جمل الفوائد للخونجي) ، أنوار اليقين فى شرح حديث أولياء الله المتقين ، مختصر الحاوي فى الفتاوي (مختصر وشرح كتاب فقه لابن أبي النور) .

---

7 – *Bostan* 158

8 – *Bostan* 164

9 – نيل ، 297 ، الحلل السندسية ، 587 *Bostan*, 229, 244

10 – الحلل السندسية ، 658 .

11 – الحلل السندسية ، 667 .

12 – نيل ، 81 ، الحلل السندسية ، 648 .

13 – *Bostan* 62

14 – نيل ، 296 ، نفح 5 ، 426 ، الحلل السندسية ، 671 *Bostan*, 156 238

15 – نفح 56 ، 423 *Bostan*, 234

16 – نيل ، 295 ، نفح ، 5 ، 425 الحلل السندسية 629 *Etude*, Ben Cheneb. 236, Bostan رقم 53 .

17 – نيل ، 296 *Bostan*, 238.

18 – نيل ، 52 ، الحلل السندسية ، 643 .

19 – نيل ؛ 296 ، نفح ، 5 ، 427 ، البستان ، 239 .

20 – نيل ، 296 ، نفح ، 5 ، 426 ، البستان ، 284 .

21 – نيل ، 295–296 .

9) محمد (« السابع ») بن محمد (« السادس ») .. (22)

المسمى بالكفيف (ولد في تلمسان ، يوم الاثنين 1 ذو القعدة 824 / 27 أكتوبر 1421 وتوفي فيها في 901 / 1495 ، ولقد حج الى مكة حوالي عام 861 / 1456) .

ويعد بين أساتذته : أبو الفضل بن الامام (23) ، قاسم العقباني (24)، محمد العبادي (25) .

أبو زيد بن مخلوف الثعالبي (26) ، عبد الله التونسي (27) ، ولقد أجازه ابن حجر (28) بالمراسلة .

ومن بين تلاميذه : أحمد بن داوود البلوي (29) ، ابن العباس الصغير (30) ، ابن غازي (31) ، أبو العباس الونشريسي ، وهو مؤلف

---

22 ـ مصادر ترجمة حياته : درة 1 ، 223 ، رقم 597 ، نيل ، 330 . نفح ، 419 ـ 420 ، الضوء اللامع ، 9،46 الحلل السندسية ، 631 ، شجرة النور ؛ 268 ؛ فهرست الفهارس 1،397 كحالة 11،187 ، البلاوي الوادي آشي فهرسة (انظر : عبد الله العمراني :)

El « Manual biografico » de Ahmad b. 'Ali l-Balawi l-Wadi Asi, « Bol. Asoc. Esp. Orientalistas » (1972), 119-145. Ben Cheneb, *Etude*, 54 ; Lévi-Provençal, *Chorfa*, 226.

23 ـ نفح 5،419 .

24 ـ نفح 5،419 ، البستان ، 163 .

25 ـ البستان ، 265 .

26 ـ الحلل السندسية ، 631 .

27 ـ نيل ، 158 ، الحلل السندسية ، 831 .

28 ـ *Bostan* 286

29 ـ في فهرسته يتكلم عن علاقاته مع ابن مرزوق الحفيد (أنظر المقال مذكور سابقا تحت الرقم 22 ، في صفحاته : 131،142،143،145) .

30 ـ Ben Cheneb *Etude* رقم 54

31 ـ Ben Cheneb *Etude*, رقم 54 ، *Bostan* . 287 .

المعيار (32) الذي لم ينقل في عمله (فيما يبدو) أية فتوى لابن مرزوق الكفيف ، ومع ذلك فقد حفظ لنا المازوني عددا من فتاوي ابن مرزوق الكفيف في مختاراته المسماة بالدرة المكنونة في نوازل مازونة (33) .

ولم يكن ابن مرزوق الكفيف كاتبا غزير الانتاج كأسلافه . فالمصادر تشير الى عمل واحد له فقط ، وهو شرح لكتاب أبيه المسمى بشرح مختصر الحاوي للفتاوي لابن أبي النور .

ونعرف المكانة العالية لابن مرزوق الكفيف في الحياة الثقافية في تلمسان من خبر ذي معنى كبير ، وذلك أنه عندما نزل أبو الحسن القلصادي (الذي كان تلميذا لابن مرزوق الحفيد) نزل عند ابن مرزوق الكفيف في تلمسان (34) .

وابن مرزوق الكفيف هو سلف المقري ، مؤلف النفح ، الذي يؤكد في كتابه هذا أنه أبو أم جدي أحمد . فهو (المقري) : أحمد بن محمد بن أحمد ، وأم أحمد هذا هي بنت ابن مرزوق الكفيف (35) .

10) أحمد (« الثالث ») بن محمد (« السابع ») .. (36) .

المسمى بحفيد الحفيد ، ولد في تلمسان وتوفي فيها في عام 925 /

---

32 – نيل ، 331 ، نفح 5 ، 419 ، *Bostan* ، 287 .

33 – نفح 5 ، 420 ، 5 ، 419 .

34 – نفح 2، 693 . *Etude,* Ben Cheneb 155, *Bostan* رقم 57 ، انظر : M. Souissi. — *Un mathématicien Tuniso-Andalou : al-Qalasadi,* « Actas II Coloquio Hispano-Tunecino de Estudios Historicos », Madrid, 1973, 63-90.

35 – نفح ، 5 ، 419 .

36 – مصادر ترجمة حياته : نيل ، 88 ، *Etude,* Ben Cheneb. 56, *Bostan* رقم 66

1519 تقريبا . كانا خطيبا مشهورا . ومن بين أساتذته : محمد السنوسي وأحمد بن زكرو (37) .

11) محمد (« الثامن ») ... (38)

المسمى بالخطيب . ولد في تلمسان وسكن في فاس وأجاز ابن الزقاق هنا . ومن بين أساتذته : أبو عبد الله العبادي (39) ومحمد التنسي (40) .

كان حيا في عام 918 / 1512 .

أكد بارغيس (Bargès) في عام 1304 هـ . / 1887 م أن سلالة العائلة مازالت ساكنة في تلمسان (41) .

37 — *Bostan* 44 *Ben Cheneb, Etude*, 55

38 — *Bostan* 294 , 309

39 — *Bostan* 256

40 — *Bostan* 285

41 — *Complément* 113 .

ب) : المسند الصحيح الحسن فى مآثر (1) مولانا أبي الحسن :

ان المعلومات المتوفرة حول ابن مرزوق تسمح لنا بأن نكون فكرة مسبقة عن المسند باعتباره مؤلفا ذا طابع خاص نظرا لاحاطته الثقافية الشاملة ولمعاصرته ولمعايشة المؤلف للسلطان أبى الحسن ولمشاركته الفعالة المباشرة فى أحداث الفترة : « وخبرت من سيره الجميلة وخصاله الكريمة وشاهدت من شيمه العظيمة ما أعتقد أني اختصصت فى عصره بمعرفته وتميزت بتحصيل طرقه ومحجنه .. » (2)

وعلينا هنا أن نحتاط من الحكم السريع حول هذه المزايا الثلاث ، لأن ابن مرزوق كان يحاول أن يبرر الأحداث وأن يجعلها تحت مظهر أفضل فهو يقول : « هو من بموالاته شرفت ، ولولا انتسابي اليه ما عرفت ، فصرت لا أجري على لساني الا طيب شكره .. » (3) .

لقد كتب ابن مرزوق المسند بدافع تقديم الشكر والتعبير عن الامتنان الذي كان يكنه لبني مرين ولقد ألف كتابه هذا بعد مرور عشرين سنة على وفاة السلطان أبي الحسن فى أوج ما قام به أبناؤه (4) من بعده لاكرام ذكراه وجعلها خالدة : « مولانا أمير المسلمين أبو الحسن علي ابن موالينا الأمراء الراشدين ، خاتمة الملوك بلا منازع وسابقهم الى المعلومات غير مدافع » .. (5)

---

1 — وفى مخطوط الاسكوريال فقط — وهي نسخة كتبت فى عهد المؤلف — أضيفت على الهامش كلمة « ومحاسن » ، التي يمكن أن نقرأها بعد الكلمة «مآثر» أو بديلة لها .

2 — **مسند** 1

3 — **مسند** 1

4 — **مسند** 1

5 — **مسند** 1

وعلينا ألا ننسى أن ابن مرزوق حين كتب كتابه كان ينوي الانتقال الى المغرب ، فجعل كتابه تمهيدا لمقدمه ، فلعله بهذا يحظى بالترحاب والاستقبال : « وبلغني الآن ما أمن الله به على الخلائق وما شرفت به المغارب على المشارق فى احياء الحسن الذي عهدته وعود اللطف الذي تعودته والمعهود الذي بالوطن المحبوب حوجته وقيام مولاي ابن مولاي .. ورأيت أني قد حصلت من مناقب مولاي المرحوم ما لم يحصله من صنفي غيري فأهديت حلاهم اليهم .. (6)

ان هذه الظروف جميعها أدت به الى أن يملأ كتابه (7) بالمبالغات والاطناب بالمديح وتبيان مزايا سلطانه . وابن مرزوق لا يجد حرجا فى أن يعلن عن ذلك صراحة فى عنوان الكتاب وفى مضمونه .

ب — 1) : وصف المخطوطين :

كتاب المسند هذا الذي بين أيدينا يوجد منه مخطوطان (8) لا غير . أحدهما فى الاسكوريال (9) (El Escorial) تحت رقم 1666 ونشير اليه : «ا» والثاني فى الرباط (10) تحت رقم 111 ق ونشير اليه : «ر» .

---

6 — **المسند** 4 .

7 — ولا يجب علينا فهم **المسند** اليوم كترجمة علمية حديثة ، انظر ما يقول عن هذا
1955, Paris, *Histoire et Vérité,* P. Ricoeur

8 — لقد ظن بعض الباحثين أن مخطوط الاسكوريال هو المخطط الوحيد ، راجع ليفي — بروفنسال ، *Musnad* 10 ، بلاشير ،
بلاشير *Quelques détails*, 83, *Nwyia, Ibn Abbad*, 251
أنظر ما نقول فى الهامش العاشر القادم .

9 — وتصنيفه القديم هو تحت الرقم 1661 ، أنظر كاسيري
Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis : Madrid, 1170, 2, 69.
يقدم كاسيري العمل ملخصا كتاريخ لبني
مرين ، لا يذكر اسم المؤلف ولكنه يرجع تأريخ هذا العمل الى عام 715–1315
مما يحول بيننا وبين القول بتاليف ابن مرزوق له .

10 — لم يذكر فى أي فهرس المخطوطات لخزانة الرباط لانه من اكتساباتها الحديثة يبطل بعض استنتاجاته .

ان عدد صفحات مخطوط الاسكوريال هو 130 ورقة (260 صفحة) (29 × 21 سم) (21 سطر فى كل صفحة) بخط مغربي متقن من النوع المبسوط بحبر أسود وبعض العناوين مكتوبة بالحبر الاحمر . وفى هذا المخطوط فراغان مهمان . فقد ضاعت منه الورقتان الأولى والثانية (هذا ما جعل كاسيري (Casiri) (11) يقع فى الأخطاء) وكذلك فقد منه الوجه الثاني من الورقة السادسة ، والوجه الاول من الورقة السابعة . وبفضل مخطوط الرباط يمكن اتمام ما نقص من مخطوط الاسكوريال . فى الصفحة الأخيرة منه يتبين لنا أنه نسخ فى تلمسان وأن ناسخه انتهى منه فى 27 جمادى الأولى من عام 773 الموافق لـ 6 ديسمبر من عام 1371 . وهذا يعني أنه نسخ فى حياة المؤلف ولكننا لا نتعرف على اسم الناسخ (12) وفيما يلي ما يقوله ليفي بروفنسال عن الأحوال التي تعرض لها هذا المخطوط : (13) .

« Cet exemplaire du *Musnad* était peut-être unique : le manque absolue de difussion de l'ouvrage permet sinon de l'affirmer, du moins de le supposer avec quelque vraisemblance. Rien non plus n'empêche d'admettre qu'il fut transféré de Fès à Marrakech, avec la bibliothèque du palais mérinide de Fès-la-Neuve, lorsque les Sadiens choisirent comme capitale...

ولقد عرفت مخطوط الرباط من خلال الباحث محمد ابن شقرون فى عمله : **مظاهر الثقافة المغربية** ، الرباط ، 1970 ، ص 126 ، وهكذا يكمل خبر ابن سودة (**دليل** ، ص 166 ، هامش 620) الذي قال أن **المسند** مخطوط فى الاسكوريال وفى نسخة مصورة حديثة فى الرباط ، يضيف ابن سودة أن محمد ابراهيم الكتاني قد أطلعه على مخطوط قديم لهذا الكتاب ، وهو موجود فى مكتبة تامركوت ، والكتاني يبين لنا كيف أن مخطوط تامركوت كان منقولا الى الخزانة العامة فى الرباط فى عهد السلطان محمد «الخامس» (أنظر مقاله

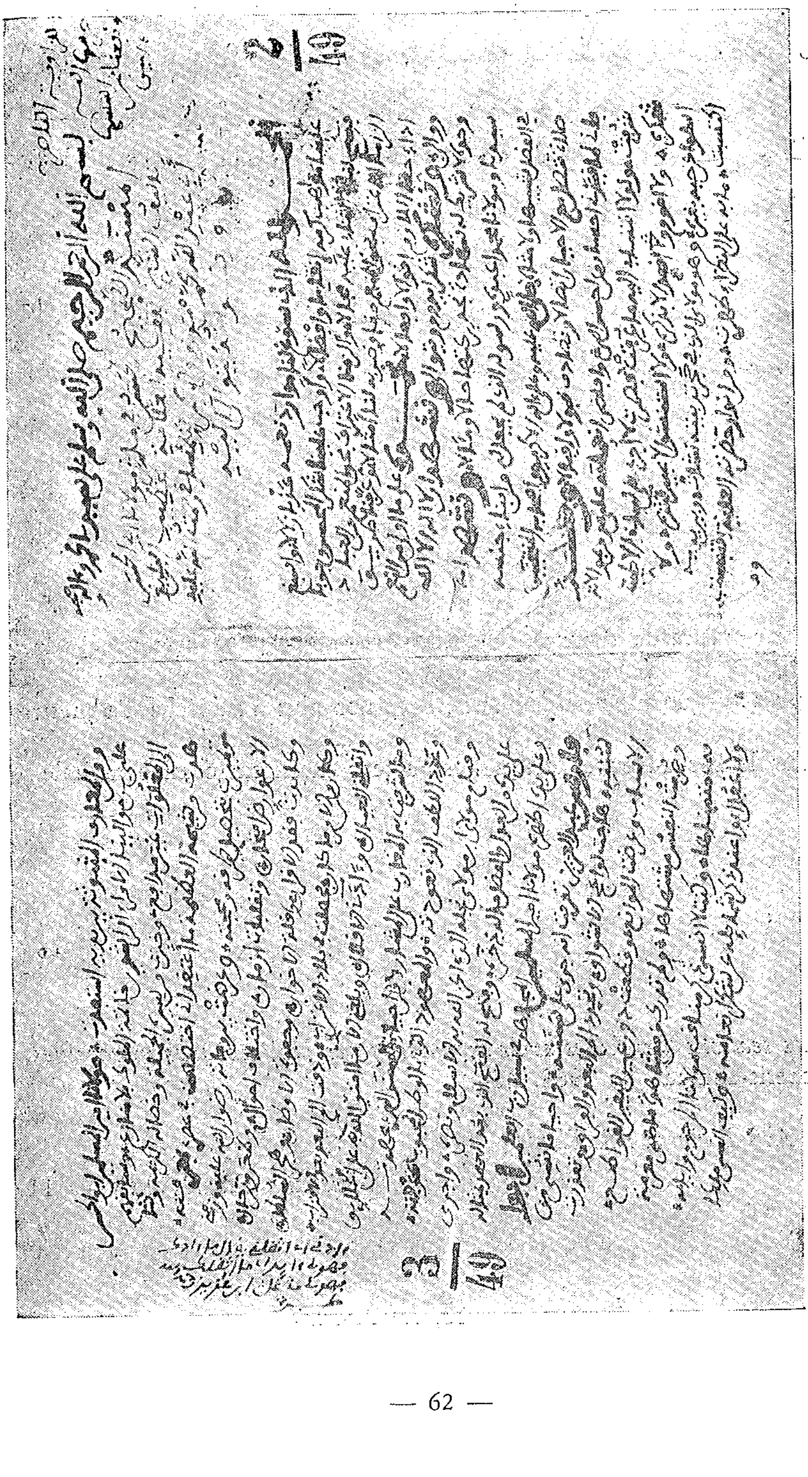
Les sections d'archives et de manuscrits des bibliothèques marocaines, « Hesperis-Tamuda », 1968, 464.

أشار الى مخطوط الرباط محمد عبد الله عنان (**لسان الدين ابن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري** ، القاهرة 1968 ، 290) *Abû L'Hasan : R. Thoden*, 8-10.

11 — *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis* II 69.

12 — محيت الفقرة الاخيرة فى مخطوط الاسكوريال ، بفعل عامل الزمن ، ولهذا لا نستطيع قراءة تأريخ انتهاء نسخ **المسند** فى هذه النسخة ، والتأريخ هذا قد نحلله فى القسم عن ظروف تأليف المسند .

13 — ليفي — بروفنسال *Le Musnad*, 10.



من مخطوط « الخزانة العامة » بالرباط للمسند لابن مرزوق — رقم ق 111



الصفحة الاولى من المسند لابن مرزوق – نسخة مكتبة الاسكوريال باسبانيا – رقم 1666 .

Or, on sait que cette bibliothèque, accrue par Ahmad al-Mansûr d'acquisitions nouvelles, pour la plupart orientales, est aujourd'hui conservée dans sa plus grande partie en Espagne. Si le *Musnad* figurait parmi les manuscrits qui formaient la collection royale du palais al-Badi n'avait-il pas dès lors quelque chance de se trouver dans la prise fameuse du « Notre Dame-de-la-garde » et d'avoir été transporté à la bibliothèque du couvent du San Lorenzo del Escorial ? " (14).

أما ما يتعلق بمخطوط الرباط الموجود فى الخزانة العامة (15) فنحن نعرف أنه كان فى حوزة أحمد ابن ناصر الدرعي (16) • وفيما بعد أصبح ملك زاوية تمضكروت (17) فى الدرعة ، حيث توفي الولي الصالح مؤسس الزاوية فى عام 1128 هـ / 1716 م •

---

14 ـ أسرت السفن الاسبانية السفينة التي كانت تحتوي على أملاك السلطان (فى مايو عام 1612 ، وقد استودع فيليب الثاني المخطوطات التي كانت بالسفينة الاسيرة فى مكتبة الاسكوريال وهذه المخطوطات مذكورة في H CASTRIES : *Autour d'une bibliothèque marocaine* « Journal des Débats » أكتوبر 1907 ، وفى Memorias de la R. Academia de la Historia, 6 (1813-1815), 50 ; J. Caillé : *Le consul Castelane et la bibliothèque de Moulay Zidan,* « L'Echo du Maroc », 16 novembre 1948 ; G. de Andrés : *La Real Biblioteca de El Escorial,* Madrid, 1970, 39.

15 ـ قلنا أن ليفي ـ بروفنسال قد افترض أن مخطوط الاسكوريال هو الوحيد ، مما يبطل بصفة جزئية بعض استنتاجاته ، وهو يقول (*Le Musnad* 9) :

« D'autre part, s'il en eût existé une copie au Maroc à la fin du XIXe siècle, soit dans une bibliothèque de palais ou de mosquée, soit dans une collection privée tant soit peu connue, le scrupuleux Muhammad b. Ga'far al-Kattani n'eût pas manqué d'en tirer profit et de la signaler parmi les sources de sa *Salwat al-anfâs* ».

واذكر هذه الفقرة لأنه من العجيب حقيقة ألا توجد معلومات قديمة عن هذا المخطوط المغربي •

16 ـ طبقا للاحظة هامشية فى مخطوط الرباط (أنظر ص 1) •

17 ـ وثمة ملاحظة هامشية أخرى فى نفس المخطوط تبين لنا كيف كان هذا المخطوط ملكا للزاوية الناصرية ، أو على الاصح ملكا لأحمد ناصر الدرعي ، والى هذا يشير ليفي ـ بروفنسال *Chorfa* 262 • **عن قيمة مكتبة تمكروت ، أنظر :** M. BODIN : *La zaouia de Tamagrout* مذكور فى 284 ص R. Lourido Diaz : *El morabitismo y la dinastia alaui en la segunda mitad del Siglo XVIIIe*, « Cuadernos de Historia del Islam » (Granada, 1971), 3, 156.

عن هذا الولي ، أنظر **رحلة** الزرهاني :

La rihla du marabout de Tasaft, trad. Justinard, Paris, 1940, 146.

نعرف كذلك أن اسم ناسخه هو : ابراهيم بن محمد الهشتوكي (18) الذي قام بنسخ هذا الكتاب « لزاوية شيخنا فى تمكروت » (19) وانتهى من نسخها فى يوم الخميس 15 رجب 1124 / 18 أغسطس 1712 حسب ما ذكره الناسخ فى الصفحة الاخيرة من مخطوط الرباط . ولكنه بما أن الناسخ نفسه يقول بأنه نسخ ما وجد من هذا الكتاب وفيه نقص فى بابه العاشر وفى بابه الثالث والعشرين وفى بابه السادس والثلاثين وفى بابه السادس والاربعين . ولكن هذه الخروم قد ملئت مما جعلها تبدو اليوم كاملة فى الخزانة العامة للرباط . وتوجد بعض الاشارات (20) تجعلنا نفترض أن هذه النسخة المغربية من القرن الثاني عشر / الثامن عشر ، قد كملت من مخطوط الاسكوريال مع أن بحثنا لم يؤد بنا الى معرفة تاريخ ذلك ، ومعرفة الشخص الذي قام بهذا العمل .

ب — 2) ظروف تأليف المسند

لقد انتهى ابن مرزوق من تأليف المسنـــد فى رمضان 772 الموافق مارس 1371 ، وهذا التاريخ نعرفه بفضل نسخة الرباط فقط ، لأن السطر الذي نعتقد بأنه يحتوي على تاريخه فى مخطوط الاسكوريال قد تلف وهذا ما جعل ليفي بروفنسال يعتقد خطأ أن (21) :

La composition du *Musnad* se place sous le règne d'Abû Salim (760/1359/762/1361) ; a cette époque en effet comme on l'a vu plus haut, Ibn Marzûq se trouvait auprès du sultan en haute faveur, et c'est soit à l'instigation de son maitre, soit de lui même pour montrer son attachement et sa reconnaissance, qu'il consacra toute une monographie à son père illustre et sanctifié Abû l-Hasan.

---

18 — عن علماء آخرين بنفس النسبة أنظر ليفي — بروفنسال *Chorfa* 270 355 376

19 — وها هنا المخطوط الذي اطلع الكتاني ابن سودة عليه ، أنظر ما قلناه سابقة فى الهامش العاشر .

20 — أنظر مثلا صفحة 95 من مخطوط الاسكوريال ، حيث محيت بعض الكلمات التي تطابق تلك الكلمات المحية فى مخطوط الرباط صفحة 249 ، ولهذا نعتقد أن مخطوط الرباط قد أكمل من مخطوط الاسكوريال أو من نسخته المصورة حديثا الموجودة فى الخزانة العامة ، من المخطوط الاسكوريالي (ابن سودة ، **دليل** ، ص 166 ، رقم 620) .

21 — ليفي — بروفنسال *Le Musnad* 11

ولكن ، حين كتب ابن مرزوق المسند كان السلطان ابو الفارس يتولى الحكم في المغرب (22 ذو الحجة 767 / 24 أغسطس 1366 — 22 ربيع الثاني 22/774 أكتوبر 1372 وكان ابن مرزوق يقيم — أثناء ذلك — في تونس (22)

ان ما كتب ابن مرزوق في فاتحة المسند لهو ذو دلالة كبيرة لفهم الظروف والاهداف التي أدت به الى الشروع في تأليف المسند (23)

ولقد أشرنا الى وضع ابن مرزوق في تونس ذلك الذي أصبح وضعا صعبا حرجا بعد وفاة السلطان أبي الحسن .

ان هذه الظروف هي التي حملته على العودة الى المغرب والى كتابة المسند الذي أراد أن يرضي به السلطان أبا الفارس وذلك من جهتين : فهو ارضاه من جهة اذ يطنب في مدح والده السلطان أبي الحسن ، ومن جهة أخرى يعيد الى ذاكرته المكانة التي كان يحلها ابن مرزوق أثناء حياة والده.ولكن ابن مرزوق لم يحصل هدفه ولم يعد الى الحضرة المرينية(24).

---

22 — قد ذكرنا هذا في ترجمتنا لحياة ابن مرزوق .

23 — لم يعرف الباحثون المعاصرون كلهم هذه الجملة ، لانها ناقصة في مخطوط الاسكوريال، وعلى أية حال ، فانني أعتقد أنه لو كانوا قد قرؤوا **المسند** قراءة دقيقة لأمكنهم أن يستنتجوا التأريخ الحقيقي لكتابته ، وهكذا نستطيع أن نستنتجه من بعض صفحات **المسند** وهي الصفحات 21أ ، 27أ ، 75ب ، 121ب ، 122أ ، 122ب ، 131 أ R. THODEN... *Abû l-Hasan* 10 قد يذكر هذا التاريخ صحيحا .

24 — أنظر عن ظروف تأليف المسند :

M. Shatzmiller. — *Les circonstances de la composition du «Musnad» d'Ibn Marzûq,* « Arabica », 1975, 292-299. M. J. Viguera : *Au sujet du « Musnad » d'Ibn Marzûq* « Arabica », 1976, 266-274.

ب ـ 3) قيمة محتوى المسند وأسلوبه :

لقد صمم ابن مرزوق كتابه لكي يسرد سيرة (24) السلطان أبي الحسن ، ولكن هذه السيرة ليست تاريخية ـ علمية (25) محضة بل انها مدح وثناء على مزاياه الروحية ، ويمكن الاستدلال على ذلك من تصفح عناوين فصوله الخمسة والخمسين . بيد أنه في بعض الفصول يفيدنا باطلاعنا على بعض الأحداث والمواقف ، وذلك حين يتحدث مثلا عن الوزراء وحاشية السلطان وكتابهم وخول أعمال تشييد الزوايا والمدارس الخ .. وعلاقاته بالملوك المعاصرين له .

غير أني عزمت على أن أبرز أهمية النواحي الأخرى التي يعتبرها منهاج التاريخ الوضعي ـ وهو منهج قد عفى عليه الزمن ـ ثانوية أو ليست بشيء البتة .

فبلاشير كان يؤكد أن : (26)

« Ce nouveau texte d'histoire mérinide n'offre pas, il s'en faut, dans toutes ses parties, un intérêt aussi grand. Néanmoins l'ouvrage d'Ibn Marzûk reste un champ où l'on pourra glaner une foule d'anectodes, de détails pittoresques, de scènes minitieusement décrites qui ne se trouvent nulle part ailleurs et nous permettent de préciser nos idées sur la vie privée de ces princes marocains du XIVè siècle dont le faste inquiète tant il sent déjà la décadence ».

ومن قبله جاء ليفي بروفنسال ليزعم أن هذه النواحي لا تحتوي الا على (27) :

---

24 ـ في امكاننا أن نستخلص كل هذا من قراءة الصفحات الاولى من **المسند** .. ....

25 ـ ولئلا نطيل هذا التقديم في استعراض أفكار خاصة بهذا النوع الادبي ، أعني كتابة الترجمات ، ولهذا أحيل القارىء المهتم الى ما يقوله عن الموضوع
1962 2 Paris *La philosophie critique de l'histoire*. R. ARON
ط 2 ، 1969 ، الباب الثالث ، ص 108

« La biographie est considérée comme le genre historique par excellence, parce que la personne est la valeur immédiate et suprême. La biographie est finalement une époque vue à travers un homme... »

26 ـ أنظر ما قلناه سابقا في هامش 7 ، وما يقول ابن مرزوق في بداية **المسند** .

27 ـ بلاشير *Quelques détails* ص 83 وليفي ـ بروفنسال ، *Le Musnad* ص 12 .

« Un intérêt d'ordre purement littéraire. C'est la raison pour laquelle il nous semble que si ce texte mérite à coup sûr une édition intégrale, sa traduction serait d'une *moindre utilité* ».

لكننا لا نوافق على هذا الحكم الثاني حيث يحتوي الكتاب على قيمة أخرى وهي أننا نجد خطوطا نظرية عن السلوك السياسي وفن الحكم وسير الأمراء (28) ، أريد أن أقول بهذا : ان كتابا في المديح الملكي – كتاب المسند – يتسق مع الانموذج المثالي الذي كانت تتطلبه من كل حاكم الظروف الحضارية في تلك الفترة . ومن خلال هذه المرآة التي هي المسند تنعكس الصورة المثالية للسلوك السياسي وأساليب الحكم في ذلك العصر وهذا كما نرى ذو أهمية كبيرة ، أو بالاحرى أن كتاب المسند لو وجهنا النظر الى ظروف تأليفه لوجدنا أنه يرسم لنا الصورة التي يجب أن يكون عليها الوالي أكثر مما كان عليه السلطان أبو الحسن ، وباختصار : ما يجب لا ما يكون . وبهذا نستجلي الفكرة التي كانت مطمح الناس في تلك الفترة والتي يتطلبونها عن حكامهم ، كيف لا ، وقد رسمها لنا رجل من رجال الحاشية (29) .

---

28 – أعني أن كتابا في مدائح الملوك قد يتبع اسلوبا مثاليا خاصا بالزمان والحضارة ، وبهذا نستطيع أن نعرف سياسة الملوك في فترة معينة ، ويمكن أن نثبت هذا بالنظر الى كتاب مدائح أبي عامر بن أرقم في القلائد لابن خاقان (تحقيق Paris والى سيرة السلطان المؤيد لبدر الدين العيني (**السيف المحمد في سيرة الملك المؤيد** ، ط القاهرة 1967) .

29 – قد أخبرنا J. GIMENO CASALDUERO (في كتابه (1972 Madrid : *La imagen del monarca en la Castilla del siglo XIV*) عن أنموذج ملكي – كما كان في قشتالة ، قرن 14/8 – قريب في المكان والزمان الى الانموذج المرسوم في **المسند** ، هذا نفسه ما يوجد في كتب السياسة الأخرى المكتوبة خلال العصور الوسطى المتأخرة في المغرب والأندلس ، كما نستطيع أن نرى في **واسطة السلوك في سياسة الملوك** (ط تونس 1279 ، استنبول 1295 ، ترجمة اسبانية 1899 Zaragoza M. GASPAR REMIRO لأبي حمو موسى الثاني (أنظر : **ابو حمو موسى الزياني** لعبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، 1974، 187–208) ، والكتاب الذي أحضره ابراهيم بن أبي نور للسلطان الحفصي أبي يحي أبي بكر (أنظر : أحمد بن الداية : **الفلسفة السياسية عند العرب** ، تقديم وتحقيق عمر المالكي ، الجزائر ، 1971) ، ومقامات السياسة لابن الخطيب (أنظر *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides* : R. ARIE

وبهذا المعنى فان ابن مرزرق يقدم لنا أنموذجا مثاليا لكل وال مسلم قائم على الامر على نهج الخلفاء الاولين . وفى كل فاتحة باب يحدد هذا النهج حسب ما جاء فى القرآن والسنة والشريعة (30) .

يتجلى لنا فى وضوح أن السلطان المريني هو وريث العقيدة المغربية العريقة والتي كانت تستهدف وحدة المغرب وانقاذ الاندلس والعودة الى الشريعة الاسلامية الرشيدة والى انشاء المنافع العامة . وهكذا فان المسند يضع شرطين أساسيين فى كل حاكم : أن يكون أميرا يجري على منهج الاسلام الحكيم وأن يكون متمثلا للأهداف التي سنها الأمراء المغاربة السابقون .

ولابد لي هنا من الاعتراف بأن هذه الاراء التي استنتجها حول نظرية الرأي التاريخـــي قد لفت نظري اليها ما كتبه بول فـــاين (PAUL VEYNE)عن المسيرة التاريخية (31) .

199, 180, 1973, Paris. وكتاب الزهرات لابن سماك ، أنظر :

Ma. J. Rubiera. — *Sur un possible auteur de la chronique intitulée « al-Hulal al-mawsiyya fi dikr al-ajbar al-marrakusiyya »*, Actas II Coloquio hispano-tunecino de Estudios historicos », Madrid, 1973, 143-146.

ومن المهم أن نقارن هذا بما حدث فى حضارات اخرى خلال العهد نفســـه ، كالحضارة الاروبية مثلا ، وأنظر عن هذا :

J.M. Castro y Calvo. — *El arte de gobernar en las obras de Don Juan Manuel,* Barcelona, 1945. M. D. Bell : *L'idéal éthique de la royauté en France au Moyen-Age,* Genève, 1962.

W. Ullman. — *Principes of Government and Politics in the Middle Ages,* London, 1962.

R. Lerner, M. Mahdi. — *Medieval Political Philosophy. A Sourcebook,* New-York, 1963 ; 2e éd., Ithaca, 1972.

30 — روى **المسند** (169أ) عن أبي الحسن قصة موجبة العبرة رويت فى مصادر أخرى سابقة عن بعض ملوك الاسلام الآخرين ، أنظر

F. de la Granja. — *Un texto arabe occidental en la Historia de al-Andalus,* « Al-Andalus », 1970, 211-222.

وكل هذا يوضح لنا قيمة المسند المثالية .

31 — فى كتابه : *Comment on écrit l'Histoire. Essai d'épistemologie* مارس 1971 .

ولكن هذا الميل نحو وضع أسس معنوية لكل حاكم له جذور عميقة في التراث الاسلامي نجده في غير ابن المقفع والطرطوشي وفي غير الجاحظ (32) وابن قتيبة والغزالي (33) .

لقد حان الوقت لكي نعالج موضوعا مهما يخص كتاب المسند وهو قيمته الادبية . من خلال سيرة ابن مرزوق التي وضعناها في الصفحات السابقة تبين لنا انه كان ذا ثقافة شاملة عميقة . وهذا يظهر في جانبين اثنين من المسند ، الجانب الاول أسلوبه في كتابه ونحن الآن نورد ما قاله ليفي بروفنسال للدلالة على قيمة هذا الاسلوب البديع (34) :

« Le *Musnad* apparait, rien qu'a le parcourir, comme l'œuvre d'un ecrivain de tout premier ordre, pour qui ni la langue arabe ni ses tournures les plus élégantes et les plus delicates n'ont le moindre secret. Le style d'Ibn Marzûq tient à la fois si l'on peut dire, de celui d'Ibn Haldun et de celui d'Ibn al-Hatib. Du premier, il a parfois la concission massive, le choix du terme rare, l'idée exprimée sous sa forme abstraite excluant l'emploi de l'épithète ou de l'image classiques ; de l'autre la maîtrise dans l'alignement des périodes cadencées et rimées.

32 - كتب فاوري A. Faure في مقاله النقدي على الترجمة الفرنسية لكتاب التاج ، الذي ترجمه ش . بلات (Ch. Pellat) وقال :

Il est en effet représentatif, pas seulement d'un genre répandu dans la littérature arabe... mais également d'une philosophie politique, d'une vision de l'organisation sociale correspondant à une métaphysique... », (Hesperis », 1955, 713.

33 - Bagley, C.R.F., *Ghazali's Book of Counsel for Kings* (*Nasihat al-muluk*) : 1964, London, G. Salinger : *A Muslim mirror for princes* « The Muslim World » H. Laoust : *La politique de Gazâli*, Paris, 1970. ; G. Richter : *Studienzur Geschichte der älteren arabischen Fürstenspiegel*, Leipzig, 1932

عبد الرحمن بدوي ، الأصول اليونانية السياسية في الاسلام ، القاهرة ، 1954 ،

توفيق بن عامر ، التفكير السياسي في أدب التوحيدي ، «مجلة الفكر» ، فبراير 1975 ، 538–552 .

34 - ليفي - بروفنسال : *Le Musnad* 12

ou le souci de l'assonance n'est pas nécessairement un obstacle à la clarté et à la précision du sens et de l'expression. A ce double point de vue, le *Musnad* constitue encore un monument incontestable de la belle période littéraire hispano-maghribine.

والجانب الثاني هو محتواه ومضمونه وهو كذلك ذو قيمة أدبية فالكتاب يحتوي على أشعار كثيرة كأنها كتب مختارات لقصائد عن الحلم وعن الصبر وعن فضائل أخرى .

ب — 4) آثار المسند في التراث العربي :

لعل المسنـــد لم يحظ الا بانتشار ضئيل . فقد انحصر بين جدران القصور يتأمله رجال الحاشية ويتصفحه المؤرخون الذين كانوا يترددون على بلاط بني مرين ليطلعوا على أخبار ملوكهم ويعرفوا سيرتهم وأعمالهم، وقلما يذكر تراجمة المؤلف شيئا عن المسنـــد ولكنهم يولون الأهمية لمؤلفات أخرى لابن مرزوق وخاصة شرح كتاب الشفاء الذي تكلمنا عنه فيما سبق . وعلى العكس من ذلك فان المؤرخين قد أشاروا الى المسند ونقلوا عنه فابن الاحمر (المتوفى فيفاس ج 807 — 1404/810 — 1407) قد عرف المسنـــد واستفاد منه مع أنه لا يذكر اسم الكتاب الا مرة واحدة وبغير دقة (35) .

وابن غازي في كتابه : « الروض الهتون في مكناسة الزيتون » (36) يتكلم عن مناقب أبي الحسن الواردة في كتاب ابن مرزوق . وكذلك نجد أن هذا الكتاب قد ذكره كل من التنسي (37) وابن حجر (38) .

---

35 — روضة ، 53

36 — انظر الترجمة الفرنسية لهوداس
« Journal Asiatique », *Monographie de Méquinez,* O. Houdas
ص 140 ، كذلك هذا مذكور في الحلل السندسية ، 1 ، 515 .

37 — انظر
25, *Histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen* : J.J. L. Bargès

38 — درر ، 3 ، 450 — 452 .

ولعل ابن القاضي هو أكثر من ذكر الكتاب ذكرا صحيحا وعدة مرات حين يترجم لمؤلفنا وكذلك استفاد منه بوصفه مرجعا للأخبار التي لم يعثر عليها الا فى كتاب المسند مثلا ترجمة أحمد المديوني والزواوي (39) .

ثمة دلائل أخرى تشير الى اطلاع ابن القاضي على كتاب المسند والاستفادة منه فهو قد اتخذه نموذجا لكتابه الذي ألفه عن سلطانه المنصور السعدي وعنوانه : « المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور » الذي يحتوي على (40) :

« ...l'introduction rapelle la généalogie d'el Mansoûr, la noblesse de sa famille et sa noblesse personelle. Puis viennent dix-huit chapitres : ils ne forment pas, comme on pourrait s'y attendre, une histoire du Maroc au milieu de l'époque sa'dienne, mais, au contraire, une série de développements sur chacune des qualités personelles du souverain. C'est ainsi qu'Ibn al-Qadi s'occupe succesivement de la beauté physique et morale d'el Mansoûr, de la façon dont il s'imposait l'exécution des obligations religieuses, de son intégrité vis-à-vis de ses sujets, de la manière grandiose dont il faisait célébrer la fête de la Nativité du Prophète, de sa piété, des générosité, de sa patience, de sa modération, de sa piété filiale, des connaissances qu'il avait acquises ».

لسنا بحاجة الى الالحاح فى التدليل على التشابه بين الكتابين اذ يكفي قراءة فهرس المسند للتأكد من ذلك .

والمقري (المتوفى فى 1040/1631) قد رجع الى المسند فى مؤلفه الضخم : « نفح الطيب » وأخذ عنه . فهو واضح وصريح حين يقول

---

39 – درة ، 2 ، 442 : فى فهرس **الدرة** لا يذكر **المسند** الا هذه المرة (تحقيق Allouche 2 ,605 ولكننا نعرف أن **المسند** قد ذكر مرتين على الاقل ، ولكن المحقق لم يستطيع أن يستنتج هذا (أنظر درة 1 ، 29 ، 44 – 45 (لم أتمكن من الاطلاع على النص المحقق الجديد المنشور فى تونس والقاهرة)

10 *Le Musnad,* Lévi-Provençal :
« Il y a en certainement inspiration de la part d'Ibn al-Kadi »

40 – أنظر كذلك *Chorfa,* Lévi-Provençal 105 وابن سودة ، دليل ، 162 ،

عنه (41) : ومن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذي ألف فيه وسماه « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن » .

وكذلك فانه يسرد عنه في ثلاث مناسبات :

1 ــ بمناسبة الحديث عن مصحف عثمان الذي وصلت نسخة من نسخه الى حوزة أبي الحسن المريني (42) .

2 ــ بمناسبة الحديث عن القافلة التي أرسلها أبو الحسن الى مكة المكرمة التي حملت النسخ التي كان أبو الحسن نفسه قد كتبها بيده ، وكذلك الرسالة التي بعث بها الى سلطان مصر الملك الناصر ابن قلاوون (43) .

3 ــ بمناسبة الحديث عن أعمال أبي الحسن في الاندلس (44) .

لقد ظن ليفي ــ بروفنسال أن كلا من ابن القاضي والمقري قد اطلعا على نسخة المسند التي كانت موجودة في المكتبة السلطانية بمراكش(45) ولكن ظهور نسخة ثانية ــ وهي نسخة الرباط ــ تجعل هذا الافتراض قابلا للشك .

---

41 ــ نفح 6، 216 ــ 217 .

42 ــ نفح 1 ، 605 .

43 ــ نفح ، IV 400, Canard M.
*Les relations entre les Mérinides et les Mamelouks au XIV*e *siècle* : « Annales de l'Inst. Et. Orientales » , 5 (1939-1941), 41-81.
Lévi-Provençal, *Note sur un Qor'an royal du XIV*e *siècle,* « Hesperis », 1 (1921) 83-86.

44 ــ نفح 4 ، 404 .

45 ــ Lévi-Provençal : *Le Musnad* 9

وكذلك فان المؤرخ المغربي الناصري (المتوفى ف 1315/1897) فى كتابه الاستقصاء ينقل عن المسند (46) ولكننا نعتقـد أن الناصري نسخ ما ورد فى نفح الطيب من أخبار منقولة عن المسنـد .

ب ـ 5 : المسنـد والأبحاث المعاصرة :

ان ليفي ـ بروفنسال هو الذي عرفنا بكتاب المسنـد واليه يعود الفضـل فى ذلك حيث أنـه صنف مخطوط المسنـد الموجـود فى الاسكوريال (47) بل أنه بعد عام من ذلك قام بنشر دراسة (48) عنه تحتوي على : التعريف بالمؤلف وبالكتاب (ص : 1 ـ 15) ؛ وتحقيق وترجمة من الورقة 6 أ الى الورقة 7 أ ، 84 أ ـ 86 ب ، 88 ب ـ 89 ب ، 96 أ ـ 98 أ ، 99 ب ، 100 أ ، 100 ب ،109 ب ، 110 أ وفقرات من الورقة 88 أ و 99 أ ، وبهذا اختار أهم الاخبار التي لها أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الوضعي ، وذلك على ما هي عليه من وضوح ومباشرة ولأنها مناسبة لما فعله آنذاك فى منهج التاريخ ، لأن هذا المنهج لابد منه ، بل أن يتجاوز الى منهج آخر أكثر عمقا وهو منهج التاريخ الكامل .

وقد كان هذا البحث الذي نشره ليفي ـ بروفنسال مفيدا جدا لكل الدراسات الاثرية والتاريخية والادبية المتعلقة بالمغرب فى القرون الوسطى.

---

46 ـ فى **الاستقصاء** ، 206،286، هذا مايراه ليفي ـ بروفنسال ونحن نوافقه عليه تماما ، لأننا نعرف طريقة الناصري فى الكتابة حيث يعتمد فقط على كتب منشورة ومعروفة بدون الرجوع الى المصادر القديمة عادة ، انظر ليفي ـ بروفنسال : *Le Musnad ; Chorfa*, 349 9

47 ـ *Les Manuscrits arabes de l'Escurial*, Paris, 1924 3 رقـم 1666 ، أخطأ كاسيري (Casiri) فى تصنيفه **المسند** ، كمـا قلنا من قبل . غاينغـوس (Gayangos) عرف **المسنـد** وكشـف اسم مؤلفه ، انظـر ما يقـول Thoden, *Abu l-Hasan*, 10.

48 ـ منشورة فى مجلة Hesperis 5 (1925), 1-82 وبعد منفردة بالمطبعـة Paris, 1925, E. Larose

فى الأعوام التالية أعلن بلاشير (Blachère) عزمه على القيام بنشر المسند بكامله فى سلسلة (49) :

« Textes arabes relatifs à l'histoire de l'Occident musulman » :

الجزء الخامس ، تحت عنوان : Ibn Marzuk Al-Khatib Al-Tlimsani

Kitab al-Musnad as-sahih al-Hasan, monographie du sultan mérinide de Fès Abu 'l-Hasan 'Ali, texte arabe publié pour la première fois, d'après le manuscrit de l'Escurial, par R. Blachère, maître de conférences à l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, avec une introduction par E. Lévi - Provençal.

غير أن هذا الكتاب لم ينشر . ونظن أن بلاشير قد باشر ذلك اذ أنه فى عام 1928 نشر فى Mémorial Henri Basset (50) مقالا عنوانه :
La vie privée du sultan mérinide Abu 'l-Hasan
الذي ما هو الا الترجمة الفرنسية للفصل الخامس من الباب الرابع لكتاب المسند ، ولعل بلاشير لما يكن قد ألم بالموضوع الماما كاملا . ويستنتج هذا من عدة نواح غامضة وردت فى المقال المشار اليه .

ولعل بلاشير لم يستبين فائدة المسند بالنسبة للتاريخ الكامل وهو فى هذا معذور ، لأن منهج التاريخ اذاك كما قلنا كان هو المنهج الوضعي.

وكذلك فانه لم ينشر ما أزمع عليه ، وقد يتضح ما قلنا مما ورد فى مقاله المذكور (51) :

« Car ce noveau document d'histoire mérinide n'offre pas, il s'en faut, dans toutes ses parties, un intérêt aussi grand ».

---

49 - كانت قد ينشرها La librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris
هذا الاعلان مذكور فى فهارس كتب المطبعة .

50 – Paris, 1928, 83 - 89 فى الصفحة 86 ، فى الهامش 1 يقول :
« Le texte arabe étant en cours de publication, on jugé inutile de le reproduire ici ».
ولكن هذا التحقيق لم ينشر قط .

51 – R. Blachère : *Quelques détails*, 86.

وهو فى هذا يبرهن على ما أشرنا اليه من أن هذا ذو قيمة بالنسبة للتاريخ الوضعي السائد فى التاريخ الكامل (52) الذي يأخذ بعين الاعتبار جميع المظاهر التاريخية التي تتعلق بواقعة من الوقائع ، ولكنه يصنف كل خبر حسب علاقته بهذه الواقعة ، والتاريخ الوضعي الذي يهتم بالأفعـال السياسية التي هي التعبير المباشر الخارجي للحـادثة المكانية الزمانية ، يغفل عن أن هذه الافعال السياسية هي أقل المظاهر دلالة على الحادثة وأقلها تأثـرا بها وليس المسند بكتـاب يسرد الأحـداث التاريخية الوضعية متسلسلة ولعل هذا هو الذي جعل المهتمون بالتاريخ السياسي يترددون فى نشر الكتاب .

ان المصادر التاريخية الاخرى المتعلقة بدولة بني مرين فيها أخبـار الحدث السياسي ، وليس هذا بالشيء القليل ، اذ أنه بدون أخبار وضعية لا نستطيع أن ندعم أو نضع فى موضع صحيح معلوماتنا النفسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية والميـزات الدينيـة والعـرقيـة والانثروبولوجية ... (53) عن فترة أو عهد ؟.

---

52 — عن هذه التسمية ومفهومها حسب فهمي واستفادتي منها ، انظر
Comment on écrit l'Histoire P. Veyne
l'histoire complète évacué la sociologie : باب 12 Paris ، 1971
Histoire, sociologie, histoire complète : ص 312 — 342 وخاصة الفصل
ص 339 ، وهو يقول :

« depuis un bon tiers de siècle, les historiens font, sous nom d'histoire non-événementielle... ce qu'on aurait appelé auparavant de la sociologie ».

53 — اكتب هذا بوحي مما قرات فى مقال J. Bosch Vila : Hacia un nuevo *concepto de la Historia del Islam. Ideas para una interpretacion y metodologia de la historia islamica,* Atti Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici, Ravello, 1966. Napoli, 1967, pp. 225, 230.

أضف الى هذا أن المسنـــد يظهر بما ينقله الينا مما نعرفه من مصادر أخرى عن عهد بني مرين • ومن الغريب أن بلاشير كان على وشك أن يعبر على هذا الرأي حين يقول (54) :

« Qu'Abu l-Hasan fût entre tous un monarque « abondant en vertus » nous le savions déjà par la *Rauḍat an-nisrin* d'Ibn al-Ahmar ; que le formalisme le plus étroit régnât à la Cour de Fès, nous le sentions bien en approfondissant Ibn Haldun ; mais ce qui n'était qu'une sèche formule sous la plume du premier, ce qui n'était qu'implicite dans le second, reçoit dans ce passage du *Musnad* son développement et sa confirmation ».

والمسنـــد بالمقارنة مع المصادر الاخرى عن الفترة يفوقها من حيث ـأنه يعكس البنى العقائدية لتلك الفترة ومفاهيمها الروحية وعقليتها ونمطها الحضاري .

---

84 *Quelques détails,* Blachère — 54

قائمة مختصرات المراجع المذكورة وتفصيلها .

1 ــ في اللغة العربية :

1 ــ الاحاطة : الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، مخطوط بالاسكوريال ، رقم 1673 .

ــ كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة ، القاهرة 1901/1319 ــ 1902 ، جزآن .

ــ الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة 1955/1375 ، الجزء الاول .

2 ــ استقصاء : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للناصري السلاوي ، تحقيق جعفر ومحمد ابني المؤلف ، الدار البيضاء ، 1954/1373 .

Traduction de I. Hamet : *Kitab al-Istiqça li-akhbar doual al-Maghrib el-Aqça,* Tome quatrième : Les Mérinides, (archives marocaines, vol. 33), Paris, 1934.

3 ــ الأعلام : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، للزركلي (ط 2) دمشق ، 1954 ــ 1959 ، 10 أجزاء .

4 ــ أنس : أنس الفقير وعز الحقير ، لابن قنفذ ، تحقيق محمد الفاسي و A. Faure ، الرباط ، 1965 .

5 ـ ايضاح : ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون للبغدادي ، استنبول ، 1945 ـ 1947 ، جزآن .

6 ـ بستان : البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، لابن مريم ، تحقيق ابن أبي شنب ، الجزائر 1326/1908 .

Trad. et ann. F. Provenzali : El-Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen, Alger, 1910.

7 ـ بغية الرواد : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بني عبد الواد ، لأبي زكرياء بن خلدون ، تحقيق وترجمة :

Histoire des Beni'Abd el-Wâd, rois de Tlemcen : A. Bel, Alger, 1904-1913.

8 ـ بغية الوعاة : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطي ، (ط ـ 2) تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة 1384/ 1964 ـ 1965 ، جزآن .

9 ـ تاريخ ابن الشماع : الادلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع ، تحقيق عثمان الكعاك ، تونس 1355 / 1936 .

10 ـ تاريخ الدولتين : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي (ط ـ 2) تحقيق محمد ماضور ، تونس 1966 .

Trad. E. Fagnan : Chronique des Almohades et des Hafsides attribuée à Zerkechi, Constantine, 1895.

11 ـ التعريف : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة 1951 .

12 ـ تعريف الخلف : تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي، الجزائر، 1328 / 1910 .

13 ـــ جذوة : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، لابن القاضي ، ط حجرية ، فاس 1309 / 1891 ـــ 1892 .

14 ـــ حسن المحاضرة : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة 1387 / 1967 ،جزآن .

15 ـــ الحلل السندسية : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، للوزير السراج ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس ، 1970، ج 1.

16 ـــ دائرة المعارف : دائرة المعارف ، قاموس عام لكل فن ومطلب ، بادارة فؤاد افرام البستاني ، بيروت 1956 ـــ 1957 ، 7 أجزاء.

17 ـــ درة : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ، لابن القاضي ، تحقيق ش علواش ، الرباط 1934 ـــ 1936 ، جزآن .

18 ـــ الدرر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر ، تحقيق محمد جاد الحق ، القاهرة ، 1966 ، 5 أجزاء .

19 ـــ دليل : دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، لابن سوده (ط ، 2) ، الدار البيضاء 1965 ، جزءان .

20 ـــ ديباج : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب لابن فرحون ، القاهرة 1351 / 1932 .

21 ـــ رحلة ابن بطوطة :

Voyages d'Ibn Batouta, texte arabe accompagné d'une traduction par C. Defremery et B.R. Sanguinetti. Rééd. V. Monteil, Paris, 1969, 4 t.

22 ـــ رقم الحلل : رقم الحلل فى نظم الدول ، لابن الخطيب ، تونس 1317 / 1899 .

23 ـــ روضة : روضة النسرين فى دولة بني مرين Ed. et trad. ann. avec app. par G. Bouali et G. Marçais, Paris, 1917
(ط ، 2 : تصدير عبد الوهاب بن منصور ، الرباط 1962) .

24 ـــ شجرة النور : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية لمخلوف ، القاهرة ، 1350 / 1931 ـــ 1952 / 1933 ، جزءان .

25 ـــ شذرات الذهب : شذرات الذهب فى أخبـــار من ذهب ، لابن العماد ، القاهرة 1350 / 1931 ، 8 أجزاء .

26 ـــ الضوء اللامع : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للسخاوي ، القاهرة 1353 / 1935 ـــ 1355 / 1937 ، 12 جزءا .

27 ـــ عبر : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، لابن خلـــدون ، (ط ، 2) بيـــروت 1956 ـــ 1961 (فى سبعة مجلدات) .

Trad. de Slane : *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale,* nouvelle éd. de P. Casanova, 4 t., Paris, 1925-1956.

28 ـــ العقد الثمين : العقد الثمين ، لمحمد الحسني ، القاهرة 1388 / 1969 .

29 ـــ الفارسية : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية لابن قنفذ ، تحقيق الشيخ الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، تونس 1968.

V. : Ben Cheneb M. : *La fârisiya ou les débuts de la dynastie hafside par Ibn Qonfod de Constantine,* « Hesperis » 8 (1928) 37-41.

30 ــ فهرس : فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعـاجم والمشيخات المسلسلات ، الكتـاني ، المغرب ، 1346 / 1927 ــ 1347 / 1928 ،جزءان .

31 ــ كحالة : عمر رضا كحالة : معجم المـؤلفين ، دمشق ، 1957 ــ 1961 ، 15 جزءا .

32 ــ كشكف : كشف الظنون عن أسامي التب والفنـون ، لحاجـي خليفة ، اسطنبول ، 1941 ــ 1943 ، جزءان .

33 ــ المؤنس : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، لابن أبي دينار ، تحقيق محمد شمام ، تونس 1967 .

ــ معجم : أنظر : كحالة .

34 ــ نحلة : نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب ، لابن عمـار ، الجزائر 1320 / 1902 .

35 ــ نظم الدر : نظم الدر والعقيان فى شرف بني زيان :
Histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen. 1852, Paris, Trad. J.J.L. Bargès.

36 ــ نفح : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقري ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1388 / 1968 ، 8 أجزاء .

37 ــ نيل : نيل الابتهـاج بتطريز الديبـاج ، لأحمد بابا التنبكتي ، القاهرة (بهامش الديباج) 1351 / 1932 .

38 ــ هدية العارفين : هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، اسطنبول ، 1951 ــ 1955 ، جزءان .

2 ـ فى اللغة الأجنبية :

BARGES J.J.L. — *Complément de l'histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen, ouvrage du cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenessy,* Paris, 1887.

BARGES J.J.L. — *Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom,* Paris, 1859.

BEL A. — *Inscriptions arabes de Fès,* « Journal Asiatique », série 11, t. 9 (1917) 303-329 ; 10 (1917) 81-170, 215-267 ; 12 (1918) 189-276, 337-399 ; 13 (1919) 5-96 ; 14 (1919) 467-479, Paris, 1919.

BENCHEKROUN M.A. — *La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides* (13-14-15-16 siècles), Rabat, 1974.

BEN CHENEB M. — *Etude sur les personnages mentionnés dans l'idjâza du Cheikh Abd-al-Qâdir al-Fâsy* (Actes du XIV^e^ congrès international des orientalistes, t. IV), Alger, 1905.

Berbères عبر : أنظر :

BLACHERE R. — *Quelques détails sur la vie privée du sultan mérinide Abû-'l-Hasan,* « Mémorial Henri Basset », Paris, 1928, t. 1, 83-89.

Bostan بستان : انظر :

BROCKELMANN C. — *Geschichte der arabischen litteratur,* 2 t., Weimar, 1898-1902 ; 3 t. supl., Leiden, 1937-1942 ; 2^e^ ed., Leiden, 1943-1949.

BROSSELARD Ch. — *Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émir Béni-Zeyyan et de Boabdil, dernier roi de Grenade, découverts à Tlemcen,* « Journal Asiatique », série 7, t. 7 (1876) 197.

BRUNSCHVIG R. — *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV^e^ siècle,* 2 t., Paris, 1940-1947.

d'HERBELOT M. — *Bibliothèque orientale ou Dictonnaire universel...* Paris, 1781.

Ibn Battuta, *Voyages* رحلة : انظر :

LEVI-PROVENÇAL E. — *Les historiens des Chorfa,* Paris, 1922.

LEVI-PROVENÇAL E. — *Un nouveau texte d'histoire mérinide : le « Musnad » d'Ibn Marzûk,* « Hesperis », 5 (1925) 1-82.

MARÇAIS G. — *Les Arabes en Berbérie du XI^e^ au XIV^e^ siècle,* Constantina-Paris, 1913.

NWYIA P. — *Ibn Abbâd de Ronda* (1332-1390), Beirut, 1961.

TANASI. — *Histoire des Beni Zeiyan* نظم الدر : انظر :

THODEN R. — *Abu 'l-Hasan Ali. Meriniden politik zwischen Nordafrika und Spanien in den Jahren 710-752 H./1310-1351,* Freiburg im Breisgau, 1973.

ZERKECHY, *Chronique.* تاريخ الدولتين : انظر :

المسند

فهرس الابـــواب

القسم الثاني

المسند الصحيح الحسن

مقدمــــة

* بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المسند الصحيح الحسن في مآثر (1) مولانا أبي الحسن .

تأليف الشيخ الفقيه العلامة الخطيب البليغ أبي عبد الله محمد بن مرزوق الاكبر التلمساني (رحمه الله ورضوانه يتوالى اليه) .

الحمد لله الذي سوغ لنا موارد نعمه ، عذبا ، زلالا ، وأسبغ علينا مواهب كرمه ، انعاما ، وافضالا ، وأوجب علينا شكر المحسن وجوبا ، فسح لنا في الثناء عليه مجالا ، وألزمنا الاعتراف بحق المنعم من العبـاد الزاما لله اعترافه بحق المنعم ، وضربه لنا أمثالا ، ثـم عرفنـا طريـق أداء حقه اللازم أقوالا وأفعالا ، نحمده على ما أولى من النعم ووالى ، ونشكره شكرا يدوم ويتوالى ، ونشهد أن لا اله الا الله ، وحده ، لا شريك له ، شهادة نجد بركتها حالا ومالا ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله ، الذي لم يجعل له من أبناء جنسه في الفضل شبيها ولا مثالا (صلى الله عليه ، وعلى آله الاكرمين ، وأصحابه المنتخبين، صلاة تتصل مع الاحيان اتصالا وتصادف قبولا واقبالا)

1 ـ ومحاسن : مضاف هنا في هامش المخطوطة الموجودة في الاسكوريال(ونشير بـ (إ) الى هذه المخطوطة في التعليقات القادمة واشارة مخطوطة الرباط هي «ر») .

ملاحظة عامة :

سنشير الى بداية كل ورقة من مخطوطة الاسكوريال بالعلامة ((/)) في متن النص وسنضع على الهامش رقم ورقتها المناسب . والاشارة الى أوراق مخطوطة الرباط هي ((*)) .

وبعد ، فاني لما قيدني احسان من أحسن الي ، وأفاض انعامه علي ، ومن بموالاته شرفت ، ولولا انتسابي اليه ما عرفت ، فصرت لا أجري على لساني الا طيب شكره ، ولا أقوم ولا أقعد الا بذكره ولا أستنشق الا عبير نشره ، ولا أسلو عن حبه بغيره ، وهو مولاي ، الذي فى حجر تربيته نشأت ، وبين يديه اكتسبت ما به على النظراء ظهرت ، ومن أنوار
حضرته العلية اقتبست * ومن المعارف المبثوثة بين يديه استفدت 2
مولانا أمير المسلمين أبو الحسن علي ، ابن موالينا الأمراء الراشدين ، خاتمة الملوك بلا منازع ، وسابقهم الى المعلوات غير مدافع .

وخبرت من سيره الجميلة وخصاله الكريمة ، وشاهدت من شيمه العظيمة ما أعتقد أني اختصصت فى عصره بمعرفته ، وتميزت بتحصيل طرقه ومحجته .

وعرضت بين وفاته (رضوان الله عليه) وزمني الآن عوارض امتحان ، وتقلبات أزمان ، واختلاف أحوال وظعن وترحال ، وكابدت فقد الاقران، وقلة الاخوان ، وجفوة الاوطان ، وهجر السلطان وكان من الأمر ما كان . فحصلت فى بلاد الاغتراب وذقت ألم البعد بعد الاقتراب ، وأثقلني العيال وآدني الاقلال .

وبلغني الآن ما امتن الله به على الخلائق وما شرفت به المغـارب عـلى المشارق فى احياء الحسن الذي عهدته ، وعـود اللطف الذي تعودته ، والمعهود الذي بالوطن المحبوب حوجته وقيام مـولاي ابـن مولاي نجله الذي أعز الله بـه الاسـلام ونصره ، وأجـرى عـلى يديه من العـدل والفضل ، ما له ذخـره ، وفتـح له الفتـح الذي بعد العهد بمثاله . وعلى يده أظهر مولانا أمير المسلمين المجاهد فىسبيل رب العالمين أبو فارس عبد العزيز،فلما تعرفت أنهجرى على سننه، وأحيا ما نسي من سننه ، هاجت لواعج الاشواق ، وتجدد ألم البعد

والفراق ، وتعذرت الاسباب وعرضت الموانع وقطعت دون عين اليقين القواطع ، وحرمت النفس مشتهاها ولم تدرك من مشاهدة ما هي مغرمة به متمناها . وكنت لا أنسى ذكر مناقب مولانا المرحوم وأيامه ، ولا أغفل أبدا عنـــد شمائله عن شكر انعامه ، وكيف أنسى ملكـــا (*) 3
شكر أنعمه فرضي ونفلي فى سري واعلاني ؟ ، وكيف أنسى أيادي ملوك أورثوني الشرف ، وأكسبني فراق مغانيهم الحزن والاسف . هم سادة لما سعت عن بابهم قدمي زلت ، وضاقت بي الامصار والظروف ، قد حارب الصبر والسلوان بعدهم قلبي ، وصالح طرفي الدمع والأرق .

لا جرم أني حيث ما كنت فاليهم أنسب ، ومن عداد أوليائهم أحسب ، ولوجوههم أرعى وأحترم ، وبانتسابي لهم فى كل البقاع ألحظ وأكرم ، وفى مثل حالي هذه قال الصفي : (من الطويل)

جزى الله عني مالك الرق كاسبه   فلولا اسمه ماكنت فى الارض أعرف
ولـولا معاليـه الشريفة لم تكـن   علي ملـوك الارض تحنـو وتعطف
أحدثهم عـن بـره دون سـره   والحق فى تعديد مـالي يتحـف

وأنا وحق جلال الله أهوى ذكره بعد الموت كما كنت فى الحياة ، وأتمثل بما أنشدنيه شيخنا أبو حيان فى شيخه ابن حزم الظاهري : (من الخفيف)

لا تلمني ان كنت أهوى عليا   وأراه أحـــق بالتقديـم
فعـلي امـام كـل امـام   وعـلي عظيـم كـل عظيـم

بادرت ، حين تعذر أملي وتغـيرت فى الوقت طرقـي الـى محلـه الشريف وسبلي ، أن أتقرب اليهم بما يجدد فى حضرتهم العلية ذكره ، ويرى اسنـاد حديثي الصحيح وخبـري ، ورأيت أني قـد حصلت

مناقب مولاي المرحوم ما لم يحصله من صنفي غيري ، فأهديت حلاهم اليهم ، وقدمتها وسيلة بين يديهم ، ورجوت أن تكون وسيلة مقبولة ، وبالمواصلة المعهودة موصولة ، وللقراء بالحضرة الكريمة مأهولة ، وعلى أحسن * وجوه التأويلات محمولة ، وبكفاية مقامها العلي مكفولة ، 4
وسيوف العناية على من تعرضها أو مصنفها بالطعن من حاسد مسلولة ، فاستخرت بالله وصنفت مختصرا وجيزا فى مناقبه العالية ، ومفاخره السامية ، أنقل القضايا التي تلقنتها عنهم كما هي ، وأسند الاخبار التي حملتها وسبقتني عن المعتبرين من المسندين والمعتمدين من المؤرخين ، وأضيف الى ذلك ما يناسب المحل ويشاكل الفصل ، على أن سيرهم رضي الله عنهم بين يدي خليفته المولى منصوبة الاعـلام ، محفوظـة النظام ، وحاملها المباشر لها ثقتهم لأرضى الفاضل الهمام ، أبو حسون علال يتلو بين يديهم سورها على الدوام ، ويجلو عليهم صورها الوضاحة البسام (1) ، فمن سعادة مولانا الوارث المؤيد أن ذخر الله لهم حياة هذا الفاضل المخصـوص بالحظوة والقـرب ، العليم بالظاهر لغيـره (2) / من هذه الاوصاف والغيب ، الطاهر الاعراق والجيب ، ومن 1 أ
شاركه فى المعرفة بكثير من هذه الجمل والاحاطة بالموضح منها والمفصل، حضرتهم العالية بهم معمورة ، والخصائص المذكورة بينهم مشهورة ، لكنني رأيت تخليدها فى الدفاتر أعم نفعا وألصق بالخواطر (3) وليتحدث بها فى مستقبلات الأزمنة البادي والحاضر ، وتخيرت حصرها فى مقدمة وأبواب وخاتمة .

وسميته : المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن (4) مولانا أبي الحسـن .

---

1 ـ النسام : فى الاصل ، ولكن الهامش مكتوب : البسام

2 ـ من هنا تبدأ مخطوطة الاسكوريال ونشير اليها بـ «ا» فى هذه التعليقات . واشارتنا الى مخطوطة الرباط هي «ر» .

3 ـ خاطر : فى «ا»

4 ـ محاسن : مضاف فوق كلمة «مآثر » فى «ا» .

أما المقدمة فتشتمل على فصول ، الفصل الاول فى حقيقة ❊ الخلافة 5 لغة وشرعا ، أما لغة فموضوع هذا اللفظ هو « القائم مقام غيره » ، من قولهم : « خلف فلان فلانا » ، (والخلف بتحريك اللام ، من الصالحين اصطلاحـــا) .

وأما حقيقته الشرعية فهو عبارة عمن يقوم مقام النبي صلى الله عليه وسلم وينوب منابه فى الرعاية والحفظ . وزعم ابن العربي فى سراج المريدين أن هذا هو موصوع هذا اللفظ لغة ، وليس به ، والأصل فى اطلاق هذا الاسم عليه قوله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل فى الارض خليفة » ، فقيل : « سمي بذلك لأنه خلف الجان فى سكنى الارض » ، وقيل : « خلف للملائكة » ، وقيل : « خليفة يحكم بيني وبين خلقي » ، فكأنه سبحانه جعله خليفة بهذا المعنى ، وهذا هو آدم ومن قام مقامه من ذريته ، وهو اختيار ابن مسعود وجماعة .

وذكر الله الخلافة فى الأرض لخمسة نفر . لآدم (عليه السلام) ، « فكان الحاكم فى الارض » ، ولداود (عليه السلام) فى قوله : « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض (1) فاحكم بين الناس بالحـــق » . ولهارون (عليه السلام) فى قوله ، اذا قال لأخيه هارون : « اخلفني فى قومي واصلح » ، وللصحابة رضي الله عنهم فى قوله تعالي : « وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ، يعني الانبياء (عليهم السلام) (2) . وقال تعالى فى المؤمنين : « ويجعلكم خلفاء الأرض » ، لأن المسلمين أتوا آخر الأمم مع نبيهم صلى الله عليه وسلم .

---

1 — فى الأرض : غير موجود فى «ا»

2 — وقيل أن محمدا صلى الله عليه وسلم خليفة الكل : زيادة هنا فى «ر»

وقيل ان الخلفاء أربعة أنبياء / كما أن الصحابة (رضوان الله 1 ب
عليهم) أربعة وهم : آدم وداود وهارون وسليمان (عليهم السلام) (*) 6
وقد ثبت أن سليمان (عليه السلام) كان خليفة فى جميع الأرض وحاكما على الانس والجن (قال ابن العربي فى القانون) • وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم خليفة الكل لأن الله تعالى بعثه للانس والجن وأوجب على مجموع أهل الأرض الايمان به ، فهو الخليفة الأول فى الشرف والفضل ، والآخر فى البعث ، ويدل على تسميته صلى الله عليه وسلم خليفة ما ذكره القاضي فى الشفاء ، أنه لما صلى مع الملائكة ببيت المقدس ليلة الاسراء ، قالت الملائكة لجبريل عليه السلام : « مرحبا بالأخ والخليفة، فنعم الأخ هو ونعم الخليفة » وتكرر ذلك منهم فى الاسراء •

الفصل الثاني

اختلف العلماء فى الخلافة ، وهي الامامة التي جرت عوائد أهل علم الكلام وأئمة أصول الدين بذكرها فى خواتيم تواليفهم ، وان كان الكلام فيها ليس من أصول الدين كما قال الآمدي فى الأبكار ، بل هي مـــن الفرعيات ، هل هي واجبة أم لا ، قال الآمدي ، وقبل النظر فى ذلك لابد من تحقيق معنى الامامة •

قال بعض أصحابنا انها عبارة عن رياسة فى الدين والدنيا عامة لشخص من الأشخاص • قال : وينتقض ذلك بالنبوة ، فالحق أن الامامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول صلى الله عليه وسلم فى اقامة قوانين الشرع وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه •

فاختلفوا فى وجوب نصب الامام وطريق الوجوب اختلافا كثيرا ، حسبما يقرر فى علم الكلام ، وتلخيصه أن مذهب أهل السنة والأشاعرة

أنه واجب ❊ على الناس سمعا ، قال الامام فى الأربعين وهو مذهب أكثر المعتزلة والزيديةوذهب أبو الحسن البصري والبغداديون من المعتزلةالىأنه واجب على الناس عقلا . وذهب بعض الى وجوبه على الله ، تعالى الله عن أن يجب عليه شيء . وهؤلاء اختلفوا ، فمنهم من جعل طريق ايجابه عليه العقل ، ومنهم من جعل طريق ايجابه السمع . وبوجوبه عليه عقلا قال صاحب التجريد وهو كتاب عمت به البلوى / وحصلت منه فى الاسلام داهية دهياء .

وذهب أبو بكر الأصم الى أنه لا يجب مع الأمن لعدم الحاجة اليه وانما يجب عند الخوف وظهور الفتن . وذهبت الخوارج الى عدم وجوبه مطلقا وذهب الفوطي وأتباعه الى عكس ما ذهب اليه الأصم لأنه عند الفتن ربما يؤدي نصبه لزيادتها . ومستند أهل السنة اجماع المسلمين على نصب أبي بكر خليفة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه فى خطبته ان محمدا قد مات ، وانه لابد لهذا الدين ممن يقوم به ، فبادر الكل الى تصديقه . والاجماع دليل شرعي سمعي ، ولم يخالف فى ذلك أحد من المسلمين وأرباب الدين ، وبسط الأدلة لكل قائل وذكر الرد والانتصار موضوعه كتب أصول الدين . فاقامة الخليفة بين الناس واجبة على أهل الحل والعقد من المسلمين .

واتفق أهل السنة والمعتزلة على أن الخلافة سبب حصولها عقد البيعة ، واختلفوا فى اشتراط عدد أهل الحل والعقد ، على ما هو مقرر فى علم الأصول والفقه . وقد استوعبت الكلام على هذه الفصول فى كتابي الذي سميته ❊ بايضاح المراشد فى أجوبة أبي راشد ، وقد كان نعق ناعق ممن تعلق بأذيال بعض الفقهاء ببجاية أفتى ، لما حصر (1) مولانا أمير المسلمين أبو الحسن رحمة الله عليه بالقيروان ، بعجزه وانخلاعه من الخلافة

1 – حوصر : فى «ر»

وأحسن من استوعب الكلام فى هذا الأصل المازري (2) ، من علمائنا المالكية ، فى مقدمة كتابه القضاء من شرح التلقين ، فانه حرر مواضع الخلاف ، وهذب طرقها ، واستوفى ما يحتاج اليه من ذلك . وبينت هنالك أن الخلافة صارت لمولانا أبي الحسن رحمه الله بعهد أسلافه وانعقاد اجماع أهل العدوتين عليه .

الفصل الثالث
فى فضل الخلافـة

ومن المقرر أن شرف الشيء هو بحسب نسبته واضافته ، واذا كانت الخلافة نيابة عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا منزلة أعلى منها ، ولا شرف يساميها . روينا فى الصحيح عن عبد الله بن عمر (1) قال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : لا حسد الا فى اثنين / ، 2 ب
رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق وآخر أتاه الله حكمة (2) فهو يقضي بها ويعلمها . وروينا فى الصحيح ، المجمع عليه ، قوله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله » . قال فيه بعض علمائنا : ولا يجتمع جميعها الا فى امام . وجرت لمولانا أبي الحسن رحمه الله حكاية أجراها عبد الله بن علي وزيرهم كان وتربيتهـم بـين أصحابنا الفقهاء فاتفق جميعهم على ما خبروه من أحواله رضي الله عنه أنه جمع الخصال السبع وسنقف على ذلك مفصلا ، ان شاء الله تعالى ، فى أعماله وأحواله مستقرا بحول الله تعالى .

9 ※ وقد أخرجت أربعين حديثا فى فضل الخلافة وأودعت جملة منها فى كتابي الذي عارضت به (3) كتاب العفو والاعتذار وعهدي فى ذلك كله فى خزانتهم .

---

2 ــ المازاري : فى «ا»
1 ــ عمر : غير واضح فى الأصل
2 ــ الحكمة : فى «ر»
3 ــ فيه : فى «ر»

وروينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أهل الجنة ثلاثة ، ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم ، رفيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان المقسطين عند الله على منابر من نور العرش،الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وحاولوا» (أخرجه مسلم) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « الامام العادل لا تكاد ترد دعوته » (أخرجه الحافظ ابن عبد البر) . وقال صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله فى الأرض » (فقيل ظله خاصته وقيل ستره وقيل عزه وقيل أمانه) .

الفصل الرابع
فى وجوب طاعته وتحريم عصيانه ومخالفته

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية واذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (متفق عليه) . وعنه قال : كنا اذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا : « بما استطعتم » (متفق عليه) . وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة / جاهلية (رواه مسلم) . وفى رواية : « ومن مات وهو مفارق للجماعة فانه يموت ميتة جاهلية ، (الميتة بكسر الميم) . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وأن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة (رواه البخاري) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليك بالسمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك » . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

في سفر فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جشره اذا نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة جامعة فاجتمعنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

انه (1) لم يكن (2) نبي قبلي ، الا كان حقا على الله أن يدل أمنه على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وان أمتكم هذه جعل الله عاقبتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء ، وأمور تنكرونها وتجيء فتنة يرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة ، فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت للناس الذي يحب أن يؤتى اليه ومن بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» . (رواه مسلم ، وقوله ينتضل أي يسابق بالنبل في الرمي ، والجشر ، بفتح الجيم والشين المعجمة والراء ، الدواب التي ترعى وتثبت مكانها وقوله : يرقق بعضها بعضا رقيقا أي خفيفا (3) لعظم ما بعده فالثاني يرقق الاول ، وقيل معناه يسوق بعضها الى بعض لتحسينها وتسويلها ، وقيل : يشبه بعضها بعضا).

وعن عوف بن مالك (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم يقول: « خياركم أئمتكم الذين يحبونكم وتحبونهم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ❋ وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » . قال : قلنا ، يا رسول الله ، أفلا ننابذهم ؟ قال : « لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة » . (أخرجه مسلم) . وعن وائل بن حجر (رضي الله عنه) قال :

1 ـ انه : غير موجود في «ر»

2 ـ غير موجود في «ر»

3 ـ خفيفا : غير موجود في «ر»

سأل سلمة بن / يزيد الجعفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا نبي الله ، أرأيت ان قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ثم سأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم (رواه مسلم) .

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني » (متفق عليه) . وعن ابن عباس (رضي الله عنه) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من كره من أميره شيئا ، فليصبر فانه من خرج من سلطان شبرا مات ميتة جاهلية » (متفق عليه) . وعن أبي بكر (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعان سلطانا أعانه الله » (رواه الترمذي ، وقال حديث حسن) . وقد اجتمع لي من أحاديث تحريم الخروج عن الأئمة ما يزيد على الاربعين أودعتها غير هذا .

الفصل الخامس

فى تفضيل الحكام على المفتين والأئمة على الحكام

وهذا فصل أودعه الامام عز الدين بن عبد السلام (رضي الله عنه) كتاب القواعد له وهو فصل نفيس يدل على فضل الامامة دلالة ظاهرة ، وقد تظاهرت الأدلة السمعية والعقلية على فضل العلماء المفتين فى الدين . فقال عز الدين : « ان قيل هل يتساوى أجر الحاكم والمفتي القائمين بوظائف الحكم والفتوى أم لا ، فالجواب أن أجر الحاكم أعظم ، لأنه يفتي ويلزم فله أجران،أحدهما على فتواه والآخر على الزامه هذا اذا استوت الواقعة * التي فيها الحكم والفتوى ، وتختلف أجورهما باختلاف ما يجلبانه من المصالح ويدرآنه من المفاسد . وتصدي الحاكم للحكم أفضل من تصدي المفتي للفتوى ، وأجر الامام الأعظم أفضل من أجر المفتي والحاكم

لأن ما يجلبه من المصالح وما يدرؤه من المفاسد أتم وأعم » . وكذلك جاء في الحديث الصحيح : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله ، امام عادل .. (فبدأ به لعلو مرتبته) .

وأجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات ، وأن الولاة المقسطين أعظم / أجرا وأجل قدرا من غيرهم ، لكثرة ما يجري على أيديهم من اقامة الحق ودرء الباطل ، فان أحدهم يقول الكلمة الواحدة ، فيدفع بها مائة ألف مظلمة فما دونها ، ويجلب بها مائة ألف مصلحة فما دونها ، يناله من كلام يسير وأجر كبير .

وأما قضاة السوء وولاة الجور ، فمن أعظم الناس وزرا وأحطهم درجة عند الله (عز وجل) لعموم ما تجري على أيديهم من المفاسد العظام ودرء المصالح الجسام . وان أحدهم ليقول الكلمة الواحدة فيكتسب بها ألف اثم أو أكثر ، بحسب عموم مفسدة تلك الكلمة ، أو على حسب عموم ما يضيعه (1) بتلك الكلمة من مصالح المسلمين . فيا لها من صفقة خاسرة وتجارة بائرة ، مثال ذلك أن يأمر بقتل طائفة من المسلمين ، أو بأخذ أموالهم ، أو بتمكيسهم ، أو بتضمين المسلمين ثألقابا ، أو بتضمين البغايا والخمور ، وغير ذلك من المحرمات المغضبات لرب الارضين والسموات . واذا أمر العادل بابطال هذه المحرمات التي أمر بها الجائر ، أثيب على التسبب الى درء هذه المفاسد المذكورات ، على حسب قلتها وكثرتها وعمومها وشمولها ، فيا له من سعي ناجح ومتجر رابح . وقد قال سيد المرسلين : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمان وكلتا يدي الرحمان اليمين » .

وعلى الجملة ، فالعادل من الأئمة والولاة والحكام أعظم * أجرا من جميع الانام باجماع أهل الاسلام ، لأنهم يقومون بجلب كل اصلاح

---

1 — يديعه : في «ا»

كامل ودرء كل فساد (2) شامل . فاذا أمر الامام بجلب المصالح العامة ودرء المفاسد العامة ، كان له أجره بحسب ما دعا اليه من المصالح وزجر عنه من المفاسد ، ولو كان ذلك بكلمة واحدة أجر عليها بعدد متعلقاتها ، كما ذكرنا ، وكذلك أجر أعوانه على جلب المصالح ودرء المفاسد ، فاذا أمر الامام بالجهاد ، كان مسببا لحمل تحصيل مصالحه بالعبادات مباشرة القتال ، والمباشر للقتال أعظم أجرا من أجر الامام ، لأن الامام وسيلة الى مصالح الجهاد ، والمقاتل مباشر ، لكن الظاهر أن أجر الامام أفضل من أجر الواحد من المجاهدين فاذا كانوا ألفا ، كان لكل واحد منهم أجر مباشرته على حسب ما باشر ، وللامام أجر تسببه الى قتال الألف ، فقد صدر منه ألف تسبب ، والألف تسبب أفضل من / مباشرة واحد ، لأن تلك التسببات حصلت مصالح القتال ، ولو فرض أنه أمر واحدا بالقتال فقاتل وحصل المصلحة المأمور بها فلا شك أن المباشر أفضل من الآمر . وليس أمر الحاكم لأحد أعوانه كذلك ، فان الحاكم متصد لسماع الدعوى وجوابها وسماع البينة واستزكائها ، ثم الحكم بعد ذلك ، فقد صارت منه طاعات متعددة ، ولم يصدر من أحد أعوانه سوى طاعة واحدة .

وأما المفتون ، فيقفون على تصديهم للفتوى ، وتفاوت أجورهم بتفاوت أكثر الفتاوى وعمومها وخصوصها . (انتهى كلام هذا الامام في هذا الأصل وهو عجيب) .

الفصل السادس

في ما يؤمر به الخلفاء رضي الله عنهم من الرفق بالرعية ونصيحتهم والشفقة عليهم ، وتحريم غشهم والتشديد عليهم واهمال مصالحهم *

وهذا باب يتسع فيه مجال المقال وأهلية خليفتنا المرحوم وخليفته ووارثه المؤيد وسيرتهما ، وما أجراه الله على الألسن من مدحهما وأودعه

---

2 ــ فاسد : في «ا» .

فى صحف القلــوب من محبتهما يغني عن الاطنــاب فيــه وجلــب ما نقتضيه (1) من الاحاديث والآثار فى الباب ونرويه ، فلنقتصر على أقل ما يورد فى ذلك ، فنقول ، قال الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (الآية) .

وروينا عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » (متفق عليه) .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت ، وهو غاش لرعيته ، الا حرم الله عليه الجنة » (متفق عليه) وفى رواية : « فلم يحطها بنصيحة » .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى بيتي : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا ، فشفق عليهم فاشفق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به »
/ (رواه مسلم) . 5

وعن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه أنه قال لمعاوية رضي الله عنه (2) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ، احتجب الله دون حاجته

1 ـ تقتضيه : فى «ر»

2 ـ أنه قال لمعاوية رضي الله عنه : غير موجود فى «ر» .

وخلته وفقره يوم القيامة » . فجعل معاوية رجلا على حوائج الناس (أخرجه الترمذي وأبو داود) .

فالحمد لله الذي طهر أئمتنا من رذيلة الظلم والجور ، وجعلهم أحسن الملوك قياما بسياسة * الرعايا والنصح لها ، وأشدهم شفقة عليهـــا ، وأحرصهم على اتصال الخير اليها ، وأبعدهم من الاحتجاب عنها ، وأقربهم منهـــا .

ولنقتصر من هذه المقدمة على هذه الفصول الست ، وسيأتي ، ان شاء الله فى أثناء هذا الكتاب عند ذكـــر خصالهم رضي الله عنهم ، مما نقلنا معظمه مباشرة ، ما تستفاد منه السير الجميلة وتقتضيه سياسة الملك ، منظوما نثاره فى أحسن سلك ، بحول الله .

البـاب الأول

فى نسبهم الشريف

لا نزاع فى أنهم أشرف قبائل المغرب وفاقا بين المؤرخين ، وأنهم وارثو ملك المغرب الأقصى ، وقد ورثوا ملك المغرب الأوسط .

وقد وقع بين النسابين من المؤرخين من الاختلاف فى نسب زناتة ، ما لا يخفى على ذي مشاركة عدا أن الذي صار اليه الحافظ أبو عمر بن عبـد البر وهو الثبت ، وصاحب المشرق والبكري فى بعض تواليفه والحافظ أبو الحسن بن سعيد العبسي ومالك بن المرحل وأبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب ، مما وقفت عليه ، أن زناتة من ذرية قيس عيلان ، من غير نزاع فى ذلك ولا خلاف ممن يعتمد عليه . وقد رد ابن سعيد وغيره على ابن حزم فى جمهرته ، حتى قال : عجبا لهذا الرجل ، ما سلم منه أحد من الأمم عربيا وعجميا حيث قال : « وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بر أصلا » ، ووصل به من كلامه ما وصل ، فقال : أخذ الله الحق منه ، كيف وقد ذكر الكلبي : صنهاجة وزناتة أو كتامة فى العرب . ونقل ذلك الأثبات ، وملؤوا كتبهم به ، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام والطبري / وغيرهمـا . وقـال أبو عبيـد : « فى أنساب حمير » ، وقد ذكر أفريقس بن قيس بن صيفي ومن ولده أيضا بلقس . وأفريقس الذي افتتح افريقية وسميت به . وقيل : ملكها جرجير ويومئذ سميت البرابرة ، فانه قال لهم: بربرتكم هذه ، فسموا بذلك * .

وقال غير واحد ، منهم ابن عبد البر وغيره ممن (2) ذكرناه : ان بر بن قيس عيلان خرج يبغي ابلا له حتى وصل الى أول بلاد البربر . فتزوج بها ، وولد له . ثم مات . فمن ولده البربر واليه ينسبون ، قالوا : فقالت أخته تماضر بنت قيس عيلان ترثيه : (من الوافر)

لتبكي كل باكية أخاها كما أبكي على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه انضاء عيس

وقال بعضهم أيضا في ذلك : (من الطويل)

قبائل من بر بن قيس وخندف وذي يمن في عزها المتطاول

ومما نسب لتماضر أيضا في رثاء أخيها : (من الطويل)

وشطت ببر داره عن بلاددنا وطوح بر نفسه حيث يمما
وأردت ببر لكنة عجمية وما كان بر في الحجاز ابن أعجما
كأني وبر لم نفر بجيادنا بنجد ولم نقسم نهابا ومغنما
فلا يبعدن بر على بعد داره وان الق برا في الحجاز فربما

هذا الذي قلناه هو قول الاثبات من أئمة النسب والتأريخ ، وقول من قال انهم من ولد بر بن قفط ابن حام بن نوح مرجوح . وكذلك قول علي بن عبد العزيز الجرجاني من أن زناتة كلها تنسب لجالوت وما نسبه لوهب بن منبه وسعيد بن المسيب باطل غير معتمد ولا ذكره غيره .

فبنو مرين (أعزهم الله) أعلام زناتة ورؤساؤها وكبار قبائلها وعظماؤها ، وقد وقفت قديما على رفع نسبهم في زناتة ، وقرأت بين يدي المولى المرحوم ما كتبه ابن أبي زرع في ذلك . ومنهم سمعت

---

2 ـ مما : في «أ» .

(قدس الله روحهم) أن (3) كثيرا من أخبار ابن أبي زرع أنكرها والدهم المرحوم المولى أبو سعيد ، وأكذبه فيها ، أدركه بما حكاه على خلاف ما وقع * عليه . كان شيخنا قاضي خلافتهم المرحوم النسابة أبو اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى يرفع نسبهم لذلك . كان أوقفني عيسى بن الحسن العسكري على مجموع فى ذلك يقتضي تشعب قبائل بني مرين (أعزهم الله) ورفع نسبهم مما لم أذكر الآن .

قلت : وحدثني مولانا أمير المسلمين (قدس الله روحه) غير مرة ، وحفظته من لفظه أن المراني وصل من بلاد الأندلس (حاطها الله) بشجرة انساب رفعها لعمهم المرحوم أمير المسلمين أبي يعقوب ، يتضمن رفع نسبهم للشرف للدوحة النبوية والنبعة الحسنية ، فلما وصل بها ، وهو محاصر مدينة تلمسان ، قدم بها عليه وقرأها بين يديه ، فقال له : « أما هذا فقد شكرنا تهممك به وحمدنا لك مسعاك ، وهذا شيء ان كان على ما قلته ، فنرجو النفع به عند الله فى العقبى ، وان كان غير ذلك ، فلا خير لنا فى الشك بما فيه مطعن علينا » ، وأجزل صلته وأحسن الى أهله أوبته .

وسمعت أن هذه الشجرة من عمل المحدث المؤرخ أبي القاسم الملاحي، وكان مولانا أمير المسلمين رحمه الله يثني على عمهم المرحوم ، ويحمد له هذا الفعل ، وانه لكذلك ، ومما استفدته من الفقيه الأصيل أبي عبد الله محمد بن علي السلمي صاحب العلامة السلطانية فى الحضرة التونسية ، وله تشيع فى هذا البيت الكريم ، وقديم اختصاص لخدمة المولى المرحوم بعد كتب هذا الفصل فيما ألقاه ببعض التعاليق ، رفع هذا النسب للبيت النبوي حسبما قدمته ، فقال : يعقوب ابن عبد الحق

3 — من هنا الى نصف الصفحة 19 لنسخة «ر» ، ناقص فى «ا»

ابن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن علي بن تاشفين بن يحيى بن علي بن ابراهيم بن اسماعيل بن عمر بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فالله أعلم .

وبالجملة ، فهذا القبيل المرفع لم يزل معظما فى سالف الدهر معروف المكان والقدر ، تملكوا * من حد بلاد الجريد الى ناحية المغـرب ، فامتد ملكهم من بلاد الزاب الى تاهرت وأحواز تلمسان ، وبقايا من قبائلهم الى الآن ببلاد الزاب وأوراس ، ثم امتد الى ناحية المغرب ، وآثروه لسعة أقطاره وكثرة فوائده .

فانقادت اليهم قبائل أهل المغرب لما عرفوا من عدلهم وعلموا من حسن سيرتهم ، فتعلقوا بأذيالهم ، ودخلوا تحت ظلالهم ، وقد كانوا انفردوا بحفظ قوانين الدين ، وقمع البغاة والمعتدين ، وحماية النزيل ، واجارة الدخيل ، والوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، سلكوا فى التقوى الحق اليقين ، فكانوا ممن تناولهم قوله تعالى : والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وان أول أمير انتشر فيهم ذكره ، واشتهر حمده وشكره ، الامير محمد ، وهو الذي تعدى بلاد الزاب منهم ، على ما يقال ، ثم ولـده عسكر ، ثم قام بعده ولده محمد المخضب ، ويقال انه أول من نشر العلامات وضرب الطبول ، ونشر على المغرب الغارات واستجابت له الحواضر والبوادي وأذعن لطاعته الرائح والغادي ، وهو أول من قاتل لمتونة ، وشاقها ، وهتك ببسالته واقدامه رواقها ، فصانعوه بالتحف والهدايا وتجرعوا منه كؤوس الرزايا . فامتدت امارته من الزاب الى تلمسان .

فلما أدركه الحمام ، قام بعده عمه أبو بكر حمامة ، وقام فى الظهور والاقدام مقامه .

ثم قام من بعده ولده الامير الشهير الشهيد محيو وكان سبب استشهاده أنه لما جاز مع أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور ، قدمه على المطوعة من سائر زناته ، فأصابته هنالك جراحة ، أثقلته فمات منها شهيدا رحمه الله .

فعقد بعد وفاته لولده أبي محمد عبد الحق ، فقام مقام أبيه ، وحاز ملك زناتة من بني مرين * ومن انضاف اليهم ، فزحف بجيوشه الى بلاد المغرب فدخل معظمها فى دعوته وصار جميعها لحسن سيرته فى جملة رعيته ، ولما توسط بلاد المغرب ، واستفحل أمره فيها ، حشد المستنصر من أبناء عبد المؤمن جيوشه عليهم ، وبعث بجموعه اليهم ، فالتقوا على نكور ، وكان بينهم الواقع المشهور . انجلت الحرب فيها عن رجوع جيش الموحدين الى تازي فلما تأخروا الى فحص آداد تراجع القوم ، والتحم بينهم القتال ، فهزم الموحدون هزيمة شنيعة واستولى بنو مرين على ما كان بأيديهم من مال جميعه . واشتهر حينئذ الامير عبد الحق باقامة الحق فلما اشتهر ذكره وجرى على ألسن أهل المغرب حمده وشكره ، أدرك بني عسكر الحسد ، / فأظهروا له النفاق ، وأعلنوا له بالمخالفة والشقاق واستنصروا بعرب (5) رياح ومن جاورهم من أهل تلك النواحي (6) ، فاجتمعوا بواجرمان ، فمات الامير عبد الحق وولده ادريس ختلا (7) ، فامتعضت لذلك مرين ، وحملوا عليهم حملة أسد العرين فولى الجمع من بني عسكر ورياح على أدبارهم ، ومرين تشتد فى آثارهم ، فقتلوا ، وسبوا ، وأسروا ، وللاثخان فى الاغلب آثروا .

---

5 ـ عرب : هكذا قرأها ليفي ـ بروفنسال فى مقاله عن « **المسند** ، مجلة «هسبيريس» 1925 ، 85-1 . (ليست هذه اللوحة واضحة فى نسخة الاسكوريال ، ولكننا وجدنا القراءة الكاملة فى نسخة الرباط) .

6 ـ النواح : هكذا فى ليفي ـ بروفنسال

7 ـ قتلا : هكذا فى ليفي ـ بروفنسال

ثم دفنوا الأمير عبد الحق وولده أبا العلى فى الموضع المعروف بتافرطاست ، من سوق الجمعة ، و (8) هو الذي جدده المولى المرحوم أبو الحسن ، وضاعف التحبيس عليه ، وأجرى على سكانه والوافدين عليه الأرزاق (9) العظيمة والفوائد العميمة .

ولما فرغوا من دفنه عقدوا الولاية لولده عثمان ، وأمه النوار (10) بنت حفص الونجاسنية ، فاشتد فى طلب رياح ، وملأ من قتلاهم تلك البطاح . فصالحوا (11) على أموال جزيلة ودخلوا * تحت طاعته . واستمرت امارته ، والناس مسرورون بولايته (12) ، ثم مات ، قتله علجه فى خبائه نهارا ، وفر فلم يعرف له مستقر ، سنة ست وثلاثين وستمائة .

ثم ولي من بعده محمد ، وأمه غمرية . فحمدت سيرته واستحسنت طريقته . فجهز الموحدون جيشا لقتاله ، فهزمهم على مكناسة ، ثم هزمهم على كرت ، هزيمتين مشهورتين . ثم توفي (عفا الله عنه) سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، قتله النصراني أبو ضربة ، حين هزمهم الموحدون .

فولي بعده أبو بكر ، شقيق محمد وكان ذا نجابة واقدام وبسالة . اجتمع على قتاله الموحدون وبنو عبد الوادي ، فان السعيد وجه ليغمراسن بن زيان يستنجده عليهم ، فانحازوا (13) عنهم الى ورغة ، وكان من شأنهم ما هو مشهور ، ومن شأن يغمراسن وحزبه وقصده لفحص

---

8 من هنا لوحة مخطوطة «أ» **مخروقة الأطراف**

9 — والوافدين والزائرين له الجرايات : هكذا فى ليفي — بروفنسال

10 — نوار : هكذا فى ليفي — بروفنسال

11 — فطاعوا : هكذا فى ليفي — بروفنسال

12 — به : هكذا فى ليفي — بروفنسال

13 — يستدفعه : هكذا فى ليفي — بروفنسال

خولان ، واستنقاذ مراهن (14) بني عسكر ، ما هو معروف عند بني مرين (أعزهم الله) ، وانما أثبت ما هو على (15) ذكري مع بعد العهد ، وعدم وجود ما يستعان به فى الوقت والاقليم من كتب مؤرخي (16) هذه الدولة الكريمة .

ثم استولى على مكناسة ، وهي أول قاعدة ملكها بنو مرين من بلاد المغرب (17) ولم يزل أهلها يفخرون بهذا ، ويرعى لهم . ثم لما توفي السعيد وفاته (18) المشهورة بتامزدكت من انجاد (19) ، وتمزق ملك الموحدين ، وفروا على وجوههم ، وتمزقوا كل ممزق ، وجاز الأمير الى رباط تازي / ثم (20) قصد الى فاس . فخرج اليه أهلها مع العالم الولي أبي محمد الفشتالي (نفع الله به) ، فبايعوه بيعة طواعية ورضى ، ثم نقضوا وبايعوا ، بعد ارتحاله عنهم ، المرتضى وقتلوا نائبه السعود بن خرباش ، ولما بلغ الخبر للامير ، رجع للحين (21) ، فغلقوا فى وجهه * الابواب . ولما بلغ هذا الخبر ليغمراسن بن زيان ، جاء مسرعا مع من معه من السرعان قاصدا مسابقته الى تازى . فترك الامير بعض ناسه محاصرين لفاس ، وأسرع الى لقاء بني عبد الواد ، فالتقوا بايسلي ، فكانت الطائلة (22) لبني مرين ، وتحدث الناس فى جميع الاقطار بكثرة القتلى فى هذه الهزيمة ، وامتلأت أيدي (23) بني مرين بالسبي والغنيمة . ونجا يغمراسن برأسه ومن خف من ناسه .

---

14 – كذا فى الأصل والصواب مراهين جمع مرهون .
15 – هنا ما بقي فى : هكذا فى ليفي – بروفنسال
16 – تاريخ : هكذا فى ليفي – بروفنسال
17 – بلاد المغرب : ناقص فى ليفي – بروفنسال
18 – فى الواقعة : هكذا فى ليفي – بروفنسال
19 – انجاد : ناقص فى ليفي – بروفنسال
20 – و : هكذا فى ليفي – بروفنسال
20 – فى الحين : هكذا فى «ر»
21 – الظاهرة : هكذا فى ليفي – بروفنسال
23 – ايدى : ناقص فى ليفي بروفنسال

ثم رجع الأمير أبو يحيى (24) لفاس فوجدهم قد طال على أهلها (25) الحصار ، ولم يصلهم من المرتضى وجه انتصار ، فطلبوا منه (26) الأمان ، والتزموا له ما تلف من أمواله وما وظفوه على أنفسهم التزاما ، أعطوا عليه العهود (27) وأحكموا بمقتضاه على أنفسهم العقود . فقبل ذلك منهم وصفح عنهم ، وكان منه من القبض عليهم لعدم وفائهم بما عقدوه وتلكئهم فى أداء ما التزموه ، ما هو معروف .

ثم رحل الى سلا فجهز المرتضى جيشا (28) للقائه فهزمهم لحينه . ثم أن المرتضى خرج قاصدا الى فاس ، فلما نزل بحوز فاس بالموضع المعروف ببني بهلول ، خرج اليه الامير ، فاستأصل محلة الموحدين . وبايعته القبيلة ، فولى بها عبد السلام الاوربي وقدمها بعده الوزير ابن أبي منديل وابن الحسين (29) ، فقتلا ، وقام فيها أهلها . فأرسل اليها المرتضى جيشا مع ابن عطوش ، فسبقه اليها أبو حديد (30) بجيوش الامير ، فدخلوها .

فاستعمل حينئذ يغمراسن الحركة ، فلما سمع به الامير توجه قاصدا اليه . فالتقوا بأبي سليط فانهزم بنو عبد الوادي . فلما رجع الى المقرمدة ، بلغه أن بني عبد الوادي قد خالفوه لدرعة ، فجد فى الرحيل لسجلماسة ، فالتقيا عليها ، وتقابلا بباب * تاحسنونت ، فخاب أمل 22
يغمراسن ، فرجع الى تلمسان . وجاء أهل درعة ، وقد دخلوا فى حكم الطاعة للأمير (31) والاذعان فرجع لفاس ، وأقام بها مدة ، ثم رحل الى

24 ــ أبو يحيى : ناقص فى ليفي ــ بروفنسال
25 ــ فوجدها : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال
26 ــ عليهم : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال
27 ــ مراهن : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال
28 ــ جيشه : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال
29 ــ الحسن : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال
30 ــ ابن حديد : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال
31 ــ اعلان : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال

سلا ، فلما وصل الى فنزارة ، رجع فأقام زمانا (32) ، ثم قصد الخروج للفتك بالعرب . فجاء من وجهته ، وهو يشكو مرضه الذي توفي منه .

/ ولما توفي سنة ثمان وخمسين وستمائة ، افترقت بنو مرين فرقتين ، فبايعت طائفة للأمير العابد المجاهد أبي يوسف ، وبايعت طائفة لابن أخيه عمر بن أبي يحيى واصطلحا واتفقا ، ثم ان اتفاقهما آل الى الافتراق ، فقصد الامير أبو يوسف من تازى الى فاس ، فاستولى عليها . ونفد عمر (33) ، واستقرت الخلافة بيده واستوسق له الأمر ، فأخذ مراكش ، واستولى على بلاد المغرب بأسرها .

ثم انه فى سنة ست وأربعين (34) وستمائة عزم على الجواز للجهاد ، وخالفه أخوه أبو يحيى (35) فى رأيه ، فصده واستعان على غرضه بالشيخ الصالح يعقوب بن هارون . فرجع ثم لم يزل يشد (36) عزمه على ذلك ، وتقوى فيه همته ، حتى جاز البحر للجهاد أربع مرار : أولها سنة أربعة وستين ، وثانيها سنة سبع وسبعين ، وثالثها سنة احدى وثمانين ، ورابعها سنة أربعة وثمانين . كلها ظهر فيها غناؤه على المسلمين واشتداد شوكته على المشركين ووقائعه فى ذلك عظيمة الشهرة ، مشتهرة النصرة ، وواقعة ذننو (37) أغنت شهرتها عن التنبيه عليها . وبالجملة فبه أعز الله فى عدوة الأندلس الدين ، وملك المسلمين رقاب الملحدين ، وبنصرته ومعاونته تمكن لهم بها الاستقرار ، وبمعاضدته غزوهم فى عقر الدار .

---

32 ــ بها أياما : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال

33 ــ غير موجود فى «ر»

34 ــ ستين : هكذا فى «ر»

35 ــ أبو بكر : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال

36 ــ الامير عن زائد فى ليفي ــ بروفنسال

37 ــ دننن : هكذا فى ليفي ــ بروفنسال

وعرف له ملوك الأندلس بنو الاحمر حماة الاسلام بتلك * العدوة قدر عمله المبرور ، واتبعوه الثناء الحسن فى حياته وبعد موته على فعله المشكور ، « وما عند الله خير وأبقى » .

وكم شيد من آثار ، وخلد من مبار (رضوان الله عليه) ! . وكان يعرف بالملك العابد والسلطان المجاهد .

حدثني غير واحد ممن أدركناه وسمعته من المولى (رحمه الله) أنه رضي الله عنه كان يقطع الليل صلاة وافرة (38) ، واذا صلى الصبح ، جلس لقراءة فتوح الشام فى الجامع الذي فى المشور القديم ، وأراني المولى رضي الله عنه موضع جلوسه منه لذلك ، وكان مع ذلك يسرد الصوم ، ويحسن الظن بالمرابطين والصالحين ، وله فى ذلك الأخبار (39) الحسنة التي لم يعهد لمثله مثلها . وهو الذي بنى المدينة البيضاء فاس الجديدة ومهدها واتخذها مسكنه ومسكن جيشه ، ليميز ما بينهم وبين الحضر من أهل مدينة فاس . / وبنى البنية بظاهر الجزيرة ، مدينة مثلها . وهو الذي بنى المدرسة بفاس بعدوة القرويين منها ، ولم يكن لأهل المغرب عهد ولا معرفة بموضعها ، فيما علمت ، وبنى المارستان والزوايا . وخص النصارى الخدام بمسكن يميزون به عمن عداهم وهو الذي استنقذ سلا من أيدي النصارى ، بعد استيلائهم عليها ، وتملكهم لها ، ولما بلغه خبر استيلائهم عليها خرج من فاس ، فوصل اليها فى ليلتين ، وحاصرهم فيها ، حتى خرجوا منهزمين وولوا على أعقابهم مدبرين .

وكانت وفاته رضي الله عنه بالمدينة التي أنشأها بظاهر الخضراء ، وهي البنية . وكان قد بعث ولده أبا يعقوب يوسف للمغرب ، لتهدينه وتفقده ،

38 – وقراءة : هكذا فى ليفي – بروفنسال

39 – الآثار : هكذا فى ليفي – بروفنسال

وبويع ولده يوسف رحمه الله . واستمر ملكه الشامخ الى أن قتل ، وهو محاصر لتلمسان سنة ست *** .

ولسنا نتعرض الا لذكر سلف مولانا المرحوم باختصار ، لأن الغرض من هذا المجموع الاختصاص بسيرة مولانا المرحوم .

وبويع ، بعد موت السلطان أبي يعقوب ، لولده ابراهيم ، ثم لحفيده أبي ثابت عامر بن عبد الله ، ثم لأخيه أبي الربيع سليمان ، ثم بويع لمولانا أمير المسلمين سيد الملوك بلا نزاع ، وأجمعهم لأحسن الأخلاق والطباع . سمعت ممن أدركته من أشياخنا ومعاصرينا ، كشيخ المسندين والمؤرخين أبي محمد عبد المهيمن ، وحافظ وقته أبي اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى، أن الذي اشتمل عليه هذا الملك من حسن المعاشرة وكرم الأخلاق وكثرة البذل ، لم يجتمع فى ملك قبله .

ولد رضي الله عنه سنة خمسة وسبعين وستمائة ، وعقدت له الخلافة فى رجب سنة عشر وسبعمائة بتازي، وقدم لفاس ولده الأسعد مولانا (40) أبو الحسن رضي الله عنه ، فدخلها بقية يومه ، واستمرت خلافته الى أن وقع من ولده الأمير أبي علي من الخروج عليه ما وقع، ووقعت بينهما مهادنة وصلح ، رأيته وهو ، فيما أظن ، انشاء الفقيه أبي العباس الفشتالي ، وهو غاية فى الاحسان .

وأما تتبع سيرته ، وما أجراه الله على يديه من حط المغارم والمكوس ، وسعة البذل والاحسان ، وفك الأسرى ، فهو شيء لا يستوفى بكتب ، ولكني سأذكر منه ، ان شاء الله ، نبذا .

حدثني والدي وعمي رحمهما الله ، وكان لهما به / اختصاص أيام مقامه مع أخيه مدة حصار تلمسان ، أنه كان ساكنا بمقربة من باب

---

40 ـ المولى : فى «ا»

العقبة ومن العباد السفلي ، وكان أكثر مستقره بالعباد العلوي ، وجلوسه دائما بالطاقة التي بازاء قبر الولي أبي اسحاق الطيار نفع الله تعالى به ، المشرفة على ساحل تلمسان * ، وهو منظر مشرف رائق ، لم يزل العباد والأولياء يختصون به . قال لي كل واحد منهما ، مجتمعين ومنفردين ، انه كان أعظم خلق الله رأفة وأكثرهم على عباده رأفة ، كان يتفطر على أهل تلمسان ، ويشفق للمستضعفين منهم ، وما يكابدونه من ألم الحصار ، وأنه كان لا يمسك شيئا وأنه كان أشد الخلق حياء ، وأعظمهم مروءة ، وأنه كان ينفر عمن يعرض له بالخلافة طلبا منه للعافية ، حتى أتته منقادة اليه ومقتحمة عليه .

وكان له جميل اعتقاد فيهما (41) وفى سلفنا المرحوم ، وهي وسيلتنا عندهم رضي الله عنهم ، ولسلفنا المرحوم ، فى ذلك ، ما يذكر فى الخاتمة بعضه (بحول الله) من هذا الكتاب .

فابتدأ فى خلافته بتسريح المسجونين وفك المأسورين ، والافضال على أهل الخير والاحسان للعلماء والصلحاء ، واختص بجملة من أعلام العلماء ، فاتخذهم أهل مجلسه ومؤانسته ، وتخير منهم من يسامره . فكان بينهم مباته ولهم عشرته ، وحفظنا عنهم من جميل عشرته وعظيم مآثره ما يضيق عنه هذا الموضوع .

فمن خواص أهل مجلسه ومسامريه ، الامام قاضي الجماعة أبو (42) عبد الله محمد ابن القاضي أبي الحسن المليلي نادرة وقته ، والامام رحلة المغرب وقدوة الأئمة ، الخطيب أبو عبد الله ابن رشيد الفهري ، والامام الأوحد حامل لواء الحديث والادب أبو محمد عبد المهيمن ابن الامام القاضي أبي عبد الله الحضرمي كاتب سره ، والحاج أبو عبد الله

41 – 1 – ثم : فى «ر»

42 – أبي : فى «ر»

ابن أبي مدين ، والحاج أبو موسى عيسى بن حرزوز المكناسي فى مدة (43) ، والخطيب عبد الرحمن بن مسونة ، وكلهم أعلام ، وغيرهم من أئمة الاسلام وذوي الأحساب . فكان بينهم كأحدهم فى جميع تصرفاته ❊ رضي الله عنه .

وكان من شأنه رضي الله عنه اقامة مجد ذوي البيتات وجبر أحوالهم ، ولحين ما ولي ، رد سبتة على بني العزفي ، وملك فيها الفقيه أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب ، أضاف / قيادة البحر ودار الصناعة للفقيه أبي زيد عبد الرحمان وأبي الحسن أخويه . وأخرج الأموال الطائلة لفك الأسرى فى سائر بلاد النصارى . وبذل الأموال فى الاحسان والصدقات ، حتى فاض المال بفاس . وكانت ولايته رحمة للناس ، ولما استوسق له الأمر وانكشف عن أهل فاس العسر ، تشوقت نفوسهم لرفع ما نالهم من المضار ، وطمعوا فى دولته باحياء (44) الأثر المعهودة فى أيام السلف والآثار (45) .

وكانت عليهم ضريبة مسانهة يؤدونها على حسب أغراض العمال ، وقد حملوا منها من طول الأزمان أثقل أحمال ، فخاطبه فى ذلك أبو عمران التسولي ، فرفعها عنهم لوجه الله ، فكتب الله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا وتتابع رفعها عن سائر أهل بلاد المغرب فنفعهم الله تعالى بها .

وكان يجزل صلة العلماء ويضاعف جوائز الشرفاء (46) وسيأتي فى سير مولانا أبي الحسن رضي الله عنه قصة فكاكه السادة الشرفاء بالمال الذي سنذكره ثمة ان شاء الله تعالى ، والعقود التي كتبت فى ذلك .

43 — مدته : فى «ر»

44 — باحساء : فى «ر»

45 — والابرار : فى «ر»

46 — جواز للشرفاء : فى «ر»

ولما اشتهرت سيرته ، وعرفت طريقته شدت المطي للوفادة عليه ، وكثر القصاد من بلاد الحجاز واليمن والعراق اليه ، فأوسع لهم العطاء الجزيل وأولاهم من فضله بالجميل . وفد عليه من أولاد أبي نمير الحسنيين أهل مكة ، ومن أولاد جماز المدنيين الحسينيين ، ومن شرفاء الحلة وشرفاء العراق ، ومن فقهاء * مكة أبو عبد الله بن عبد المعطي وأولاده ، ومن فقهاء المدينة أبو الحسن بن فرحون فى خلائق لا يحصون كثرة ، ومن الشام ومصر والعراق وبلاد العجم طوائف . فلا ينصرف عنه منصرف الا وقد نال منه فوق ما أمله وبلغ من عرضه ما أم له ، وحديث محمد بن ابراهيم المدني معه معروف : نال من ماله وجاهه ومن تقريبه واكباره ما لم يسمع قط بمثله ، وبلغه ما يرميه به أهل المدينة بالتشكيك فى شرفه ، فلم يثن عزمه ، ولا رجع عن عادته معه ، رضي الله عنه .

ووفد عليه من بني الأحمر من أقصاه وطنه ، فأولاه فوق ما تمناه . ووفد عليه من أولاد زيان طائفة ، منهم محمد بن عمران بن يغمراسن ابن زيان ، فعامله من / الاحسان ما غبطه فيه ملك تلمسان . وقدم عليه أبو زيان عريف ابن يحيى السويدي ، فأحله أعلى رتبة ، ورفع منزلته وأجزل صلته ، واتخذه جليسا وأنيسا ، وكان بذلك خليقا ، وبما أولاه به حقيقا وسيأتي ذكره فى أخبار مولانا أبي الحسن ، رضي الله عنه .

وأفعاله فى الأندلس من النصرة ، والأوفاد بالصلة ، معروف آثارها ، ويغني عن ايرادها اشتهارها .

وقدم عليه مستصرخا بسلطانه ملتمسا من فضله واحسانه أن يكف عنه اذاية من شكى من تسلطه عليه وعدوانه ، الامير المرحوم أبو زكرياء يحيى ابن السلطان الجليل الخليفة أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ، ملك افريقية ، فدخل عليه دخيلا فى أن يجيرهم من سلطان بني عبد الوادي ، فرده مرضيا ، وأعطاه عطاء لم يعهد بمثله ، وأحله منه محلا عليا ، وبعث أرساله للسلطان أبي تاشفين رحمهم الله فى

شأن الكف عن بلاد الموحدين ، ووعده على ذلك بالمواعد الجميلة * وتوعده ، ان لم يجبه لمطلوبه ، بالحركة على بلاده . فتوجه صنو والدي رحمه الله أولا ، ثم اقترح صاحب تلمسان على والدي رحمه الله طالبا منه السفارة فى غرض الرسالة والاصلاح ، فسكنت الفتنة بسفارته ، وارتفع الضر من كل جانب عند ختام رسالته . وكان توجه صحبته الامام القاضي التاريخي المحدث القدوة أبو علي حسن بن يحيى الحسيني ، والعدل الحسيب أبو عبد الله بن أبي العيش ، وقبلهما القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف بن راع (47) .

حدثني والدي ، رضي الله عنه قال : « لما قضيت الغرض من الرسالة ، دعاني ، فخلوت معه فقرر لي من سوابق المحبة ومقدمات المتات ما حضره . ثم قال لي : يا سيدي ، لي اليك حاجتان . فقلت له : وما هما . فقال : أحدهما أن لا تنساني (48) من دعواتك ، والاخرى أنك اذا قدمت الى تلمسان ، فسيلقاك الضعيف والمسكين ويلقاك الجائر والفاجر، فاذا لقيك الصنف الاول ، فقل لمن يحسن الظن به ويرجى النفع بدعائه : عثمان يسلم عيلكم ويقول لكم : كونوا فى أمان ، فوالله لا يراني الله أحاصركم وأضركم ما دمت حيا ، فاني نعلم (49) ما يكابده الضعفاء من الروع والاستعداد لأرباب الحصار . وان لقيك الصنف الآخر ، فأخبرهم أني آت اليهم لا محالة » .

/ واستمرت الحال بخير ، واندفع عن بلاد الموحدين ما عناهم وآدهم من الشر . وتبعه عظيم الثناء وكتب له جزيل الأجر ، رحمه الله .

وكان منه أيضا فى منازلة النصارى لجبل الفتح ما قضى منه العجب ، بلغ فيه الغاية فى حسن المحاولة ، وبذل الأموال ، وتجهيز الجيوش ،

---

47 ـ زاغ : فى «ر»

48 ـ تنسني : فى «ا»

49 ـ هكذا فى كلتا المخطوطتين

وانشاء الأساطيل (50) حتى كان من خيبة العدو منه ما اشتهر ، وأحيا رسم المعظم أبيه .

فأنشأ مدرسة المدينة البيضاء ومدرسة القرويين ، ولا مثيل لهما في الأحسان وتأنق الصنائع . وأما * جميل اعتقاده في الصالحين وحسن ظنه فيهم ، فكان في ذلك آية ، وعلى الملوك حجة . وأحاديثه مع الصالح عمر بن سيد الناس شهيرة ، ومع أبي عمران التسولي ، وغيره من كبار الأولياء والصلحاء معروفة وصنيعه الكائن في حدود أربع وعشرين أو خمس وعشرين ، الشك مني ، مع من أتى السيل على أمواله (51)، وبنى القنطرة ، التي يعجز عن مثلها ، وتحبيسه عليها محفوظ عند الأصاغر والأكابر . وكان ، رضي الله عنه ، أرحم خلق الله قلبا ، وأرقهم نفسا ، وأعظمهم رحمة ، لا يستطيع النظر الى معاقب ، ولا يستقصي في العقوبة حقا . اذا سمع بكاء الباكي ، بكى ، واذا سمع الموعظة ، خشع . حدثني الشيخ الصالح أبو عبد الله المكناسي ، وكان من ملازميه ومن المذكرين الوعاظ ، قال : « ما استفتحت قط موعظة بمحضر السلطان أبي سعيد ، فأتممتها رحمة له » . وهكذا حكى الواعظ الزيادي المراكشي. وحدثني بمثل هذا الاستاذ المقرىء أبو العباس الزواوي ، قال : ما استفتحت قط قراءة يوسف ، وقدرت على اتمامها ، كذلك حديث الشفاعة : « والراحمون يرحمهم الرحمن ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » . وهي سجيتهم التي ألفتهم بسببها الرحمة ولم تفارقهم من أجلها النعمة . ولولا اطالة الكتاب لأوردت من حفظي من مآثره السنية وأخلاقه الزكية ، ما يستقل به تأليف حافل .

وبمثل هذه الصفة اتصفت والدة مولانا أمير المسلمين رحمها الله فكان فيها من الرأفة والرحمة والشفقة على الخليقة ما قضى منه العجب ،

---

50 – الاصاطيل : في «ر»

51 – كذا في الاصل ولعل هنا بياض

فكم جهزت من يتامى ، وكم زوجت من أيامى ، وكم بذلت من صدقات ، وكم أجزلت من صلات / هذا ما كانت تسرده من الصيام ، وتهديه من التحف الى المشاعر الكرام ، وبعد * أن عزمت على حج البيت الحرام ، اخترمها دونه الحمام . وكانت أرحم خلق الله للأنام . حدثني ولدها المعظم المولى المرحوم ، قال : « دخلت عليها يوما ، فكلمتني فى شأن أهل تلمسان ، واعفائهم من الحصار » قال : « وكانت تكثر علي فى ذلك ، فأردت أن أبرمها ، فقلت لها : انهم يشتمونك ، وأردت أن ينقطع عني كلامها بذلك ، فقالت لي : يا ولدي ، هذا أحرى بي أن أتكلم فيهم لأن يكون كلامي فيهم خالصا (52) لوجه الله ، ورغبة فى ثوابه . قال : فقلت : ان الشرع أمرني بهذا وبينت لها ذلك بطريق شرعي ، فحينئذ أمسكت » .

وسيأتي فى مناقب مولانا المرحوم ، و (53) فى فضل بره بأبويه ما يزيد هذا المعنى ايضاحا ان شاء الله تعالى .

وكانت وفاة المولى أبي سعيد رحمه الله فى الخامس والعشرين من ذي القعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة ولما قضى قال من حضر لمولانا أبي الحسن : نحتاج يا مولاي للبيعة . فقال القاضي ومن حضر من علماء المغرب : وهل كنا فى حياة مولانا أبي سعيد الا تحت ايالته ومتقيدين بطاعته ؟ ، فاجتمعوا على ذلك .

وجلس بعد موالاته على قبره الذي كان دفن فيه بالجامع (54) الاعظم من فاس الجديدة (55) فبويع هنالك ، وجدد له العقد بالبيعة ، وامضاء

52 — خالصا : غير موجود فى «ر»
53 — و : غير موجود فى «ر»
54 — فى الجامع : غير موجود فى «ر»
55 — الجديد : فى «ر»

ما كان من ولاية العهد . ثم بعد ذلك نقله الى موضع مدفن أسلافه رضي الله عنهم بشالة من ظاهر سلا المحوطة ، وهو موضع معروف بالبركة مقصود لذلك ، وقد ذكره بعض من له عناية بالخبر ، وأورد ما يشهد بفضله ، ولولا تقلد العهدة ، لأوردت ما على ذكري من ذلك .

وكانت وفاة والدتهم ، رضي عنهم ، فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة بتلمسان ، ونقلت كذلك الى الموضع المذكور .

هذا ما أمكن ايراده فى هذه المقدمة المكرمة ، ولنثن العنان لذكر أبواب الكتاب بحسب الوسع والامكان وبالله التوفيق ❊ .

الباب الأول

فى حسن خلقه واعتدال مزاجه وكمال صورته

وذلك شرط فى الخلافة . اعلم أنه رضي الله عنه ، قد جمع من اعتدال الخلق ، وتناسب الأعضاء / ، وصحتها ، وجودة الادراك ، وحسن الفهم ، وذكاء العقل ، ما لم يجتمع لغيره مثله ، ومن الحماسة والاقدام ما صار مثلا . أما ما يدرك من ذلك ظاهرا فلا أحتاج الى اثباته لاستواء الخاصة والعامة فى معرفته والعلم به ، وأما ما لا يغيب الا عمن باشره وخالطه ، فسنورد منه ما أذكره .

أما جودة الادراك وحسن الفهم ، وهي من الصفات الشريفة المطلوبة فى الأئمة والحكام ، فقد بلغ من هذا الغاية . حضرت يوما بين يديه الميز بمشور تلمسان المنصورة ، فدعي باسم رجل من بني عسكر ، فلما اجتاز ، دعاه وقال: رأيتم هذه الملوطة التي على هذا الرجل، كان أصلها ثوبا نسائيا زردخان ، أعطي من دارنا فى حياة مولانا . ولا ظهر منها عند الميز الا الأطراف من أجل تغطية المصبح لها ، فسئل الرجل ، فأخبر بأنه صار له من موضع ومن ذلك الموضع الذي عرف به رضي الله عنه صار له .

وحدثني أبو زيان عريف بمحضره ، رضي الله عنه ، والقاضي أبو عبد الله بن عبد الرزاق ، أن جنديا خرج له من تلمسان هاربا أيام الحصر ، فأدخل عليه ليلا ، وهو لابس متقنع لا يبدو منه الا بعض وجهه ، وخرج من تحت المغفر بعض شعر لحيته ، فسأله عن أخبار تلمسان ، وصرفه لموضع نزله . فكر هاربا لتلمسان من ليلته . قالوا : فبعد سنة ونصف من ذلك التأريخ وخروج أهل تلمسان* حين فتحت ، وقف الرجل بين يديه بادي الوجه مغير

شيبه بخضاب ، ولم يتكلم بكلمة ، فدعاه من بين القوم ، وقال له : لأي شيء تختفي ، أظننت أنك يخفى علي مكانك وتلبس علي بخضابك ، ألست الرجل الذي جئتني ليلة كذا ، وسألتك عن كذا ؟ فقبل الرجل فى الأرض ، وقال : يا لله ويا للمسلمين ، هذا سلطان ما رآني الا لحظة متنكرا ، وقد كنت تنكرت بالقصد ، وقد عرفني الآن ، ولي فى خدمة غيره كذا وكذا سنة ، قلما حضر الميز حتى سأل عن اسمي .

وكان آية فى هذا الباب ، هذا مع اختلاف الخلائق الواردين عليهم وكثرتهم (برد الله ضريحه وأكرم مثواه) .

وأما الادراك والفهم ، فوالله لقد كنت أفاوض أبا زيان وغيره من أصحابنا فى مسألة مما غرضنا أن نتكلم فيه ونعرضه عليه من شفاعة أو مطلب ، فاذا أردنا أن نذكر السبب على البعد ، / يقول : ولم هذا التحيل ، غرضكم الكلام فى كذا أو طلب كذا ونقتضي منه الجواب ونعترف له بالحق فى ذلك . وهكذا كان ولده المؤيد المرحوم المولى أبو عنان .

وكانت تقرأ بين يديه العلوم المختلفة ، حسبما نذكره (ان شاء الله) فى فصله ، فربما يمر الغامض الذي يحتاج فيه الى اعمال نظر ، فستضحك أحيانا ممن يقصر فهمه عن ادراك ما يقع ، وقلما يقع اضطراب فى الرأي عند المشاورة التي كان يستعملها استننانا الا ويبدي وجوه اختيار كل مشير فيما يشير اليه . وسيأتي لهذا بسط فى موضعه من صفاته رضي الله عنه .

الباب الثاني

في تربيته

اعلم أن من سعادة المرء حسن نشأته وحفظه في شبيبته . أخبرني والدي وعمي رحمهما الله أنه كان في صغره ملازما لمسجد المقدسي بالعباد * السفلي ، وذلك قبل البلوغ بكثير ، يلازم فيه الصلوات ، ويجلس لسماع من يقرأ فيه ، وقلما يرى يلعب مع الصبيان أترابه وقرابته ، وأنه كان يتكرر لزيارة الصالحين في العباد العلوي ، الأموات والأحياء ، ويسأل عن وظائف الأعمال .

وأخبرني رضي الله عنه أنه أكل يوما حبة من تين من شجرة على قارعة الطريق ، قال : فتنغصت ، واشتد علي الحزن ، حتى عرض لي ألم بسبب أنها كانت بغير اذن صاحبها ، حتى تحللت من صاحبها ، وحينئذ سكن ما بي ، على كثرة أشجار التين ثمة وعدم اعتبارها بوجه ، وهذا من توفيق الله ، ونهيته ، لأن يجعله خليفة على خليقته .

وسمعت منه رضي الله عنه وهو يحكي أن الحال كان عليهم متقلصا بسبب انجماز والده رضي الله عنه ، وتخفيه عن أن تلحظه عيون الاعتبار . فكان يقنع بالقليل ، ويصبر على مضض العيش ، ليبلغ المجد اذا بلغ الكتاب أجلـه .

قال (1) « فكنت أدخل الى المنزل أحيانا ، وأجد ما أخص به من الطعام ، وبي اليه حاجة ، فأذكر سائلا ، أو أسمعه ، أو أذكر فقراء كانوا

---

1 ـ فقال : في «ر»

الى جوارنا ، فأوثرهم بقوتي ، وأطوى » . وهذا والله كان فعله فى كبره ، حسبما نثبت علمه (ان شاء الله تعالى) فى محله رضي الله عنه .

قال : « وكنت مهما رأيت مريضا فى السكك ، أسأله عن شهوته ، فاذا أخبرني بها تحيلت فى ايصالها اليه ، هذا مع نزاهة النفس / وعلو الهمة » .

قال : « كنت مع بني عمي وقرابتي فى الموضع الذي كنا فيه بحذاء باب العقبة ، ونحن محاصرون لتلمسان ، فاذا مر بنا عمر بن السعود أو من هو من أنظاره ، يسلم عليه من هو معي ويقفون له ، فوالله ، ما أعلم قط أني وقفت لأحد منهم ولا تعرضته » .

قال : « وعرضت لمولاي رحمه الله حاجة عند أخيه السلطان أبي يعقوب فى * بلدة كانت لهم اقطاعا ، وكتب اليه فى ذلك وعرفه ببعض الحال ، وأمرني بالدخول اليه ، وجعل البراءة فى طرف احرامي . قال : فلم يمكنني الا مساعفته ، وامتثال أمره ، وطاعته . قال : فتوجهت بها اليه . قال : فاستدناني ، وسألني ، وباحثني عن الحال . قال : فلم تساعدني نفسي على التذلل له واظهار احتياجي اليه ، ولم يك الا أن ناولته طرف ثوبي ، فأخذ منه البراءة وقضى حاجتي . فرجعت الى مولاي ، وأنا متبرم . فقال لي : يا ولدي ، لا عليك . ووعدني بخير » .

وكان عنده رضي الله عنه من أمره الذي صار اليه بشارة من سيدي أبي زيد الهزميري (نفع الله به) ، وكان يحكى عن جده الأم الأمير مهلهل ، شيخ الخلط وكبير حشم ، أنه كان يحمله بين يديه راكبا ، ويقول له : « يا حفيدي ، أنت سلطانها » . ولهم فى ذلك أخبار كثيرة دلت على تقدم علمهم بمصير الأمر اليهم . ولم يعلق بحفظي من ذلك الا ما ذكرته (وبالله التوفيق)

الباب الثالث

فى الخصال المحمودة المتعلقة بالذات المكرمة . (وفيه فصول)

وان كان ما نذكره بعد من أخلاقه الكريمة ، يندرج تحتها ، الا أنا جرينا على ما أصله بعض متقدمي علمائنا ، فجعلوها صفات ذاتية .

الفصل الاول

ما كان عليه من حسن البشارة ، وكمال الهيئة ، والمبالغة فى النظافة ، وقد خصه الله من ذلك ما تميز به ووهبه الله اياه تكميلا لحسن صفته وجمال خلقته .

كان يؤتى بثياب الصوف التلمسانية الخالصة ، فيتخير أجودها ، ويعطيه لمجالسيه ، ويتخير لنفسه أدناها ، فاذا لبست تميز ما يلبسه من بينها حتى يقسم المقسم أنها ليست من * جنسها .

وكان للقاضي أبي اسحاق بن أبي يحيى معه فى / ذلك مواطن ، ربما يعطيه اياها بعد لبسه ، فيلبسه القاضي ، فيعجب (1) ، ويكاد يقسم أنه عوض له بغيره .

وكان رضي الله عنه مقتصرا على ما سوغه الشرع وأمره من اللباس ، فأكثر لباسه فى المحافل البياض ، لما روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البسوا من ثيابكم البياض ؛ فانها خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » . (أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح) . وعن سمرة رضي الله عنه قال : « البسوا البياض فانه

1 – فيعجب غير موجود فى «ر»

أطهر وأطيب » (أخرجه النسائي) . وكان يؤثر لباس الأحمر والأخضر ، لما روينا فى الصحيح عن البراء ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حلة حمراء ، ما رأيت شيئا قط أحسن منه » . وحديث أبي جحيفة مثله ، وهو متفق عليه . وما رويناه عن أبي ريشة بن أبي رفاعة التميمي ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثوبان أخضران ، ويؤثر الأصفر لما جاء فى بعض الأخبار ، أنه يشرح الصدر ويبسط النفس انتزاعا ، من قوله تعالى : « تسر الناظرين » . وكان يلبس الخز بعد مفاوضة علماء عصره ، وعلمه بما حكاه الحافظ أبو عمر وغيره عن جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم : أنهم كانوا يلبسونه ، وهو ما امتزج من حرير وغيره . وأرجو أن يكون ممن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : « من ترك اللباس تواضعا لله وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره من أي حلل الايمان شاء يلبسها » .

ولقد كان رضي الله عنه يلبس خاتم الذهب على عادة الملوك ، اعتمادا على الخلاف * الشاذ المأثور عن بعض السلف وهو أبو بكر بن عبد الرحمان وخباب بن الارث ، حكاه القرطبي المفسر فى تفسير سورة النحل، حتى فاوض أشياخنا بعد دخوله تلمسان ، فأخبره علماء حضرته أن المعتمد عليه هو ما صار اليه الجمهور ، وأن خلافهما مرغوب عنه ، فطرحه واتخذ خاتمه فضة من يومئذ ، وكذلك كان يأمر صناع ثياب الخز بأن يكون السدى من الصوف أكثر .

وأما النظافة ، فكان رضي الله عنه غاية فى رعايتها ، وسيأتي (ان شاء الله) فى باب ايثاره لمن ظهرت عليه دلائل المحافظة على الطاعة ، ما كان مذهبه فى ذلك (نفعه الله تعالى) .

الفصـــل الثاني

/ وأما سلاح الحرب التي سوغ العلمـــاء اتخاذهـــا مـــن خالـــص لذهب والفضة فكان يستعملها ، وما يقع فيه الاختلاف يتركه ، ولقـــد وقع بين علماء عصره خلاف في سؤالهم عنه ، وهو اتخاذ الركاب مصمتا من الذهب والفضة ، فكتب فيها علماء أهل فاس وعلماء أهل تلمسان تصانيف ، لولا الاطالة لاودعت هنا ما على ذكري منها ، فصار الفقيه ابن عبد الكريم من أهل فاس ، وغيره ، وأبو موسى عمران المشذالي من أهل تلمسان ، استيطانا لها في غيره من الحذاق الى الجواز قياسا ، والحاقا بطريقه وصنفا في ذلك ، وصار أبو موسى ابن الامام من أهل تلمسان ، والزاهد عبد العزيز القروي في جماعة الى المنع لابطال الالحاق بأدلـــة نصبوها . فلما قرأت بين يديه هذه المصنفا ت ،قال : « ما لنا وللخلاف » ، فلم يأمر بعمله بعد ولا ركب به . والقضية مشهورة .

الفصـــل الثالث

وأما المطعم فكان رضي الله عنه أشد الناس تقللا من الطعام ، على تمام خلقته . ولقد لازمته مدة بسبتة ، حين نقه من مرض ، * كان عرض له، حسبما يأتي ذكره، فألزمني ألا آكل الا اذا أكل،فكنت كثيرا من الأحيان أصبر على الجوع ، لأنه كان يأكل في زمن حده له الأطباء على مقدار . وكان قليل الأكل ، ويؤثر أكل الصيد والخضر التي تنبت في الشعاب والأودية وفي حميل السيل ، تبركا واقتفاء .

الفصـــل الرابع

وأما ما هو دليل الكمال وصحة الذكورية وما يتفاخر به عادة ويتبع شرعة وسنة ، وهو النكاح فكان يؤثـــره ، لمـــا ورد في الحث عليـــه ، والأحاديث في الباب كثيرة . واتفق العلماء على أن الاستكثار من النساء

غير قادح فى الزهد ، فعلى هذا درج جماعة من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ، كعلي وابن عمر والحسن وغيرهم (1) . ومثله عن ابن عيينة وسهل بن عبد الله رضي الله عنهم .

الفصل الخامس

ومن الصفات التي عدها الامام أبو الوليد الفهري ذاتية ، وهي التواضع . كان رضي الله عنه قد برأه الله من الكبر والاعجاب الذين (2) يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل ، فآثر التواضع وخفض الجناح ، لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه / وسلم 13 أ
قال : ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد عبد بعفو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله .

فكان يمنع من تقبيل الأرض بين يديه ، وينهى عن الوقوف بين يديه ، اذا لم يكن ثمة مجلس فصل وقضاء . ويمنع العلماء والصلحاء وخواصه من تقبيل يده ، وسيأتي (ان شاء الله تعالى) فى باب رعاية الصالحين وسلفهم ما يقضى منه العجب من شدة تواضعه رضي الله عنه ، وكان أكره شيء اليه الاعجاب (3) ، لما روينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« ألا أخبركم بأهل النار : كل عتو جواظ مستكبر » * (متفق على 38
صحته) . وعن العباس أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنهاك عن الشرك بالله والكبر ، فان الله يحتجب منهما . وقال الأحنف : « ما تكبر أحد الا من ذلة يجدها فى نفسه » . وقالت الحكماء : « لا يدوم ملك مع كبر ، فالكبر يوجب المقت ، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله » . وسيأتي (ان شاء الله) بقية الخصال المحمودة التي اتصف بها فى أثناء أبواب الكتاب (والله المستعان) .

1 ــ غيرهما : هكذا فى كلتا المخطوطتين
2 ــ اللذان : فى «ا»
3 ــ أكره شيء الاعجاب : فى «ر»

الباب الرابع

فى محافظته على الاعمال التكليفية والوظائف الشرعية (وفيه فصول) .

الفصل الاول

فى محافظته على أصول الاعتقاد

كان رضي الله عنه على ما كان عليه من الاشغال (1) بما قلده والقيام بين طوقه ، يعمر مجالسه بالقراءة والمذاكرة ، حسبما نبينه بعد (ان شاء الله تعالى) ، وقرئ بين يديه ارشاد أبي المعالي ، فكان يصغي لما يلقى من أدلة أهل السنة ، وبيان مذاهبهم ، فاذا عرضت أدلة المعتزلة والخارجين عن مذاهب أهل السنة ، يقول : « دعوا هذا » ، ومهما ذكر مذهب من المذاهب الملفوظة ، ينهى عن الخوض فيه ، ويزجر ذاكره . وهكذا ، لعمري، كان شأنه فى الرخص والأخذ بالأمور الخارجة عن الشهرة .

الفصل الثاني

فى محافظته على الطهارة والصلاة

كان رضي الله عنه ،اذا جلس مجلسه ، يجلس على طهارة ، فاذا عرض له ناقض ، قام عنا لمتوضأه . وكان يستصحب فى سفره أدوات الوضوء ، بل وفى ركوبه فى غير السفر (نفعه الله تعالى) .

1 ــ الاشتغال : فى «ر»

/ وأما الصلاة، فكان (رضي الله عنه) مواظبا على الصلوات الخمس في 13 ر
* أوقاتها ملازما / لأداء مفروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته 39
قط يصلي الا في جماعة ، ولا يؤخر صلاة من ساعة لساعة ، منقبة عجيبة، ونادرة غريبة . سمعت منه (رضي الله عنه) أوقاتا ، آخرها في وجهتنا لافريقية سنة سبع (2) وأربعين ، أنه قال : ما فاتتني قط صلاة منذ كلفتها في وقتها بل ولا في جماعة » . وكان سنه اذ قال هذا نحو خمس وخمسين سنة . فما أحق هذه المنقبة أن تكتب بماء الذهب .

وأخبرني (رضي الله عنه) أنه قال : « كنت أول بلوغي مبتلى بالاحتلام، وكان يتعذر علي اتيان الحمام ، وكنت في أيام الليالي وشدة البرد أتي الوادي ، فأغتسل فيه مخافة ن تفوتني الجماعة » . وربما قال : « كنت أكثر من ذلك في الموضع الذي أمر باتخاذ مطهرة فيه وميضأة ، بجوار مسجد النصاصين » . ومن أجل ذلك أمر ببنائه ثمة وجدد بناء المسجد الذي هنالك ، على ما هو معروف .

هذا في الفرائض ، وأما النوافل فكان (رضي الله عنه) يتقدم الفروض بمستحبات الركعات المشهورة ، وبعد العشاء الأخيرة يثابر على اثنتي عشرة ركعة ، بعدها الوتر والله أعلم ما يصنع في منزله ، غير أنا تلقينا من يوثق به أنه كان له ورد آخر ليله .

وأما قيام رمضان فكان اذا قضى التراويح المعروفة في الجمهور ، ويدخل الى منزله ، ثم يستدعي القراء ومن يختص به من جلسائه ليجدد القيام ، واذا يحس بوقت السحور خرج ، وحضرنا وحضر من يتخير من القراء ، فيجدد القيام ويأمر بسحورنا بين يديه ، ويتسحر في منزله ، فربما تسحرنا معه (رضي الله عنه) أحيانا . فيجتمع لنا في قيام رمضان
من الخمس عشرة ختمة الى ثمان عشرة * كل رمضان ، واذا كان في 40

2 ـ ثمن : في «ر»

ليلة الاحياء قل من يستطيع قيامها معه ، فيصلي صلاة الصبح بوضوء العشاء الآخرة ، وربما ختم القرآن فى ركعة ، لم يثبت فيها سواه ، وكان ذلك حين ختم به محمد بن ابراهيم الشريف بمدينة فاس ، وخرج أكثر الناس من الصلاة (3) بل لم يبق معه ، فيما سمعت ، غيره .

وكان (رضي الله عنه) يأخذ بالسنة فى رمضان ، وبما روي عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى رمضان/ما لا يجتهد فى غيره وفى العشر الآخر (4) ما لا يجتهد فى غيره » . وكان رضي عنه يقوم ليالي العشر الآخر رغبة فى ليلة القدر (5)، وكان رضي الله عنه يأمرني أن أتربص بالدعاء بعد صلاة الجمعة، حتى يقضي ما كان يلزمه من قراءة الفاتحة والاخلاص والمعوذتين سبعا ، لما حدثنا به شيخنا أسد الدين بن عبد المغيث بن الملك الكامل وغيره عن الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري ، قال : حدثني غير واحد من شيوخنا الى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ اذا سلم الامام يوم الجمعة ، قبل أن يثني رجليه ، فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس سبعا سبعا ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأعطي من الاجر بعدد كل من آمن بالله واليوم الآخر » . فكان اذا فرغ من هذه مسح على وجهه ليشعرني بفراغه رحمه الله .

---

3 ــ صلوة : فى «ر»

4 ــ الأواخر : فى «ر»

5 ــ هذه الجملة ناقصة فى «ر»

الفصل الثالث

وأما الصيام فكان رضي الله عنه يصوم يوم الاثنين والخميس وكان يصوم شهر رجب وشعبان والمحرم ، والايام البيض والعشر ، ويوم عرفة وتاسوعاء محرم وعاشوراه (1) * وستة آيام من شوال .

وأما الاثنين والخميس فلما رويناه من قوله صلى الله عليه وسلم : « تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم » ، (قال الترمذي : حديث حسن) . وفيه قالت عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى صوم الاثنين والخميس ». وأما صوم الاشهر الحرم ، فلما جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم » . وما روي عن عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم شعبان الا أقله » . والأحاديث فى فضل ما تحرى صومه (2) كثيرة واردة فى الصحيح .

الفصل الرابع

فى صدقته وايثاره .

وستأتي سيرته فى ذلك فى أثناء الأبواب مما يدلك على أنه لا يبلغ أحد فى ذلك شأوه .

الفصل الخامس

رأيت أن أذكر فى هذا الفصل عمله اليومي والليلي ليكون فصلا جامعا لسيرته فى ذلك . كان رضي الله عنه اذا صلى صلاة الصبح ذكر ما حضره مما كان يلازمه ، ثم قرأ / وظيفته من محفوظه من 14

1 ـ عاشوراء : فى «ر»
2 ـ صومه : فى «ر»

القرآن خمسة أحزاب كل غداة على من يحضره من فقهاء مجلسه ، وأكثر ما أدركته يقرأ على الفقيه أبي عبد الله السطي رحمه الله وعلى الاستاذ ابن خليفة والاستاذ الزواوي وعلي أحيانا ، وان كنت دون القوم . وربما يقرأ ربع القرآن في مجلس واحد أياما ، وكان محفوظه من سورة الأحزاب سردا ، وما عدا هذا يحتاج فيه الى مساعدة في الاستظهار . فاذا قضى وظيفة من القــراءة تحدث مع جلسائه فيما يختص بيومه ، وتهممه بحوائج المستضعفين وقرى الواردين .

وحين * القراءة لا يحضر أحد الا من يقرأ عليه أو من يكون حاضرا من فقهاء حضرته فاذا فرغ استدعى ثقته وحاجبه أبا حسون عــلالا ، ثم يستدعي الوزراء والكتاب ، فاذا قضى مجلسه الخاص دخل الى منزله هنيئة ، ثم يخرج اما الى ركوب وذلك يوم الاثنين والخميس غالبا ، ويوم الاربعاء لزيارة مقام الصلحاء في الغالب ، وفي يوم الاثنين والخميس للمواضع المعدة للجلوس خارج البلد كبرج الذهب بفاس أو الميدان بتلمسان ، فيعرض أمامه الجيش وينظر فيه ويلعب بين يديه الفرسان ليميز الفارس من غيره ، ويتعرض له المشتكون ، وتعرض عليه هناك الهدايا وما يحمل من الاموال ، وهنالك يجلس لكبراء ارسال الملوك وأبناء الملوك اذا وفدوا عليه ، ثم يعود الى منزله ، فيجلس ليقضي ما عرض له في أثناء ركوبه ، ثم يدخل .

وفي غير يوم الركوب يخرج للجلوس ، فيحضر كاتبه وصاحب سره ووزراؤه ، فتعرض عليه القضايا ومهمات الشكيات ، ثم يؤذن للناس في الدخول ، فيدخل أشياخ القبائل من بني مرين والعرب والواردين والكبراء من القبائل ، فيأخذون مجالسهم بين يديه ، ثم يؤمر بالطعام فيؤتى بما يكفي جميع الحاضرين ، وكان يعجبه الاكل بين يديه ، ويأمر باسقاط الحشمة في الاكل ، ويأمر بالمجالس وترتيب الناس ، ويحرضهم على الاكل . ثم اذا قضى ذلك أذن لهم في رفع مسائلهم يوما بعد يوم

مناوبة على ترتيب ونظام معروف ، فاذا استوفوا حوائجهم دخل الى منزله ، وفى يوم ركوبه يؤتى بالطعام الى موضع جلوسه ، حيث كان ذلك . فاذا حانت صلاة الظهر خرج فصلى ، ثم / جلس لقراءة الكتب والتوقيع عليها بين يديه الى صلاة العصر ، أو لنسخ القرآن ، حسبما * يذكر فى موضعه ان شاء الله ، فان فضلت منها فضلة ، كملت بعد صلاة العصر .

ثم يأخذ فى الأخبار والسير برهة ، ثم يقرأ بين يديه من الكتب ما كان يتخير قراءته وربما كانت القراءة بين الصلاتين ، اذا لم يكن مهم ولا (1) موجب . وكانت الكتب التي قرأت أنا بين يديه : البخاري مرات وصحيح مسلم ، كذلك السير ، كذلك الاكتفاء لأبي الربيع ، كذلك سراج الملوك ، الفرج بعد الشدة ، فتوح الشام ، الحلية لأبي نعيم ، الى غير ذلك من الكتب . ومنذ خدمته كنت القارىء بين يديه غالبا ، والفقيه الفاضل أبو علي بن تدرارت ، وقبلي ابن يربوع وغيرنا ، ولعل الفقيه أبا القاسم بن رضوان قرأ ، فانه ممن لازم آخرا . ثم اذا قربت صلاة المغرب دخل ، فاذا حانت الصلاة (2) خرج ، واذا انقضت صلاة المغرب وفطره جلس غالبا لقراءة العلم . فيقرأ بين يديه ما يتخيره للقراءة ، فتارة الموطأ وتارة ابن الحاجب ، وتارة التهذيب ، وربما كانت قراءة العلم بين الصلاتين ، وبعد الصبح ، وقد أقرأ بين يديه فى الزمن الذي أدركته من يذكر : الفقيه الامام الاستاذ أبو عبد الله الرندي ، والفقيه الامام المفتي الاوحد أبو زيد ابن الامام ، وشقيقه الامام الامهر أبو موسى التلمسانيان ، الفقيه أبو عبد الله السطي ، الفقيه قاضي القضاة أبو عبد الله بن عبد الرزاق ، وهو من الطبقة الاولى ، الفقيه أبو عبد الله الآبلي ، الفقيه أبو عبد الله بن الصباغ المكناسي ، الفقيه أبو عبد الله

---

1 ــ لا : غير موجود فى «ا»

2 ــ الصلاة : غير موجود فى «ر»

ابن الحفيد السلوي أياما يسيرة ، وبمدينة تونس الامام أبو عبد الله بن عبد السلام ، والفقيه أبو عبد الله بن هارون ، والفقيه أبو محمد الآجمي والفقيه أبو علي عمر بن عبد العزيز بن عبد الرفيع ، وغيرهم . وسيأتي ذكر فقهائه ان شاء الله تعالى فى موضعه فى باب محبته فى العلم وأهله .

وأحيانا يجلس بعد صلاة العشاء * الآخرة لقراءة العلم ، وان كثرت الشكايات (3) ورقاع الوقائع ، نترك كل عمل ونشتغل بقراءتها والتوقيع عليها الأهم فالأهم . وسيأتي ذكر ذلك فى موضعه من باب العدل .

ثم اذا فرغت القراءة جلس للمسامرة فى الامور المهمة حتى يغلب النوم على الحاضرين ويرى ان قد أدركهم التعب ، يقوم ليدخل منزله ، فاذا طلع الفجر / خرج ، فأحيانا يقرأ قبل الصلاة اذا عزم على الركوب أول النهار . فكانت أوقاته كلها رضي الله عنه معمورة اما بعمل بدني أو تدبير فى مصلحة من وكله الله عز وجل بهم واسترعاه اياهم .

3 ـ الشكيات : فى «أ»

الباب الخامس

فى اقامته العدل ومحافظته على حدود الشريعة

أما العدل فهو قوام الملك ونظامه ، ولا مقام أفضل من مقام الامام العادل ، وقد قدمنا ما ورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم ... » وروينا فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لعمل العادل فى رعيته يوما أفضل من عبادة العابد اما مائة سنة أو خمسين سنة » (ذكره القرطبي) . وقال قيس بن سعد : « ليوم من امام عادل خير من عبادة رجل فى بيته ستين سنة » . وقال مسروق : « لان أقضي بالحق أحب الي من أن أغزو سنة فى سبيل الله » ، ولا فضيلة أعظم من العدل فى الملك ، كما أنه لا رذيلة فيه أعظم من الجور ، ولا أقبح من الجور الا السائبة ، ولهذا قال الفضيل بن عياض : « جور ستين سنة خير من هرج سنة » . وفى الخبر : « أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ، وفى ذلك يقول عبد الله بن المبارك رضي الله عنه : (من البسيط) .

ان الجماعة حبل اللـه فاعتصموا   منه بعروته الوثقى لمن دانا
كم يرفع اللـه بالسلطان معضلة   فى ديننا رحمة منه ودنيانا
* لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل   وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

فالكمال وجود ملك (1) عادل ، وقد كان هذا الخليفة رضي الله عنه أعدل من رؤي من الملوك فى هذه الأعصار ، وان استقصيت سائر ما فى

1 ـ امام فى «ر»

حفظي من القضايا والوقائع التي تقتضي ذلك ، يخرج التأليف الى حد الاطالة ، فلنقتصر على غرائب حضرتها وشاهدتها (وفى الباب فصول) .

الفصـــل الاول

فى اقامة الحدود على من اقيمت عليـــه

بلغه رضي الله عنه وكان أعز أولاده الأمير أبو مالك الشهيد (نفع الله به) ، أنه شرب الخمر ، فبحث عن ذلك حتى وقع على صحة ذلك منه ، فأحضر قاضي حضرته ، وأقام عليه الحد ، وأقلع / بعد ذلك (نفعه الله) وسأل الله الشهادة فنالها .

وحضرت بين يديه ليلة ، فجاء ولد وزيره عامر بن فتح الله ، وقد بلغه عنه مثل هذا وكان حين وصل اليه على هذه الحال ، فأمر باستنكاهـــه فتوقف بعض الحاضرين ، فلم تستقل بذلك الشهادة ، فصرفه وقال (1) : اللهم بين لنا . فرجع وقال : نعم ، ما ذكر عني صحيح . فأمرني بالحضور والقاضي ابن عبد النور وثقتهم علالا، فحده. وأما من يتعين عليه حكم شرعي من أبنائه أو خاصته ، فانه ينصف من نفسه ، قبل أن يجتمع عليه الانصاف والعقوبـــة .

ولقد سوغ لخدام الشرع أن يدخلوا الى مشوره فى حق من عليه حق من غير مشوره ، يخرج من بين يديه الى القاضي . وجرت فى ذلك حكايات محفوظـــة .

وأما ما يتعلق بالقصاص ، فكذلك حضرت عشية بين يديه وقد (2) سيق اليه شاب من بني عسكر من كبارهم وهو محبوس ، ومعه مقتول . فسأل عن المقتول ، فقيل له : سوقي من سوق الدخان ، معروف بالدعارة، تعرض لهذا بقبيح ، وشهد عليه بذلك . فسأل عن أولياء المقتول ، فلم يوجد له فى الحين ولي ، فأشار بعض الحاضرين فى امهاله * لينظر فى

1 - ثم : فى «ر» .
2 - غير موجود فى «ا»

أوليائه ، ففطن له أن ذلك لأجل وجاهة هذا القاتل وعمه كبير الدولة ، فأمر به ، فأخرج فى الحين ، وقتل فى الموضع الذي قتل فيه ، ودفنا جميعا . ومن هذا كثير .

الفصل الثاني

فى عدله فى القضايا التي ترفع على من يتطرق لأخذ ماله اذا كانت باطلة(1) فى العرف فكيف اذا كانت لها شبهة (فجزاه الله خيرا عن الاسلام) .

حضرت يوما ، والكتب تقرأ بين يديه ، فقريء كتاب صاحب شرطة فاس ، وهو يقول ان رجلا يعرف بابن بسيل وشاء بالوشائين من فاس حديث نعمة ، لا يعرف له قبل مال ، اشترى دارا من دور الحرائر بألف دينار ذهبا ، وجنات ، واتخذ مراكب من الخيل والبغـال ، وملابس لا تناسب صنفه ، « واني قد بحثت عنه ، فألفيت فلانا وفلانا من الفقهاء المتلبسين بالفقه والمظهرين للصلاح ، قد شهدا عليه ، بأن عنده من مال عبد لكم عشرة آلاف دينار من الذهب أودعها عنده حين استخلص / ماله » والعقد طي كتابه ، قد خاطب عليه القاضي ، غير أن القاضي كتب الي أن فى القضية ريبة ، فلما قريء ذلك بين يديهم رضي الله عنهم وأعلمته بما كتب لي به القاضي ، أمر الفقيه أبا العباس بن يربوع وكان متوجها لفاس ، أن يفحص عن القضية فاذا ثبتت عنده يطالع . فوصل كتاب ابن يربوع يخبر ان القضية ثابتة لاشك فيها ، فقلت له : « لو أمر مولاي بحضور الجميع بين يديه لظهر له جلاء القضية » . فأمر باشخاص الجميع من فاس الى سبتة ، وكنا مقيمين بها . فلما وصلوا أمرني والفقيه أبا عبد الله السطي وابن يربوع لاستفسار الشهيدين ويعرف أحدهما بالعقاري والآخر بالفقيه ، فحضرنا فى الجامع ، فلما حضروا استفسرت العقاري منهما ، فقلت له : « هل لك بهذا المشهود عليه معرفة أكيدة أم لا ؟ » . فقال لي :

---

1 – باطلا : فى «ا»

« نعم ، الدار بالدار وقديم المعرفة مع الجوار » . فاستفسرته سرا وقلت له : « كيف كان جواره لك ؟ » . فقال لي : « جار سوء والله ما أنا الا على (2) ما أنا عليه من الاقلال وهو ❊ على ما (3) هو عليه من سعة الحال ما أعانني قط بفضيلة، بل جرى لي معه ما جرى » وذكر أحقادا بسبب أشياء مستقبحة . فقلت للفقيه السطي ، وهو الى جنبي : « اسمع ما قال » . فكرر كلامه . فلما استوفيناه ، قمنا فدخلنا ، وهم (أيدهم الله) ينتظرون ما عندنا . فعرفناهم بالقضية ، فأحضر الجميع بين يديه (نضر الله وجهه) ، فسأل الفقهين ، فقالا ما شهدا به ، ثم سأل المشهود عليه ، فقال له : « أنت ابن بسيل ؟ » . قال : « نعم » . قال له (4) : « أنت الذي يقال ان عنده أموالا طائلة ظهرت عليك ؟ » . فقال « نعم » . فقال له : « فجميع ما يقال انه ظهر عليك صحيح ؟ » . قال : « نعم وأكثر » . فقال له : « ومن أين هو لك ؟ » . فقال : «من مالك .» فقال له : « من أي وجه ، مما قال هؤلاء ؟ . » قال « لا والله غير أني أنا (5) الذي يقام على يدي جميع ما يرفع لك الولاة من الهدايا ، أتكلفها لهم ، فيعطونني آلاف الذهب على الاقامة ، ولي فيها اجارات معروفة ، وهم يتنافسون فى أيهم يسبق بهديته وأيتها أحسن ، فيهادونني بالخيل والبغال والعبيد ، اليوم منذ أربعة عشر عاما ، فوالله ما جمعت الا أموالا طائلة مع تجارتي من هذا النوع ، فأنا فوق ما يقال وأعظم » . فسجد مولانا أمير المسلمين (رحمه الله) وقال : « الحمد لله الذي رأيت فى رعيتي من يعرف بهذا القدر من المال ولا يتقي / ، اذهب ، فان كان ما قال هؤلاء حقا ، فبارك الله لك فيه ، وان كان كذبا ، فأحرى وفاء الكاذب بالخزي . » فأشار بعض الحاضرين الى أن يحلف ، فان المال طائل ، فقال لي (6) : « حلفه فى مسجد الحطابين » . ثم قال : « لا والله ، امض راشدا ومهما تكن لك من

2 ــ على : غير موجود فى «ر» .
3 ــ على : غير موجود فى «أ» .
4 ــ له : غير موجود فى «ر» .
5 ــ انا : غير موجود فى «ر» .
6 ــ لى : غير موجود فى «ر» .

حاجة فأرفعها الينا » . وكتب له لصاحب الشرطة بفاس ، يحمله على المبرة والكرامة ، وصرف الشهيدين ، ولما عرف ضعف العقاري منهما أخرجه للزكاة (7) على عادة الطلبة فرحمه الله ورضي عنه .

الفصل الثالث

لما شرع فى الزيادة فى جامع العباد ازاء ضريح سيدي أبي مدين (نفع الله به) طلب شراء ما يحاذي الجامع ، فباع بعض القوم ، وامتنع آخرون الا أن يدفع لهم بحساب دينارين من الذهب لكل شبر . فحضر بعض الفقهاء وذكر ما لأئمتنا فى هذه القضية من نص ، فقال : « لا والله لا أفعل » . فأمر عمي (رحمه الله) أن يشتري عنه كذلك ، فاشترى بهذا الحساب ، وهكذا فعلت أنا نيابة عنه فى هنين وفى الدية وطول مدته (رضي الله عنه)

ورفع اليه مرة أن رجلا ممن كانت له خدمة بمراكش ترك مالا طائلا ، وليس له الا ولد صغير وبيت المال أحق بماله ، ويترك للولد من ربعه ما يكفيه . فقال: « معاذ الله » . وكتب لصاحب مراكش، وهو ابن مروان يومئذ ، ينهاه عن التعرض له . فذكرت بهذا الفعل ما حكي عن الصاحب ابن عباد ، ودون فى الكتب ، حكاه الغزالي وغيره اعجابا به ، قالوا : « رفع رافع للصاحب أن ولدا ورث عن أبيه مالا طائلا ، فلو ترك له بعضه ورفع ما فيه لبيت المال لكان صلاحا ، فوقع الصاحب على الرفع النميمة قبيحة ، ولو كانت صحيحة ، الميت رحمه الله ، والصغير جبره الله ، والمال ثمره الله ، والنمام أبعده الله فان تبت قبلناك والا عاقبناك » . فانظر ما بين الحكايتين ، هذا (1) فى أخذه مكتسبا من مال السلطان ما تموله له فيه مندوحة ومدخل ، والآخر لا تعلق لأحد معه ، فبان

7 ـ تزكوه : فى «ر» .
1 ـ هذه : فى «ر» .

لك ما بين المقامين وظهر تفاوت الدرجتين » ، ولو بسطت الكلام فى هذا الباب وما على حفظي منه ، لدونت من ذلك ما يستقل بتأليف ، فعدلـه (رضي الله عنه) أشهر بحيث لا يخفى وجدد (رضي الله عنه) آثار من مضى من الأئمـة الخلفـاء . / وسيـأتي ذكر ما وقع من المظالم فى موضعه (ان شاء الله تعالى) .

الباب السادس

في رعاية آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظ هذا المنصب الشريف والقيام بحقه في ليلة مولده عليه السلام (وفيه فصول)

الفصل الاول

في محافظته على ❊ هذا النسب الشريف وتحوطه على حراسته وأن لا (1) يختلط بهم غيرهم •

كان رضي الله عنه أشد الناس غيرة على هذا النسب ، وكان قد أخذ على القضاة في كل بلد (2) البحث عن ذلك لسبب وقع ، وهو أن رجلا سائسا شكا يوما ما يلقاه من مخدومه ، وكان المخدوم نصرانيا ، فأنهي له الخبر فاشتد رضي الله عنه في خدمة المسلم للنصراني ، فقال قائل : نعم والخديم يدعي الشرف • فأدركه رضي الله عنه من الأمر المزعج ما عجب منه ، وأمر باحضار الخديم والمخدوم ، فاستفسر الخديم (3) عما نقل عنه من الانتماء الى النسب الشريف ، فادعاه فأمر القاضي قاضي حضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق بالنظر في القضية ، وأشخص الفقيه المفتي

1 ـ لا : غير موجود في «ا» •

2 ـ بلدة : في «ر» •

3 ـ المخدوم : هكذا في كلتا المخطوطتين • الخديم : مصحح في هامش نسخة «ر» •

القاضي أبا اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى بالتوجه الى فاس ، ونودي بحضرة فاس وسائر بلاد المغرب من يدعي الشريف ، فليحضر ما بيده بحضرة القاضي المذكور وقاضي فاس وكبير الشرفاء سيدنا أبي عبد الله بن عمران والفقهاء ، فما ثبت من ذلك يقر ، وما لم يثبت يكتب بعدم ثبوته ، ومن ثبت شرفه يجرى له ما يكفيه في كل بلد ذكرا أو أنثى ، صغيرا أو كبيرا ، حتى لا يخرج لاكتساب الا لسعة حال (نفعه الله بذلك) .

الفصل الثاني

حضرته يوما تعرض له فيه (1) رجل في طلب ، وقال : « اني شريف » . فقال له : « والله لو علمت هذا حقا لقبلت قدميك . » وهذه حالة من عرف قدر هذا المنصب العظيم وما يجب لمن انتمى لهذا النبي الكريم . وقد روينا عن يزيد بن حيان ، قال : « انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر ابن مسلم الى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا اليه قال له حصين: « لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه / وصليت خلفه ؟ لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فقال : « والله ، (2) يا ابن أخي ، لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض (3) الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حدثتكم فأقبلوا ، وما لا حدثتكم فلا تكلفونيه ، ثم قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خمى بين مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ الناس ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس أبشروا يوشك أن يأتي رسول ربي ، فأجبت ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله

1 – فيه : غير موجود في «ر».
2 – والله : غير موجود في «أ» .
3 – من هنا الى نهاية هذا القسم ليس في مكانه المناسب في نسخة «ر» الا في نهاية اللوحة 70 .

فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله وأرغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي ، أذكركم والله فى أهل بيتي ، أذكركم فى أهل بيتي » . فقال له حصين : « ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه أهل بيته » . قال : « نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . » قال : « ومن هم ؟ » قال : « آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس » . قال : « كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ . » قال : « نعم » (أخرجه مسلم) . وفى رواية : « ألا واني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله و (4) هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة » . وعن ابن عمر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : « ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته » (رواه البخاري) . وفى الصحيح فى الحسن والحسين رضي الله عنهما : « اللهم (5) أحبهما وأحب من يحبهما وهما ومن أحبهما معي فى الجنة » . وفى الخبر : « ان آل رسول الله صلى الله عليه وسلم عصمة » . والآثار والأحاديث فى الباب كثيرة فرضي الله عنه لقد فاز بهذه المنقبة وحاز ثواب هذه المكرمة . (6)

الفصل الثالث

فى بذله الأموال الطائلة فى فك من أسر من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الدين عنـ .

كان سيدنا الشريف الكبير الصالح التقي أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي الشرف الحسيني السبتي رضي الله عنه ، قد أسره العدو فى بحر الزقاق وولديه ، وأظهر الله كرامة آل بيته (عليه الصلاة والسلام) بأن

4 ـ و : غير موجود فى «ا» .
5 ـ رضهما الله فى «ا» .
6 ـ من هنا الى نهاية هذا الفصل ناقص فى «ر».

عاملهم(1)النصارى بخير ولم يتعرضوا لاهانتهما(1)ولا لضربهما(1)بوجه ، غير أنهم طلبوا فيهم الفداء بالمال ، فلما رفعت القضية لمولانا السلطان أبي سعيد رحمه الله تطارح عليه ولده مولانا أبو / الحسن رضي الله عنه 18 ب
في أن يفتكهم من ماله ، فأذن له ، فشطط النصراني في الطلب الى أن وقفوا على سبعة آلاف دينار من الذهب ، فأخرجها رضي الله عنه من ماله . هكذا تلقيت هذه الحكاية من سيدي الشريف المذكور وغيره،ورأيت الرسم المعقود في ذلك أن الفداء كان بستة آلاف وخمسمائة ، فيحتمل أن يكون الزائد فكاكه على جري العادة في ذلك ، والرسم مؤرخ بالموفي عشرين لمحرم عام عشرين وسبعمائة (نفعه الله بذلك) .

ورفعت له يوما رفعا بدين على شريف ، وكان نحوا من مائة دينار ذهبا، فأداه عنه ، وصدر أمره بأداء الديون عمن يثبت نسبه في الشرف .

(2) الفصل الرابع 50

في مجاوزته عن أهل الشرف

حضرت يوما بعد صلاة الظهر ، وكان يوم أضحى ، رجلا صاح في الجامع خلف المقصورة : « معاشر الناس ، اشهدوا أن مولاي أبا الحسن يكذبني (3) في دعوتي لجدي صلى الله عليه وسلم » . وبادر العدويون هذا الصائح وأحيط به ، فهم به بعض الوزراء ، فزجرهم وأحضره فاستفسره ، فقال لي : « هنا أيام أطلب منك حاجة، فلم تسعفني بها » . فقال له : « يا أخي انظر على يدي (4) من رفعت الي ، وما شكوت لي بشيء ، وهل أنا بالذي أحتجب يوما كاملا عن الناس الا في النادر ؟ » .

---

1 ــ لازم أن تقرأ : هم
2 ــ من هنا تبدأ مرة ثانية نسخة الرباط
3 ــ يكذبني : غير موجود في «أ»
4 ــ يد : في «ر»

فاشتد البحث عن الرجل ، فألفي مهوسا ممرورا ، ثم سأله عن النسب فلم يأت فيه بما يثبته بطريقة . فقال له : « يا أخي لولا انتسابك لهـذا الجناب (5) لطلبتك شرعا وأدبت ، ولكني أهب حقي لمن تعلقت بالنسب اليه وان لم يثبت . » وأعطاه كسوة وعشرين دينارا ذهبا لمكان ما روعه .

ونمي عن شريف وارد من المشرق ما يحرمه من العطاء والاحسان ، فلم يحرمه ذلك من سائله المعهود . والاختصار أوجب الاقتصار على نبذ من كل فصل (وبالله التوفيق) . *

الفصـــل الخامس

في ما يعطيه لهـــم

وأما اعطاؤه رضي الله عنه للشرفاء ، وخصوصا الواردين عليه مـــن الحرمين من الحسنيين والحسينيين ، فهو مما لا يدخل تحت الحصر ، أشهد لقد رأيت منصور بن فهد ، ونحن على طريـــق ، وأن فسطاطـــه وأخبئته لأعجب من أخبئة السلطان في الحسن وتأنق الصنعة ، وأن / لباسه لأفضل من لباسه ، وعدته لمراكبه وسلاحه لشبيهة بعدة السلطان وسلاحـــه .

وكان الشريف اذا ورد المغرب ثم عاد منه ، يصير نزهة وأعجوبة في البلاد التي يمر عليها . وأما سائر شرفاء بلاده كالسادة (1) الجوطيين رضي الله عنهم الأدارسة الأصلاء (نفعنا الله بهم) والداخلين في ترجمتهم وهم الصلحاء (2) الصرحاء بالمغرب ، وكشرفاء مراكش من بني عمهم ،

5 ـ الجانب : في «ر» .
1 ـ والسادة : في «ر» .
2 ـ الصلحاء : غير موجود في «ا» .

وأولاد بركات ، والقضاة والحسينيين بسبتة و (3) أولاد أبي الشرف ، السادة الكبراء وأمثالهم من اشتهى نسبه ، والتلمسانيين : القاضي الامام أبو علي السبتي ، وكالفقهاء العلويين ، فلكل منهم جرايات كافية ، ومرتبات * شهرية على قدرهم ذكورهم واناثهم مع الكسوة الجارية فى سابع المولد (نفعه الله بذلك) .

الفصل السادس

فى عادته (1) الجارية ليلة مولده (عليه السلام) وسابعه

هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطنة المرينية ، وان حكاها غيرهم ، فما أشبه ولا قرب . أثار الفقيه العزفي رحمه الله صيدها ، فصادوه ، ونبه على الخير فمضوا عليه ، واعتادوه ، وزاد فيها هذا المولى ، رضي الله عنه ، من المحاسن ما صيرها مثلا ، وألبسها من سيره الجميلة حللا .

لازمت حضوره والاختصاص بالاطلاع عليه من سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة الى منصرفنا من تونس ، فأذكر من عادته المستمرة ما حفظته .

كان رضي الله عنه يقيمها سفرا وحضرا ، لا يشغله عن اقامتها شاغل ، حتى لقد كنا بسبتة مقيمين مقابلين لنزول النصارى على الخضراء ، وكان رضي الله عنه فى تعب وملازمة مقاومة لجيوش المسلمين من أهل العدوتين ، حسبما نذكره (ان شاء الله تعالى) فى موضعه ، فحضرت ليلة المولد ، فلم يصل أهل البلاد قاطبة على * جري (2) العادة ، فانه حيث كان ، يصل الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء من أهل البلاد لشهودها ،

3 — و : غير موجود فى «ا» .
1 — عاداته : فى «ر» .
2 — جرى : غير موجود فى «ر» .

ووصل من أهل فاس خطيبها كان أبو الفضل المزدغي خاصة ، فلما حضر ، وكان وصوله ليلة المولد ، سأله ، فاعتل لما سمعوا اشتغال السلطان بمهم الجهاد ، فتخلفوا ، فتغير لذلك رضي الله عنه وسأل زعيم المزمزمين / وهو ابن الطراحة ، فأخبره بمثل ذلك عن بقية أهل صنفه ، فصدر أمره بايقاف جرايات من لم يصل ، تنبيها لهم على أنهم أخطؤوا اذ ظنوا به لاشتغال عن هذا المهم ، وأمر بعقوبة المتخلفين من (3) المزمزمين . فيرحم الله شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق قاضي الجماعة وخطيب الحضرة قبلي ، فكان نادرة وقته ، لقيته بخارج فاس ، وقد خرج رضي الله عنه للقائي ، فقلت له : « كيف حالك ؟ » فقال : « بخير أكلنا سياطا في ظهور المسمعين ، والحمد لله رب العالمين . » وكانوا قد أدبوا ، فكتبت بها لمولانا المرحوم، فاستضحك منها زمانا وارتفع العتب (4) بسبب ذلك عن الجميع.

ومن العادة أن يستعد لها بأنواع المطاعم والحلاوات وأنواع الطيب والبخور، واظهار الزينة والتأنق في * ابداء المجالس. فاذا صلينا المغرب، ركع ركعات ، ثم قصد مجلسه الحافل ، فيستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم ، ويأمر بأخذهم المجالس على طبقاتهم على أحسن وأجمل شارة ، فاذا فرغ الترتيب وأخذ الناس مجالسهم ، دعي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام ، وهو مباشر للأقربين منه ، وربما يجلس الجالس بين يديه على أطراف ثيابه والمطرح الذي بين يديه ، فاذا قضي شأن الطعام أحضر من الفواكه الحاضرة في الوقت ما يوجد في ابانه ، ثم يؤتى باليابس بعدها ، ثم يؤتى بالكعك والحلاوات ، ثم يؤتى بملاح السكر ، وربما اختلفت العوائد في التوالي مرة وفي الفترة أخرى ، وذلك على أعجب ما يتحدث به كثرة وحسنا . وتارة يقع الاطعام بعد العشاء الآخرة ، فاذا استوت المجالس وانقضى اللغط ، ولا تكاد تسمع صوتا الا همسا ، قام قارىء

3 – من : غير موجود في «ر» .
4 – العجب : في «ر» .

العشر فقرأ ، ثم تقدم زعيم المسمعين بصفه فيقضي بعض نوبته ، ويشرع في قصائد المدح والتهاني فتقرأ على نظام محفوظ وترتيب محوط على قدر المنازل والرتب والمناصب ، فتطير القلوب فرحا ، وتسرد المعجزات وتكثر الصلوات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي من * أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب وبركاتها على هذا القبيل ظاهرة ، والخيرات لا تزال بسبب الاعتناء بها عليهم متظافرة متكاثرة . وجميع ما يفضل من بخور وشماع على كثرتها ، ووفور عدتها يقتسمه الفقراء المسافرون على قدر استحقاقهم ، / ويجمع لهم من ذلك العدد الكثير . واذا قضيت صلاة الصبح ، جلس الناس للطعام ، فيؤتى بأنواع الطعام المختص بذلك . ثم في ليلة السابع مثل ذلك سواء ، فاذا كان صبح يوم السابع ، جلس الكتاب للعطاء للشرفاء والكبار من الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة الواردين ، فيعطى كل على قدره كسوة تخصه ، واحسانا لبعضهم ، ولم تزل هذه السيرة ، والحمد لله ، مستمرة فقد أجراها المولى المرحوم أبو عنان ، وزاد محاسن وكما أحياها وزاد مولانا أبو سالم وكساها جمالا وزادها أبهة وجلالا مولانا أبو فارس رضي الله عنه ، على ما أخبرني به من شهدها . وهذه النبذة في هذا الفصل كافية .

الباب السابع

فى رعايته لأهل الله تعالى وجميل * اعتقاده فيهم .

أما والله لو أوردت ما فى حفظي من هذا الباب ، لاستقل به كتاب وأي كتاب . فلنورد آحاد حكايات .

وهذه المنقبة عرفتها منه من قبل لقائي له رضي الله عنه ، كان والدي رحمه الله قال لي لما ودعته من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما أذكره (1) (ان شاء الله تعالى) فى الخاتمة : يا بني ، هو رجل رأس ماله الوثوق بالله وحب أهل الله .

(وفى هذا الباب فصول) .

الفصل الأول

فى حسن لقائه لهم وسيرته معهم رعيا لوجه الله

أشهد لقد لقيه شيخ الفقهاء سنا وحفظا أبو زيد عبد الرحمن الجزولي شيخ الشيوخ وواحد وقته المنفرد بالسنن العالية والقيام بالرسالة خصوصا، حتى لقد قيدت عنه تقاييد لا تدخل تحت الحصر . وكان لقاؤه له على وادي سبو ، حين قدم تلمسان بعد استفتاحها وتردده فى أحوازها ، فلما دنا الشيخ أشار بأن لا ينزل ، فبادر أبناؤه فأنزلوه للسلام عليه رضي الله عنه ، فرمى بنفسه رضي الله عنه للأرض واحتضنه وعانقه ، ثم تولى * بنفسه حمله على مركوبه ، ونزل لنزوله أكثر الجيش وكان يوما محتفلا وقبل كل واحد منهما يد الآخر .

---

1 ــ نذكره : فى «ر» .

/ وأشهد لقد دخل عليه سيدي الشيخ عبد الهادي الى مجلسه ، فوقف له وعانقه . وأذكر هنا حكايته مع سيدي أبي عبد الله الكومي الضرير المراكشي ، وكان من أولياء الله بلا نزاع ، ومن أصحاب التصوفات والمقامات . كنت كثيرا ما أتردد لزيارته بمراكش عند مقدمنا عليها وهي آخر سفراته رضي الله عنه من فاس الى مراكش . وكان معظم قصده فيها زيارة الصلحاء الأحياء والأموات ، فقال لي رضي الله عنه يوما : « كيف العمل فى الاجتماع بهذا الصالح ؟ » ، وقد كان حصل من أخباره ما دله على ولايته ، فقلت له : « كيف يأمرون » فقال لي: « تتوجه اليه أنت والفقيه أبو علي بن تدرارت (وكان خير أصحابنا ، رحمه الله) وتعرضون عليه الاجتماع به ، أما أن نأتيه أو يأتينا » . فبادرنا امتثال الأمر ، فلما دخلنا عليه ، وبيننا وبين موضع سكناه مسافة ، قال : « أهلا وسهلا بسيدي الخطيب وسيدي الفقيه ، يا سيدي الفقيه ، بماذا أمر سيدنا أمير المؤمنين (1) رضي الله عنهم ؟ » ، قبل والله أن ينطق بكلمة * كل واحد منا فقلت له : « هو ما علمت يا سيدنا » . فقال : « الفقراء أحق بالوصول اليه ، ولكن على شروط ثلاثة ، أحدها أن يكون هذا اللقاء أولا وآخرا لا ثاني له ، الثاني أن لا يعرض علي شيئا من متاع الدنيا ، الثالث أن لا يعرض على أولادي ما يخرجون به عن مذهبي » . فقلنا له : « نعم سمعا وطاعة » . فقال : « بل حتى تبلغوا عني ويتحمل سيدنا أمير المؤمنين شروطي » فانصرفنا عنه فأطلعناهم رضي الله عنهم على الواقع ، فقالوا : « نعم قبلنا شروطه » . وجرت فى أثناء هذا كرامات ظهرت من هذا الشيخ ، ذكرها يطول . فعدنا اليه وركب معنا وقصدنا القصبة ، فلما دخلنا آسراج، وهو عبارة عن الرحبة العظمى التي يدخل منها الى محل الملوك ، لقينا ثقتهم أبو حسون علال (2) بن محمد فتقدم بين يدينا (3) فألفيناهم

1 ــ المسلمين : فى «ر» .
2 ــ أبا حسون علالا فى «ر» .
3 ــ أيدينا : فى «ر» .

رضي الله عنهم بدار الحزب ، فلقيه رضي الله عنه في وسط الدار ، وأخذ يده فقال الشيخ : « معاذ الله يا سيدنا أمير المؤمنين نحن علينا أن نقبل يمينك ونتبرك بك » . فأدخله الى وسط الدار ، وفى قدمه بلغة ، فأشار بعض الحاضرين الى خلعها ، فقال له مولانا رضي الله عنه : « لا والله » حتى وصل الى باب العقبة . فجلس بين يديه وسأله عن * سنه وفاوضه وسمع مواعظه البليغة ونصائحه المفيدة ، ثم / انه رضي الله عنه عرض له بالسؤال عن الحال وما يتمشى به الوقف ، وكان آية عجبا فيما يبدو عليه من التصوف ، ففهم الشيخ ما أراده (4) منه مولانا السلطان رضي الله عنه ، فقال : « سيدنا الخطيب » . فقلت : « نعم يا سيدي » . فقال (5) : « هذه واحدة » . فقال له رضي الله عنه : « المعذرة يا سيدي » . ثم أجرى ذكر من له من الولد ، فقال : « يا فلان » . فقلت : « نعم » . قال: « وثانية ». فقال له: « لا يا سيدي ، نستغفر الله » . ثم قال له فى أثناء كلامه : « لو أذنت لنا فى الوصول اليك » . فقال : « يا فلان » . فقلت : « نعم » . قال : « وثالثة » . فقال : « لا يا سيدي، غير أننا والله وددنا أن لو تمتعنا بك ». ثم قال لثقتهم علال : « ادع الأولاد » . فدخل أبو علي الناصر ، فعرفه به ، فدعا له وأثنى عليه كثيرا ، ثم تقدم أبو عامر ، فلم يزده على أن رد عليه ، ثم دخل أبو الفضل ، فما زاد على أن دعا له خفيفا ، ثم دخل السلطان أبو عنان ، فقال له : « هذا فارس » . فرفع الشيخ صوته وقال : « فارس فارس » . فقال له : « نعم يا سيدي هذا فارس ، هذا فخر أولاد عبد الحق ، هذا ختم القرآن هنا فى ركعة فى قيام رمضان » . وأثنى عليه والشيخ يقول : « فارس » ، وشد بعضده . ثم انصرفنا ، ولم أدر ما عرض به فى أمره حتى لقيت بعد * المولى أبا عنان وأخبر أنه ذكر له ولايته ، وأنه سيراه بعد هذا ، فأخبرني أنه رآه وذكره بموطنه ، الى غير ذلك مما

4 ـ أراد : فى «ر» .
5 ـ فقال : غير موجود فى «ا» .

لم أذكره ، فلما ذهب ليخرج ، رأيته بعيني قد أخذ بلغته اما مـن أبي الفضل بن أبي مدين أو من يد ثقتهم علال ، وقدمها (6) للشيخ رضي الله عنه ، وسايره بطول دار الحزب حتى خرج . فانظر ماذا تشتمل عليه هذه الحكاية من الفضل .

ودخلت معه على سيدنا أبي عبد الله الهزميري بمدينة آسفي ، ويعرف بايزمير (نفع الله به) ، وكان من أولياء الله الصادقين علما وقدما ، وكان مستقره بمسجد بآسفي ، فلما وصل بموكبه الى المسجد ، وكنت تقدمت بين يديه فيمن تقدم ، نزل بمقربة من المسجد ، ثم لما دخل الصحن ، والشيخ على حاله مستند الى القبلة ، وكان آية وصاحب كرامات ظاهرة وأحوال عجيبة ، أردت أن أشير على الشيخ بلقائه أنا وأبو الفضل بن أبي مدين ، فنهانا عن ذلك وقصده فقبل يده ، وجلس بين يديه ، وقبل الشيخ كذلك يده (نفعه الله) وقال له (7) : « يا سيـــدي أوصني ، أفدني ، ادع لي » . فأوصاه / وأفاده ودعا له . فقــال لــه : « يا سيــدي * لعلك تقبل منا ما تلبسه بحسب البركة مما تتخيره » . فقال له : « يا أمير المسلمين هذه الجبة لها علي نحو من عشرين عاما ، وكأنها لم يتنصف فيها اللباس ، ومن البعيد أن يبقى من العمر قدر ما مر عليها ، وأنا اليوم ناهز الثمانين » . فقال له : « يا سيدي ، تعرفت أن لبني أخيك بوادي نفيس أملاكا ، ولك معهم ، فلعلنا نكتب لهم برفع ما عليها من المطالب ، وننظر لك من خالص الاملاك الحلال ما تنتفعون به » . فقال له : « أنت فيما زعمت ، ردت أن ترانا لننتفع بنا ، وما جزاؤنا عندنا أن تضرنـا ، وليس لنا لمخلوق ولا لما بيد مخلوق حاجة » . وكان له فى زاوية المسجد غرارتان وقدران ، فى الغرارة بقية الشميرات وفى القدرين (8) رمان ،

6 ــ قدمها : غير موجود فى «ر» .
7 ــ له : غير موجود فى «ر» .
8 ــ القدر : فى «ر» .

فأشهد لقد رأيت أكثر أصحابنا بل وأكثر المحلة يحملون التمر والرمان ، فما نقصها ، والخير باق من غير شك ولا مرية .

ودخل عليه ونحن بسبتة عشية (9) شيخ يعرف بالشيخ عثمان بن أبي عفيف ، مرابط من تيكطيين من أحواز مراكش ، وهم أهل بيت وصلاح ، فلما دخل عليه تزحزح له ، وأزال المخدة عن يمينه ، وأجلسه الى جانبه . وكنت لا أعرفه ، فقلت للقاضي ابن أبي يحيى ، وهو الى جانبي : « من هذا ؟ » . فقال لي : « من صلحاء البوادي * ومرابطيهم » . فلما خرج قال لنا : « سمعت ما قلتموه » . ثم قال لي : « هذا رجل تعلق بجناب الله فوجب اكرامه » .

الفصـــل الثاني

في تحمله ما يصدر عنهم وحمله ذلك منهم على أجمل المذاهب وأحسن المقاصد

كان الشيخ الامام الصالح سيدنا أبو محمد عبد العزيز القـــروي (نفع الله به) أحد رجالات الكمال علما ودينا ، وغاية في الورع والزهد (نفع الله به) ، وكان شديدا في أحواله منجمزا منقبضا خوافا ، وكان مولانا السلطان رضي الله عنه له محبا وفيه معتقدا وله معظما ، وكانت له معه وقائع لم أشهدها من نوع ما شهدته وحضرته . أحضر يومـــا الفقهاء وأعلام أهل فاس ، ونحن يومئذ بقصبة فاس ، فلما حضروا قال لهم : « تعلمون أني طوقت من هذا الامر عظيما وتحملت منه صعبا ، وحــق عليكــم أن تشاركونـــي » . وخطابــه / مبــاشرة ومشافهـــة للشيخ أبي محمد عبد العزيز وكان عن يمينه ، والاشياخ معه يمينا وشمالا : الامام الصالح أبو اسحاق اليزناسني شيخ الكل باعتبار السابقة وكان على رسوخ من العلم والعبادة والزهد ، والشيخ أبو محمــد

---

9 ــ عشية : غير موجود في «ر» .

عبد المؤمن الجاناتي فى طبقته ، والفقيه مصباح المشتهر بآكراس لحفظه ❊ اياها ، وأبو عبد الله بن عبد الكريم ، وقاضي الحضرة أبو عبد الله بن عبد الرزاق ، والفقيه أبو اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى ، والفقيه أبو عبد الله السطي وأهل الحضرة . فقال له : « يا سيدي أبا محمد » مجيبا : « فى ماذا نشاركك ؟ » . فقال : « فى بعض القضاة والفقهاء المزكين الذين يتولون قبض الزكوات ، فأنتم أعلم بهم وفى رفع الامور التي تبلغكم وما تعم به المفاسد،و (1) كهذه الدراهم الناقصة التي يدخل على الناس بسببها الفساد » . فقال له الشيخ أبو محمد : « هذا لا مدخل لنا فيه ، أنت أعلم بنفسك ، أنت المقلد وأنت المسؤول عن ذلك بين يدي الله » . فقال : « اذا أرده اليكم ويرجع الى أعناقكم » . فقال له بكلام شديد العبارة بأشد مما أورده : « طائر كل أحد مما يسأل عنه فى عنقه » . فاحتد رضي الله عنه وقال له : « بل هذا واجب عليك وأنت مطلوب به ». فاحمر وجه الشيخ والتفت اليه وجاوبه بمثل جوابه الاول . فزاد رضي الله عنه انحرافا واستدار اليه ، وفى يده ما عوائدهم رضي الله عنهم يمسكونه فى أيديهم ، ورفعه مهويا اليه ، فتبسم الشيخ نفع الله به (2) وقال : « لا ، يا أخي ، الامر أهون » . فالتفت الي أبو زيان عريف والفقيه السطي وقالا (3) : « انظروا فى فصل هذا المجلس ، أقيموا الشيخ ❊ لئلا ينجلي المجلس عما يسؤونا » . فقمت مهويا للشيخ ثم ان الوزير ربيبهم أبو عمران موسى بن ابراهيم تقدم ليقيمه . فصاح بنا السلطان رضي الله عنه وقال : « لا والله لا تفعلوا » . وكان مجلسا شديدا . فقام رضي الله عنه ، ودخل الى مجلسه على الوادي بقصبة فاس ، فتبعه الشيخ أبو محمد عبد المؤمن (4) الجاناتي وقال له : « الى أين يا سلطان تقوم عنا غاضبا ،

1 ـ و : غير موجود فى «أ» .
2 ـ رضي الله عنه : فى «ر» .
3 ـ قال : فى «ر» .
4 ـ المهيمن : فى «ر» .

من ذا الذي يحمل جهلنا ان لم تحمله ، ومن ذا الذي يستر عوارنا ان (5) لم تستره ؟ . فاعتذر له وانصرفوا ، فلما صلينا الصبح من صبيحة تلك العشية أمرني أن أسير مع ثقتهم علال الى سيدنا أبي محمد ، ونعتذر له ، فوافيناه . / بعد الصبح قد دخل داره ، فارتقينا الى غرفة وجدناه بها ، فأبلغناه الرسالة ، فبكى وقال : « نحن ندل عليه لعلمنا بدينه وفضله هو ، والله ، آخر الملوك الفضلاء ، ويا أسفي على الناس ان فقدوه » فعرضنا عليه اللقاء فقال: « تقبلوا عذري فاني بدوي جاهل، وقد حمل مني مرات ما لم يحمله أحد ، فاقبلوا عذري ، وهذا ولدي يذهب معكم ليؤدي عني ويتردد اليه عني مهما عرض مهم » . فانصرفنا ومعنا ولده ، فأعلمناه رضي الله عنه فبكى وقبل . وكان فى المجلس من اغلاظ القول وشدة الحال مما لا يغفره الملوك غالبا ، ما تركته . * ومن عجيب ما يذكر وينشر قضيته مع شيخنا الفقيه أبي زيد بن الامام على الجزائر ، ولم أحضرها يومئذ وذلك أنهم رضي الله عنهم اشتدوا فى عمارة الاسطول المبارك الذي كان فيه الفتح العظيم واقعة الملند المعروفة المشهورة ، وكان بظاهر الجزائر فأخبره أن أهل الجزائر تثاقلوا فى بعض ما وظف عليهم من الرماة ، فأعاد الاشتداد عليهم فلتكؤوا ، فأخبر رضي الله عنه فاشتد عليهم ، وقيل بين يديه انهم كانوا بالامس يرمون فى وجه مولانا ، وهل هم الا أعداء ، فقال : « يؤخذون جبرا » وأغلظ فى القول ، فدخل الفقيه ابن الامام فى أثناء ذلك ، فالتفت اليه وقال له : « كيف ترى هؤلاء يطلبون بالرماة للجهاد ويتوقفون ، أما يستحقون العقوبة شرعا ؟ » فقال له الفقيه : « ولابد أن أقول ؟ » . فقال له : « قل » . فقال : « اذن لا يجب عليهم ما طلب منهم ولا تلزمهم عقوبة فى توقفهم » . فاستشاط رضي الله عنه غضبا وقال له : « تقول هذا فى الجهاد ؟ » . فقال : « نعم » . فقال له : « أما تدري أني اذا عينت أحدا

5 ــ اذا : فى «ر» .

تعين عليه ؟ » . قال له: « نعم وليس هذا من ذاك ». فقال له : «ولم؟». وزاد غضبه . فقال له : « ان الله عز وجل قد استرعاك رعية وجعلك وكيلا على من استرعاك عليهم ، وللمسلمين عليك حق كما لك عليهم ، وهل هذه البيوت بيوت الأموال التي * تجمعونها والجبايات التي تجبونها الا مرصدة لما يحتاج اليه المسلمون حتى اذا فنيت بيوت الاموال، وفعلت ما فعل من أنت تقتدي به الفاروق ، رضي الله عنه ، حين كنس بيت المال وصلى فيه . ثم يكون لهم نظر غير هذا ، وحينئذ يوظف عليهم بحسب القدرة وما تدعو / اليه الضرورة » . قال لي الفقيه أبو علي بن تدرارت : « كنت والله كما قال بعض السلف : أضم ثيابي مخافة أن يصيبني دمه من شدة ما أغلظ » . قال : « فكأن مولانا رضي الله عنه استيقظ من نوم » . قال : « ثم أطرق ، فدخل اللمطي يعرف بوقت صلاة الظهر ، فأهوى الفقيه للقيام » ، فقال له مولانا رضي الله عنه : « الى أين ؟ » فقال : « لأجدد الوضوء » . فقال له : « جدده ههنا » . ثم دخل رضي الله عنه وخرج وفى يده سطل من ماء للفقيه ، وقال له : « مثلك من يجب أن يعمل له هكذا » . وقبل كل واحد منهما يد صاحبه . ولقد حدثت بهذا الحديث مرات فى مجالس التدريس والتذكير ، فما أكملت قط الحكاية الا والدموع تتحادر والدعوات تتابع للفقيه والملك ، تغمدهما الله برضوانه ، وهكذا تكون المآثر والفضائل .

وحضرت رجلا من صلحاء سجلماسة ، يعرف بابن أبي محلي ، ورد عليه فى سبتة ، فصدر عنه من جهالة * صلحاء البوادي وعدم سلوك مسالك أهل العلم والرياضة ، ما لا يحمله آحاد الناس فضلا عن الملوك ، فلما انصرف من بين يديه أشاع الناس بأنه أمر بعقوبته لاستبعادهم تحمل ما صدر منه ، فانصرف راشدا مقضي الحاجة .

وحضرت بين يديه عشية ، وقد ورد المرابطون من جبال شلف للسلام عليه ، فتقدم شيخ من المرابطين من بني أبي ميلك ، وكان عرف به شيخنا الفقيه أبو موسى ابن الامام ، فلما دخل للسلام عليه ابتدر رأس مولانا (نصره الله) ليقبله ويحتضنه ، على ما جرت عادة البادية ، فزجره شيخنا وابتدره الحاضرون ليصدوه ، فقال (نصره الله) : « لا ، والله ، ما يمنع، بل يترك على حاله لتحصل به البركة ، فان الرجل على نشاطه فى النية ، فلا يفسد اعتقاده » .

وكم من هذا هكذا والله جرى لي معه مرات ، اذا عرفته بصالح أو مرابط يأمر بدخوله ، يتركه على استرساله وعادته ، فان تعرضت لرده أو نهيه ، ردني ومنعني (فالله ينفعه باعتقاده) .

الفصــل الثالث

فى مذهبه فى زيارة الصلحاء الأحياء والأموات

أما الاموات فانه رضي الله عنه كان كثير الزيارة للائمة المشاهير ، ففي مراكش : ضريح الولي أبي العباس السبتي ، وضريح القاضي أبي الفضل عياض * وأمثالهم من الصلحــاء . / وبآغمــات الهزمــيري والتونسي ، وأمثالهم . وبآسفي سيدنا أبا محمد صالح الماجري (1) وأضرابه . وبآزمور من اشتملت عليه ، وهم أعلام ، ومن اشتمل عليه ساحل آزمور وما اتصل به ، وهو موضع الاولياء . وبسبتة كذلك ، ويكثر بفاس زيارة القاضي أبي بكر ابن العربي وأبي زيد الهزميري ومن معه بمسجد الطابرين ، وبالعدوة دراس بن اسماعيل وغيره (2) . وبتلمسان سيدنا أبا مدين ، ومن معه فى عباد تلمسان ، والداوودي وابن غزلون

1 ـ الماجري : غير موجود فى «ر» .
2 ـ وغيره : غير موجود فى «ر» .

ومن معهما بباب العقبة . وفى سائر بلاد المغرب لا يسمع بصالح يزار الا ويقصده (نفعه الله بذلك) ، ولولا الاطالة لزدت منهم وحليتهم .

وكان مدة اقامته بتلمسان يختص يوم الاربعاء بزيارة سيدي أبي مدين رضي الله عنه . وسيأتي ذكر ما أحدثه من الآثار من هذا المعنى ان شاء الله تعالى .

وزار من الأحياء جملة فى منازلهم رضي الله عنهم وعنه . وفى الصحيح، عن أنس رضي الله عنه : قال أبو بكر لعمر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انطلق بنا الى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها . فلما انتهينا اليها بكت » ، فقالا لها : « ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقالت : « لم أبك لهذا ، ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء ، فهيجتما علـى البكاء » * . فجعـلا يبكيان معها .

وفى الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه : « ان رجلا زار أخا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : « أين تريد ؟ » . فقال : « أريد أخا لي فى هذه القرية » . فقال: « هل لك عليه من نعمة تربها ؟ » . قال: « لا ، غير أني أحببته فى الله ». قال: « فاني رسول الله اليك بأن قد أحبك كما أحببته فيه » . (رواه مسلم). (أرصد اذا وكل بالحفظ ، والمدرجة الطريق ، تربها معناه تقوم بها وتسعى فى صلاحها) .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضا أو زار أخا فى الله ، ناداه مناديان : طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » (رواه الترمذي . وقال : حسن غريب) .

فعسى الله لا يخيبه أجر هذا العمل واقتفى فى زيارة المقابر ، بما جاء فى الصحيح : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي البقيع من آخر / الليل ، فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون » وكان يزور القبور ، ويقول : « السلام عليكم أهل الديار المؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم للاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية » . فكان هذا المولى رضي الله عنه يبتغي زيارة القبور طلبا للأجر وللاعتبار كما جاء فى ذلك (والمنة لله) .

❋ (1) الباب الثامن

فى شدة خوفه ومراقبته ووقوفه مع الحق

كان رضي الله عنه أشد الناس خوفا من الله ومراقبة له ووقوفا مع الحق . حيث كان اذا قرىء بين يديه القرآن ، أو تقرأ بين يديه كتب الرقائق ، يشتد بكاؤه . ولقد رأيته ، والله ، أحيانا يعلو صوته بالبكاء (2) خوفا من الله (عز وجل) وفرقا . والخوف شعار الصالحين وسبيل السالكين .

روينا فى الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال ❋ : « خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ، ما سمعت مثلها قط ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . » قال : « فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم » . (هذا حديث متفق عليه) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله ، حتى يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » (رواه الترمذي) .

وعن عبد الله بن الشخير (رضي الله عنه) (3) قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » (رواه أبو داود) .

---

1 ـ ومن الباب الثامن : فى «ر» .
2 ـ يعلو بكاؤه : فى «ر» .
3 ـ رضي الله عنه : غير موجود فى «ر» .

وقال لأبي رضي الله عنه : « ان الله أمرني أن أقرأ عليك : « لم يكن الذين كفروا .. » قال : « وسماني » . قال : « نعم » . ومقام الصحابة رضي الله عنهم فى الخوف والأولياء معروف .

وقد استوعب الامام أبو حامد حكايات فى ذلك .

* فكان رضي الله عنه من أشد خلق الله خوفا من الله ، ومراقبة له ، منقبة كريمة وفضيلة عظيمة . كنت عشية عرفة معه فى داره بأبراج من منصورة سبتة ، فقرأ ما قرأ ، ثم شرع فى الذكر الذي يستحب لأهل عرفة أن يذكروه ، وكانت عادته ، ثم شرع فى الذكر مرة . فلما ضاق العشاء قال لي : « ننتقل الى المنزه لنشرف منه على / البحر » . فأهوى للقيام (4) ، فنظر الى نعله وكان بازائي ، فاني كنت جالسا مقابلته فأخذت النعل وقدمتــه له فلم أشعر والله الا وهو يبكي ، ويقــول : « الله الله » ، بصوت عال مرتفع . فقلت : « سبحان الله ، وأي حادث حدث أوجب بكاءه ولا أعلمه ؟ » . فقال لي (5) : يا أبا عبد الله ، كيف لا أبكي ، وأي حجة تكون لي بين يدي الله اذا قال لي : « كيف (6) كنت تقرأ على هذا كلامي ، ثم أنك * تستخدمه فى مثل هذا ويمكن لك القدم ؟ » فبهت ، ولا أقول ما كان غير هذا مما أحظى به (نفعه (7) الله بمعتقده ، وضاعف له ما وهب له من فضله)

وسمعته يوما يقول لأبي زيان عريف بن يحيى ، وقد ذكر له بعض الناس اذايته له واطالة لسانه فى شأنه ، فقال (رضي الله عنه : « يا أبا

4 ــ لقيام : فى «ر» .
5 ــ لي : غير موجود فى «ر» .
6 ــ كيف : غير موجود فى «ر» .
7 ــ نفعنا : فى «ر» .

زيان، تعرف أن الله، وله الحمد، أقدرني على أن أهلكه وأقتلعه اقتلاع اللفتة بطينها ، ولكني أخاف الله » . وسمعته يقول : « والله ، ولولا خوف ربي ، لأحللت بفلان ما لا ألام فيه شرعا وعادة ، لكني أخاف أن يكون لي غرض فيه » .

وهذا هو النهاية في الخوف وفي مراقبة الله (عــز وجــل) نفعه الله تعالى وجدد له أجره ذلك وثوابه (8) .

8 ـ من هنا الى نهاية هذا القسم موجود في اللوحة 71 .

الباب التاسـع

فى حسن ظنه بالله (عز وجل) وقوة رجائه فيه

وهذا باب عظيم يفتقر الى مقدمات (1) ، وهي الوثوق بالله (عز وجل) والاعتماد عليه وصدق اليقين . وكان رضي الله عنه جميل الظن بالله ، قوي الرجاء فى فضله ورحمته، عظيم اليقين. كان اذا ذكر له طريق سيدي (2) أبي زيد الهزميري رضي الله عنه وسبيل (3) أبي يعقوب البادسي رضي الله عنه من البسط ، وكانا كما قال سيدي أبو مدين (رضي الله عنه) الولي مقبوض بالعلم مبسوط بالمعرفة ، وكانا مبسوطين بها ، يعجبه ذلك . (4) وسنزيد من أخبارهما فى غير هذا الباب .

وكان يباشر بذلك آبا زيان عريف رحمه الله حتى كان يقصده بالاعلام بمثل هذا (5) . وجمع رضي الله عنه بين الخوف واليقين ، وللعلماء فى التفضيل بينهما خلاف ، والمختار أن يغلب الخوف حال كمال القدرة ، أو يستويان عنده ، وأن يغلب الرجاء عند المرض والكبـر . / وقـد جاء من الآثار (6) والاخبار ما يدل على فضل الجمع بينهما . قال الله تعالى : « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » (7) . وقال تعالى : « لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » . وقال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » * . وقال : « ان ربك سريع العقاب ،

---

1 ـ مقدمة : فى «ر» .
2 ـ السيد : فى «ر» .
3 ـ سيدي : فى «ر» .
4 ـ الجملة التالية ناقصة فى «ر» .
5 ـ هذه الجملة موجودة فى نهاية اللوحة 74 لنسخة «ر» .
6 ـ الأثر : فى «إ» .
7 ـ الا القوم الخاسرون : غير موجود فى «إ» .

وأنه لغفور رحيم » . وقال : « ان الأبرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم » . وقال تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » . وفى الصحيح : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ، ما طمع بجنته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط من جنته أحد » (رواه مسلم) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم ، فان كانت صالحة قالت : قدموني ، قدموني . وان كانت غير صالحة قالت : يا ويلها أين تذهبون بها ، يسمع صوتها كل شيء الا الانسان ، ولو سمعه صعق » . (8) (أخرجه البخاري) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم : الجنة أقرب الى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » (رواه البخاري) . فكان رضي الله عنه شديد الخوف شديد الرجاء . (نفعه الله بالحالتين ، وأناله المتع بالجنتين بمنه وفضله) .

---

8 ـ لصعق : فى «ر» .

(1) البـاب العـاشر

فى ملاحظته رضي الله عنه (2) لأحوال رعيته

وهذا من أكبر أعمال السلاطين وسير الملوك الأئمة الراشدين ولملوكنا هؤلاء (3) رضي الله عنهم فى ذلك السن الذي شرعوه ، والمذهب الذي سلكوه .

كان رضي الله عنه اذا صلى الجمعة غالبا جلس ، فتعرض عليه القضايا وترفع له الشكايا، فيقضي فيها قضاءه. وربما يجلس يوم الاثنين والخميس هذا ، وهو فى كل يوم لابد له أن تعرض عليه أنواعها وترفع له على اختلافها .

وكان رضي الله عنه قد بنى قبة العدل فى منصورة تلمسان وبناها بسبتة . وكان يجلس فيهما (4) ويعين من يثق به من كبار أهل حضرته من الوزراء والفقهاء لذلك (5) * فمن المعينين لذلك ، فيمن أدركته وحاضرته بين يديه ، من الفقهاء : الفقيه أبو عبد الله / الرندي ، والفقيه أبو عبد الله السطي ، والفقيه أبو العباس ابن يربوع ، والفقيه أبو عبد الله ابن عبد النور ، والفقيه أبو محمد عبد النور ، والفقيه أبو عبد الله الفشتالي ، وغيرهم . ومن الفقهاء الكتاب : أبو الحسن القبائلي ، والفقيه أبو القاسم بن رضوان ، والفقيه أبو الحسن بن سعود ،

1 ـ ومن الباب العاشر : «ر» .
2 ـ رضي الله عنه : غير موجود فى «ر» .
3 ـ هؤلاء : غير موجود فى «ر» .
4 ـ فيها : فى «ر» .
5 ـ على هامش نسخة الرباط مكتوب : « وبعد هذا ورقتان بياضا فى النسخة » . ولكن البياض .

ومن يتعين لذلك اذا طلب . ومن الوزراء : الوزير (6) عامر بن فتح الله ، وغازي بن الكأس ، وأبو حسون علال ، ومحمد بن العباس ، والوزير موسى بن ابراهيم ، وزيان بن أمديون ، وعثمان بن عبد الواحد ، ومسعود بن عمر الفودودي ، وعسكر بن تاحضريت ، وغيرهم من وجوه خواصه ووزراء حضرته .

وانما ذكرت مشاهير من عرفت واسمه فى الوقت ذكرت ، وكنت من جملة من كان يعينه لذلك رحمه الله تعالى ، وكانت القضايا التي ترفع اليه لينظر فيها ، يتركها عندي . فكم والله من حسنة على يده اكتسبتها ، وكم من محمدة ببركته نلتها .

وكان رضي الله عنه يعين من يتوجه للبلاد فى كل سنة لذلك ، فيبعث من يتفقد أحوال الرعية من هذه الأصناف فى كل ناحية من بلاده . فترفع اليه الشكيات من كل الاقاليم ، ويتخير رضي الله عنه من يتفقد أحوال هؤلاء الموجهين لذلك ، ويوصي بعضهم على بعض . ويكتب للقضاة والخطباء بالبلاد فى رفع ما يرفع لهم من الشكيات ثم صدر أمره رضي الله عنه أن يجتمع فى كل بلد بعد صلاة الجمعة قائدها ووالي قصبتها وواليها وخطيبها والعدول ، يسمعون جميع الشكيات التي تورد عليهم ، فما كان لنظرهم ورجع الى حكمهم من خلاصه ، هنالك قضوا به ، وما احتاج أن يرفع الى ما بين يديه نصره الله ، كتبوا به ووجه به قائد القصبة الى بابهم ، ويشتد على الكل رضي الله عنه (7) فى ذلك ، ويتقدم لهم بالتخويف والتحذير من العقوبة على تأخر المطالعة . ويأمر جلاسه ويأخذ عليهم العهد فى رفع ما (8) يرد عليهم من هذا ، حتى لا يشد عنه شيء من أخبار رعيته ثم انه رضي الله عنه يباشر ذلك

6 — ابن عامر : فى «ر» .
7 — رضي الله عنهم : فى «ر» .
8 — ما رفع ما يرد : فى «ر» .

بنفسه ، فيركب ويشق وسط البلدان ليعرف مكانه . كنت ما أسايره رضي الله عنه في ركوبه . دخلت معه يوما من باب من أبواب تلمسان ، وهي باب * العقبة وقد زرنا هنالك الداودي ، فلما خرجنا من الموضع المعروف بباب زيري ، ونحن مصعدون الى تلمسان العليا ، قلت له : « هذا الطريق أخلى من الناس وهذا الذي يواجهنا في السوق وبين الحوانيت » . وقال لي : « يا فقيه ، لي في هذا غرض » . فقلت له : « وما هو ، يا مولاي ؟ » . فقال : « اغتنام دعوة صالحة ، والتعرض لرفع ظلامة ، وسماع شكية ، وتحوط أهل الاسواق من الاطلاع على ما يكره ، وشكرا لله على ما أنعم » . فسرت عن يمينه ، وأنا أحادثه وأعرفه بما يسألني عنه من أحوال البلد وأسماء المواضع ، وقصدي (9) مع ذلك اعلام أهل بلدي بمكاني منه ، ولم يزل يفعل ذلك معي حسبما أذكره ان شاء الله في الخاتمة . فأسأل الله أن يجزيه عني خير جزائه ، وأن يحشره في زمرة أوليائه وأحبابه ، وانه لكذلك في كل نفس لا يزال متفقدا لرعاياه ناظرا في مصالحهم رافعا لما يرفع اليه (10) به الشكيات ويتعين له أنه من الظلامات ، حتى لقد أمر مرات بالنداء بذلك .

وقد سلك أولاده المعظمون هذا السبيل ، فكان للمولى أبي عنان رحمه الله في ذلك الأعمال المبرورة والآثار المشكورة ، جرى فيه على أوضح سنن ، وكذلك أخوه المولى أبو سالم رحمه الله ورضي عنهم (11) ، وتعرفت أن سيرة مولانا أمير المسلمين أبي فارس على أحسن ما يعهد من هذا وأكمله . أسأل الله (جلت قدرته) أن يمتع المسلمين بايالته ويطول حياته وسعادته بمن الله وفضله .

وهذا لأن همم الملوك رضي الله عنهم على قدرهم ، فأجل ما يصرفون فيه هممهم لحفظ ما قلدوه ولهذا يقال : « هموم الناس صغار وهموم

---

9 — من الممكن أن يقرأ : وقصده .
10 — له : في «ر» .
11 — رضي الله عنه : في «ر» .

الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شيء وألباب السوقة مشغولة بأيسر شيء » . وكان أشد اهتمامه رضي الله عنه وحرصه على الخبرة بأمر عماله وأحوال رعيته وتيقظه .

سئل بعض الملوك ممن زال ملكه : « ما الذي سلب ملكك ؟ » قال : « رفع عمل اليوم الى غد ، والتماس عدة بتضييع عديد » * وسئل بعض الملوك بعد أن سلبوا ملكهم : « ما الذي سلب عزكم وهدم ملككم ؟ » فقال : « شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا ، ووثقنا بكفاتنا فآثروا مرافقتهم علينا ، وظلم عمالنا لرعيتنا . فانفسدت نياتهم لنا ، وتمنوا الراحة منا ، وحمل على أهل خراجنا ، فقل دخلنا ، فزالت الطاعة منهم لنا . وقصدنا عدونا فقل ناصرنا ، وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الأخبار عنـا » .

ولما أحيط بمروان الجعدي ، وهو آخر ملوك بني أمية ، قال : « يا لهفاه على دولة ما نصرت ، وكف ما ظفرت ، ونعمة ما شكرت » . فقال له خادمه بسيل ، وكان من أشراف أولاد الروم : « من أغفل الصغير حتى يكبر ، والقليل حتى يكثر والخفي حتى يظهر ، أصابه مثل هذا » .

وسئل بعض العلماء : « ما الذي أذهب ملك بني مروان ؟ » . فقال : « تحاسد الأكفاء وانقطاع الأخبار » . قالوا : وذلك أن يزيد بن عمر بن هبيرة كان يحب أن يضع من نصر بن سيار ، فكان لا يمده بالرجال ولا يرفع الى السلطان ما يورد عليه من أخبار خراسان ، فلما رأى ذلك نصر بن سيار ، قال (من الوافر) :

أرى خـلال الرمـاد بيض جمـر ويوشك أن يكون لهـا ضـرام
فان النـار بالعـودين تذكـى وان الفعـل يقدمـه الكـلام
فقلت تجـاهلا : يا ليت شعـري أ ايقـاظ أميـة أم نيـام

فكان العباسيون يؤسسون دولتهم ، ولا تصل أخبارهم الى سلطان بني أميـــة حتى استفحل أمرهم ، وضعف أمر بني أميـــة .

فتفقد أمر الرعايا يستدعي النظر فى أمور العمال . وأما معرفة أخبار النواحي والأقطار البعيدة فكان رضي الله عنه آية فى ذلك . كان ثقتهم أبو حسون علال بن محمد ، أسعده الله ، تولى النظر فى ذلك ، بعد الوزير أبي ثابت عامر بن فتح الله ، ففي كل يوم لا يغفل عن تفقد ولا يخلو له يوم من ورود وارد بخبر .

وتتبع هذا الباب عريض * طويل ، وتفقده لكل صنف من أصناف رعيته على اختلاف أحوالهم وتفقدهم ونوع ما يتفقدون به من النظر الذي يتكفل باصلاح أحوالهم وبسط أموالهم ، لا ينضبط بوصف ولا يدخل تحت حد ولا حصر ، وقرب العهد بدولته رضي الله عنه ، يوجب الاختصار فى هذه الابواب (فالله تعـــالى يتغمـــده برحمتــــه / وينعمه فى فسح (12) جنته بفضله عز وجل ورحمته) .

12 ـ فسيح : فى «ر» .

الباب الحادي عشر
فى حلمـــه

هذا باب يتسع فيه الكلام ويطول تتبع الجزئيات فيه على التمام فلنلم (1) بذكر مشتهرات القضايا فى حلمه ، ونعقد ذلك فى فصول

الفصـــل الاول

فى ذكر ما جاء فى الحلم وفضله أثرا وخبرا ، نظما ونثرا ، ملخصا ذلك جهد الاستطاعة ومختصرا

لا شك أن الحلم أفضل الصفات وأجمل الحالات ، وقد أمر الله به فى كتابه ، واتصفت به رسله (صلوات الله عليهم وسلامه) ، وتحلى به أفضلهم وحاز غاية درجته وأعلى منزلته صلى الله عليه وسلم وأمره ربنا جل جلاله بالتمادي عليه واستدامته . فقال : « فاصفح الصفـــح الجميل » . وقد استوعبنا الكلام على هذه الآية ، وهذا الفصـــل فى برح الخفاء فى شرح الشفـــاء .

وأشهر ما قيل فى الصفح الجميل : « هو الذي لا يلحقه عتـــاب ، أو الذي لا توبيخ يصحبه ، وهو بمعناه ، والذي لا يرى فيه حقد ، وهي متقاربة » .

وفى المثل : « كاد الحليم يكون نبيا » .

وأحق الناس بهذه الصفة ، الملوك . وروي أن يحيى بن زكرياء ، عليهما السلام ، لقي عيسى ، عليه السلام ، فقال « يا روح الله ، أخبرني بأشد

1 ــ فيلمم : فى «إ» .

الاشياء فى الدارين » . قال : « غضب الله » . قال : « وما ينجي من غضب الله ؟ » . قال : « ترك الغضب » . قال : « يا روح الله ، كيف بدء الغضب ؟ » . قال : « التهور والتكبر والفخر على الناس » . روينا عن ابن العباس ، رضي الله عنهما ، قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأشج عبد القيس : « ان فيك لخصلتين يحبهما الله ، الحلم والأناة » . (أخرجه * مسلم) . وروينا عن عائشة رضي الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله » (متفق عليه) . وعنها : « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه » . (رواه مسلم) . وعنها : أنه صلى الله وسلم قال : « الرفق لا يكون فى شيء الا زانه ، ولا ينزع من شي الا شانه » . وعن أنس رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » (متفق عليه) .

/ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ، أو (1) بمن تحرم عليه النار ؟ ، تحرم على كل قريب (2) هين لين سهل » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « وجبت محبتي على من أغضب فحلم » . وروي أن جعفر بن محمد دخل على الرشيد ، وقد استخفه الغضب ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، انك انما تغضب لله ، فلا تغضب له بأكثر من غضبه لنفسه » . وفى كتاب سليمان بن داود عليهما السلام : « القاهر لنفسه أشد ممن يفتتح المدينة وحده » . وقال أكثم بن صيفي : « الصبر على جرع مرارة الحلم أعذب من جنى ثمرة الندم » .

---

1 — و : فى «ر» .

2 — قريب : غير موجود فى «ر» .

وأنشد لمحمود الوراق (من الطويل) :

سألـزم نفسـي الصفـح (3) عن كل مذنب
وان عظمت (4) منـه (5) عـلي الجرائـم
فمـا النـاس الا واحـد من ثـلاثـة
شـريف ومشـروف ومثـل مقـاوم
فأمـا الـذي فوقـي فأعـرف فضلـه
وأتبـع فيه الحـق والحـق لازم
وأمـا الـذي مثلـي فان زل أو هفـا
تفضلت ان الحلـم بالفضـل حـاكـم
وأمـا الـذي دونـي فان قـال صنت عن
اجـابتـه عـرضـي وان لام لائـم

ونسبها بعضهم للخليل بن أحمد .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « ثلاث من اجتمعن فيه فقد سعد : من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، واذا رضي لم يدخله رضاه باطل ، واذا قدر عف (6) وكف » . وقال الأحنف لابنه : « يا بني ، اذا أردت * أن تواخي رجلا فاغضبه ، فان أنصفك ، والا فاحذره » . ومن أمثال العرب : « احلـم تسـد » .

---

3 ـ الصبر : في «ر» .
4 ـ كثرت : في «ر» .
5 ـ مني : في «إ» .
6 ـ عفا : في «ر» .

ويروى أن هشاما غضب على رجل من أشراف الناس فسبه ، فوبخه الرجل ، وقال : « أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله فى الارض ؟ » فاستحى هشام ، وقال : « اقتص مني » . فقال : « اذا أنا سفيه مثلك » . فقال : « فخذ عوضا من المال » . قال : « ما كنت لأفعل » . فقال : « فهبها لله ، » ، قال : « هي لله ثم لك » . فنكس هشام رأسه وقال : « والله لا أعود لمثلها » .

وقال بعضهم (من البسيط) :

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا حتى يذلوا وان عزوا لأقوام

ويشتموا فترى الالوان كاسفة لاصفح ذل ولكن صفح أحلام

ولآخر (من الطويل) :

/ وجهل رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال الأحنف : وجدت الحلم أنصر لي من الرجال .

وقال رجل لعمرو بن العاص : « والله لاتفرغن لك » . فقال له : « الآن وقعت فى الشغل » . وقال له رجل : « ان قلت لي كلمة لتسمعن عشرا » فقال له : « لكنك لو قلت لي عشرا لم تسمع واحدة » . وسب بعض العلماء رجل ، فأعرض عنه ، فقال : اياك أعني . فقال له : « وعنك أعرض » .

قالوا : ومن أشعر بيت فى الحلم (من الطويل) :

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى أصبت حليما أو أصابك جاهل

فتصبح اما نال عرضك جاهل سفيه واما نلت ما لا تحاول

ولآخر (من الوافر) :

وما شيء أحب الى سفيه اذا سب الكريم من الجواب
متاركة السفيه بلا جواب أشد على السفيه من السباب

ولآخر : (من الوافر)

اذا نطق السفيه فألـه عنه فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن في (7) عييت عن الجواب وما عييت

* لآخر (من الطويل) :

تسربل بثوب الحلم وأعرض عن الجهل
وبادر بتقوى الله ما دمت فى مهل
تذكر غدا يوم الحساب وكربه
اذا جمع الله الخلائق للفصل
هنالك لا جور يخاف وانما
يخاف هناك الخائفون من العدل
فيا نفس خف مولاك ربك تأمني
غدا ذلك اليوم المشيب للطفل

ولا شك أن هذه الصفة التي هي الحلم من أشرف الصفات وأفضلها . وقد حاز ملكنا رضي الله عنه فضيلتها .

7 — اني : فى «ر» .

الفصـل الثاني

فيما شاهدناه من حلمه رضي الله عنه

وقد تقدم فى فصل احتماله ما يصدر عن أهل الخير ، ما يدل على عظيم حلمه . سمعت عبد الله بن أبي حفص ، وهو عبد الله ابن عثمان ابن عمر بن يغمراسن ، يقول : « أنسى حلم مولاي أبي الحسن كل حلم تقدمه مما حفظ عن الملوك ، وبرهان ذلك شأننا معه ، ملكه الله رقابنا وحكمه فينا ، / ومكنه بسيوفه منا معشر بني عبد الواد ، ونحن ننازعهم ونقتل منهم ، وننازعهم منذ مائة سنة ، ثم انه لم يسمعنا كلمة معتبة ولا توبيخا (1) على قضية ، وهذا هو الصفح الجميل ، ونحن الآن عنده أعز من كبار قبيله » . فأعجبني كلام هذا الرجل ، ودلني عقله وصدق كذلك ، وسنزيده وضوحا ونشرح قضيتهم معه فى باب عفوه ، بعد هذا ان شاء الله تعالى .

وحضرت معه فى اليوم الذي أخذ فيه الملعب خارج تلمسان ، واختلط الناس بالناس ، وتمكنوا من بعض سور تلمسان ، واذا برجل قال له : « يا مولاي ، هنا امرأة فى السور تنادي وترغب وتتوسل فى أن يصل اليها من تكلمه بما يبلغه عنها » . فانتدب أبو الحسن الناميسي والفقيه أبو عبد الله الرندي لتلقي ما عندها ، والناس فى قتال المسايفة وقد أحيط بكثير من أسوارها . فأتيا بعد زمان ، فسألهما فسكتا ، ثم ابتدر الفقيه وقال : « انما جزاء هؤلاء الحرق » أو ما هذا ❋ معناه . وعمم كلامه ، فاستفسره فقال له الناميسي : « قالت على قدرها شتمت أقبح شتم » . فقال بعض الرماة : « يا مولاي ، أنا الآن أكفي همها فأنحرها بسهم » . فقال عند ذلك وهو يتبسم : « الشتم حيلة المغلوب ، ومعاذ الله أن تكون غريمتنا امرأة محمولة » . ولم يعرج على حديثهم .

1 ـ يوبخنا : فى «إ» .

بعد . وجيء برجل ثان ، دخل تلمسان ، وهو موثوق . كان قد اشتهر بالسب ، وأرصد لذلك فكان يبتدع كل يوم سفاهات من القول ، وقبائح تلقى عليه . فيلقيها ، وكانوا لا يتناهون عن منكر من القول . فلما دخلت المدينة ، حصل في يد بعض الوزراء ، فجاء به ، وقال له : « يا مولاي ، هذا فلان قد حصل » . فقال له : « وما (2) تريد ؟ » فقال : « يا مولاي ، وهل أبقى موضعا لحلم ؟ » . فقال له : « أبعد أن رأيناه وجئت به الينا ؟ ، لا بالله » .

ووقف بين يديه يوما طالب ، يقال له الرهوني ، كان عين للامامة في الجامع الأعظم بالمنصورة ، وهو ينازع رجلا يقال له عيسى التازي ، فجرت بينهما محاورات الى أن قال الرهوني : « الساعة والله ، أقولها الساعة أقولها » وهو يكرر هذه المقالة فالتفت اليه رضي الله عنه وقال له : « قلها ، أي شيء تقول ؟ » فقال له : « يا مولاي ، هذا في كل يوم يدعو عليك ويقول كذا وكذا أقبح دعاء وأفضلع (3) شتم » . فقال له الآخر : / » أنا قلتها ؟ ، أنت كنت تقول هذا وأنا حاضر » . فتغير وجهه تغيرا شديدا ، وأطرق مليا ، ثم رفع رأسه وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، تركتكما لوجه الله ، اذهبا عني ، لا أراكما بعد الساعة ، والأجر على الله » . وسيأتي شرح هذه القضية في غير هذا الفصل (ان شاء الله تعالى) .

وحضرت معه في ليلة في قيام رمضان ، وكان الامام أبو العباس الزواوي ، الذي لم أر قبله ولا بعده أحسن منه صوتا ولا أداء ، مع لوذعية كانت فيه وطياش في بعض الأحيان فارتج عليه * مرات ، وكان يقرأ في الحواميم ، فبادر مولانا السلطان نفعه الله للرد عليه ، فأكثر في الغلط ، وأكثر رضي الله عنه في الرد عليه ، فلما كثر فتحه عليه ضجر ،

2 ـ ماذا : في «ر» .
3 ـ أفظع : في «ر» .

وأبى أن يرجع وتمادى على غلطه ، وربما فتح عليه بعض الطلبة القراء ، وهو أبو الخير ابن الدمدوم . فلما سلم الزواوي ، استدبر المحراب ، وأدركه العياذ بالله من الانزعاج ما غاب به صوابه ، فسب من رد عليه بألفاظ شنيعة . فقال مولانا رضي الله عنه : « سمعتم ذا ؟ » . وفي يده السكين التي لا يفارقها ، فقبض على نصابها ، وقال له : « مع من أنت ؟ » فكنت عن يساره ، وكان مكاني منه في الصلاة مدة أعوام ، فأكببت على قدميه ، وقلت له : « يا مولاي في علمك الكريم أنه لو علم أنكم فتحتم عليه لطابت نفسه ، ولكنه توهم أنه فلان وهو يشنؤه ، يا مولاي ، من يستر علينا سواكم ، يا مولاي ، من يرحمنا غيركم » . فلما رأيته سكن لقولي ، تعلقت به فما زاد أن قال له : « ارجع الى صلاتك يا محروم ، فوالله ، ما أخرجه ولا أخرجه بعد أن كان قد أيس من نفسه » . ولما انصرفنا ، أقبل علي الفقيه أبو عبد الله الشديد وغيره يقبلون يدي ويشكرون فعلي . وهو المشكور ، الذي سمع كلامي وأصغى اليه ووافق ما عنده رضي الله عنه (ونفع به ونفع به بمنه) .

الباب الثاني عشر

في كرمه رضي الله عنه . (وفيه فصول)

الفصـــل الأول

في فضل هذه السجية الكريمة والخصلة العظيمة

ما أحرى هذا الباب بأن يؤتى به بغاية الاسهاب ونهاية الاطناب ، ليكون تذكرة لأولي الألبـاب / وتبصرة بمـا يتضمنـه مـن زهـر الآداب ، ويرحم الله مولانا السلطان ، طال ، والله ، ما اهتز لقراءة هذا الباب من سراج المريدين لأن الطباع ورد عليها ما ألفته وسمعت ما عرفته . ولقد أحسن الفهري ، رضي الله عنه ونفع به ، فيما استفتح بـه هـذا الباب ، فقال : « وهذه الخصلة الجليلة، قدرها العظيم * موقعها الشريف ، موردها ومصدرها ، وهي احدى قواعد المملكة ، وأساسهـا وتاجها وجمالها ، تعنو لها الوجوه ، وتذل لها الرقاب ، وتخضع لها الجبابرة ، وتسترق بها الأحرار ، ويستمال بها الأعداء ، ويستكثر بها الأولياء ، ويحقن بها الدماء ، ويحسن بها الثناء ، وتملك بها القرباء والبعداء ، ويسود بها في غير عشائرهم الغرباء ، وهذه الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والتتميمات ، وكم رأينا كافرا ترك دينه والتزم دين الاسلام ، ابتغاء عرض قليل من الدنيا يناله ، وكم قد سمعنا من مسلم ارتد في أرض الشرك ، افتتانا بعرض يسير من عرض الدنيا . وأخلق بخصلة يترك الانسان لها دينه الذي يبذل دونه نفسه ، أن تكون جليلة القدر عظيمة الخطر وأحوج (1) الله اليها أفقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف

---

1 – أخرج : في النص . وأحوج : مصحح في هامش النسخة «ر» .

الوجوه اليه وهم الملوك والولاة ، وأعلموا يا معشر من وسع الله عليه دنياه ، وأسبغ عليه آلاءه ونعماه ، أنه ليس فى الجنة لائم . قال : « وحقيقة الجود ألا يصعب عليه البذل » . ويقال : السخاء هو الرتبة الأولى ، ثم الايثار ، فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ، ومن أعطى الكل فهو صاحب جود ، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو فى مقاساة الصبر فهو صاحب ايثار » .

وفى الصحيح : « أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، اني جائع ، فأطعمني . فبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى أزواجه، فقلن : والذي بعثك بالحق، ما عندنا الا الماء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما عند رسول الله ما يطعمك الليلة » . ثم قال : « من يضيف هذا هذه الليلة يرحمه الله » . فقال رجل من الأنصار : « أنا ، يا رسول الله » . فحمله الى منزله ، وقال لأهله : هذا ضيف النبي صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدخري عنه شيئا . فقالت : « ما عندنا الا قوت الصبية » . فقال : « قومي تعلليهم عن قوتهم حتى يناموا ، ثم أسرجي * / وأبرزي ما عندك ، فاذا أخذ الضيف يأكل ، قومي لتصلحي السراج فأطفئيه ، وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ففعلت ، وجعلا يمضغان ألسنتهما ، والضيف يظن أنهما يأكلان ، وباتا طاويين . فلما أصبحوا ونظر اليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تبسم ، ثم قال : « لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة » ونزلت : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (الآية) .

وقال أنس : « أهدي لبعض الصحابة رأس شاة (2) ، فبعث به الى جار له ، فبعث به الجار الى أهل بيت آخر ، فتداولته تسعة أبيات حتى عاد الى الأول . فنزلت الآية » .

---

2 ـ رأسا مشويا : فى «ر» .

وقال حذيفة العدوني : « انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ، ومعي شيء من ماء فى اناء . أقول : « ان كان به رمق سقيته » ، فاذا أنا به بين القتلى ، فقلت : « أسقيك » ، فأشار أن نعم ، فاذا رجل يقول : « آه » ، فأشار ابن عمي أن أنطلق اليه ، فاذا هو هشام بن العاص ، فسمع آخر يقول : « آه » ، فأشار هشام أن أنطلق اليه ، فجئته فاذا هو قد مات ، فرجعت الى ابن عمي فاذا هو قد مات رحمهم الله » .

وفى الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : « قال النبي صلى الله عليه وسلم : السخي قريب من الله قريب من الناس ، بعيد من النار . والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، بعيد من الجنة . والجاهل السخي أحب الى الله من العابد البخيل ». وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ابن آدم ، انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما تركت فللوارث » . وفى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : « ان الله يأخذ بيد الكريم مهما عثر » . عارضة عرضت فى أثناء الكلام : وذلك أن رجلا ، يعرف بالحاج ابن تمنقارت ، كان واليا فى سجلماسة ودرعة ، وصل الى تلمسان من عمالته ، فرفعت عليه أمور أوجبت مطالبته بأموال استظهر بها (3) عليه يقال نحو * من أحد عشر ألفا ، فلما أحضر بين يديهم رضي الله عنهم ، قال مولانا (رحمه الله) : » هذا المحروم فيه خصلة عظيمة . » فقال له شيخنا أبو زيد ابن الامام : « وأي شيء هي ؟ أعلى الله مقامكم » فقال : « هو كريم » . فقال له شيخنا : « فى الخبر عنه عليه السلام : أن الله يأخذ بيد الكريم مهما عثر . وعنه صلى الله عليه وسلم : / أقيلوا الكرام عثراتهم » . فقال رضي الله عنه : « لا جرم قد أقلنا عثرته امتثالا للأمر ، فليرجع الى موضعه وينظر فى شأنه » .

3 ـ استظهرها فى «ر» .

رجعت (4) الى ذكر الكرم والجود والايثار ، وفي الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كريم ، والفاجر لئيم » (ذكره الحافظ أبو عمر بن عبد البر) . وقال جعفر بن محمد : « أنا جواد كريم لا يجاوزني في همي لئيم » . وقيل للأحنف (5) : « ما الجود ؟ » . قال : « بذل الندى وكف الأذى » . صفتهم رضي الله عنهم . وسئل الخليل عن الجود فقال : « بذل الموجود » . قلت هذه الغاية في الكرم ، وان كان الايثار أعلى درجة .

الفصل الثاني

أشهد بالله لقد شهدت منهم رضي الله عنهم الحالتين ، وعاينت هاتين الصفتين . حضرت يوما بين يديهم بمدينة تونس ، والحال كما قد علم ، وذلك في أيام مكابرتهم العرب ومن معهم من جيش المغرب وأهله ، وكلهم في كفالته ، والجبايات قد قصرت عن اقامة الأود ، وقد أتى على الكثير من ذخائره والأعلاق النفيسة من السقط الذي لم يجتمع مثله في خزانة ملك قبله ، فسأله صاحب أشغاله والقائم بضبطها أبو الفضل ابن أبي مدين عما يمشي به يومه ، فقال : « أنظروا فيما تخرجون » (يعني من داره) . فقال لهم ثتقهم أبو حسن علال : « ان الفقيه أبا المجد بن أبي مدين قد تعين اليوم للنظر في المواريث ، فلا بد أن يأتي بشيء » . فلما حانت صلاة العصر ، واضطر الى النظر في تعيين ما يتمشى به حال الضياف ، ولا دخل شيء ، فوصل أبو المجد المذكور مع أخيه الحاج أبي مدين شعيب فقال : « يا مولاي ، بسعدكم * الآن جلس وعند جلوسه دفعت له دفعة وهي هذه » . فقدمها أبو المجد ليدفعها للفقيه أبي الفضل ، فقال شعيب : « ومن سعد تقدمه لهذا العمل ، ولد لعبدكم الآن مولود . » فقال رضي الله عنه : « فهذا فتوح لا ينبغي أن (1) يتعدى به والد الولد ،

4 ـ رجعنا : في «ر» .
5 ـ ابن قيس : زيادة في «ر» .
1 ـ ان : غير موجود في «ر» .

لنحقق سعد ولده عليه » . فدفع له ذلك ، وكانت نحو مائة دينار من الذهب . فقال أبو حسون : « وبأي شيء يقام الحال ؟ » . فقال : « الله الخلاق » . فدخل لداره وأخرج بعض متاع بيته .

الفصل الثالث

وأما كرمه ، فلعمري ، لقد تتبعت ما اشتمل عليه كتاب المستجاد من فعلات الأجواد / وعارضت أكثر أخباره بالوقائع المحفوظة لـه رضي الله عنه فوجدتها تشف عليها ، وسنورد من ذلك أمثلة تشهد لهذا المعنى (بعونه (1) تعالى) على أن هذا الغرض يتكرر فى أبواب يأتي ذكرها حسبما تقف عليه منها (ان شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق) .

حكى صاحب المستجاد أن عبد الحميد بن سعيد ، لما أجدب الناس بمصر وهو أميرها ، قال : « والله لأعلمن الشيطان أني عدوه » . فعال محاويجهم الى أن رخصت الأسعار ، ورهن حليه وقيمته خمسة آلاف ألف درهم ، فباعه ودفع الفاضل لمن تناله صلته هذا ما استغرب منه فى البلد الواحد والصقع المتقارب الأنحاء .

وكم من سنة مسنهة عال فيها امامنا رضي الله عنه محاويج أهل بلاد المغرب عموما ، يخرج زرعه المختزن الخاص به ، فيقيم به أود المحاويج عموما فى كل ليلة بطول الجدب ، وجرى على سنته فى ذلك ولده المرحوم السلطان أبو عنان ، فكان يطعم بين يديه ويتولى القيام عليهم بنفسه ويلزم قواد قصب البلاد بذلك طول الجدب نفعهم الله به .

وقال : « اشترى عبد الله بن عامر بن خالد بن عقبة بن أبي معيط داره ، التي فى السوق ، بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد ، فأعطاهم الدار والمال جميعا » .

---

1 – ان شاء الله : فى «ر» .

* واشترى امامنا رضي الله عنه ساحة جامع العباد بتلمسان ، كما قدمناه ، بحساب شبر بدينار ، فلما اشترى وقفت له امرأة من البائعات فقالت : « يامولانا ، توصي علينا هنا فانا يصعب علينا السكنى فى غير هذا الموضع » . فوقف وأمر فى بقية الساحة ببناء دار تشمل على مساكن كفت جميع أهاليهم قامت بمال، ولم يصدر منهم ندم ولا أسف الا فقد الالف خاصة . ولو تتبعت أخباره لعقبتها على هذا الوجه ، هذا الماع ببعض حاله فيما ضربته مثلا . ولنذكر من الجزئيات ما على ذكري ، منها ما وقع قبل ملازمتي لهم ومنها ما باشرته ، وكنت من خواص من يطلع على ما يخفى على الكثير من الناس .

حدثني الشيخ أبو زيان عريف بن يحيى وغيره أنه جرى ذكر النوق العشار فوقع منه من استحسانها ، ما تميل اليه طباع العرب غالبا ، فأعطاه ألف ناقة عشرا كلها .

وورد / عليه الأمير أبو زكرياء ابن السلطان المعظم (2) أبي يحيى أبي بكر ابن الأمراء الراشدين ، شاكرا لله على أن أعطاه بلد تدلس كنت حاضرا ولم أك لما اشتمل عليه حاضرا .

وشهدت خروج أهل تلمسان اليه بعد عفوه عنهم وخروجهم تحت حكمه ، فأعطاهم ألف فرس من عتاق الخيل بجهازاتها وعدتها ومهنداتها والكسي المناسبة ، والجهازات ما بين مزجج مذهب ومفضض ومنيل بالذهب والفضة ، ومسطح وهو القليل . والكسى منها ما هو بالتفاصيل المكتب وغير المكتب ، ومنها بالقباطي المختلفة ، ومنها بالخز الرفيع وبغال الملف ، والمهندات منها الذهبي ومنها الفضي ، على حساب المناسب والمناصب وأعطى لضعفاء أهل تلمسان اثناعشر ألف دينار واثناعشر ألف كساء

2 ـ المعظم : غير موجود فى «ر» .

ومن الطعام مطامير لا تحصى كثرة ، هذا شهدته ، وشهدت وصول * بعضه لأربابه ، عدا ما وصل لكبار أهلها من الفقهاء والصلحاء والكتاب وذوي الوجاهة من الناس. فكان ممن عفا وأصلح فلا جرم أجره على الله وحضرته حين خرج أهل الجزيرة واستولى عليها العدو صلحا ، حسبما نذكره (ان شاء الله) فى موضعه، وقد أخرج هذا العدد للفرسان الخارجين منها فأعطاهم رضي الله عنه كذلك ألف فرس من عتاق الخيل بجهازاتها وكسوتها، على حسبنا وصفت . وكنت ممن عين للمال المخرج لعامة أهلها من الفقهاء والأمناء وسائر الناس ، فأمرني رضي الله عنه بالحضور مع الفقيه أبي عبد الله السطي والفقيه أبي العباس ابن يربوع المري السبتي وقاضي سبتة يومئذ الفقيه (3) عبد النور ، وأمر جميعنا أن نشترك (4) النظر فى الاعطاء بحسب حال الشخص وعائلته ، وما ترك من ماله ، والموضع الذي يريد استيطانه من البلاد ، وأن نرجع فى التعريف لما يخبر به الفقيه أبو عمرو قاضي الجزيرة وخطيبها ابن الشواش وشهودها ووزراؤها . فكان جملة ما أعطى خمسة وثلاثين ألف دينار من الذهب العين ، ومن الكسى ثلاثة آلاف كسوة ثم زيدت لها ألف كسوة مع الألف / المختصة بالفرسان ، فكانت خمسة آلاف كسوة منوعة ، حسبما ذكر ، الا أنه زيد فى هذه الأبدان التلمسانية والجزيرية وكانت يسيرة .

وكان الوجه فى العطاء أن يسأل عن الرجل ومن عنده من العائلة ، وما خلف حيث تعلم (5) عادته ، وأين يختار السكنى ، فاذا اختار موضعا ، نظر فيما يحتاج اليه من كراء فيعطاه بحسب ذلك . ومن كان من مشاهير أهلها من أهل الفلاحة كتب له بتحرير ما يحرث به ، بقدر حاجته . ومن كان من أهل خطة نظر فى تقديمه لمثلها فى غيرها من الموضع الذي يتخيره.

3 — أبي عبد الله السطي والفقيه أبي العباس بن يربوع المرى السبتي وقاضي سبتة يومئذ الفقيه : غير موجود فى «ر» .
4 — يشترك : فى «ا» .
5 — يعلم : فى «ر» .

فمـــن كان من أهـــــل العدالة كتب له بالتبريز فيها وكذلك القضـــاء والخطابة وسائر الخطط .وكتب للبلاد بايصاء الأمناء على الصناع * من أهل كل (6) صناعة ، حتى والله أوصى على امرأة كانت سواقة تنادي على السلع بالدور ، فكتب لها بالوصية عليها . فأسأل الله أن يجدد عليه الرحمة ولا ينسى له هذه المكرمة بجاه محمد وآله . وبلغ عطاؤه فى مدة من عامين مدة حصر الجزيرة الى خمسين ألف دينار من الذهب فى كل شهر، حسبما يأتي (ان شاء الله) تفصيله . فيا ليت شعري ، أي ديوان اشتمل على هذه المكرمة وتضمن مثل هذه المحمدة ، وسيأتي فى باب تهممه بالهدايا للملوك ، وفى باب رعايته لذوي الأقدار والأنساب ، ما يقضى منه العجب العجاب .

وذكر له عن رجل من الأبطال المجاهدين برندة، أن له أولادا زهاء عشرة، وكلهم فرسان مجاهدون . فوجه عنه فأشخص ، فلما حضر ، سأله عن حاله ، فاخبره وبأنه آده الفقر وأتعبته القلة ، فقال لـــه : « كفيت » . فأمر لحينه بكسى ومراكب على عدد أولاده ، وأعطى كل واحد منهم مائة دينار ذهبا ، وأعطاه بلدا سوغ له فوائده ومجابيه ، وأعطاه دارا اشتريت له ، وكسوة لسائر أهله ، وأخدمه خدما ، وكتب له بمرتب له ولأولاده مشاهرة وبيراءات مسانهة ، وسوغ لأولاده محترثات على عددهـــم ، وأعطاه ، بعد أن أغناه وأرضاه ، دينارا مبينيا (7) رأيته ، بعد صدوره من الخضراء بزمان ، وهو يحمله معه ، وسمعت أنه كان يضعه بين يديه فى كل صلاة ويدعو . وأمسى بعد الاملاق من كبار الأغنياء برندة ، فعلا صيته وصاهر له (8) كبار أهلها .

6 ـ كل : غير موجود فى «أ» .

7 ـ صح : ملاحظة على الكلمة فى النص .

8 ـ له : غير موجود فى «ر» .

وسيأتي أيضا / ذكر ما أعطاه للمتوجهين صحبة الربعة الكريمة المرفعة بمكة (9) المشرفة ، وللمجاهدين ، وجزئيات اعطائه للواردين وأصناف القاصدين لحضرته يضيق عنها هذا المختصر . وكان الكاتب أبو زيد عبد الرحمن بن الترجمان رحمه الله قد جمع منها العجائب ، * فأتى على تأريخه الضياع ، وكان ولده النبيل الكاتب أبو عبد الله قد جبر منها الكثير ، وعنى بكتب عيون منها الفقيه أبو عبد الله التادري المكناسي ، وكان أوقفني على بعضها ، على أني لو تتبعت ما في محفوظي من ذلك وأشغلت الفكر بتذكاره ، لطال المجموع ، فعطاياه للعرب بالأحمال وللقبائل لا لضرورة ولا لمداراة (10) و في سبل الخير كذلك ، وسنذكر بعد منه في ذكر أعماله في الجهاد (والله ولي التوفيق) .

9 ـ المرفعة بمكة : غير موجود في «ر» .

10 ـ مدارات : في «ا»

الباب الثالث عشر

فى عظيم عفوه وجميل صفحه (وفيه فصول ٦

الفصـــل الأول

فى فضل العفو

قد قدمنا فى باب الحلم جملا مما يدل على فضل هذه الخصلة العظيمة والمنقبة الكريمة وأوردت الكثير من ذلك فى كتابي الذي ضاهيت فيه كتاب العفو والاعتذار وهو فى خزائنهم رضي الله عنهم ، وكان فى ليال يسيرة ، ذكرتها هنالك : وناهيك من خصلة أمر الله بها أعز الخلق عليه وأكد عليه فى أن يتحلى بها ، فقال تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » . روينا أن هذه الآية لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : « يا جبريل ، ما هذا ؟ » . قال : « لا أدري حتى أسأل العالم » . فذهب جبريل (عليه السلام) ، ثم عاد فقال : « يا محمد ، ربك يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ». وقال ، عز من قائل ، : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » . فأوجب المحبة للعافين ووصفهم بالاحسان . وقال : « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور . » (وعزائم الأمور من صفات من اصطفى من الرسل) . قال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العـــزم من الرسل » . / وقال تعالى : « واذا ما غضبوا هم يغفرون » . وقال عز وجل : «وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ، فاستعطف الخلق * وندبهم الى أن يعفوا عن الجفاة والخاطئين ، كما يحبون أن يفعل الله بهم . وقال فيمن انتصر ولم يعف ولمن انتصر بعـــد ظلمـــه :

« فأولئك ما عليهم من سبيل » ، ودفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ولم يوجب له فضيلة . ثم كشف الغطاء وأزاح العـذر ، وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين والواهبين حقوقهم على المنتقمين ، فقال : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . قال الطرطوشي : « وهذا نص لا يحتمل التأويل » ، قال : « وتحقيق القول في ذلك (1) الانتصار عدل والعفو فضل ، وفضل الله تعالى أحب الينا من عدله ، فانه ان عدل علينا فأخذنا بحقه أهلكنا ، وان عفا عنا برحمته يخلصنا » ، قال : « ولو كان العدل يسع للخلائق لما قرنه الله بالاحسان ، ولما علم الله تعالى أن في العدل استقصاء ومناقشة ، وذلك مما تضيق منه النفوس ويحرج منه الصدور » ، وربط الاحسان بالعدل ، فقال : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » ، فان الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان، والعفو محبة من الله واحسان . وأيضا فان الانتصار سيئة والعفو حسنة . وقد قال تعالى : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة » .

قال : « والدليل على أن الانتقام يسمى سيئة ، قوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . وانه انما سميت سيئة ، لما كانت نتيجة سيئة ، الا أنه لا يجوز له الانتصار ، وانما هو كما قال عمرو بن كلثوم : (من الوافر)

ألا لا يجهلن أحد علينـا   فنجهل فوق جهل الجاهلينـا

فسمى الجزاء على الجهل جهلا ، وان لم يكن في الحقيقة جهلا . وعن هذا عبرت عائشة رضي الله عنها (2) قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، غير أنه كان اذا انتهك * من محارم الله سبحانه ، فلا يقوم لغضبه أحد (3) » . وقد تكلمت عـلى

1 ـ و : مضاف هنا في «إ» .
2 ـ رضي الله عنها = غير موجود في «إ» .
3 ـ غير موجود في «إ» .

هذا الحديث ، بما انتهى اليه فهمي وبلغ اليه حفظي ، في شرح كتاب الشفاء (يسر الله تكملته) .

حدثني الشيخان شرف الدين يحيى بن أبي الفتوح وشهاب الدين أحمد بن عبد الله البلنيسي (4) (محتسبهما) قالا : « أخبرنا / الامام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، ثنا موفق الدين ابن طبرزد (5) ، ثنا منصور الفرار ، ثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد (6) بن أبي عبد الله بن الحسن بن هارون الضبي عن محمد بن عبد الله بن جعفر بن دستويه النحوي عن يعقوب بن سليمان عن عمرو ابن راشد المديني (7) مولى عبد الله بن أبان (8) ، ثنا عبد الرحمن بن عتبة بن سهل ، ثنا سلمة عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينادي مناد يوم القيامة لا يقوم اليوم أحد لا أحد له عند الله يد ، فيقول الخلائق : سبحانك بل لك اليد . فيقول ذلك مرارا ، فيقول : بلى من عفا في الدنيا بعد قدرة » . وروي : « ينادي مناد من كانت له عند الله يد » . وروي : « من كان له على أحد يد ، فليقم ، فلا يقوم الا من عفا » ، وكفى بالعفو فضلا عن أن يبلغ بصاحبه هذا المبلغ .

وحدثني شرف الدين ابن المصري عن الحافظ المنذري عن أبي نزار ربيعة بن الحسن عن أحمد ابن محمد الحافظ عن فضل بن علي عن سليمان بن أحمد الطبراني عن يحيى بن عبد الباقي عن هارون بن داود عن خالد بن عمرو عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي عبد الله

4 ـ البلنيسي : هكذا في الاصل ولعله البلينسي .

5 ـ طرزد : في «ر» .

6 ـ ابن أحمد : غير موجود في «ر» .

7 ـ المدني : في «ر» .

8 ـ أبان في «إ» .

الصنابحي عن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه، قال : قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « ان كنتم تريدون رحمتي ، فارحموا خلقي » .

وحدثني أحمد بن محمد الحلبي قراءة عليه بمسجد الحلبيين من القاهرة ، ثنا أبو الصفاء خليل بن أحمد ، ثنا أبو علي الحداد ، ثنا أبو نعيم ، ثنا محمد بن علي بن مخلد ، ثنا مالك عن * سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « من أقال مسلما عثرته ، أقاله الله يوم القيامة » .

وقد سلسلت حديث الرحمة من أوجه كثيرة حسبما أودعت ذلك جزءا أفردته ، وهو قوله ، صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (وفى لفظ ، أهل فى الموضعين) . والأحاديث فى الباب كثيرة ، وفضائل العفو لا تحصى ، وناهيك عن هذه المثوبات المودعة تحت هذه الاحاديث . وفى الانجيل : « أفلح أهل الرحمة لأنهم يسترحمون » . وقالت الحكماء : « لا سؤدد مع انتقام ولا رئاسة مع عزازة نفس وعجب » . وقالت أيضا : « ليس الافراط فى الشيء أجود منه فى العفو / ، ولا هو فى شيء أقبح منه فى العقوبة » . وكذلك التقصير مذموم فى العفو محمود فى العقوبة . ولأن تخطيء فى العفو فى ألف قضية خير من أن تخطيء فى العقوبة فى قضية واحدة . اني لأدفع بنفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكثر من حلمي ، وعورة لا يواريها ستري .

وقال المأمون : « ليس علي فى الحلم مؤونة ، ولوددت أن أهل الجرائم علموا رأيي فى العفو فيذهب العفو عنهم ، فتخلص لي قلوبهم ». وقال رجل للمنصور : « يا أمير المؤمنين ، ان الانتقام انصاف ،

والتجاوز فضل ، والمتفضل قد جاوز حد المنتصف ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه بأركس النصيبين ، وأن لا يرتفع الى أعلى الدرجتين ، فاعف عنا ، يعفو الله عنك » . فعفا عنه .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « ما قرن شيء الى شيء أفضل من حلم الى علم ، ومن عفو الى قدرة » . وما أحسن قول المهلب: « لا شيء أبقى للملك من العفو ، فان الملك اذا وثقت منه رعيته بحسن العفو لم يوحشها الذنب ، وان * عظم ، واذا خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب ، وان صغر حتى يضطرها ذلك الى المعصية » . فهذا قول جامع فى السياسة بالعفو ، وان انضم الى ذلك قصد وجه الله فيكون هو الأول ويوافقه فى ذلك فى السياسة كان الكمال .

وهذه كانت سيرة امامنا المرحوم فى العفو ، فما سمعته قط يذكر عفوا الا مقترنا بقصد وجه الله (نفعه الله بذلك) ، وأعظم له أجره (بمنه) .

وقال الشاعر : (من الطويل)

صفوح عن الاجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما
فليس يبالي أن يكون به الأذى اذا ما الأذى بالكره لم يغش مسلما

ولعلي بن الجهم : (من المنسرح)

ان تعف عن عبدك المسيء ففي فضلك مأوى للصفح والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ فعد لما تستحق من حسن

كتب بها للحسن بن وهب فأجابه بأبيات منها : (من السريع)

أعوذ بالود الذي بيننا أن يفسد الأول بالآخر

والأناشيد فى الباب كثيرة .

الفصـــل الثـــاني

فى عفو امامنا رضي الله عنـــه

/ قد قدمت فى باب الحلم ما يتضمن عفـــوه (رضي الله عنـــه) واعلم انه أعظم الملوك عفوا ، كما كان أعظمهم قدرا ، ولو تتبعت مـــن عفوه التفصيلي ما سمعته أو رأيته ، لأتيت بما لا يحتمله المجموع ، ولكني أذكر من القضايا العامة وبعض الجزئيات ما شاهدته ما يدل على المعنى المقصود . حضرت معه يوم دخل تلمسان عنوة ، وقد حلف على يمين ، فرأى غيرها خيرا منها ، فكفر وأتى الذي هو خير ، ظهـــر من أهل تلمسان من المشاقة والممانعة ما أتى على اتلاف كثير من الأنفس، وهم مع ذلك يوحشون القلوب ، ويغرسون أسباب البغضاء ، يتفحشون فى السب والأذى ، ويقابلون أقبح المقابلات ، مما لا تحمله كل النفوس، ولا تتغاضى عنه ✻ . فتوعدهم رضي الله عنهم (1) بمقتضى الواقع ، وشدد فى الاغراء بهم ، قبل التمكن منهم ، قال : « فما كان الا أن تمكنت وحصلت فى وسط الباب داخلا ألقي الله فى نفسي العفو ، فكأن بيني وبينهم رحمى سابقة ، فوجدت من الشفقة عليهم والحنو والعطف ، ما يجده المرء على ذوي رحمه » . فقابل جميعهم بالعفو ، واسترد جميع ما صار تحت أيدي المنتهبة ، وبدأ بنفسه رضى الله عنه ، عند دخوله من الباب ، فانه رأى رجلا من جيشه يحمل قطيفة انتهبها ، فدفع عليه ، ورماه برمحه الذي فى يده ، وأمر سائر خدامه وقواده بأن يفعلوا هذا الفعل . وأمر بالنداء بكف الأيدي ، ومن بسط يده بعد النداء أهدر دمه . فكم اشتمل عليه هذا البلد من خلق ، وكم ضم من ضعفـــاء وصلحاء وعلماء يكتب الله له أجر كل واحد على انفراد . وجيء بالكتاب وحاشية السلطان وخواصه وأشياخ قبيله ، فعاملهم بما قدمنا ذكـــره فى حلمه ، وفى كرمه (نفعه الله بذلك) . وكان من شأن أهل وجدة

1 ـ رضي الله عنهم : غير موجود فى «ر» .

وأهل وهران ما كان من مثل هذا ، وكذلك أهل ندرومة ، وغيرها من البلاد افتتحها عنوة . فقابلهم (2) بمثل هذا ، وفعله في سجلماسة ، وفي حربه لأخيه الأمير أبي علي ، وابقائه على ما حصل تحت قهره وفي حكمه وعفوه عنهم ما هو معروف . قال لي الشيخ الفقيه الامام القاضي المؤرخ المرحوم أبو اسحاق بن أبي يحيى : « حين دخلت تلمسان هذه الدخلة ، هي / ثامنة عشر دخلة (3) دخلتها ملوك عنوة ، لم يتفق فيها قط من العفو ما قارب هذا ولا داناه » . وصدق رضي الله عنه ، فاني قارنت بينها (4) وبين ما علمته من دخلاتها في زمن لمتونة والموحدين ، أولا وأخيرا ، وما تلقيته من قدماء أهل بلدنا ، فلم أجد بينهما مناسبة ، فكم خربت فيها * من ذمم ، وكم هلكت فيها من أمم ، وكم انجلى من أهلها أعلام ، وكم كابدوا من محن فيها وانتقام ، وأمست في هذه الدخلة دار عرس وسرور ، بما امتن الله به عليهم من ايالته رضى الله عنه ، والأمور العامة الكلية في عفوه شهيرة ، والجزئيات كثيرة لا تنحصر .

كنت ليلة أقرأ بين يديه الرفوعات بين المغرب والعشاء ، بمدينة سبتة ، فدخل كاتبهم وربي نعمتهم ، بركات بن أبي علي حسون ، ثقتهم رحمه الله ، فدفع الي كتابا ، ترصد فيه غفلة امامنا رضي الله عنه ، عن النظر ، فوجدته بخط القائد أبي بكر بن بنج ، فأنكرته وألقيته بين يدي . وكان لهذا الرجل كثير الجناية على نفسه عثورا ، تقدمت له معه عثرات ، أقالها مرات ، وكان يخف عليه كلامه ، فانه كانت فيه لوذعية وخفة روح ونادرة الى أن صدر (5) منه من موالاة صاحب الأندلس أيام حصار الجزيرة ومنابذة ولد امامنا رضى الله عنه وخواص

2 ـ فعاملهم : في «ر» .
3 ـ دخلات : في «إ» .
4 ـ بينهما : في «إ» .
5 ـ صدرت : في «ر» .

دولته ، ونمى عنه من الازدراء والتعرض ما لا يغفر الملوك مثله ، وكثرت الكتب بذلك لامامنا رضي الله عنه وتظاهرت الأخبار عنه به ، فأهدر رضي الله عنه دمه ، فبلغه ذلك ، فلما وصل من كان بظاهر الجزيرة من ولد مولانا (نصره الله) ، عبر (6) هذا البحر ، فنقل عنه أنه هرب للأندلس ، فأقسم مولانا رضي الله عنه أنه ان فعل هذا لا يقبل فيه وسيلة ، ولا يقر الأندلس على الابقاء عليه ، ولو أدى ذلك لهلاك الأندلس ، فبلغه ذلك ، فكتب هذا الكتاب المذكور ، ووجهه للكاتب المذكور ، فلما رأيته بخطه ونبذته ، رآني رضى الله عنه فقال لي : « ما هذا ؟ » فقلت : « كتاب عنوانه بخط فلان » . فجلس وكان متكئا فقال : « بخط فلان ! ، وأين هو ؟ وماذا يقول ؟ فأمرني برميه ثم قال لي : «اقرأه» ، ففتحته فاذا فيه ما معناه (7) تقرير تقديم المحبة والانقطاع وسوابق الخدم والحلف بالايمان الأزمة والبراء على ابطال ما نقل عنه ، على أنه فى المحبة والخلوص لم يخن ، ولم يؤاس على خيانة فيما يرجع لحقوق المملكة . وأما المال « فأنا فيه مثل الناس لا أحلف على أني لم أخن فيه ، فما عشت الا به » ، فاستضحك رضي الله عنه وصدقه وقبل معذرته . وأخبر فى كتبه (8) أنه متوجه الى شالة للتوسل بالضريح المكرم فما رأيت أسرع * من عفوه لعقوبة حاضرة فوالله ، ما كان بين شديد الغضب ، الذي نكست منه الرؤوس وشخصت الأبصار ، الا قراءة الكتاب . فعاد مجلس بسط وتعداد نوادر هذا المذكور ومحاسنه واهدار جناياته (فرضوان الله عليه ورحمته تتجدد اليه) .

وحضرت وقد وقف بين يديه أحمد بن أبي سعيد عثمان بن أبي دبوس ، وهو الخارج عليه حين حصر بالقيروان ، وبويع له بالخلافة ،

6 ــ عمد : فى «إ» .
7 ــ ما معناه : غير موجود فى «ر» .
8 ــ كتابه : فى «ر» .

وخطب له بتونس ، وبعض بلاد افريقية . فأظهره الله عليه بعد ، فسيق اليه وأوقف بين يديه ، فقال له : « ما حملك على هذا ؟ » . فقال له : « لم أجد بدا من موافقة العرب » . وذكر مصادير (9) من هذا النوع ، تناوله ثقتهم أبو حسون برأس قائمة السيف ، لمقالة استقبحها منه ، فنهاه رضى الله عنه عن ذلك . ثم قال له : « يا مولاي ، عملت ما عملت معولا على (10) عفوكم وما اشتهر من حلمكم ، وبالله ، لقد كنت على علم من هذا ، وطماعية فى أن يلحقني عفوكم . ولا أريد منكم الا الابقاء والعفو عن الدم (11) » . فقال له : « اذهب ، عفا الله عنا وعنك ، غير أنك لا تزال تحت حكم الثقاف ما دامت هذه الفتنة » . فقال له : « هذا مطلبي » . فلم يزل تحت حفظ وكلاءة ولحظ ورعاية حتى وصل الى المغرب واستقر بالأندلس . ووفد على المولى السلطان أبي سالم رحمه الله ، فأكرم وفادته ، وقضيت وفاته هنالك فحضر جنازته ، رحمه الله . وذريته الآن بغرناطة . وكان من بني أبي العلى بني عمه القاطنين بالأندلس من النفرة عنه وعدم القيام بواجب حقه والتعرض للمناوأة والتطلع لما لم يبلغوه ، ما استقر فى النفوس واستفاض . وظهرت عليهم غير مرة شواهده ، فلم يزالوا على هذه الحالة ، وهم بالأندلس ، حتى تحقق صاحب الأندلس تقرر هذا وتخوف منهم على نفسه ، فأخذهم / وأقاموا فى ثقافه الى أن أجلاهم (12) لتونس فخاطبوا امامنا المؤيد من تونس فبعث عنهم فأشخصهم السلطان أبو يحيى رحمه الله ، وكان أفضل من عاصر امامنا من الملوك وأعرفهم بحقه ، فلما وصلوا اليه رضي الله عنهم ، قابلهم بالفضل الذي هو شيمته والعفو الذي هو طريقته ، وأحسن اليهم بجزيل الاحسان ، وألحقهم بعداد

---

9 ــ مصادير : عليها معاذير ، تصحيحا ، فى «ر» .

10 ــ عن فى «ر» .

11 ــ الندم فى «ا» .

12 ــ جلاهم : فى «إ» .

خواص * قبيله وقرابته ، فاستمرت أحوالهم على الاستقامة مدة طويلة ، مدة اقامته بالمغرب ، ثم لما رحل الى سبتة ، أيام حصر الجـزيرة ، استصحبهم معه ، فكثر القول فيهم ، فحضرته يوما ، وقد جاء بعض خدامه فقال له : » يا مولاي ، أكثر الناس فى هؤلاء القوم » . فقال له : « يا كذاب ، لو صح ما قلت وما قيل عندي عنهم ، ما كنت بالذي أركب بعد صلاة الصبح لتفقد الانشاء وغيره وأجد كبيرهم عامرا وأخاه ادريس ومن معهما واقفين ينتظرونني وأنت وأمثالك راقدون ، فآمنهم ويأمنونني » . ثم انه كتب له (13) رضي الله عنه ، من الاندلس يحذر منهم ، فأعرض عن هذا ، فلما كان ذات عشية خاليا فى سقيف داره من آفراج من المنصورة وأنا بين يديه أقرأ بعض الكتب المقروءة عليه ، اذ دخل عليه ابن ناصح فقال له : « يا مولاي ، ان ابن الأشقر المقدم على الزماميين بباب الصفاح بالباب يقول : « فى حضوري بين يدي مولانا منفعة فى خلوة لا يسع تأخيرها ولا التغافل عنها ، فانها سبب بقاء الملك » ، وجاء على زيه الذي هو عليه ، فقال له : « قل له يدخل » . فلما دخل ، قال : « يا مولاي ، أريد الخلوة » ، ولم يكن فى المجلس غيري . فقال له : « قل ، فما حضر من يخلي لك » . فقال له : « يا مولاي ، بادر نفسك ، فانه مغرور » . فعندما قال هذه الكلمة ، ذهل عقلي حتى كان ، رضي الله عنه ، يقول لي : « لو علمت أن هذا يظهر منك ما أحضرتك » . فقال له : « ومن ؟ » ، فقال له : « بنو أبي العلى » . فقال له : « معاذ الله » . فقال : « يا مولاي ، الأمر أظهـر من هذا » . فقال له : « قل » . فقال : « يا مولاي ، كنت جالسـا فى موضعي من الباب ، وكانت لهم بي معرفة سابقة ، فكانوا يترددون الي ، فأحمل ذلك على ما سبق من المعرفة . فاذا برسولهم اليوم قـد جاءني ، وقال لي : « أجب الفلانيين » . فصحبته الى دار بعيدة ،

---

13 ـ اليه : فى «ر» .

الى جانب السور من أقاصي البلد . فلما دخلت ، بادروني ورحبوا بي وأكرموني . ثم قدموا لي مصحفا وقالوا لي : « غرضنا أنك تحالفنا / لأن تكــون كأحدنــا . فساعدتهــم عــلى كلامهــم ، ثم أخــذوا فى ذم حالهم ، وتضجروا مما هم فيه ، فساوفتهم فى الحديث ووافقتهم فى الغرض وأبديت لهم أعظم مما أبدوه ، فحمدوا الله على موافقتي لهم وعملي على غرضهم وأنا لا أدري ما يريدونه غير أني فهمــت انحرافهم عن السلطنة . ٭ قالوا لي : « ان كان وأنت كما زعمت فاعمل عملنا » . فقلت لهم : « وما عملكم ؟» . فقالوا لي : « غرضنا أن نغدر هذا الرجل ــ يعنون امامنا رضي الله عنه ــ وقد تكفل بعضنا به ، وبعضنا بولده ، ولكن لا يسعنا ذلك الا أن تكون لنا ومعنا (14) فان الباب تحت يدك ، والرجالة الزماميون الذين معك تحت نظرك وفى طوعك ، ولنا فيكم معونة اذا قصدنا الباب لئلا يغلق دوننا » . فوافقتهم على ذلك ، وذكروا أن معهم خلائق » . فقال له رضي الله عنه : « هل رأيت معهم أحدا ممن ذكروه ؟ » ؟. فقال : «لا» . فقال له : « لاتذكر لي أحدا فهذا باطل » . ثم قال له : « وما دليل صدقك على ما ذكرت ؟ » فقال : « يا مولاي ، أحضر الآن صاحب الدار وزوجته » . وأحال على رجل معروف ، فذهب معه ، من سمع كلام رب الدار وزوجته . فقال له: « ومتى عزموا على هذا العمل ؟ » فقال له : « غدوة » . ولما تم كلامه صرفه . ثم قال لي : «أوجه عن عريف الآن» . ثم قال : « اذا عرفته الخبر الليلة يذعر » . ثم قال لي ولابن ناصح : « ويغلب على ظني أن العلج مقبلا كان حاضرا ، احفظا ما سمعتما » . فقلت له : « يا مولاي ، أما أنا فلا أخرج من هنا وهنا أبيت » . فحلف لي ، فانصرفت وبت كيف شاء الله . فلما صلينا الصبح ، دعى من خدامه من أحاط بهــم فأحضروا ، وأمر الفقهاء بأن يحضروا لمقابلة ابن الأشقر لهم ، وشهادة

14 ــ معنا ولنا : فى «ر» .

أحد خدامهم وصاحب الدار وزوجته على عينهم . وكان المتكلم لهم الامام الفقيه أبو محمد عبد المهيمن وأبو زيان عريف . فتكلم أبو ثابت ، فأبلغ وأوجز فقال (15) : « ان كان ما قالوه كذبا ، فالله حسيبهم ، ولا عتب على مولانا فيما يصدر منه ، وان كان صحيحا فعفوهم عن الدماء يسعنا ، ورحمتهم لا نيأس منها ، ويفعل الله ما يشاء » . فأجابهم رضى الله عنه بالعفو ، وأمر بالاحتفاظ عليهم ، فلم يزالوا فى اعتقال مع بر وكرامة ، حتى كان من شأنهم ما كان . وكنت أرى من أبي ثابت منهم تقرحا (16) / وتضجرا يدل على براءتهم ، فعجبت منه ، ثم ان الزمن طال وقدر باغترابي وانتقالي الى الأندلس أيام سكناي بها ، فتعرفت أنها كانت مكيدة من بعض أهل الأندلس ، وأنهم اتقوا من موالاتهم لمولانا رضى الله عنه (17) ان أشخصهم الى الأندلس على غير اختيارهم ، وقد حصل * بينهم من العداوة ما يوجب الخوف منهم ، فعينوا لهذه المكيدة رجلا يعرف بالغازي بن غزون (18) وكان امام هذه الواقعة الكائنة عندنا بسبتة ، ولعمري ، لقد رأيته مع ابن الأشقر هذا فى خلوة . فمات الجميع وصاروا خبرا والتقى كل ذي دين مماطله دينا واجتمع المشكو والشاكي ، فسبحان الباقي بعد فناء خلقه (19) فكانت هذه عصمة لمولانا رضي الله عنه من دمائهم ، ففاز بالأجر كما باء الموزور بالوزر . وفى هذه النبذ الغريبة والوقائع القليلة ما يدلك على ما كان عليه رضوان الله عليه .

15 ــ ثم قال : فى «ر» .
16 ــ كلمة مكررة فى «إ» .
17 ــ مضي الله عنهم : فى «إ» .
18 ــ غرون : فى «إ» .
19 ــ الخلق : فى «ر» .

الفصـــل الثـــالث

فى بيـان قصـــده بعفـوه

قد قدمت هذا المعنى أول الباب لما دخل (نصره الله) تلمسان لقيه شيخاي الفقيهان الامامان ، علامتا عصرهما ، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى ابنا الامام رحمهما الله ، فقالا له : « العفو ، يا سلطان ، كفاك الله شر الانتقام » . فقال لهما : « قد عفوت لله وعاملت وجه الله». فقالا له : « اذا هو أعلم بما فى يقينك » . وقال له أبو زيان عريف : « يا سلطان ، هذا شيء يخلد به الفخر ، عملت شيئا ما عمله ملك قبلك » . فقال : « والله ، ما أردت الا الله » . وهكذا قال غير مرة . قال : « لما توسطت باب كشوط ، داخلا تلمسان ، وامتلأ قلبي رحمة رفعت بصري الى السماء وقلت : « اللهم ، انني عفوت عنهم لا رياء ولا سمعة » . وهذا هو العمل المبرور والسعي المشكور (نفعه الله ونفع به وأبقاها وراثة فى عقبه وصفة لازمة لولده رضوان الله عليهم أجمعين ، وأنالنا من شيمهم الفاضلة الحظوظ الوافرة بمن الله وفضله) .

الباب الرابع عشر

فى مقابلته الاساءة بالاحسان

هذا الباب يدخل فى ألباب فعله ، فما من أحد قابله بحلمه وعفوه ، الا وتقدم منه من / الاساءة ما يحسن معه العفو عنه ، ولا احسان أعظم من العفو ، لكننا نذكر جزئيات تدخل تحت هذا النمط وتختص به ان شاء الله تعالى .

سمعته رضي الله عنه يقول : « لا شيء أعظم لذة من مقابلة الاساءة بالاحسان » . فكم من مسيء قابله باحسانه ، وكم * من جان قابله بفضل عفوه وامتنانه .

حدثني غير واحد من أصحابنا أن بعض الخدام كان فى حياة والدهم رضي الله عنهم يعاملونه بما جرت به عوائد من يسيء بالمعاملة من الخدام ، فلما ولي مولانا رحمهم الله استوحشوا منه ، فأقرهم على أعمالهم وزادهم برا وكرامة ، وسوغ لهم من الاحسان ما لم يعهدوه ، وكثير ممن كان ينتمي الى أخيه الأمير أبي علي (1) رحمه الله ، يسيء المعاملة والقول مباشرة ، فلما صار اليه الأمر رضي الله عنه قابلهم بأعظم الاحسان .

وهذا باب لا يدخل تحت حصر ولا ينضبط فكل من عاداه أساء اليه ، فلما صار فى قبضته أحسن اليه ، فكانت تلك سجيته وهي صفته المعلومة وطريقته ، فما عسى أن أذكر من جزئيات هذا الباب ، وهل يدخل تحت حصر مثل هذا أو حساب فلنقتصر منه على ما وقعت الاشارة اليه واكتفيت بهذا القدر عليه (وحسبنا الله ونعم الوكيل) .

1 – للامير أبي علي أخيه : فى «و» .

الباب الخامس عشر

فى جميل صبره (وفيه فصول)

الفصل الاول

فى فضيلة الصبر وما جاء فيه قرآنا وخبرا وأثرا

اعلم أن الله عز وجل أثنى على من اتصف بهذه الفضيلة وتخلق بهذه الخلة الجميلة ووعد عليه بالهبات الجزيلة التي لا تدخل تحت حسبان . فقال تعالى : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال : «وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » . وقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » . وقال : « واصبروا ان الله مع الصابرين » .

وأما الأحاديث المأثورة والأخبار المروية فكثيرة . روينا فى الصحيح عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » (أخرجه مسلم) . / وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري ، رضي الله عنه ، ان ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم حتى نفذ ما عنده ، ثم قال لهم : « حين أنفق كل شيء بيده ما يمكن * عندي من خير فلن (1) أذخره عنكم ، ومن يستعفف ، يعفه الله ، ومن يستغن

1 ــ فلن : غير موجود فى «ر» .

يغنه الله ، ومن يصبر ، يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » (متفق عليه) .

وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر الايمان ، والحمد لله يملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله يملآن ما بين السموات (2) والأرض ، والصلاة نور (3) ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » (رواه مسلم) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (الصرعة بضم الصاد وفتح الراء الذي يصرع الناس كثيرا) . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : «انما الصبر عند الصدمة الاولى » . وروي أنه صلى الله عليه وسلم : سئل عن الايمان ، فقال : « الصبر والسماحة » . وعن أكثم بن صيفي : « من صبر ظفر » . وعن علي كرم الله وجهه : « الصبر مطية لا تكبو ، والقناعة سيف لا ينبو » . وقال ابن عباس رضي الله عنه (4) : « أفضل العدة الصبر على الشدة »، وقال رضي الله عنه : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل : « ان صبرت مضى أمر الله ، وكنت مأجورا ، وان جزعت مضى أمر الله وكنت موزورا » . وقال الحسن : « والله لو كلفنا الجزع ما قمنا به ، فالحمد لله الذي أجرنا على ما لو نهانا عنه لصرنا اليه » . وقال عمر بن عبد العزيز للقاسم بن محمد : « أوصني » ، فقال القاسم : « عليك بالصبر في موضع » (5) وقال علي رضي الله عنه لأشعث

2 ـ السماء : في «ر» .
3 ـ نور : غير موجود في «إ» .
4 ـ رضي الله عنه : غير موجود في «إ» .
5 ـ في موضع : غير موجود في «ر» .

ابن قيس : « أن تجزع فقد استحقت ذلك منك الرحمة ، وأن تصبر ففي ثواب الله خلف من أمك ، ان صبرت جرى القلم عليك وأنت مأجور ، وان جزعت جرى القلم عليك وأنت موزور » . وقال الطرطوشي : « نظمه أبو تمام فقال (من الطويل) :

وقال علي في التعازي لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالا (1) للتجلد والعزاء وتلك الغواني للبكاء والمآتم *

وتقدم مثله لعمر ، رضي الله عنه . وأسند الزاهد ابن الوليد للنبي صلى الله عليه وسلم (7) أنه قال : « الصبر ستر من الكروب ، وعون على المطلوب » . وعنه صلى الله عليه وسلم أسند (8) أنه قال : « الصبر صبران ، وبالصبر يتوقع الفرج » . وقال (عليه السلام) : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » . قلت : وروينا في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النصر مع الصبر والفرج مع الكرب » . قال العالم أبو بكر بن الوليد الفهري ـ رضي الله عنه : « اعلم أن الصبر على أقسام : صبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب ، فالصبر على المكتسب (9) على قسمين : صبر على ما أمر الله به ، وصبر على ما نهى الله عنه ، وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد ، كصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما له مشقة . وينقسم من وجه آخر على أربعة أقسام : فأول أقسامه وأولاها : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به ، والانتهاء عما نهى عنه ، والثاني : الصبر على ما فات ادراكه من مسرة ، أو نقصت من رغبة يرجوها ، والثالث : الصبر فيما

---

6 ـ رجاء : في «ر» .
7 ـ وأسند : غير موجود في «ر» ، بل : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
8 ـ أسند : غير موجود في «ر» .
9 ـ فصبر المكتسب : في «ر» .

ينتظر وروده من رغبة يرجوها ، أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها ، والرابع : الصبر على ما نزل من مكروه ، أو حل به من أمر مخوف . وجميع أقسامه محمود بكل لسان، وفى كل ملة ، وعند كل أمة مؤمنة أو كافرة ».

قلت : « ولامامنا المرحوم ، فى هذه المقامات ، مقامات تظهر من حكايات أحواله رضي الله عنه بعد أن أورد مقالة لي فى الصبر رأيت من استحسنها ، فغرني ذلك غرورا أوجب استيفاءها فى هذا الموضع من هذا المجموع ، بحول الله (10) ، فقلت فى كتابي لشرح عمدة الاحكام ما نصه : اعلم أيها الواقف على ما أسطره بعد ، بحو لالله ، أني نظرت بعد أن اجتهدت ، فسبرت ، وقسمت فىالأحكام الشرعية التي تعبدنا بها، والاخلاق المحمودة ، التي يشرف العبد فى الدارين باكتسابها ، والخصال المذمومة التي يسعد المرء باجتنابها ويشقى فى الدنيا والآخرة بارتكابها ، فوجدت مجموعها يدور على * خصلة شريفة ، أثنى الله فى محكم / كتابه العزيز عليها (11) ، وندب رسوله (12) صلى الله عليه وسلم فى غير ما حديث اليها ، وهي خصلته صلى الله عليه وسلم (13) ، التي أمر بالتزامها، والزامها ، وشيمة أهل العزم من الرسل ، التي جاءت بها فى حكمها وأحكامها ، حسبما نطق بذلك الذكر الحكيم ، وجاء عن سيد الرسل (14) النبي الكريم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى (15) التسليم ، وهي الصبر ، فأنواع التقربات البدنية والمالية ، والخصال المحمودة العادية دائرة عليها ، وراجع محمدتها الدينية والدنياوية (16) اليها ، فبها لمن (17) وفقه الله قيام القائم ، وصوم الصائم ، وعبادة العابد ، وزهد

10 ــ بحمد الله : فى «ر» .
11 ــ عليها : غير موجود فى «ر» .
12 ــ رسول الله : فى «ر» .
13 ــ صلى الله عليه وسلم : غير موجود فى «ر» .
14 ــ البشر : فى «ر» .
15 ــ أزكى : غير موجود فى «إ» .
16 ــ الدنيوية : فى «ر» .
17 ــ من : فى «إ» .

الزاهد ، وجهاد المجاهد ، وحلم الحليم ، وكرم الكريم ، وبعدمها (والعياذ بالله) لمن حرمها يحصل الحرمان ، ويقع الخسران ، ويهون العصيان ، ويحرم المرء ثواب الابتلاء والامتحان ، ويفضي الى مصارع الذل والهوان ، ويتعرض لسخط الرحمن ويعد من حزب الشيطان ، فمن لم يصبر على مشاق الطاعة ضيع المفترضات وأهمل الحقوق الواجبات ووقع في كبائر السيئات ، فبخل وحسد وظلم وحقد وطغى وتمرد وواقع المحارم وقارب المآثم وهون العظائم ، ومن يتبع ما أشرت اليه يجده (18) منتزعا من القرآن من قوله تعالى : « ان الله مع الصابرين » . فمن كان الله معه كان مطيعا ، محفوظا ، وفي السنة كثير . وقول عمر رضي الله عنه : « وجدنا خير عيشنا الصبر » . وقول (19) علي (كرم الله وجهه) : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ومن انتزع رأسه لا حياة له » ، وقوله رضي الله عنه : « الصبر مطية لا تكبو » . وقول (19) الخواص رضي الله عنه : « الصبر على أحكام الكتاب والسنة فتدبر « وفقك الله) ما أشرت اليك به . »

وفي ذلك قلت مرتجلا : (من الوافر)

وجدت الصبر مشتملا علـى الطاعات مجتمعه
به الحسنات حاصلة به الدرجات مرتفعه
ومن يحرم فضيلته يرى الخيرات ممتنعه
/ فيأتي كل فاقرة اذا مال الهوى تبعه *
كذا الشيطان يملكه فمهما سار سار معه

18 — يجده : غير موجود في «إ» .
19 — قال : في «ر» .

وقال الطائي فيه : (من البسيط)

الصبر مفتاح كل خير ما أحسن الصبر والتأني

ولآخر (من الرمل) :

ان فى الصبر لفضلا بينا (20) فاحمل النفس عليه تظفر

وقال آخر وأحسن (21) : (من الطويل)

عليك اذا ضاقت أمورك والتوت بصبر فان الصبر مفتاحه الصبر
ولا تشتكي الا الى الله وحده فمن عنده تأتي الفوائد والبشر
عسى فرج يأتي به الله انه له كل يوم فى خليقته أمر

ولآخر (من السريع) :

ليست لمن ليست له حيلة موجودة خير من الصبر

ولآخر فى معناه : (من الكامل)

واذا تصبك مصيبة فاصبر عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وقال من أحسن ما شاء : (من الطويل)

اذا طال بالمحزون أيام صبره كساه ضنى طول المقام على الصبر
ولا شك أن الصبر يحمد غبه ولكن أبقاني عليه من العمر

وقال محمد بن يسير : (من البسيط)

ان الأمور اذا اشتدت (22)مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا

20 — بيننا فى «أ» .
21 — الأشعار الثلاثة التالية ناقصة فى «ر» .
22 — انسدت فى «ر» .

لا تيأسن ، وان طالت مطالبة اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وأنشدت لابن مجبر الصقلي : (من المتقارب)

اذا كان ما فات لا يسترد وما خط فى اللوح لا ينمحي
فلا تأسفن ولا تحردن ولا تحزنن (23) ولا تفرح
/ فكم حدث الهم بعد السرور وكم مات هم فلم يصبح (24)

وحكى الزاهد أبو بكر بن الوليد الفهري رضي الله عنه أن بعض الرواة دخل مدينة يقال لها ظفارة قال : فبينما أطوف فى خرابها (25) اذ رأيت مكتوبا على باب قصر خراب : (من البسيط)

يا من ألح عليه الهم والفكر وغيرت حاله الأيام والغير
اذا سمعت بما قد قيل فى مثل عند الاياس فأين الله والقدر ؟
نم للخطوب اذا أحداثها طرقت فاصبر فقد فاز أقوام لما (26) صبر

وتحته مكتوب بخط آخر : « لو كان كل من صبر أعقب الظفر لصبرت ، ولكنا نجد الصبر فى العاجل يفني العمر ويدني من القبر ، وما كان أصلح لذي العقل من موته وهو طفل والسلام . (قلت : ينظر لقوله « ولكن أبقاني عليه من العمر » المتقدم (27) . قال الشيخ : « لو رأيته لكتبت تحته : فى الصبر استعجال الراحة وانتظار الفرج وحسن الظن بالله واحراز الحسنات ، وفى الجزع استعجال الهم ونهك البدن واستشعار الخيبة وسوء الظن بالله وحمل الاثم وانتظار العقوبة ، وما أحسن بذي

23 — ولا اتجزعن عن ولا تجزعن : فى «ر» .
24 — غير موجود فى «ر» .
25 — بها : فى «ر» .
26 — بما : فى «ر» .
27 — هذه الجملة ناقصة فى «ر» .

العقل احتساب ❋ هذا ، والسلام » . قال (28) : وقال بعض البلغاء : « من صبر نال المنى ، ومن شكر حظي بالنعمى » • ورويت (29) عن ابن المعتز (من الطويل) :

هو الدهر قد جربته وعرفته   فصبرا على مكروهه وتجلدا
ولم أر مثل الصبر أعطى مثوبة   وأرغم في وقت الشماتة حسدا
وما الناس الا سابق ثم لاحق   وآبق يوم سوف تأخذه غدا

وقيل (من البسيط) :

الصبر مفتاح كل خير   وكل صعب به يهون
اصبر (30) وان طالت الليالي   فربما ساعد الحرون

وقال : قرىء على القاضي أبي الوليد وأنا أسمع : (من المتقارب)

دع الدهر يجري بمقداره   ويقضي عجائب أوطاره
ونم نومة عن ولاة الأمور   وخل الزمان لتدواره (31)
/ فانك ترحم من قد غبطت   وتعجب من قبح آثاره

ولآخر مما أنشده : (من الطويل)

ويمنعني الشكوى الى الناس أنني   عليل ومن أشكو اليه عليل
ويمنعني الشكوى الى الله أنه(32)   عليم بما أشكوه قبل أقول

---

28 ــ قال : غير موجود في «ر» .
29 ــ روينا : في «ر» .
30 ــ فاصبر في «ر» .
31 ــ هذا البيت ناقص في «ر» .
32 ــ أنني : في «إ» .

ومما رويته نشيدي (33) لأبي العتاهية (من الكامل) :

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن مرة لا الحزن دام ولا السرور (34)

قاله (35) اقتداء بالخليل (عليه السلام) فى قوله : « علمه بحالي يغني عن سؤالي » . ومنه قول الصديق ومثله عن ابن مسعود حين مرضا فقيل لهما : « ألا تدعوا الطبيب ؟ » فقال كل واحد منهما : « الطبيب أمرضني » . وفى رواية عن أبي بكر : « قد رآني » . فقيل له : « ما قال لك ؟ » : قال : « افعل فى ملكي ما أريد » . وفى رواية قال : « هو أعلم بحالي » .

وقيل فى الصبر الجميل : « انه الصبر الذي لا شكوى فيه » ، وقد كنت جمعت فيما قيل فى الصبر ، نثرا ونظما ، جزءا على طريقة أهل التصوف وأهل الأدب ، وقد أكثر الناس فيه وفيما ذكرته غنية ان شاء الله تعالى * .

الفصل الثاني

فيما تحلى به امامنا المرحوم من الصبر على ما أمره الله به والصبر على ما نهاه الله (عز وجل) عنه

لا شك أن الانقياد للطاعة وامتثال الامر انما يحصل بمعاناة الصبر وكذلك الكف عن متابعة الهوى ، وقد علمت فيما وقف عليه أنه رضي الله عنه حاز الرتبتين ، وفاز بالدرجتين ، وسنذكر من الجزئيات ما يدلك على ذلك .

---

33 ـ نشيدي : غير موجود فى «ر» .
34 ـ شرور : فى «ر» .
35 ـ قال : فى «ر» .

قد قدمنا فيما أسلفناه من محافظته على الصلوات فى أوقاتها ، ما وقفت عليه ، ولا يتأتي ذلك الا بالصبر على مشقة العبادة ، والصبر على المانع من ذلك ، ونبذ الدعة والراحة ومفارقة الفراش الهنيء والملاذ المحبوبة للنفوس لا سيما فى زمان القر والقيظ ، فلا يحمل ما ذكرناه من المحافظة على الوقت والجماعة الا بالصبرين معا . يعلم الله لقد شهدت منه فى قيام رمضان فى / سنة ست وأربعين ، وكان قد وافق شدة البرد بتلمسان ، وهي * أشد بلاد عدوة المغرب الأوسط بردا وتجلدا ، لم أر غيره استطاعه ، فكنا نقف معه قليلا ، ثم نصلي جلوسا من شدة ما يدرك أقدامنا من البرد ، ومنا من يتحيل فى تغطية أقدامه ، وهو ، رضي الله عنه ، يقطع الليل على حاله ، وربما يعرض له بأن يتخذ ما يستعمل فى الاقدام مما يمنعها من البرد ، فما يزيد أن يضحك علينا رحمه الله فلا تراه الا قائما مقبلا على عبادته ، وكذلك فى أيام القيظ ، ومنا يكابده من النظر فى أمور الخلق ، وأشغال الفكر وحدة النظر ، ومع ذلك لا يترخص فى تركه ما تعوده من الصوم ، حتى سمعت مرات صاحبنا الفقيه أبا عبد الله السطي رحمه الله يقول (2) : « فطركم رضي الله عنكم ، أعظم أجرا لكم من الصوم » . ويعتمد لذلك بحديث : « لا يقضي القاضي » وما ألحق به أهل العلم من المشغلات . ومن جملة ما ألحقوا به الصوم . فكان يجيب عن هذا بأن يقول : « أنا لا أجد فى نفسي تغير حالة ، فان ظهر لكم أنتم مني شيئا فعرفوني به » . (3) وأما الصبر على ما نهى الله عنه، فمن المعلوم أن تمكنه رضي الله عنه من الملاذ وحصول أنواعها (4) تحت حكمه وفى قبضته واعراضه عنها وموافقته لله (عز وجل) فى تركها والتجافي عنها ، انما يحصل بشديد الصبر ومكابدة مشاق مخالفة النفس ، وقمع الهوى ، فمن غلب نفسه فهو الصابر حقا ،

1 — فى : غير موجود فى «ر» .
2 — يقول : غير موجود فى «إ» .
3 — من هنا الى الكلمة «حكمه» فى نهاية اللوحة 107 (نسخة الرباط) .
4 — من هنا الى بداية اللوحة 110 موجود قبل اللوحة 116 (نسخة الرباط) .

ولهذا قال بعضهم : « الصبر صبران » ، فاللئام اصبر اجساما ، والكرام أصبر نفوسا ، وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون قوي الجسد على الكد والعمل ، فان هذا من صفات الحمر ، ولكن أن يكون للنفس غلوبا ، وللأمر محتملا ، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطا ، ومصداقه قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى». فلا يخفاك أنه سلك من هذين المقامين أهدى الطرقات ، ونال من الرفعة بهما أعلى الدرجات رضي الله عنه . *

الفصـــل الثالث

فى صبر على ما اتصل به من مكروه ومقاساته ما نزل من مقدور « فحدث عن البحر ولا حرج »

سمعت منه رضي الله عنه غير مرة قال : « تجرعت مـــن المكـــروه ، وقاسيت من الشدائد مع أخي / عمر فى حياة مولانـــا أول الدولـــة ما لم يتجرعه أحد ، مما أرجو المثوبة عليه ، رغبة فى المثوبة وحرصا على أداء حق الأبوة » . قال : « فكنت أسمعه ، ومن يظاهره ، وهم يتفاوضون فى شأني ويدبرون فى اهلاكي بكل وجه ، وأنا أريهم التجمل (1) والجلد صبرا على ما أكابده ، وأصانع جهدي وأبدي فى الملأ غاية التجمل (1) وفى الخلوة التضرع لله أن يكشف ما نزل بي » . ويحكي من جزئيات هذا المشار اليه ما يقضى منه العجب ، والصبر عليه ، والله ، أغرب وأعجب (نفعه الله بذلك) .

قال : « خرجت يوما ، وأنا فى غاية الكرب مما أعانيـــه ، فركبت ، فصادفت رجلا ممن ينتاب أسواق الغبار ، وهو متوجه الى أحد الأسواق ، فماشاني فى الطريق » ، قال : « فاندفع فى المحادثة والتأنيس وأخبرني

---

1 ــ التحمل : فى «ر» .

بعض أخبار السلوانات ، وصار يكثر من قوله : « من صبر ظفر » .
قال : « وكنت ✱ على أثر قبض عرض لي ، فعلمت أن الله عز وجل وعظني على لسانه ونبهني على ما وعدني به من الظفر ، فذهب عني ما أجده ، ووجدت في نفسي غاية الركون لقوله ، والسرور بما تشوفت اليه ، وكأن ما عندي جمرة طفئت » . قال : « ثم اشتد بي الحال حين تخلف أخي عمر بفاس ومولانا الوالد بتازى ، وكنت مع أخي عمر » .
قال : « فجئت يوما الى خباء جلوسه ، فسمعتهم يتفاوضون في قتلي » .
قال : « فتقهقرت ، ولم أظهر على نفسي أثرا ، وفوضت الأمر لله ، ولزمت الصبر حتى جعل الله لي مخرجا فانصرفت مع من انصرف معي الى تازى » . فصبر على هذه الشدائد ، فظفر ، فنال من الخلافة ما نال .

وأما صبره رضي الله عنه فيما عرض له من الشدائد التي باشرناها ، فأورد منها نبذا : كان لما ورد عليه وفاة ولده المجاهد الأرضى أبي مالك عبد الواحد رضي الله عنه ، وكان حدقة بصره ، وحق له لما ودعه منصرفا لبلاد الأندلس حين ضيق عليهم النصارى ، قال له : « مولاي ، أسأل الله أن يميتني في حياتك ، وأن يرزقني الشهادة » . فبكى وقال له : « يا بني ، لا تفعل . » فقال: « يا مولاي ، ما لي غرض غير هذا » ✱ فانصرف الى جهات رندة ، وعمل العجائب ، ونصر الله المسلمين على يده الى أن نفذ حكم الله وحان أجل قبول دعوته فرزقه الله الشهادة في الواقعة المشهورة ، التي كانت ابتداء الوقائع التي وقعت بالأندلس ، حسبما يقع التنبيه على ذلك في محله (ان شاء الله تعالى) ، / فلما وردت عليه وفاته ، كان الناس يقدرون في وجده عليه تقادير حتى لقد سمعت أن المخبر له بذلك تردد في اخباره ، فلما تعرف ذلك قال : « ان لله وانا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها » . فدخل عليه المعزون من كل قطر ، فاذا رأى أحدا يظهر على نفسه أثر حزن ينهاه ويأمر باخراجه ، فرأينا من تجلده وصبره ، مع شدة حبه فيه ، ما قضينا منه العجب (نفعه

الله به) . ثم شاهدت منه فى أثر وقعة طريف العظمى ، التي كان الواقع فيها جللا والخطب عظيما ، ما أنسى ما رأيت منه قبل من التجلد والصبر . لم يقدم حين مقدمه الجزيرة شيئا على النظر فى مصالح الأندلس ، والتأكيد على سلطانها السلطان (3) المرحوم أبي الحجاج فى الانصراف لبلاده ، وامداده بالمال وعمله هذا وخروجه للجبل من ليلته وفوره ، ثم أجاز البحر ولم يشغله * ما وجد من فقد . دخلت عليه (4) فيمن دخل باكيا حزينا ، فقال لي : « ما هذا ؟ أين الصبر والاحتساب ؟ » ، وحدثني رضي الله عنه قال: « كنت أجد فى نفسي ما أجد وأكابد من مرارة الصبر ما أكابد حتى وصل فقهاء فاس » . قال : « فلما دخل علي الفقيه عبد النور تلا بعد الاستعاذة : « وكأين من نبي معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله (الى قوله : الكافرين) » . قال : « فذهب من نفسي ما كنت أجده ، لما وصل الفقيه أبو زيد ابن الامام زادني سلوة هذا كله » . ولم يظهر عليه رضي الله عنه أثر حزن ولا دليل كرب (نفعه الله بذلك) .

ومما نزل به، فيما علمت والزمن الذي فيه لازمته، أشد من خبر استبداد ولده السلطان المرحوم أبي عنان ، وهو على الحالة التي كان عليها بتونس وردت عليه رضي الله عنه من بسكرة اثر دخوله لتونس من سوسة فقابلني بما أرجو من الله أن يضاعف له الثواب فقام من مجلسه ، ودخلت معه الى مسكنه من الرياض ، فسألني عن حالي وأخبرني ببعض حاله وسألني وأنسني ثم قال لي : « أي شيء صح من أخبار صاحبك ؟ » . فقلت : « من ، يا مولاي؟ » فقال :* «فارس» . فقلت : « خيرا ، وجميع ما سمع محض الباطل » . وكنت سمعت فى طريقي بعض الخبر فأحلته لما كنت أعلم منه من البر والخوف المانعين من وقوع ما سمع منه . فقال لي : «بل ما سمعت لا شك فيه » . فقلت : « يا مولاي ، معاذ الله » . فدعا ثقتهم أبا

3 ــ السلطان : غير موجود «ر» .
4 ــ عليه : غير موجود فى «ر» .

حسون ، فدخل ، / فقال له : « سمعت ما قال فلان ؟ ، عنده أن جميع ما سمع ما منه شيء » ، فقال له : يا مولاي ، ولعله كذلك ؟ . فقال له : «من فلان تخفي ؟ اذهب فأت بالنجار الواصل الذي عندك »،فتقهقر، فقال له : «فلان ، ما تخفي عنه هذا» . فجاء برجل من تلمسان ، نجار ، عرفني بنفسه ، فعرفته ، فقص الواقع على حسب ما وقع ، وأخبرني بما جرى في كتبي وداري ، بأمارات صدقت أخباره بها ، فسقط في يدي ولم أستطع النطق بحرف ، بل ابتدرت الدموع من عيني ، فصاح بي رضي الله عنه وقال : « لا تفعل ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، واصبر ، وما صبرك الا بالله ، واياك أن يظهر عليك أثر لهذا » . فدعاني والله بالطعام وأنسني وكان هو الذي يعمل ما يجب علي أن أعمله من التسلية والتصبر . ثم كساني رضي الله عنه ثيابه فخرجت من عنده وأنا أدافع (1) ما يبدو علي من دلائل الأسف . ولو تتبعت ما شاهدت من صبره ورضاه في تونس عند ملاقاة * الشدائد فيها لبسطت العجب مما تلقيته بالخبر بعد من مصابرته هموم البحر وما وقع له فيه من الشدائد التي لم ير مثلها ثم عند استقراره بالجزائر ، ونفوذه الى سجلماسة الى زمن انتقاله لرضوان الله وما سمعته من ثقات الملازمين له أعجب من ذلك كله بتجلده وصبره من حين نشأته رضي الله عنه الى وفاته رحمه الله يضرب المثل .

---

5 ـ ادفع : في «ر» .

الباب السادس عشر (1)

فى حيائه ، رضي الله عنه (وفيه فصول)

الفصل الأول

فى فضل الحياء

روينا فى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار يعظ أخاه فى الحياء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «دعه ، فان الحياء من الايمان» (متفق على اخراجه فى الصحيح) . وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحياء لا يأتي الا بخير» ، (وفى رواية مسلم : «الحياء خير كله» . وقال : «الحياء كله خير» . متفق أيضا عليه) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الايمان بضع وسبعون بابا ، فأفضلها قول : لا اله الا الله / وأدناها اماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان» (متفق عليه). والشعبة والفرقة والبضع بكسر الباء ويجوز بفتحها ، وهو من الثلاثة الى العشرة . والاماطة الازالة . والأذى ما يتأذى منه (2) كحجر وشوك وشبههما (3) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حيـــاء من العذراء فى خدرها ، فاذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه (متفق عليه) . والأحاديث فى الباب كثيرة .

1 – ومن الباب .. فى «ر» ، والقطعة التالية موجودة فى وسط اللوحة 116 (نسخة الرباط) .

2 – منه : غير موجود فى «ر» .

3 – شبهها : فى «ا» .

الفصل الثاني

فى حقيقة الحيـاء

قد أطلت فى هذا الفصل من شرح الشفاء ، ❊ وأوردت فيه ما يستحسن ايراده من كتب شتى ، (1) من كلام أئمة علم الكلام والمتصوفة والأدباء . وشرحت فيه أحسن كلام وقفت عليه فى حقيقة الحياء ، وهو كلام شيخ الاسلام أبي محمد الأنصاري الهروي فى مقاماته وهو أحسن من تكلم فى حقيقته ، على ما ظهر لي ، وتعقبت ، هنالك ، كلام القاضي أبي الفضل فى الشفاء فانه جعل المسبب سببا فلينظر، وبغير ذلك مما أوردته عليه ، وأكثر العلماء على أن حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذي الحق ، ومن المستحسن فيه كلام الجنيد قال : « الحياء رؤية الآراء (2) ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء» . وتكلمت أيضا على هذا الذي قاله الجنيد (3) وما شرحه به أبو البقاء محمود بن عبد المعطي بن عبد الخالق اللخمي الاسكندراني ، شارح رسالة القشيري ، ولا حاجة الى اطالة هذا الفصل ويكفي منه التنبيه على المدرك . وللأدباء فيه منظومات منها قول بعضهم :

(من المنسرح)

وما دعاني الهوى لمعصية الا نهاني الحياء والكرم
ولا الى محرم مددت يدي ولا حطت لي لزلة قدم (4)

ومما رويناه لبعضهم فى المعنى (5) : (من الوافر)

---

1 ــ شيء : فى (إ) .
2 ــ الآراء : غير واضح فى «ر» .
3 ــ الجملة التالية ناقصة فى «ر» .
4 ــ ولا حططت لزلة قدم : فى «إ» .
5 ــ ومما روينا .. فى المعنى : غير موجود فى «ر» .

اذا لـم تخش عاقبـة الليـالي ولم تستح ، فاصنع (6) ما تشاء
فـلا والله ، مـا فى العيش خـير ولا الـدنيـا اذا ذهب الحيـاء

ضمن معنى قوله (عليه السلام) أن مما أدرك الناس من كلام النبوءة : « اذا لم تستح ، فاصنع ما شئت » .

/ ولأبي دلف العجلي فى ذلك : (من الطويل)

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا ولم تستح مخلوقا فما شئت فاصنع

ولآخر فيه : (من الطويل)

اذا قل ماء الـوجه قـل حيـاؤه ولا خير فى وجـه اذا قـل ماؤه

ولآخر فيه : (من الوافر)

اذا رزق الفتـى وجهـا وقاحـا تقلـب فى الأمـور كمـا يشـاء
ورب دنيـة مـا حـال بينـي وبين ركـوبهـا الا الحيـاء

ولأمية ابن أبي الصلت : (من الوافر)

أأطلب حاجتي أم قـد كفـاني حيـاؤك ان شيمتـك الحيـاء
اذا أثنى عليـك المـرء يـوما كفـاه مـن تعـرضـه الثنـاء

وللفقيه ابن كناسة فى الحياء والاسترسال بحسب الحال : (من المنسرح)

(7) في انقبـاض ووحشـة فاذا لاقيـت أهـل الوفـاء والكـرم
أرسلت نفسي عـلى سجيتهـا وقلـت ما قلـت غـير محتشـم

6 ــ فافعل : فى «ر» .

7 ــ البيتان التاليان فى بداية لوحة 126 لنسخة «ر» .

* الفصل الثالث

فيما شاهدته من حيائه فى بعض مواطن وهي قل من كثر بحسب الاختصار

ما كان أشد حياؤه رضي الله عنه . أعرف رجلا من المتقربين منه ، كان يتجاوز فى الخبر ، وكانت له معه سابقة معرفة وقديم تربية ، يجري (رحمه الله) ذكر أيام سلفت ، فيأخذ عنه الكلام ، ويخبر بالخبر الذي له معه فيه مشاركة ، فاذا قضى حديثه يلتفت لثقتهم علال ، وينظر اليه نظر المنبه له والمتعجب ، فاذا خلا يقول : « والله ، ما يمنعني من الرد على فلان الا الحياء ، وأتوهم أن تنقلوا عني الموافقة ، وأنا لا أعرف مما قاله شيئا » وهذا على الدوام ، وبقي معه كذلك الى أن توفي رضي الله عنه فيما علمت ، وما رأيته قط أنكر عليه حياء ، وهذا مع من لا يدركه معه حشمة فما ظنك بالغير . وكان رضي الله عنه اذا أعطى لأبي زيان شيئا أو لمن يلازمه من خواص خدامه ، فيفهم عنه أنه يأخذ بيده ليشكره ، يمنع من ذلك ويستحي رضي الله عنه . /

وقضية الخطيب الحسيب أبي الفضل محمد ابن الخطيب الصالح أبي الحسن المزدغي ، خطيب جامع القرويين من فاس ، هو وأبوه ، من أغرب ما يتحدث به ، واشتملت على عجيب من حيائه وفضله نفعه الله تعالى. كان * هذا الخطيب رحمه الله ، جوادا ، متفضلا،محسنا . متخلقا ، وطيء الأكناف ، شديد المحبة فى أولاده والحنو عليهم ، وكان لكبر قدره وعلو منصبه قد تخير للنظر فى التركات وودائع أموال الأوقاف وكثير من الأيتام المعتبرين ، فلكثرة ما يصدر عنه من الانفاق ويحتاج اليه من وظائف الأولاد وبناءات معتبرة شرعوا فيها ، يضطر الى أن ينفق مما تحت يده ، ويعول على ذلك من غلات ربعه

وأثمان زرعه . فاذا تعين طلب مال مما تحت يده يستدين بمعاملات يتحملها ويتحمل فوائدها ، سترا على نفسه ، والتصرف على حاله والاستدانة على أولها ، حتى غرقت ذمته وزاد الأمر الى أن وقف وخاف على نفسه الافتضاح ، ولم يجد مخلصا مما وقع فيه واجتمعت عليه من الأموال زهاء ثلاثين ألف دينارا ذهبا فيما يقال . فبينما أنا ليلة بين أيديهم رضي الله عنهم اذ أمروني أن أتوجه الى وجدة لاعادة الثريا التي كانت بجامع تلمسان الجديدة ، التي بناها عمهم السلطان أبو يعقوب ، رحمه الله ، الى الجامع الكائن بقصبة المنصورة . فتوجهت سحرا ، فبينما أنا فى طريق وجدة اذ لقيت الخطيب المزدغي ، قادما من فاس ، فسلم ورحب وتأسف ، فقلت له : «مالك ؟» فقال : « وددت لو حضرت ورودي » . فقلت له : « يا سيدي مثلكم من لا يحتاج فى دار مولانا لأحد ، فان المحل لكم » . فقال لي * « جئت فى أمر كبير » . فقلت له : « الكبير بالنسبة الى فضلكم صغير » (1) فقال لي: « ولعل مقامك هنا لا يطول » . فقلت له : « كذلك أرجو أن يكون ». فأقمت يومين وقدمت الثالث ، فلقيت بعض أصحابنا فقال لي : « عندنا حادث كبير » . قلت : « وماهو ؟ » . قال : « لمولانا رضي الله عنه يومان هو فيهما فى غاية القبض والكرب لا يدرى ما هو السبب » . فدخلت وسلمت وشاهدت الحال على ما هو أعظم مما أخبرنيه ، فانصرفت الى منزلي . فلما قرب وقت المغرب دخلت فوجدته رضي الله عنه فى المشور الذي أحدثه بتلمسان القدمى ، المتصل بقصرهم السعيد ، وفى المجلس بعض أصحابنا ، فقال لي : « أعلمت ما جرى يا فلان ؟ » قلت (2) له : « يا مولاي ما أعلم الا أني رأيتكم / على حال قبض وتغير » . فقال : « نعم ، وهذا ثالث يوم لي لم أذق

1 — صغير : ناقص فى «ر» .

2 — فقلت : فى «ر» .

طعاما ، ولا تجرعته آسفا على ما جرى علـى هذا الرجل وسقوط حرمته ووقوع الألسن فيه وحطه بعد رفعته » . فقلت : « ومن الرجل ، أيدكم الله ؟! . فقال لي : الخطيب فلان . فقلت : وماله ؟. فقال : تلفت أموال المسلمين من يديه . فقلت : « على أي صـورة ، بسرقة أم ضياع ؟ (3) . فقال لي : « ليت الأمر لو كان هكذا ، والله ، والله ، لو ادعى هذا لدفعت عنه جميع ما كان تحت يده ، ولكنه فضح نفسه وأوقعني فى الخجل وأطلع على أمره كثيرا من الناس ولو لم يطلع أحدا غيري لأديته عنه » . وعندما عرفني ❊ استفسرته عن هذا فأعلمني (4) أنه عرف جماعة بقصته فأخذت والحاضرين فى تسليس الأمر وتهوينه وتطارحنا عليه الى أن أقيمت صلاة المغرب فلما خرج من الصلاة رغبنا منه الدخول والفطر فدخل ثم خرج بعد برهة فتعرفنا أنه اجتزأ بيسير من حسو . ثم خرج فتفاوضنا بين يديه فى شأنه . فلما كان الغد أمـر بالاجتماع به وعين لذلك الفقيه عبد المهيمن والقاضي أبا اسحاق ابراهيم ابن أبي يحيى ، وابن يربوع وابن تدرارت وكاتبه المصنف ، وكان عبد المهيمن شديدا عليه والقاضي وأحسن الجماعة رأيا فيه وخطابا له الفقيه ابن تدرارت . فسئل عن وجه ذهاب المال فأخبر الخبر على ما هو عليه . فقيل له : « هل كان فى ذمتك (5) ما يفي بهذه الأموال ؟ » . فكان عذره أقبح عفـا الله عنه ، قال : « كان عنـدي زرع كثير معولا على ادخاره الى سنة يرتفع فيها السعر فيوفي ثمنه بالمال وزيادة ، فلما افتقدته ، وكان نحوا من كذا ، وقدرته بكذا ، مما يبلغ هذا العدد ، وجدت أولادي تصرفوا فيه ، وليس فى ذمتي الآن ما يفي بربعه ❊ ولكني انما جئت الأن يدفع لي السلطان ثلاثة أحمال ذهبا ،

---

3 ـ بضياع : فى «ر» .
4 ـ فعرفني : فى «ر» .
5 ـ بذمتك : فى «ر» .

أذهب بها الى فندق الشماعين وأصب المال صبا وأدفع لكل ذي حق حقه ».
فكان من أصحابنا من جاوبه بقدر ما حضره وما يقتضيه طبعه ومنا من حزن له وقابله بخير . فلما عدنا لمولانا رضي الله عنه قال : والله ، والله ، لولا ما تعرفت أن أولاده أنفقوا معظمه في سرف وأن هذا عرف ، لكنت بالذي يجيبه الى ما طلب ، لكن على هذا الوجه يقبح أن أنفق هذا المقدار من مال المسلمين أو / من مالي الخاص بي ، ولكنني أقضي ما يرجع لأولاد خدامي ، وما أودع على يدي ، وأما الأحباس والأوقاف ، فينظر ما اشترى من الأملاك من هذا المال ليعين لهم ، ويترك له قدر ما يكفيه لمسكنه وأولاده وما يستغله ويجتزي به بقدر كفايته وأسوغ له مرتبا يكفيه وموضعا يحترثه ، وأنا والله ، والله ، لا أقدر أن أراه حياء منه . « فكتب اليه الخطيب يتذمم له (6) ، ويتوسل ويتطارح في أن يلقاه ، فقال رضي الله عنه : « والله ، ولله ، ما منعني من لقائه الا الحياء ، ولقد حشمت عوضا عنه . » ثم نظر في تعيين (7) من يتوجه لفاس ليجمع الفقهاء والصلحاء ، ويعرفهم بالواقع ، ويعرض عليهم عوده لخطته وخطابته . فانه ✻ رضي الله عنه كان يقول : « أوصى جدنا عبد الحق رضي الله عنه بوصية التزمناها ، وهي (8) أن ثلاثة من الولاة لا مدخل للرعية فيهم مع السلطنة وهم صاحب القصبة وصاحب الشرطة والوالي وثلاثة المرجع فيها للرعية وهم امام الصلاة والخطبة والقاضي والمحتسب » . فتوجه الفقيه أبو علي بن تدرارت لذلك بعد أن عينني رضي الله عنه للتوجه في هذا الغرض .
فوصل لفاس ، وجمع من يجتمع مثله لمثل هذا ، وكان الناس بوفرهم فاختلفوا الى أن اجتمع رأيهم ، على ما يظهر بعد وصوله ، وقرر له

6 ـ اليه : في «ر» .
7 ـ في تعيين : غير موجود في «ر» .
8 ـ هو : في «إ» .

ما يكفيه ، وحاسب صاحب الحبس بما تعين عليه من مال الأحباس . ووصل ، والخطيب مع هذا كله في دار مولانا نصره الله في الدويرة التي تعرف بدار الكتاب داخل القصر ، مكرما ملحوظا منتابا من كبار الناس ، على عادته في محله وفي ركوبه ، غير أنه لا يرى مولانا رضي الله عنه حياء منهم رضي الله عنهم ، كما ذكرنا ، وبعد وصول الفقيه أبي علي أذن له بالانصراف ، فقال : « لا أنصرف حتى ألقى مولانا » . فلقيه ليلا في المشور المذكور ، الذي أحدثه وتوارى عنه في ظل الشمعة ، وبكى وودعه وأحسن اليه ، على عادته ، وانصرف . فهل بعد هذا من شدة الحياء غاية ؟ *

نادرة غريبة ــ الولد سر أبيه ــ : لما وشى بي من وشى لولده المرحوم أبي عنان وصدر منه ما أوجبه حمله وفضله من الابقاء وتحسين الاعتقال وحصحص الحق وبطل الباطل وأذن الله تعالى في الخلاص ، وجه عني ليلا في المشور بعينه ، والمجلس بنفسه ، وبين يديهم خاصتهم قاضي الحضرة الآن وخطيبها الفقيه (9) أبو القاسم البرجي / كان فيما اعتذر به : « اني احتشمت منك أن أراك نهارا وهذا أجر ساقه الله اليك ، أعلى به درجتك ، وقد تبين بطلان ما نسب اليك ، فطهرك الله من كل وجه ، فاشكر الله واجعلنا في حل منك » .

رجعنا الى ذكر حيائه رضي الله عنه : أول يوم قرأت بين أيديهم جامع البخاري ، حضر أولاده الأمير الصالح التقي أبو علي الناصر والامير أبو الفضل والسلطان أبو عنان رحمهم الله جميعهم فلما قرأت الحديث الاول ذكرت تكملته وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » ، انتهض أولاده قياما ، اذ من عادتهم رضي الله عنهم أن لا تذكر

9 ــ الفقيه : غير موجود في «ر» .

المرأة بحضرتهم بين يدي والدهم ، ومتى اشتكى ❊ مشتك بما فيه ذكر المرأة نفروا وخرجوا عن المجلس ، فصاح بهم رضي الله عنهم وقال لهم : « اعلموا أن الحياء المطلوب منكم انما هو فيما يرجع الى المعاملات ، وأما ما يتضمنه كلام الله ورسوله وما يصدر عن الأئمة والعلماء فالحياء فيه مذموم ، وخير ما تخلقتم به الحياء ، فان الحياء يأتي بكل خير » . وكان يقول : « أفضل ما يتصف به العامل الحياء » . ومهما رأى من يظهر عليه أثر الحياء يؤثره ويحظى لديه رضي الله تعالى عنه .

وفى هذا القدر كفاية فى اتصافه بهذه الصفة الجميلة والخلة الجليلة .

(1) الباب السابع عشر *

في بره بأبويه رضي الله عنهم وفيه فصول

الفصـــل الاول

في فضل البرور

قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » . وقال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » . وقال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » .

روينا في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ، قال : « سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب الى الله عز وجل ، قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي . قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي . قال : الجهاد في سبيل الله » (متفق عليه) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجزي ولد والدا الا أن يجده مملوكا / فيشتريه فيعتقه » (أخرجه مسلم) . وعنه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : « يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ فقال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك (2) (متفق عليه ، وجاء بألفاظ) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « رغم أنف ثم رغم

1 ـ ومن الباب : في «ر» .

2 ـ امك : في «ر» .

أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أو (3) أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة » (رواه مسلم) . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة فان شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه » (رواه الترمذي) . وروينا بسندنا (4) الى الطبراني من طرق قال : « حدثنا محمد بن خالد بن يزيد البرذعي بمصر قال : ثنا أبو سلمة عبيد بن خلصة بمعرة النعمان : ثنا عبد الله بن نافع المدني عن المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه قال : « جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، أبي أخذ مالي » . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « فأتني بأبيك » . فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « ان الله ، عز وجل ، يقرئك السلام ويقول لك : اذا جاء الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه » . فلما جاء الشيخ ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال ابنك يشكوك ، أتريد أن تأخذ ماله ؟ » فقال : « اسأله ، رسول الله ، هل أنفقه الا على عماته أو خالاته أو على نفسي ؟! . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ايه ، دعنا من هذا ، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك » . فقال الشيخ : « والله يا رسول الله ، ما يزال الله يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي » . فقال : « قل ، وأنا أسمع » . فقال : قلت (5) (من الطويل)

غذوتك مولودا ومنتك يافعا … تعل بما أجني عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت … لسقمك الا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي … طرقت به دوني ، فعيني تهمل

3 ـ او : غير موجود في «ر» .
4 ـ بسند : في «ر» .
5 ـ قالت : غير موجود في «إ» .

تخاف الردى نفسي عليك وانهـا لتعلم أن الموت (6) وقت مؤجل
فلما بلغت السـن والغايـة التـي اليها مدى ما كنت فيـك أؤمـل
جعلت جزائـي غلظـة وفضاضـة كأنـك أنت المنعـم المتطـول
/ فليتك اذ لم ترع حق أبوتي(7) فعلت كما الجار المجاور يفعـل

قال : فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال له : « أنت وما لك لأبيك » . قال الطبراني : « لا يروى هذا الحديث بهذا الاسناد والشعر الا عن محمد بن المنكدر تفرد به عنه محمد بن خلصة » ، وذكره القاضي أبو بكر بن العربي بسنده فى الأحكام والقانون ، وشراح الترمذي . فائدة قال علماؤنا رضي الله عنهم : « أمره صلى الله عليه وسلم ببر الام مكررا مؤكدا لما تتحمله من مشقة الحمل والفصال والرضاع ، فكان الامر بالبرور بها على نحو ذلك » . قلت : وزاد هذا القاضي أبو بكر بن العربي بيانا وايضاحا . فقال * فى الأحكـام ما معناه : « سمعت شيخ الحنابلة بدار السلام أبا الوفاء بن عقيل يقول : « انما تبع الولد لأمه فى الرق والحرية لأنه ينفصل عن الأب ولا قيمة له نطفة لا قـدر لها فيتكون فى الرحم ، ففي بطنها تصير له الحرمة ، فكان بمثابة رجل أكل تمرا فى أرض فسقطت من يده نواة فنبتت منها نخلة ، أترى لصاحب النواة فيها حقا ، بل هي لصاحب الارض بكل وجه » ، وهو معنى بديع .

والأحاديث والآثار فى بر الوالدين كثيرة وقـد صنف جماعة من الحفاظ فى ذلك تصانيف . وبر الوالدين ، قصدا لوجه الله وامتثـالا

---

6 ـ الوقت : فى «ر» .

7 ـ مودتي : مصحح فى «إ» وزيادة فى «ر» :

يا وليتني حق الجواد ولم تكن بحلمي بما .. مالـك تبخـل

لأمره ، كفيل بحفظ الولد ، ورضي الله عنه . فلنقتصر على هذا القدر في معناه وبالله التوفيق .

الفصل الثـاني

في بر مولانا المرحوم بأمه رضي الله عنهما :

لم ير الراؤون ، في عصرهم أبر منه رضي الله عنه بأمه . اتفق جميع من عرفها وخدمها على أنه رضي الله عنه ، ما خرج قط غدوا الا بعد أن يقبل قدميها ولا دخل قط عشاء الا وفعل مثل ذلك . وهذا مما وقع الاجماع عليه مشاهدة وسماعا . وسمعت منه رضي الله عنه مرارا أنها كلمته في العفو عن شخص قال : « فلم يسعني ردها وصعب بي اجابتها » قال : فقالت لي : « يا علي لعلك غرتك سلطنتك وأشغلتك (1) عن حقي » . قال : « فوجدت من هذا الكلام ما يعلمه الله ، وأقبلت على تقبيل قدميها واسترضائها وبقيت أياما وأنا في غاية الخجل منها والخوف من تغير باطنها » .

وكان رضي الله عنه يقول : « طالما كانت تلمسان محصورة وكنت أباشر القتـال وأدخـل الى المسـائف وكانت / أمـي بالحيـاة لـم أحتج الى تدريع ثقة بالله ودعائها » . فلما كان اليوم الذي توفيت فيه لبس لأمة الحرب من تحت أثوابه ، وهذا غاية في جميـل الظـن والوثوق بالله والقيام بحق أمه رضي الله عنها ، وكان يقول كل يوم : أربع * في ظلال الجنة ، لقولـه صلى الله عليـه وسلـم : « الجنـة تحت أقدام الامهات » ، وكان رضي الله عنه يتبع أغراضها في كل شيء، حتى في أثره من تؤثره من حرمه رضي الله عنه . وكانت رضي الله عنها قد تشوفت للحج والزيارة، فأسعفها بذلك ، وهومحاصر لتلمسان، ووعدها

---

1 ـ شغلتك : في «ر» .

به عند انقضاء أمر تلمسان ، وتوجه عثمان بن جرار سنة سبع وثلاثين فوقف حاجا تلك السنة ، فشاركني فى القضية ونحن جميعا بالحجاز ، وقال : « أريد أن استأذن فى وصول أم مولانا أبي الحسن رحمه الله (2) للحج للملك الناصر » . فقلت له (3) : وهل كتب لك مولانـا بشيء أو خاطبهم فيه ؟ . فأوهمني بأن ذلك قد وقع ، فصدقته ، فلما وصلنا (4) من الحجاز الى القاهرة كان معه شخص من المغاربة الكتاب فاقتضى نظره أن استفعل كتابا عن مولانا السلطان ضمنه الوصية به والاعلام بالعزم على حج والدتهم رضي الله عنها ، فخرج الجواب البليغ المناسب لمقامهم ، فلما قبضه شارك شخصا يقال له فخر الدين المسلماني ، وكان كاتبا مجيدا ، فاجتذب الكتاب من داخله ، وترك ختامه على حاله وفك الوصل المتضمن لوصول الكتاب وأبقاه محالا على موصله ، وزاد فيه ما يلقى من (5) المذكور من تعظيم المقام ، والقيام بالواجب ، وضمن أنه تعرف وصول المولاة المعظمة وأنها ترد على محلها ، ومن يعرف قدرها ويؤدي حق برها ، وكان كتابا بليغا ، واطلع على هذه المكيدة الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن عباد المراكشي ، وكان أحد طلبة الحزب وغاية فى حسن الصوت واذا تكلم لا يبين ، ففطن لهذه القضية وأسرها فى نفسه ، وكان من طبعه (سمح الله له وغفر لنا) الاذاية . فلما وصلنا الى تلمسان وتعرفنا وفاة أم مولانا رضي الله عنه فى طريقنا ، أوصل ابن جرار الكتب (6) وذلك فى الثامن عشر لشهر رمضان * فدخلت تلمسان فى السابع والعشرين من الشهر المذكور ، وسنورد غريبة فى ذلك محلها ان شاء الله تعالى . طلب الشيـــخ أبو زيـــان عـــريف /

2 ــ رحمه الله : غير موجود فى «ر» .
3 ــ له : غير موجود فى « ر » .
4 ــ وصل : فى «إ» .
5 ــ من : غير موجود فى «ر» .
6 ــ الكتاب : فى «ر» .

(الحج) (7) والحرة مريم ، وكان لها على مولانا تربية وفيه محبة ، وهي أم أخته وحظية والده وأنزلها بعد موت والدته منزلتها . فأسعفها(8) بذلك ، ومن طلب هذا المطلب وأهدى الهدية التي يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى كفاء كتب (9) صاحب الديار المصرية ، وقيامه نحو (10) أم مولانا رضي الله عنهم ، ثم ان ابن عباد حصلت بينه وبين ابن جرار منافرة شديدة ووحشة ، فرفع القضية لمولانا المرحوم واستشهد بي بأني كنت تعرفتها على جليتها ، فاستدعاني ، رضوان الله عليه ، وسألني عن القضية وبين يديه أبو عبد الله بن أبي طلاق ، يناوله ما ينسخ من القرآن ، فأمسكت عن الجـواب ، فظنه لحضرة المذكور فأقـامه فقلت له : « يا مولاي عاملك الله بالستر الجميل » . فلم يراجعني رضي الله عنه بكلمة بل سألني عن سبب مشاجرة المذكورين فأجبته بما حضر وعرف الغرض ومنعه الحياء من معاتبة عثمان ومتابعته استقصاء حديثي ، ولم يجر للقضية بعد ذكرا حتى مضى كل لسبيله .

ومن بره بها رضي الله عنهما ، أنها لما توفيت ، جمع ثيابها وفرشها وجميع ما كانت تتناوله من آنية وفرش وغير ذلك فتصدق به، ولم يعط أحدا من أهل الدنيا شيئا منه ، وممن استدعاه لهذا عمي وصنو والدي الذي كان له معظما وفيه معتقدا فدفع له جملة من ثيابها وفرشها وقال لـه : « تصدق بهذا على الصالحات والخيرات من مجاورات ضريح سيدي أبي مدين رضي الله عنه ، وعلى الارامل المتخيرات للازواج » ، نفعه الله بذلك .

ومن بره بها رضي الله عنهما ، بره بمن كان يواليها من الرجال والنساء ، ومن بره بها أنها * لما توفيت أشخص سائر الشرفاء والعلماء

---

7 ـ الحج : غير موجود فى الأصل .
8 ـ فأسلفها : فى «ر» .
9 ـ كتاب : فى «ر» .
10 ـ بحق : فى «ر» .

والصلحاء لمرافقتها الى موضع مدفنها وأمر ببناء مسجد فى كل موضع كان المبيت بها من تلمسان الى شالة ، وعمارة وزاوية ، فأمنت السبل وتعددت المرافق وتعرف الخلق بركتها فى الحياة وبعد الممات ، وحبس باسمها مواضع جرت المنفعة بها الى الآن . وحاله فى بروره بها فوق ما أحصيه ، نفعه الله تعالى .

الفصل الثـالث

فى بره بأبيه رضي الله عنهما

حدثني والدي رحمه الله ، قال : « جلست مع السلطان المرحوم المولى أبي سعيد وبين يديه / ولده يعني امامنا رضي اللـه عنـه . فبصق الوالد رضي الله عنه فى منشف ، فعلق بعض الريق بلحيته ، قال : فوثب ولده المعظم فتناول طرف عمامة نفسه فمسحها . قـال : وكان يتحدث معي فى بعض حديث ولده السلطان أبي علي ، فأعجبني ذلك منه ودعوت له . قال : فقال لي : يا سيدي هذا الفعل وأمثاله من البرور أحله (1) هذا المحل ويورثه هذا المقعد ، وغيره هو الذي أقصى غيره . قال : فدعوت لهما » . ثم من المقرر المعلوم أنه هو الذي كان يقوم بجميع أموره ، وينظر له فى سائر شؤونه ، ويتناول خدمته بنفسه ولا يكل ذلك لغيره .

وهذا الفصل لا يأتى عليه حصر ولا يحيط به خبر ، نفعه الله بذلك .

1 ـ أحل فى «إ» .

الباب الثامن عشر

فى رعيه لأهل ود أبيه (وفيه فصول)

الفصــل الأول

فى فضيلة (1) هذه الخصلة الكريمة

روينا فى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » .

وروينا فى الصحيح أيضا عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة ❊ كانت على رأسه ، قال ابن دينار : فقلت له : « أصلحك الله ، انهم الأعراب ، وهم يرضون باليسير » فقال عبد الله بن عمر : « ان أبا «(2)» هذا كان ودا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان البر صلة الولد أهل ود أبيه » .

وفى رواية عن ابن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما : « أنه كان اذا خرج الى مكة كان له حمار ، يتروح عليه اذا مل ركوب الراحلة ، وعمامة يشدها ، فبينما هو يوما علك ذلك الحمار اذ مر به أعرابي ، فقال : « ألست ابن فلان بن فلان ؟ » . قال : « بلى » . فأعطاه الحمار . فقال : « اركب هذا الحمار وهذه العمامة اشدد بها رأسك ». فقال له بعض أصحابه : « غفر الله لك ، أعطيت هذا الاعرابي حمارا

---

1 ــ فضل : فى «ر» .

2 ــ أبا : غير موجود فى «ر» .

كنت تتروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك ! » فقال لي : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أبر البر صلة / الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي » . وان أباه كان صديقا لعمر رضي الله عنه (أخرجها كلها مسلم في صحيحه) . ورويناه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : « يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ » . قال : « نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما واكرام صديقهما » (رواه أبو داود) .

الفصل الثاني

قيامه رضي الله عنه بهذا الوظيف ومحافظته عليه

كان رضي الله عنه أرعى الناس لهذا المعنى . حضرته يوما ، وقد دخل عليه الخطيب أبو عبد الرحمن بن مسونة والمجلس غاص ، فقال له : « الي ، الي ، فمن أبر البر أن يبر الرجل أهل ود أبيه ، هكذا قال عليه السلام » ، فأجلسه الى جانبه . ورأيته ليلة من ليالي المولد المعظم وقد قرب شيخا وأدناه اليه ، وكنت لا أدريه ، فنظرت اليه ، فقال : «هذا أبو عبد الله المكناسي (1) ، متصوف ، صالح » ، يعلمني ، ومن حضر ممن كان لا يعرفه من أهل وطننا ، ثم قال : ❋ « له حق كبير كان مولاي أبو سعيد رضي الله عنه يحبه ويوده » ، ثم ذكر الحديث .

1 ــ المكناسي : غير موجود في «د» .

الفصل الثالث

فيما يلحق بهذا الباب في رعيه وبره

ولما توفي والده رضي الله عنه كان له خدام مختصون به في خطط متعددة ، على مراتب معروفة ، وكان له هو رضي الله عنه خدام يتولون عنده (1) تلك الخطط ، ولهم عنده رئاسة ، فكانوا ينتظرونها اذا صار الأمر له رضي الله عنه من حاجبه وكاتبه وأمينه الى متولي مراكيبه ، فلما صار الأمر اليه تأخر خدام أبيه وتقهقروا ، وانبسط خدامه لتولي تلك الخطط . فكمل المبرة وأتم لهم المسرة وأبقى كل ذي خطة عند أبيه المرحوم على خطته وصاحب كل ذي مرتبة في مرتبته رضي الله عنه عملا بواجب البر والقيام بالحق بعد الوفاة رضي الله عنه حتى ماتوا على خططهم ، وفيهم من كان منحرفا عنه ولكنه رضي الله عنه وفى ، فوفى الله له . ومن بره به ان كثيرا من طالبي الحوائج والمشتكين له ، يعرضون بالتوسل به والدعاء بالرحمة له فينقلبون وقد قضيت حاجتهم وحصلت طلباتهم . ومن بره به تعاهده (2) قبره المكرم بالزيارة ، فزرناه معه مرات ، وأعملنا الرحلة صحبته لزيارته كرات . ومن بره به قيامه بضريحه المكرم واجراؤه عليه الجرايات الكثيرة وترتيبه القراء للقراءة على قبره ليلا ونهارا لا يفترون . ومن لجأ لقبره من خائف أو طالب حاجة أمن خوفه وقضيت حاجته وطلبته . ومن بره به تعاهده موضع لحده ، الذي دفن فيه أولا قبل انتقاله لشالة ، بجامع المدينة البيضاء اثر كل صلاة جمعة وقراءته هنالك جزء من القرآن ودعاؤه له ، لا يفتر عنه وصارت عادة جارية لبنيه رضي الله عنهم وفاء عهد ورعاية حق واحياء سنن . ومن بره به أن فراشه الذي كان عليه بالمصرية المعروفة به ، الكائنة

---

1 – عنده : غير موجود في «و» .

2 – تعاهد : في «إ» .

على باب البستنة داخل باب الزجاري ، ومحمل كتبه على ما كان عليه قد وكل به من حظاياه من يحفظه على ما كان عليه ، فيدخل رضي الله عنه * مترحما ، داعيا ، ويتحامى الجلوس عليه أدبا ، فسبحان من وفقه وأعانه . ومن بره رعايته لخدامه وعــدم مناقشتهم والعناية بحقهم • كان الوزير أبو ثابت عامر بن فتح الله خاصا بخدمة مولانا أبي سعيد فلما حضرته رضي الله عنه الوفاة ، أوصى مولانا المرحوم به في جملة ما أوصاه به فأحظاه مولانا المرحوم واستوزره وقدمه على سائر أهل حضرته وأسند اليه الأمور • وكان رجلا سمحا ، كريما ، جوادا ، مدبرا مع سياسة فيه وايثار راحة لنفسه سمح الله له وغفر له ، وكان يشاركه في خطته جماعة فكانوا يرفعون الى امامنا المرحوم أمورا توجب الانحراف عنه وتأخيره عن خطته ، فلم يجدوا لذلك سبيلا الى أن نزلوا على تلمسان وكثر الانفاق والاخراج ، وكـان هو المنفذ ، فرفعت آلاف دنانير في يوم واحد (3) فيما نفذه ، فأكثـر الوشاة القول ووجدوا موجها لما رفعوه ، فلما أكثروا نهاهم رضي الله عنه وقال لهم ، فيما سمعت : « دعوه ينفق بيت مال في كل يوم ، لا سبيل أن يتحدث في هذا متحدث » • وسمعت بعض أصـحابنا يحكي عنه حكاية ، لا أدري هل وقعت له بتلمسان أو بسبتة ، فانه كان أيضا ينفذ بسبتة ما يحتاج اليه في الانشاء وأعمال دار الصناعة ، وهو أنه رفع لمولانا ما جرت العادة بالتنكيت به عليه فأعرض عنهم فاقتضى / نظرهـم أن يكتبـوا (4) بـراءة مـن جملـة بـراءات التنفيذ بآلاف ودفعوها على أن يعلم عليها وأوهموه أنها بنزر يسير ، اما بوسقين أو ثلاثة من شعير ، فعلم قبل أن يقرأ وما درى ما تشتمل عليه وطالعوا مولانا رحمه الله بذلك ، فما زاد عـلى أن استضحك

3 ـ اليوم الواحد : في «إ» .

4 ـ كتبوا : في «إ» .

وباسطه وقال له : « تحفظ من هؤلاء » . وهذا كله رعاية لوصاة والده المرحوم به رضي الله عنهم .

وفى هذه النبذ كفاية فى الباب ويحق لمثلي أن يمـــد هنا * اليد ويدلي بهذا السبب ويفخر بهذه المكرمة ويمت بها لمولانا المعظم ولده فلا وسيلة أعظم من هذه الوسيلة ، ولا متات أقرب من هذا ، فالله يعلم أني كنت لديه من الأحظياء ومنه رحمه الله من القرباء ، ومثل خليفته ونجله الأعلى الذي أعز الله به الاسلام وحفظ به نظام الأنام من رعى من توسل اليه بهذه الوسائل وأقام على اختصاصه بمولانا المرحوم واضحات الدلائل تقبلها الله تعالى بفضله .

الباب التاسع عشر

في رعيه لمن له سلف صالح . وهذه صفة هذا البيت المرفع والقبيل المريني نفعهم الله ، قد تواطأ عليها (1) آمرهم ومأمورهم وجرى عليها صغيرهم وكبيرهم نفعهم الله بذلك (وفي الباب فصول) .

الفصل الأول

في فضل هذه الخصلة الكريمة

جاء في قوله تعالى : « وكان أبوهما صالحا » ، وان كان ظاهر اللفظ والمبادر للذهن أنهما الوالدين دنية ، الا أن المفسرين ذهبوا الى غير هذا فقيل هو الجد السابع قاله جعفر بن محمد وقيل هو العاشر يحفظان (2) فيه وان لم يكن (3) من أهل الصلاح . وهكذا ذكر مقاتل والنقاش . قال المفسرون : ففي هذا ما يدل على أن الله يحفظ الصالح في سبعة من ذويه وعلى هذا يدل قوله تعالى : « ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وروينا في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من رواية أبي هريرة أنه قال عليه السلام : قال الله عز وجل : « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب » . (ومعنى آذنته أعلمته بأني محارب له وايذاء ذريته اذاية له واكرام ذريته اكرام له) . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله / صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا » . قال أئمتنا : « من معرفة شرفه توقير ذريته »، والمراد كبر القدر عند قوم. وعن عائشة * رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

1 ــ عليهم : في «إ» .
2 ــ يحفظا : في «إ» .
3 ــ لعله يكونا : في هامش النسخة «ر» .

« أنزلوا الناس منازلهم » (ذكره مسلم أول كتابه معلقا . وقال الحاكم فيه : «حديث صحيح») . ومن انزالهم منزلتهم أن يسلك بهم سبيل سلفهم ، ما لم يمنع من ذلك مانع لا يحتمل التأويل .

الفصـــل الثـــاني

يحكى عن جدهم الملك العابد المجاهد أبي يوسف رضي الله عنه فى هذا حكايات غريبة فى موالاته الصالح التاهرتي وبنيه ، بعد موته ، وفى سلامه عليهم وايثاره لهم ، وكذلك لورثة ولي الله عز وجل أبي محمد صالح ، وحكايته حين وشي اليه بأحدهم أنه استمال قلوب الكافة، واجتمع الملأ من أهل الجبال والاقليم المراكشي على ابتيائه والرجوع لقوله وحذر من هذا الباب وذكر سيرة الموحدين فيه ولمتونة قديما . فأجاب بأن قال : « بركة جدهم تصلحنا وتصلحهم ، وجدهم حكـــم بيننا وبين من يريد السوء بنا منهم » . فكفاه الله سوء التعرض له ، وانعكست القضية فكان أقرب أوليائه له . وهكذا جـــرى لـــولده السلطان أبي يعقوب رحمه الله مع أبي عمران بن أبي زكرياء يحيى بن أبي عمر المنسوب اليه الزكراوية ، وكان من أولياء الله الصادقين والأئمة المعتمدين ، جمع بين الشرف والعلم والولاية ، وله أتباع على طريقته وأتباع جهلة رعاع ، لا يفقهون ولا يفهمون ، نقلت عنهم أمور لا ينكر صدورها منهم ، أوجبت طعن جماعة من العلماء فى الطائفة كلها واطلاق القول فيهم ، وهذه مصيبة عظيمة من الفريقين ، وقد رأيت جماعة من الأعلام وكبار الأولياء ينتمون له ، ويسلكون طريقتـــه ، وينشرون مناقبه ، منهم الولي العارف المتفق على ولايته فى عصرنا أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي المشميني (1) (حصن من حصون الجـــزيرة الخضراء بل من حصون رندة) الجزيـــري (2) الخضراوي السلـــوي

1 ــ هكذا فى كلتا المخطوطتين وهو الشميني .
2 ــ الجزيري : غير موجود فى «ر» .

(الاستقرار أخيرا بعد أخذ الجزيرة) . وحدثني ، عن سيدي أبي زكرياء ، والدي رحمه الله قال: « أجلسني فى حجره وألبسني ». وكان قد أخذ عن * أصحاب سيدي أبي مدين رضي الله عنه . ولأهل بلاد افريقية /وبعض أهل المغرب الوسط فى هذا الشيخ زيادة (3) فى الاعتقاد، بل لبعضهم طعن ، وأنا أبرأ الى الله من هذا المعتقد . نعم ، لا شك فى أن أهل بلاد حاحا ، وهي أقصى بلاد المغرب ونواحيها ، هم أجهل الخلائق وأبعدهم فهما وعلما ، فلافراط جهالتهم تصدر عنهم مقالات وتغال يوجب سوء الظن بالطائفة ، وقد قال بعض أصحابنا : « ورث سيدي أبو زكرياء عن جده علي كرم الله وجهه ما جاء أنه تهلك فيه طائفتان ، مفرطة ومفرطة » . وقد جرى بيني وبين بعض علماء افريقية فى هذه المسألة كلام ، انجلى المجلس فيه عن رجوعه لما قلته واستغفاره من اعتقاد سوء الظن بجملة الطائفة والشيخ ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، وبعد تمام هذه العارضة فلنرجع الى ما نحن بصدده (والله الموفق) .

الفصل الثالث

فيما حفظته من محافظة امامنا المرحوم على هذا الوصف الجليل والخلق الجميل .

كان رضي الله عنه أشد خلق الله مراعاة لمن له سلف صالح ، حرصا على حصول المثوبة وابتغاء وجه الله الكريم . كنت يوما جالسا بين يديه أول اتصالي به ، فدخل شاب صغير السن ، وفد فى جملة المهنئين بفتح تلمسان ، فسلم الناس على العادة ، فلما انتهت النوبة لهذا الشاب اهتز له رضي الله عنه وأقبل عليه ولم يعرج على سواه حتى قضى تسليمه ، وسأله سؤال متحف به عن أبيه ووالده واخوته ، وأمر الوزير عامر بن فتح الله باكرام نزله . فسألت عنه فقيل : « هذا يحيى حفيد

3 ـ زهادة : فى «إ» .

سيدي أبي يعقوب البادسي رضي الله عنه (وسيأتي لهذا الشيخ ذكر بأتم من هذا (ان شاء الله) فى غير هذا الموضع) . وهذا أحد الأسباب التي أوجبت اتصالي به ، بل هو معظمها حسبما أذكره ان شاء الله تعالى فى الخاتمة .

ومن عادته رضي الله عنه ، وهي عادة سلفه وخلفه رضوان الله على الجميع ، أن جميع ما جرى للصلحاء والمرابطين من الاقطاعات والتحريرات لا يعدل بها عن * ذرية من سوغت له ، عادة جارية وسنة ماضية ، لا جرم يحفظ الله بحفظهم اياهم خلفهم وذريتهم .

وكان من عادته رضي الله عنه ، حسبما قدمناه ، أن يبعث من يتخيره من فقهاء حضرته والمقربين لديه لسماع الشكيات فى الأقطار البعيدة . فبعث مرة جماعة / فيهم صهره (1) الشيخ زيان بن أمديون ومعه الفقيه القاضي أبو عبد الله الفشتالي الى جهة المدية ، فحصل بينهما من النفرة ما جرت العادة بجريان مثلها بين أمثالهم ، والناس مع المعتبر ، فتمالأ الجميع على الفقيه الفشتالي ، فلما وصلوا الى الحضرة رفعوا لامامنا أمورا شديدة ونسبوا له أشياء عظيمة ، مع استعانتهم بمن كان فى الحضرة يشنأه ، وأطلقوا القول بين يديهم رضي الله عنهم فيه ، فاستقبح رضي الله عنه سماع هذا ، فأمر بالاجتماع خارج مجلسه وأمر القاضي ابن عبد النور والفقيه ابن يربوع والفقيه أبا محمد عبد المهيمن والكاتب التقي أبا الحسن ابن القبائلي وعهدي بالفقيه الكاتب الثقة أبي الحسن ابن سعود فيما يغلب على ظني هو مستولي كتب ذلك والله أعلم . فلما جلسنا انبرى رجل من أهل المدية ، يعرف بابن عباد ، فى التعرض لعرض الفقيه ، فبدر مني ما اذا ذكرته تعرضت لتزكية نفسي وثقتهم أبو حسون حاضر يعرف امامنا بالمجلس ،

---

1 ــ صهر : فى «ر» .

فاستدعاني رضي الله عنه وهو واقف منحرف ، فقال لي : « ما هذا الذي بلغني عنك ؟ » فقلت له : « يا مولاي ، هو ما بلغك » . فقال : « وما حملك على هذا ؟ » فقلت له : « يا مولاي ، رضي الله عنكم تعلمون أن هذا الفقيه ما بيني وبينه بلدية ولا سابق معرفة ولكني سمعت منكم مقام جده واعتقادكم فيه ، فاذا سمع مثل هذا عنه تعلمون ما يقال فيه » . فسكت رضي الله عنه مليا ، ثم قال : « صدقت يا علال ادعه لي » . فدخل فكلمه كلام خير ، وقال له ما أوصاه به مما يعود عليه بالنفع ، واستمر النهي والزجر لمن تعرض له ، وألغي ما رفع عليه .

ومثل هذا رفع على الحاج أبي عبد الله محمد بن يوسف ابن سيدي عمر بن سيد الناس لما توجه فى مثل هذا لسجلماسة . * فلما حضر بين يديه قال له : « تعلم أنا سمعنا كذا وكذا ونحن لا نصدق هذا على مثلك ونرعى اعتقادنا فى سلفك ولا سبيل أن تعيد هذا ولا تعود له » . قلت : ولي معه رضي الله عنه مثل هذا مما سنذكره ان شاء الله تعالى وتتبع هذه الجزئيات أيضا يطيل هذا المجموع .

الباب العشرون

فى محبته فى العلم (1) وأهله ، وايثاره لمن اتصف به . (وفيه فصول)

/ الفصل الاول

فى فضل العلم على الجملـة

قال الله تعالى : « قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون». وقال تعالى : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ». وقال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وروينا فى الصحيح ، عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيرا ، يفقهه فى الدين » (متفق عليه) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد الا فى اثنين ، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها » . (متفق عليه ، والمراد هنـا بالحسد ، الغبطة) . وعن أبي موسى رضي الله عنـه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل ما بعثني الله به من الهـدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا ، منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجاذب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى ، انما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه بما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . (متفق عليه) . وعن سهل

1 — فى أهل العلم : فى «إ» .

ابن سعد رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه : « فوالله ، لأن يهدي الله بك رجلا ، خير لك من حمد النعم » . (متفق عليه) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا * عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ، ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار » (رواه البخاري) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له طريقا الى الجنة » . (رواه مسلم) . وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (رواه مسلم) . ويرحم الله القائل : (من البسيط) .

والعلم يحيي قلوب المؤمنين كما تحيا البلاد اذا ما مسها المطر

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر

والوارد فى الباب متسع .

/ الفصل الثاني

فيما جاء فى رعاية أهل العلم والبرور بهم ومصاحبتهم

روينا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول لله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سلك طريقا يبتغي فيه علما ، سهل الله طريقه الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى له ، وان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد ، كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثوا الأنبياء وان الأنبياء لم يرثوا لا دينارا ولا درهما

انما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » . وهذا من أدل دليل على اكرام أهل العلم والبر بهم من حيث أن الملائكة تضع أجنحتها رضى له ، فما ظنك بغيرهم . ومن هذا الباب ما رويناه فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « ليلينـــي منكـــم ذوو (1) الأحـــلام والنهي » . وما رويناه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى القبر ، ثم يقول : أيهما أكثر أخذا للقرآن ؟ ، فاذا أشير الى أحدهما قدمه فى اللحد » (أخرجه البخاري وغيره) . وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان من اجلال الله اكرام ذي الشيبة وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، واكرام ذي السلطان المقسط » . وتقدم فى الباب قبل هذا حديث عمرو بن شعيب رضي الله عنه ، وعن أبي سعيد الخذري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ✽ قال : « لا تصاحب الا مؤمنـــا ولا يأكل طعامك الا تقي » (رواه أبو داود والترمذي) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » (رواه أبو داود) والترمذي (2) . وعن أبي موسى ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « المرء مع من أحب » (متفق عليه) . وفى رواية قيل : « يا رسول الله الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم » ، قال « المرء مع من أحب » . وعن أنس : « أن أعرابيا (3) قال لرسول الله صلى الله عليه وسلـــم : « متى الساعة ؟ » قال : « و (4) ما أعددت لها من عمل (5) ؟ » . قال : « حب الله ورسوله » . قال : « أنت مع من أحببت » (متفق

1 — أولو : فى «ر» .
2 — لا يرد هذا الحديث فى «ر» .
3 — هذا غير مقروء فى «ر» ، ولكنه فى الهامش .
4 — وغير موجود فى «ر» .
5 — من عمل غير موجود فى «أ» .

عليه) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن ، كمعادن / الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ، اذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف » (أخرجه البخاري ومسلم) .

الفصل الثالث

فى اختصاصه بهذه المنقبة

قد قدمنا فيما قبل من الأبواب ، مصاحبته لأهل العلم ، رضي الله عنه ، وقيامه ببرهم وتعظيمهم فيما أدرجناه من الكلام ، ولنورد هنا بعض أخباره فى ذلك . لا خفاء باختصاصه أهل العلم لمجالسته ومحاضرته ومشاورته ومشاركته ، فيما يتقلده من الأمور الشرعية ويتلقاه من السير الرضية وجعلهم بطانته لما رويناه فى الصحيح عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان ، بطانة تأمر بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » (رواه البخاري) . فكان رضي الله عنه أبر الناس بأهل العلم وأعرفهم بقدرهم ، استخلصهم لنفسه وجمعهم من سائر بلاده فى حضرته ، اذا سمع بمن له رسوخ قدم فى العلم أقدمه على حضرته ، وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا ، فاجتمع بحضرته أعلام ، ثم ضم لهم من كان بتلمسان وأحوازها حين استيلائه عليها ، ثم استمر هذا العمل فى دخوله بلاد افريقية ، ولم يزل على هذا الى أن توفي رضي الله عنه ، وقد ذكرتهم بأسمائهم وصفاتهم ومعارفهم

فى غير هذا ، * وقد (1) ذكرت طبقاتهم على اختلافهم . ولنسرد الآن ذكر من حضرني ذكره من المشاهير الملازمين له ممن شاركته وأدركته وعاشرته أولا فأولا ، من حين مقدمي عليه الى زمن وفاته رضي الله عنهم : الفقيه الامام أبو عبد الله محمد بن علي بن سليمان السطي خزانة مذهب مالك مع مشاركة تامة فى الحديث والأصلين واللسان وديانة شهيرة وصلاح متين . كان حظي المكان لديه ، امام الفريضة والمدرس فى حضرته والمفتي ويخطب نيابة عمن تقدمني ، وعني عند تقلدي للخطبة . قرأ على شيوخ عصره من أهل فاس ، واختص بالشيخ أبي / اسحاق ابراهيم اليزناسني / وله تقييدات صالحة ، وكان مقبلا على ما يعنيه ، مكبا على النظر والقراءة والتقييد لا تراه أبدا الا على هذه الأحوال حتى فى المجلس السلطاني ، وكان يسرد الصوم رضي الله عنه وكان معظما عند امامنا ، قليل فضول اللسان ، لا يتكلم فى المجلس حتى يسأل ، مات رضي الله عنه شهيدا غريقا فى الجفن الذي غرق فيه امامنا ونجا بمقربة من بجاية فى قفوله من تونس .

والفقيه الحافظ النحوي المفتي أبو عبد الله الرندي ، أصل السلف ، الفاسي المستقر كان حافظا للمذهب ، قائما به ، اماما فى العربية ، مقدما فى النظر ، انتفع به خلائق ، لازم امامنا المرحوم فى وجهته لتلمسان الى أن فتحت تلمسان ، وبعد ذلك الى أن توفي فى سنة أربعين فى وباء ، كان قد اخترم فيه جماعة توجهوا صحبة مولانا المرحوم الى الجزائر . كان هذا الفقيه مقداما مقدما ، طلق اللسان ، يتصرف فى أغراضه بين يديهم رضي الله عنهم على وفق مراده ، فيه رجلة وبسالة فى الطبع ونفع لمن والاه ، وكان مكرما ملحوظا وقورا فى مجالسه ، منقبضا عن العامة ، له تأليف حسن ، أبان عن مقدار

1 ـ قد : غير موجود فى «إ» .

تصرفه وحفظه ، شرح فيه تفريع ابن الجلاب شرحا عجيبا ، لم يظهر من تواليفه غيره ، وكانت كثيرة فيما قيل .

والفقيه الامام ❋ العالم الحافظ التأريخي المشارك المتخلق الفاضل أبو اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى أبي بكر التسولي التازي ، وشهرته بكنية أبيه امام حافظ ، كان قارىء شيخ الشيوخ أبي الحسن الصغير فى أعوام ، وكان أحفظ أهل مجلسه وأشهرهم بسلوك طريقه والقيام مقامه ، وكان قد جمع لذلك حفظ التاريخ المتقدم والقريب العهد ، والمعرفة بقبائل بني مرين مع أدب رائق ، وكان أجمل الفقهاء محاضرة وأجمعهم مشاركة وأحسنهم فى حسن المعاملة طريقة ، له لمولانا المرحوم قديم اختصاص وملازمة وكثر استعماله فى السفرات والتردد فى الأمور المهمة ، ولاشتغاله فى ذلك تقدمه غيره فى حفظ المذهب ممن كان دونه ، كان رحمه الله جملة فاضلة . قدمه مولانا رضي الله عنهم لقضاء الحضرة بعد استقرار المتقدم عنه بمدينة فاس ، فلم يزل يلي هذه الخطة مع التقديم فى المجلس ، ثم ولي الصلاة فى سفر أبي عبد الله السطي رسولا / الى تونس فى غرض الخطبة ، فأصيب بفالج عرض له فى أثناء صلاة المغرب ، فلزمه الى أن توفي رحمه الله ، أظنه فى سنة احدى وخمسين بفاس ، وكان رجلا نفاعا لمن والاه ، محسنا متفضلا ، شديد الرعاية لأهل وده والبر بأصحابه ، وجيها عند امامنا ، مقبول القول ، معظما عند الخاصة والعامة ، أحفظ الناس بتاريخ .

والفقيه الامام القاضي الخطيب أبو عبد الله محمد ابن ولي الله أبي الحسن علي بن عبد الرزاق الجزولي ، نادرة وقته ، ووحيد عصره ، أحسن الناس خلقا وخلقا ، وأفضلهم طبعا ، وأجملهم ملاقاة ومحاضرة، وأنفعهم لمن والاه . كان قاضي حضرة مولانا أبي سعيد وخطيبها ، فأقره مولانا المرحوم على خطته . أخذ عن كبار المشايخ بفاس ،

وشارك في علوم ، ثم رحل الى تونس فأخذ بها عن جماعة من علمائها كاليفرني والبوذري وابن جماعة وابن سرور وغيرهم ، وتصرف بها فأخذ عن أهل دار أبينا عبد الله كسيدي أبي عبد الله محمد بن الحسين الزبيدي الفقيه ، وأبي عبد الله الامام * من مشايخ الصوفية ، وكان قد أخذ التصوف عن أبيه ولبس منه الخرقة . كان له التقدم بعلم الأصول بفاس ، وكان يعقد لذلك مجلسا في جامع القرويين ، لا يتخلف عنه فقيه معروف . فعنه أخذ كثير ممن ذكرناهم علم الأصول . وكان مؤيدا في الكتابة ، قد طاوعه القلم والبيان ، فصدرت عنه مكاتبات اعترف له فيها بالتقدم (2) أهل الشأن ، وكان مع هذا لا يسود ولا يتوقف غالبا فيما يكتب مع براعة الخط وجودته قد أقر بالرق كتاب الأنام له ، وقد دونت له مخاطبات تشهد لما قلنا مع تهذيب له يشركه فيه غيره . كان معظما عند امامنا المرحوم ، ملحوظا لديه ، له عليه دالة قدم الهجرة مع ما حاز من شرف صحبة الأبوة ، حسن الوساطة في الخلق ، طيب الكلام ، شديد الشفقة على عباد الله والرحمة لهم ، سالكا في قضائه مسلك التوفيق والاصلاح بين الخصوم غالبا ، حسن السياسة في ذلك ، لم يزل ملازما لمولانا المرحوم الى أن عاد الى فاس من قطر تلمسان ، يرغب الاعفاء من السفر ، فقلده قضاء الجماعة بها والخطابة في جامع المدينة البيضاء ، الى أن وقع ما وقع من منازلة السلطان أبي عنان المدينة البيضاء محاصرا لها ، فتقدم غيره وتأخر مبرة ولحظ / ، ثم ان السلطان المؤيد المولى أبا عنان قربه بعد واستصحبه في سفره ، فأصابه فالج لزمه الى أن توفي عفا الله عنه في حدود سنة خمس وخمسين فيما أظنه ، وكان مولانا مبرا به ، مكرما له ، محبا فيه ، وله معه نوادر مستظرفة وأخبار مستحسنة .

2 ــ بالتقديم : في «ر» .

والفقيه الامام علم الأعلام أبو محمد عبد المهيمن ابن الامام القاضي أبي عبد الله الحضرمي ، كان هذا الشيخ نادرة وقته وأعجوبة زمانه ، أحفظ الناس بعلم اللسان واللغة والأدب ، بحر في ذلك ، زاخر هذا ، مع امامته وتقدمه في علم الحديث والمعرفة برجاله * وضبطه والقيام به ، يحمل عن ألف شيخ قد حلاهم وذكر مروياتهم في مشيخته التي كانت لديه ، وضاع بضياعها علم كبير . أدرك جماعة من العلماء في بلده ، كابن أبي الربيع ، واختص به ، وابن عبيدة ومن عاصرهما وفي الأندلس جماعة ، وحمل عنهم كأبي جعفر بن الزبير وأكثر عنه ومن عاصره ، وأخذ عن واحد وقته الامام أبي عبد الله ابن خميس التلمساني ، وأكثر عنه وشارك في الأخذ عنه للقاضي أبى عبد الله بن عبد الرزاق المتقدم الذكر . كان هذا الفقيه أبو محمد آية في الحفظ والضبط والاتقان ، لا يجري ذكر شيء يحاضر فيه الا ويستحضر فيه من الشواهد ما يقضى منه العجب . كان صاحب العلامة ، وامام الكتبة ، وأحد علماء الحضرة وأهل الشورة ، تقلد ذلك لمولانا أبي سعيد ، ثم لمولانا ولم يزل على خطته وحظوته الى أن توفي بتونس المحروسة على أنه تأخر عن الخطة قبل وفاته لكونه . كان قد أقام بتونس لمرض ، فعرض له من واقعة القيروان ما عرض ، فاضطر لتقديم من يقوم بالخطة لعدم الوصول اليه ، وكان من عادته اذا تخلف لمرض في بلد توجه الأوامر التي لا بد من علامته فيها اليه حيث كان ، فلما تعذر هذا قدم لها الفقيه أبو الفضل ابن أبي محمد عبد الله بن أبي مدين ، فلما عاد امامنا لتونس استمر أبو الفضل على تعليمه ، لدوام مرض الفقيه ، وشى به من وشى وتعرض لثلب عرضه من تعرض فلم يقبل فيه امامنا الرضى قولا ولا نقص من مبرته به (1) حظا الى أن توفي بتونس ودفن بالزلاج منها ، وكانت جنازته حافلة ، وكان موته

3 — به : غير موجود في «ر» .

فى الوباء الحادث سنة تسع وأربعين (4) رحمه الله . وكان رجلا وقورا مهيبا معظما عند الخاصة والعامة ، مقداما / مرجوا متقيا أية فى حمله ما وصفته به رحمه الله .

هؤلاء قدماء أصحابنا الذين أدركتهم فى حضرته . وبعد استيلائه على مدينة تلمسان لازمه الشيخان الامامان الأوحدان اماما عصرهما الاخوان الشقيقان أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى * ابنا الامام الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الامام البرشكيان الشهيران واختصا به ، فأكرم مثواهما ، ورفع فى حضرته محلهما وقرب مجلسهما وصارا لديه أعز الفقهاء عليه وأقربهم اليه ، وكانا حقيقين بذلك ، درسا فى مجلسه ، وكان محبا فيهما وكانا محبين فيه ، لازماه مدة مقامه بتلمسان وسافرا صحبته . فلما توجه للمغرب برسم حركة الجهاد أذن لهما فى الرجوع الى تلمسان ، وأسقط عنهما كلفة السفر . فلما توفي الأمير الشهيد أبو مالك رحمه الله توجه أبو زيد منهما الآن يعزيه بفاس ومنع الآخر مرضه . ثم لما وقعت واقعة طريف توجه أيضا الى سبتة ثم لما عاد بقي مدة يسيرة مريضا ، ثم توفي (عفا الله عنه) ، وبقي أخوه ملازما لمنزله شاكيا . فلما عاد مولانا المرحوم لتلمسان لازم مجلسه وصاحبه فى حركة مجمع ، ثم فى حركة تونس ، فلما وصل معه الى القيروان اعتل له بالشاخة وضيعة أولاده لصغرهم ، فأذن له بالرجوع الى تلمسان . ولم يزل بها الى أن توفي فيها فى أيام الوباء العام . وكانت له سرارة وصلابة فى دينه . وقعت له فى وقعة المولى أبي عنان قضية دلت على وقوفه فى الحق وعدم مبالاته ، ولشهرتها تركت ذكرها . وبالجملة فكانا قادرين فى عصرهما ، قرآ فى بلدهما ابتداء ثم رحلا الى تونس فلازما علماءها واستفادا باليفرني وابن جماعة والبوذري وغيرهم ممن عاصرهما . ورحلا الى المشرق فكان لهما به ظهور ، ناظرا الحافظ

4 — خمسين : فى «ا» ولكنها مصححة . الجملة التالية ناقصة فى «ر» .

تقي الدين بن تيمية ، وأخذا بدمشق عن الحجار والمزني وأعلام . وكان قاضي القضاء جلال الدين القزويني يثني عليهما كثيرا ويقول : « بمثلهما يفخر المغرب » ، وكذلك شيخ الشيوخ علاء الدين القونوي وشرف الدين الزواوي المالكي وغيرهم . وكان لهما تبريز وتقديم فى علوم . * وكان أبو زيد أحفظهما وأبو موسى أذهن من عاصره وأبو زيد أسنهما . وحازا من الرئاسة والسراوة ما انفردا به فى عصرهما ، وكان مولانا رحمه الله يستحسن طريقهما ويستحلي محادثتهما (5) . وكان أبو موسى منهما أعجب خلق الله فى حسن الالقاء والتقرير ، وكان أبو زيد أشد خلق الله خشية وأسرعهم دمعة ، لا ينقطع مجلس (6) من مجالس تدريسه الا ويقضي العجب من كثرة بكائه نفعه الله ونفع به .

وممن لازمه من أهل تلمسان ، وكان له مدة قد استوطن المغرب ، الفقيه الأستاذ التعاليمي المحقق المشارك أبو عبد الله محمد بن علي الآبلي ، شيخ المغرب فى العلوم العقلية وامام وقته . أخذ فى تلمسان قديما عن الامام أبي الحسن التنسي ، وأخذ عن الامام أبي موسى ابن الامام ، ورحل الى المشرق وتجول ووصل الى الحلة بمقربة من بغداد ، ثم رجع لسبب أوجب ذلك وعاد الى تلمسان فأقام بها مدة ، ثم خرج منها فارا ، لخوف أدركه من صاحبها أبي حمو موسى بن عثمان ، فلما وصل الى المغرب لازم أبا العباس ابن البناء التعاليمي ، ثم انفرد بالاقراء والتدريس نفع الله به خلائق ، ولما لازم مجلس مولانا المرحوم الامامان ابنا الامام ، كانا يجريان ذكره وعرفاه قدره . فوجه عنه فلازم الحضرة الى أن تخلف بتونس بعد سفر امامنا المرحوم عنها ، واتنفع به فى تونس وبلاد افريقية خلائق ، وحصلت له مشيخة على الجميع ، ثم قدم المغرب فى مدة المولى أبي عنان ، ولازم مجلسه

5 ـ محادثهما : فى «ر» .
6 ـ مجلسا : فى «إ» .

وقرأ عليه المولى المذكور وانتفع به بشر كثير ، وتوفي فى حدود ست وخمسين وسبعمائة ، ودفن ما بين المدينة البيضاء وفاس وحضر السلطان جنازته وتبعه ثناء حسن ، نفعه الله به وغفر لنا وله بمنه .

وممن لازمه من أهل تلمسان ، الفقيه الفاضل * المتخلق أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور التلمساني من أهلها الناشئين فيها ، أخذ عن شيخينا الفقيهين ابني الامام واختص بهما ، فلما رآه مولانا المرحوم استحسن طريقه ، وكان أفصح الناس لسانا وأحسنهم طريقة وأعذبهم عبارة ، فاستحسنه مولانا لذلك واستعمله فى الزكوات وسماع الشكيات ، ثم ولاه قضاء تلمسان ، ثم ولي قضاء الحضرة ، وترك أخاه نائبا عنه بتلمسان ، وارتحل مع مولانا الى افريقية . فلم يزل ملازما له متوليا خطة القضاء الى أن توفي بتونس فى الوباء ودفن بالزلاج منها ، وشهد مولانا المرحوم جنازته ، والملأ من الخاصة والعامة . وكان محبوبا لبني مرين أعزهم الله ولسائر / زناتة . فانه كان أفصح الناس لسانا بالعربية والزناتية يتصرف فى لسان زناتة بما لا يتصرف به (7) أكابرهم ، ويضرب الأمثال التي يستغربونها ويحفظ أشعارهم . وكان حسن الخلق ، وطيء الاكتاف ، لين الجانب ، قريبا ، متواضعا ، متخلقا ، رحمه الله . وكان مشاركا فى علوم ، وأعانه على ظهوره لسانه .

وممن لازم مجلسه فى مدد مختلفة ، الفقيه أبو العباس أحمد ابن الحسن بن سعيد المديوني من بني عبد العزيز من أحواز تلمسان، نشأ فى تلمسان واستفاد بالشيخين المذكورين . استعمله مولانا أمير المسلمين رضي الله عنهم فى الزكوات وسماع الشكيات ، ودام على ذلك الى أن ولي القضاء بتلمسان أيام المولى أبي عنان رحمه الله

7 — به : غير موجود فى «ر» .

واستمر على ولاية القضاء الى أن توفي منذ ثلاثة أعوام تقدمت تأليف هذا المجموع .

وممن لازمه مدة أيضا من أهلها الساكنين بها الفقيه أبو موسى عمران بن موسى المشذالي البجائي النشأة ، عالم مشارك ، مدرك متبحر . ولما عزم على استخلاصه والحاقه بعلماء حضرته أدركته الوفاة فى سنة خمس وأربعين أو نحوها .

وممن لازم مجلس مولانا المرحوم ولحق بعلماء حضرته ، وهو أحق بالتقديم لمكان سلفه وقدم * هجرته ، وانما قدمت التلمسانيين استطرادا ، الفقيه المشارك الاصيل (8) القاضي أبو عبد الله الفشتالي ، نخبة المغرب ونادرة فقهاء فاس علما وأدبا وسراوة وحسن مشاركة . استعمله فى سماع الشكيات وفى الزكوات وألزمه حضور مجالسه العلمية وكان به حفيا ، وقد قدمنا ما يدل على ذلك . ثم قدمه لقضاء مدينة طرابلس لرغبة أهلها فى أن يخصهم ببعض أهل حضرته ، ثم نفذ الى المغرب فتولى (9) قضاءها .

وممن لازم مجلسه الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ المكناسي ، فقيه نبيه ، مدرك ، حافظ ، مفوه ، مقدام ، عريض الدعوى . أقدمه مولانا المرحوم على حضرته بتلمسان فأقرأ بين أيديهم أياما وصحبه فى سفرنا الى افريقية ، وأقام فى جملة فقهاء الحضرة الى أن توفي شهيدا غريقا مع السطي رحمهما الله .

والفقيه أبو العباس أحمد ابن الحفيد السلوي ، لازم الحضرة مدة ثم انصرف ، وكان قاضيا بسلا ، ممن كانت له مشاركة وحذق ونبل معروف / وممن كان يتردد قديما فى شهور رمضان .

---

8 ــ الاصيل : كلمة مكررة فى «إ» .

9 ــ فولي فى «إ» .

ثم لزم الحضرة أخيرا الأستاذ العلامة المشارك أبو العباس الزواوي الشهير (10) ، الذي لم ير فى عصره أطيب منه نغمة ولا أحسن صوتا ولا أنداه ، كان آية من آيات الله عز وجل ، لم أر فى المشرق والمغرب نظيرا له ولا رأيت من رأى مثله . يسلب العقول ويذكر بالله ، لا تملك النفوس ولا الشؤون عند سماعه ، هذا مع اتقان الضبط واحكام الروايات وعلو السند . له تصانيف فى القراءات والعربية نظما ونثرا . مع حسن أخلاق ومباسطة يسترسل فيها حتى يخرج بها عن معهود صنفه ، ونادرة وخفة روح ، كثيرا ما كان يبسط امامنا رضي الله عنه وينهاه كثيرا عن الاسترسال فى هذا ، فيغلبه الطبع ، يضحك المرء ، وان كان ذا بث . أحفظ له نوادر غريبة لا مثل لها فى نوعها ، تحاميت ايراد مثلها * هنا ، وان كان أهل الأدب من الفقهاء وغيرهم لا يتحامونها . تقدم اماما فى غيبة الفقيه أبي عبد الله السطي . وكان القائم بالمزيد على التراويح المعهودة فى رمضان . يسرد القرآن مع الغاية فى اخراج الحروف من مخارجها ، وتوفية أدوات القراءة ، فلا يخفى على المستمع حرف مع الاحسان البليغ ، وما ختم القرآن فى ثلثي الليل وفى نصفه فى القصير مع التوفية التامة ، والله ، ما رأيت قبله ولا بعده فى قطر من الأقطار مثله . ولازم الحضرة وارتسم فى جملة الفقهاء الملازمين ، فسافر معنا الى افريقية ومات رحمه الله غريقا فى الجفن المتقدم الذكر شهيدا نفعه الله ونفع به . كان مولانا المرحوم وأولاده السعداء يجودون عليه ، وانتفع به خلق بتونس جودوا عليه وأجازهم . وكان وكان له مشايخ عدة منهم الامام أبو الحسن بن سليمان القرطبي وأبو مروان الشريشي وأبو جعفر بن الزبير وغيرهم من الأعلام رحمه الله ونفع به .

10 ــ الشهير : غير موجود فى «ر» .

وقد أطلت فى هذا الباب القول وأكثرت فيه ، وان كان غير الشرط ، الا أني قصدت بذكرهم الاعلام بعنايته بالعلم وأهله وايثاره رضي الله عنه لمن عني بحمله ، وليستدل بذلك على ما كان عليه رضي الله عنه بطول عمره من المحافظة على حقوق الله وحدوده والعنـاية بالشرع وسبيله ومعاشرة أهله ، والمرء على دين خليله ، على أنهم والله بهديه كانوا يعتمدون والى سيره / الجميلة يستندون فهو كـان الامـام بكل وجه واعتبار .

الباب الحادي والعشرون

فيما كان يؤثره رضي الله عنه من العلوم

كان أحب الأشياء اليه سماع الحديث يقـرأ بين يديه ، وكـان يستكثر من سماع جامع البخاري ، قرأته عليه مرات ، وهو الكتاب المتفق على صحته وفضله المجرب بتفريج الشدائد والأزمات عند قراءته . وفى هذا الباب من حيث الجملة فصلان . ❋

الفصـل الأول

فيما ورد فى الاشتغال فى الحديث على الجملة

وهذا باب أورد الناس فيه الكثير وصنفوا فيه المصنفات ، فـلا يطول بايراد ما ورد من ذلك . وشرف كل علم بشرف من أضيف اليه ، ولا أفضل من الاشتغال بحديث رسول لله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله والمعلم للخير والمشرع للأحكام والمنزل عليه الكتاب المبين عن الله . فلا شرف أفضل من هذا العلم ، ولكننا نذكر بعض الأخبار التي رويناها فى ذلك . حدثني شيخنا يحيى بن أبي الفتوح بن المصري ثنا أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن رواح (1) القرشي ثنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي ثنا أبو الحسن المبارك بن عبد الجبار الصيرفي ثنا أبو الحسن علي بن أحمد الفالي ثنا القاضي أبو عبد الله أحمد بن اسحاق ثنا القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمـن

1 ـ القرشي ابن رواح : فى «إ» .

الرامهرمزي ثنا أبو حصين محمد الحسن القاضي ثنا أحمد بن عيسى ثنا أبو ظاهر بن أبي فديك ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس ، قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول: «خرج علينا رسول الله عليه صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم ارحم خلفائي » . قلنا : «يارسول الله من هم خلفاؤك ؟ » قال : « الذين يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس » .

وبه الى الرامهرمزي ثنا عبد الله بن محمد بن زياد الشيباني ثنا عمرو بن مرزوق انا شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نصر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه غيره . فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب / حامل فقه الى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ومناصحة أولي الامر ولزوم الجماعة * ، فان دعوتهم تحيط من ورائهم » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه عهد فى حجة الوداع ، فقال : « عليكم بالقرآن وترجعون الى أقوام سيبلغون الحديث عني ، فمن عقل شيئا فليحدث به ، ومن قال علي ما لم أقل فليتبوأ بيتا أو مقعده من النار » . وروينا عن معاذ بن جبل ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حفظ على أمتي أربعين حديثا من أمر دينها ، بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما » . وفى رواية : « من حفظ على أمتي أربعين حديثا ، فيما ينفعهم فى أمر دينهم ، بعث يوم القيامة من العلماء » . وفضل العالم على العابد أربعين درجة ، والله أعلم ما بين كل درجتين ، ولأئمتنا فى هذا الحديث متكلم ، ولي فيه كلام فى مقدمة الأربعين الاحكامية ومقدمة أربعين منوعة الاسناد . وروينا بأسانيدنا الى أبي سعيد الخذري رضي الله عنه أنه كان اذا رأى طلاب الحديث ، قال : « مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرنا أن نحفظكم

الحديث ونوسع لكم فى المجالس » . وعنه : « وقيل له : « وما وصية رسول الله صلى عليه وسلم » ، قال : « قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيأتي من بعدي قوم يسألونكم الحديث عني ، فاذا جاؤوكم فالطفوا لهم وحدثوهم » . وعن عمران بن حصين رضي الله عنه ، قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » . قال يزيد بن هارون : « ان لم يكونوا أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم » . وروينا عن سفيان أنه كان يقول : « لا أعلم شيئا من الأعمال أفضل من طلب الحديث ، لمن حسنت نيته به » . أنشدنا أبو الحسن الواقي قال : أنشدنا بدر الدين البكري « أنشدنا الحافظ السلفي ، أنشدنا أبو محمد جعفر بن أحمد السراج اللغوي البغدادي لنفسه : (من كامل)

لله در عصابة يسعون فى طلب الفوائد
يدعون أصحاب الحديـ ـث بهم خلت تلك (2) المشاهد *
طورا تراهم بالصعيـ ـد وتارة فى ثغر آمد
هم يبتغون من العلـ ـم بكل أرض كل شارد
/ فهم النجوم المقتدى بهم الى سبل المقاصد

وأنشدنا شيخ الشيوخ علاء الدين القونوي (3) قال : « أنشدنا شهاب الدين الأبرقوهي ، قال : « أنشدنا أبو عبد الله بن ثابت اليزدي : (من البسيط)

ارع الحديث وعظم أهله أبدا واعلم بأن لهم فيه ولايات
ان كنت تطلبه قم فأت صاحبه فالعلم يا سيدي يؤتى ولا يأت

2 ـ تلك : غير موجود فى «إ» .
3 ـ الفزنوي : فى «ر» .

وأنشدني شيخنا الشريف الامام أبو علي حسن بن يوسف الحسيني (4) : أنشدنا الشريف أبو الحسن علي بن أحمد القرافي : أنشدنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن الدبيثي ، ولم يسم قائله : (من الكامل) .

علم الحديث فضيلة تحصيلها بالسعي والتطواف فى الأمصار
فاذا أردت حصولها باجازة فقد استعضت الصفر بالدينار

وبسندنا الى السلفي رضي الله عنه : (من الخفيف)

ان علم الحديث علم رجال وكذا الابتداع للاتباع
فاذا الليل جنهم كتبوه واذا أصبحوا غدوا للسماع

وأنشدني غير واحد من شيوخنا عن الشريف (5) الدمياطي : (من البسيط) .

علم الحديث له فضل ومنقبة نال العلاء به من كان معتنيا
ما حازه (6) كامل الا ونقصه أو حازه عاطل الا به حليا

وبسندنا الى ابن الحسن الشيرازي : (من الطويل)

عليك بأصحاب الحديث فانهم على منهج للدين ما زال معلما
وما النور الا فى الحديث وأهله اذا ما دجى الليل البهيم وأظلما
وأعلى المزايا من الى السنن اعتزى وأغوى البرايا من الى البدع انتما
ومن ترك الآثار ضلل سعيه وهل ترك الآثار من كان مسلما

4 ــ الحسنى : فى «ر» .
5 ــ الشرف : فى «إ» .
6 ــ جازه : فى «إ» .

وهذا باب متسع ، وقد أودعت الكثير منه فى غير هذا وبالله التوفيق .

✽ / ومن أحسن ما رويته عن أبي الحسن بن مفضل فى هذا النمط : (من الطويل)

أيا نفس بالمأثور عن خير مرسل   وأصحابه والتابعين تمسك
عساك اذا بالغت فى نشر دينه   بما طاب من عرف أن تمسك
وخافي غدا يوم الحساب جهنما   اذا لعجت نيرانها أن تمسك

الفصل الثاني

أكثر ما كنا نقرأ بين يديه ، كتاب الجامع الصحيح للامام أبي عبد الله ابن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري ، وهو الكتاب الذي لا نظير له أحد كتب الاسلام المعتمدة ، وهو أصحها صحيحا وأكثرها فوائد ، وأعظمها نفعا ، وأشهرها بركة ، وقد صح وثبت استفاضة وتجربة ، اذا قرىء لشدة رجاء تفريجها يفرجها الله عز وجل ، عرف ذلك فى المشارق والمغارب وفى ذلك يقول أبو الحسن علي بن المظفر بن ابراهيم الكبيري : (من المتقارب)

صحيح البخاري واظب على   تحفظه واروه فى المشاهد
فذاك المجرب درياقه   لدفع سموم أفاعي الشدائد

ولأبي أمية اسماعيل بن عفير فى الثناء عليه : (من البسيط)

يا طالب الجمع بين الفقه والأثر   لقد طمحت الى مرقى ذوي الأثر
ان شئت دون صريح أنت ماخضه   ففي البخاري تلفي زبدة الخبر
بحر العلوم ولكن من صحائفه   أصدافه والمهاني فيه كالدرر
سهل المآخذ لا يحتاج ناظره   فيما أفاد الى استمداد ذي نظر

شأو التآليف اذ أربى مداه على ما طولت فى وجيز اللفظ مختصـر
من يحوه ويصف شـتى فـوائده يأمن على العلم من عي ومن حصر
فى أول الباب منـه شـرح آخره واصرف نهـاك اليه صرف مختبر
فلست تحـرز كرعا فى مـوارده الا رويت ولـم تشتق الى الصدر
يا حبذاه نجيـا ان خـلوت بـه ناجيت بالفكـر منـه سيد البشر
/لم يضطرب فيه اسناد ولا انحرفت منه عبـارة تأويـل لمعتبـر *
جزى الالاه ابن اسماعيل جامعـه جـزاء ماض عـلى الآثار مقتصر

وقد أودعت جملا من أخبار البخاري وفضله وفضل كتابه فى مقدمة علقتها أول الكتاب الذي حررت فيه أسانيده . وروينا عن البصيري أنه قال : « قال لي محمد بن اسماعيل البخاري : « ما وضعت فى كتاب الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل وصليت ركعتين » . وروي أنه دون تراجمه بين قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنبره ، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين . وحكى ابن الصلاح وغيره عن الحافظ أبي نصر الوائلي السجزي أنه قال : « أجمع أهل العلم الفقهاء وغيرهم أن رجلا لو حلف بالطلاق أن جميع ما فى كتاب (1) البخاري ممـا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قد صح عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله ، لا شك فيه ، لا يحنث والمرأة بحالها فى عصمته .

ومناقب البخاري وفضل كتابه مشتهرة جدا . قرأت هذا الكتاب بين يديه رضي الله عنه غير مرة لهذا الغرض نفعه الله ونفع به . وقرأت عليه مسند مسلم بن الحجاج رضي الله عنه وهو أيضا من الكتب الستة المعتبرة . روينا عن أبي عمرو البصري الحافظ ، أنه قال : « كتاب البخاري ومسلم أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز » . وقد اختلف الناس فى المفاضلة بين الكتابين ، فرجح كثير من العلماء المغاربة كتاب

1 ــ كتاب : غير موجود فى «ر» .

مسلم لعروه عن التعليق والآثار ، ومنهم من فضل البخاري وعلى هذا الأكثرون .

وقرأت بين يديه غير مرة كتاب الشفاء ، وفضله معروف وثناء الجلة عليه مشهور وهو معروف البركة ، وقد كتبت مقدمة فى شرحي له المسمى ببرح الخفاء فى شرح الشفاء ، ضممتها من نبأ الاعلام على هذا الكتاب من المتقدمين والمعاصرين ما جاء على أحسن ما يصنف فى مثل ذلك نفعه الله به ، وان فسح الله فى الأجل ويسر تمام هذا العمل ، أهديته لمقامهم ، وأوردته بفضل الله على بابهم . وقرأت بين أيديهم السيرة لابن اسحاق تهذيب ابن هشام ، وهو الكتاب العظيم القدر ، الشريف المنتمى ، وقد اشتمل هذا الكتاب على عدة * فوائد منها تفسير الكتاب العزيز ، وذكر المعاني التي أنزل فيها وأخبار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، من لدن ولادته ونشئه الى وفاته ، صلى الله عليه وسلم ، ومأربه وكثير من اللغة والنسب والشعر وغير ذلك . وقرأت بين يديهم نفعهم الله كتاب الاكتفاء للامام أبي الربيع سليمان بن سالم الكلاعي ، وختمته ثلاثا . وقرأت بين يديهم كتاب الحلية للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ، وكتاب المدهش لابن الجوزي مرات ، وكثيرا من تأليف ابن الجوزي وجملة وافرة من تفسير الثعلبي وتفسير القرطبي ، الى غير ذلك مما قرأته فى مدة ملازمتي له من كتب الوعظ والحديث أو دول القراءة من الموطأ والتهذيب وابن الحاجب ، ومن كتب التاريخ والكتب المرفوعة له كتأليف أبي عبد الله العزفي فى ذم الخمر ، وسيأتي ذكره بعد ان شاء الله تعالى ، والقصائد المرفوعة له المولديات وغيرها نفعه الله بذلك . وقرأت بين يديهم رضي الله عنهم الأربعين التي خرجتها من مروياته ، رضي الله عنه عن مشايخه ، الذين كتبوا له بالاجازة من المشرق ، وهي فى جملة الكتب المحبسة

بجامع القرويين ، وهي بخط المولى أبي عنان رحمه الله . وقد اعترف لي فقهاء وقتنا فيها بالاجادة ، والحمد لله ، وهذه من أجل الموات وأعظم الوسائل المرجوة للقبول عند خليفتهم ، رضي الله عنه .

الباب الثانى والعشرون

فى ايثاره لمن ظهرت عليه دلائل المحافظة على النظافة وملازمته الطاعة
(وفيــه فصــلان)

الفصــل الأول

فيما يدل على مراعانــه ذلــك

لاشك أن للمحافظة على السنن المأثورة والآداب الشرعية دليل على سلوك السبيل السوية والمسارعة الى امتثال الأوامر المحترمة .

روينا عن أبي نجيح رضي الله عنه ، وهو العرباض بن سارية رضي الله عنه ، قال : « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . فقلنا : « يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع ، فأوصنا » . قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد . وانه من يعش منكم فسيرى * اختلافا كبيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا / عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل بدعة انحراف » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة ، فقال : « أيها الناس ، انكم تحشرون الى الله حفاة ، عراة ، عزلا ، كما بدأنا أول خلق ـ نعيده ، وعدا علينا ، انا كنا فاعلين ـ ألا ان أول الخلائق يكسى ، يوم القيامة ، ابراهيم صلى الله عليه وسلم، ألا انه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب ، أصحابي ، فيقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : كنت عليهم شهيدا ، ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم . فيقال لي : انهم لم يزالوا

مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » . وروينا في الصحيح : « أن قريبا لعبد الله بن مغفل خذف فنهاه وقال له : « رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ، وقال : « انها لا تصيد صيدا » ، ثم عاد فقال : « أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ، ثم عدت تخذف ، لا أكلمك أبدا .

وأحاديث خصال الفطرة وطلب النظافة مشهورة . فهذه الأحاديث تدل على طلب النظافة ومشروعيتها وانها أدل دليل على سلامة الطوية .

الفصل الثاني

فيما كان امامنا يسلكه من الاستدلال بهذا

كان رضي الله عنه يندب للنظافة وسلوك سبيلها ويستدل بها على متابعة السنة . سمعت منه ، غير مرة : « نظافة ، والله ، الظاهر تدل على نظافة الباطن ، فانها تشهد بمتابعة السنة » . وكان ، اذا دخل عليه الفقيه المفتي الصالح ، أبو محمد عبد المؤمن الجاناتي، أحد فقهاء مدينة فاس وأعلامها والمشتهرين بالزهادة ، وهو على ما كان عليه من ايثار لبس المرقعة والثياب التي تبلغ الغاية في الاخشوشان ، يدنيه ويلصقه الى جانبه ويقول : « أتأمل في كل وقت أطراف هذا الرجل ومحافظته على * خصال الفطرة ، واستعماله النظافة ، فاستدل بذلك لغيره على صلاحه » ، وكأن ما عليه من الخلقان حلة خز ، ويشير بغير ذلك لغيره ممن لا يدنيه ولا يقربه ، واذا دخل عليه المنتمي للتصوف أو للعلم نظر الى هذه الأحوال منه ، فان رآه على ما وصفته ، مال اليه وأقبل عليه والا نفر عليه ، هذا كان دأبه غير مرة وبه يصرح فيما غير موطن حتى كنا نتفقد / أنفسنا ، فعلمنا رضي الله عنه ما يثني به علينا ، وأهدى السير الحسنة والفوائد الجمة الينا نفعه الله ونفع به وأعاد عليه بركة ما علم وعمل .

الباب الثالث والعشرون

في محوه رضي الله عنه للمناكر والمكوس والبدع وقيامه بذلك رضي الله عنـه (وفيـه فصـول)

الفصـل الأول

فيما يدل على فضيلة هذا العمل وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

روينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا ، فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان » (رواه مسلم) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » . وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عـن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أدركوا أهلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » . وروينا في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها * وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهـم شيء ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل

بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم (1) شيء » . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس من نفس تقتل ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » . وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : / قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (متفق عليه). وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبته : « كتاب الله وخير الهدى هدى محمد بن عبد الله وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » ، ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فالي وعلي . » (رواه مسلم) .

الفصل الثاني

كان امامنا رضي الله عنه أشد الائمة مسارعة لحسنة يندبها ولسيئة يمحو أثرها ، فقامت السنن في مدته على ساق ، وذهبت (2) آثار البدع ولم يبق لها انتظام ولا اتساق ، فلنذكر في هذا الفصل ما محاه من المناكر ورفعه من المكوس من البوادي والحواضر ، أما ما أحفظ له مما رفعه بمدينة فاس المحروسة فأولها ما كان يرفع من فوائد المروس ، كان يؤخذ عن ذلك مال جسيم يصرف في مرتبات النصارى الملازمين للخدمة ، وهو مال طائل ينتهي عدد النصارى الى ثلاثة آلاف فارس وان قلوا فالى ألفين ، ورواتبهم كبيرة من الخمسين دينارا من الذهب الى خمسة دنانير ذهبا في كل شهر غالبا ، فينفذ ذلك كله مما ذكرناه ، فرفعه رضي الله عنه ومحا أثره ولم يبح لهم من الخمر الا ما يسوغ لهم ، ومن ظهر عليه أنه باعه لمسلم أو استظهر به ، بولغ في عقوبته وجعل عبرة للمعتبر ، وعوض لهم مرتباتهم من بيت ماله لانتفاع المسلمين بهم ، فأنت ترى مقدار هذا المال الذي ترك لوجه الله ❋ ومما رفع عنهم الخرص في الجنات ، وكان

1 ـ أوزاهم : في «إ» .
2 ـ ذهب : في «ر» .

عظيم المضرة ، يوظف على الناس وظائف فى جناتهم ربما تعجز الجنات عن التوفية فأدى ذلك الى أن قطع كثير من الناس جنته ليسقط عنه وظيف الخرص هكذا غير واحد من الفاسيين وهو كالجزاء بافريقية .

ومن جملة ما رفع عنهم وظائف استغراق السلع اذا ظهر الولاة على أن التجار تحملوا فى سرقتها المخزن فكانوا يجعلون عقوبة ذلك أخذ السلعة كلها أو تغريم خمسة مخازن ، وهو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات فكان الولاة يجمعون فى ذلك أموالا جمة ، يلتزمون بسببها ما يلتزمونه ، فأسقط ذلك رضي الله عنه / وكتب الله له أجر محو هذه السيئة . ومما رفعه ، وكان شائعا شنيعا ، اكتراء الولاة للبلاد فانهم كانوا يلتزمون مجابي البلاد التزاما (3) ، وكان سبب هذا تمالئهم على الخيانة فى ولايتهم على سبيل الأمانة فاذا تولوها التزاما امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم . فاذا زجروا ، اعتلوا بالالتزام . فأسقط رضي الله عنهم هذا اللقب ولم يبق له أثر فى المغرب . فصار يوليهم اياها أمانة وترك فى ذلك أموالا طائلة ابتغاء وجه الله فرأى أثر ذلك دنيا وأخرى . ما زلت أسمع صاحب أشغالهم الفقيه أبا الحسن القبائلي فى كثير من الأوقات ، يعارض ما يجبى فى بلد أمانة مع جباءتها التزاما فيقول : « تقارب الخرجان أو زاد أحدهما زيادة ما » . فارتفع فى هذا اللقب من المظالم ما يكتب الله لهم أجره ويجزل لهم ذخره ، وهذا مما عم به سائر البلاد ، ومما رفعه مما عظم به المصاب النزول المعهود فى بلاد الأندلس وغيرها من العدوتين ، ومما رفعه رضي الله عنه ، وهو مال جسيم ، له قدر عظيم ، المغرم الذي تعوده أهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة ، فانهم كانوا يغرمون مغرما يسمونه الجمون فى النخل والزرع ، يجتمع فيه كل سنة أحمال من الذهب مغرما ألفوه ، وفى بلاد النخل والزرع عرفوه . فرفعه بجملته ورده الى الخرص الشرعي وسبيله السوي . * فحييت بذلك نفوسهم وذهبت

3 ــ التزاما : غير موجود فى «ر» .

بذهاب هذا اللقب قلوبهم واقتصروا بعد هذا الأمر النكر على الزكاة والعشر ، وفاز فى ذلك بعظيم الأجر وجزيل الذخر وجميل الشكر . وقلد هذه الأعمال للعدول والقضاة والأمناء والثقات .

ومن عظيم الضرر الذي رفعه والنكر الذي محا أثره ، وعن المتضررين به وضعه فى جميع بلاده القانون ، وهي البلاد التي ترجع لجباية معلومة ، كانوا يوظفون فيها المغارم على الرؤوس فيجعلون على كل شخص ، صغيرا أو كبيرا قويا أو ضعيفا حتى الرضيع ، مغرما يخصه ، وكانت مظلمة لا نظير لها فى المظالم المحدثات ، وصارت أخت الجزيات المضروبة على أهل الذمة بل أشد ، فأسقط ذلك ، وكان يجتمع فيه لا يحصى قدره (3) ففاز رضي الله عنه بثواب لا يحصى قدره ، ورد المغارم على الأموال والأملاك بحسب الجدة والقدرة (نفعه الله بذلك) . والانزال فى دور / المعتبرين بعدوة الأندلس وهو ضرر عظيم والفطرة التي كانت تؤخذ فى رمضان وغير ذلك من الألقاب ، ومما رفعه رضي الله عنه عن أهل البوادي جملة ألقاب (4) لا تحصى كثرة كالخرص والبرنس والضيافة والانزال والقاعة والخطيئة ، وهذه كلها ألقاب يعرفها أهل المغرب ، يجتمع فيها الأموال ذوات العدد وغيرها مما لا أذكره . وهذه حوادث أحدثها الولاة قديما وهلك الخلائق بسببها ، فلم يبق لها فى المغرب أثرا .

وهذا الذي ذكرته أمثلة جرت على ذكري ، والا فمن عرف عوائد بلاد المغرب عرف ما أشرت اليه وأذكره فى (5) هذا القدر الذي ذكرته ما أغفلته ونسيته . فسن هذه السنن وعمل بها بنوه (نفعهم الله وأدام ملكهم بمن (6) الله وفضله) .

---

3 ــ لا ترد الجملة التالية فى «ر» .

4 ــ القابا : فى «إ» .

5 ــ فى : غير موجود فى «ر» .

6 ــ بمنه : فى «ر» .

ولما استولى على تلمسان وأحوازها ، أسقط عنهم رضي الله عنه الربع من سائر المغارم وشتى المجابي والملازم ، وأسقط ألقابا كانت منكرة جملة فلم يبق لها أثرا منها ما كانت تعم به البلوى من (7) المطالبات فى الأبواب من التفتيش الذي لا يحترم فيه من الناس أحد ، فيتولى المسلم نصراني ويهودي وخارجي ويحيطون به فيفتشونه من رأسه * الى قدمه ظاهرا وباطنا لما عسى أن يدخل به (8) من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم ، وحتى النساء يوكل بهن يهوديات يفتشنهن ويدخلن يديهن الى لحومهن ، وفى هذا من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى . وكان هذا العمل فى تلمسان وأعمالها ، ولم يك فيما علمت فى قطر من الأقطـــار الا ما رأيته أو قريبا منه بالاسكندرية (حاطها الله وطهرها من هذا العمل وضاعف أجر من يمحو أثره) . ورفع فيها من المغارم ما كان شائعا خسيسا، ويجتمع فيه أموال كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر اليها القوي والضعيف ، واجحاف الضعيف بها أشد وغ يرذلك من المغارم ورفع فيها أيضا تضعيف المخازن فى الاختفاء ، ولم يبق لذمي ولاية على مسلم فى المجابي ، وكانت المصيبة بذلك داهية ، ومما رفع رضي الله عنه وظيفة مغرم الماء وكان سقي الجنات يضطر فيه الى مغرم للبراءة ، ولصاحب الحوز والحراس ، ويجري فيـــه مـــن المصائب / والخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر . ومما رفع رضي الله عنه ما أجريت عليه ألقاب باطلة ، ووظفت فيه مغارم مهلكة كالحبل والمطوى واللقب الذي يسمى باللسان البربري « ايبزغدن » (9) وهو عبارة عمن خرج عن وطنه لفقره وحاجته ، ولم يترك مستغلا يطلب حيث كان (10) من البلاد وان كان قد فارق وطنه السنين الطائلة ، وربما ينتهي العمل الى طلب ذريته ، فيؤخذ منه ما يوظف على كل واحد ممن هو فى ذلك الوطن

7 ـــ مثل : فى «ر» .
8 ـــ بها فى : «إ» .
9 ـــ ايبزعدن : فى الاصل .
10 ـــ كان : غير موجود فى «ر» .

يستغل ما له ، وهي أحدوثة عظيمة في الاسلام ، وقعت فيها من الهموم والشناعات ما لا يحصى ، وحتى أن الشخص يغرم مع أهل الموضع الذي رحل عنه والموضع الذي رحل اليه (10) . وأما الحبل والمطوي فهمـا لقبان معروفان عندهم ، وأسقط عن أحواز تلمسان وما اشتمل عليـه المغرب الأوسط من الحوادث والظلامات ، ما يضاعف به الله الحسنات ويرفع له الدرجات . ولما استولى * على وطن افريقية وبلاد الجريد ، هد فيها المروس ، ورفع المكوس وأسقط المغارم المحدثة والمظالم المبتدعة ، بادية وحاضرة ، وأسقط ربع المجابي ورفع القطيع في بلاد الجريد ، فجرى في ميزانه حتى الآن (والمنة لله) . ولم يستطع أحد نقض عمله في ذلك . ومما كان يشتد فيه رضي الله عنه الاستظهار بالمناكر ، على الجملة ، والأمور التي يتوصل بها الى أكل أموال الناس بالباطل . فكانت طائفة تدعى الغرباء ، وهم العيون والجواسيس وخدام الطرق ، يستعملـون أشياء جرت بها عوائدهم واختلفت فيها طرقهم ، فينتحلونها قصدا لأكل أموال الناس بالباطل . ثم لحق بهم فيها غيرهم ، فيقامرون ويسخرون بالناس ، في جزع لا يساوي دانقا يحلونها بفضة أو ذهب ويدعون فيها منافع ، يخدعون ضعفاء العقول بها . ويوظف عليهم بسبب ذلك وظائف وتؤخذ منهم عنه أموال . فرفع كله واشتد في عقوبة فاعليـه بأنـواع العقوبات . فانمحى * في أيامه أثره وانطوى ببركة ايالته خبره . ولهم في ذلك نوادر ظريفة وأخبار عجيبة ، وعلى الجملة ، فهذه آثار يحملها من يرويها ولا يعرف قدرها الا من يدريها ، وغاية ذلك أنه أسقط في ذلك أموالا جمة ورفع برفعها مظالم عدة ، فكم أدت المطالب بها الـى افتقـار / وكم هتكت فيها من حرمة أموال وأعراض وأبشار (جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير جزائه ووضع البركة فيمن خلفه من الخلفاء أبنائه ، ولا أبعد عن منـازله من بقي من أوليـائه وخواص خلصائه وأحبائه بمن الله وفضلـه .

10 ــ منه : في «إ» .

الفصل الثالث

فى مبادرته الى محو آثار البدع وكراهيته لها رضي الله عنه

وهذا الفصل بل الباب كله لا يدخل لعمري تحت الحصر ، بيد أنه يستدل بالقل منه على الكثر . جرت عادة الوافدين على الملوك بالمغرب والداخلين عليهم من أوساط وصنف الخدام ، يقبلون الارض أو ينحنون كهيئة الساجد فرفع ذلك كله (رفع الله درجاته) واقتصر فى ذلك على تقبيل اليد والقدم والبساط العلية والمتوسطة والدون ، ومن وقع ذلك منه زجره أعظم زجر . ومما كان يستعمل تحية الملوك فى المغرب ما كان العرب يحيي به بعضهم * بعضا : « أنعم الله صباحك ، أنعم الله مساءك » . فجرى يوما بحضرة شيخينا ابني الامام رحمهما الله ، ذكر هذه التحية وأنها جاهلية وأن التحية الشرعية : «السلام». فمحا أثر هذه التحية وعوضها بالسلام الشرعي لكل الناس جموعا وآحادا . ومن غريب ما اتفق أن بعض فقهائنا رحمه الله دخل عليه يوما فقال له : « سلام عليكم صبحكم الله بالعافية . » فقال له : « ولعل هذا يدخل فى النمط الذي نهينا عنه » . فقال له : « انما هو دعاء وصلته بالسلام » . فقال له : « ادع لي بغير هذا مما هو أنفع ومما يتضمن معناه » . وهذا غاية الاحتياط والورع رضي الله عنه .

ومن شدة نفرته لما من البدع وحذره من الوقوع فى المنهي عنه حكاية وقعت وذلك أنه لما بنى المسجد الجامع بالعباد العلوي حذاء ضريح سيدي أبي مدين رضي الله عنه وتأنق فى بنائه وبالغ فى تشييده والاحسان فيه على يدي عمي وصنو أبي رحمه الله ، وكان لي فيه نظر ، كنت أتفقد الصناع فيه فوجدت يوما الدهان قد فرغ من عمل الأشكال التي فى السقف رقما واحسانا ، استأذنني فى رقم أشكال الجبس (1) الكائن بداخل الجدرات ، وأن يكون جدار القبلة وما حاذى * المحراب منه

1 ــ الجبص : فى «ر» .

بورقة الذهب والفضة ، فاستحسنت ذلك وأردت أن يعمل على مثال المسجد الكائن بمنشر الجلد والجامع الذي برحبة / القصر وكلاهما بتلسمان ، فشرع فى ذلك وعمل منه الصدر الذي على المحراب . وكان رضي الله عنه مسافرا ، فلما وصل ابتدأ قبل دخوله بزيارة الضريح والصلاة فى الجامع ، ودخل معه الشيخان الفقيهان ابنا الامام ، فلما نظر الى الرقم والزواق استحسنه فقال الفقيه أبو زيد منهما : « هذا بدعة » فقال له : « أو بدعة هذا ؟ » قال : « نعم »، قال : « ولا تجدون فى الشرع مسوغا ؟ » . فقالا معا : « لا » . فابتدرت وقلت (2) : « بل لنا فيه مندوحة » . فأنكرا علي انكارا شديدا فاستدللت لهم بفعل عثمان رضي الله عنه ، وبنائه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالحجارة المنجورة والفضة ، وبفعل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين كان عاملا على المدينة وبنائه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالفسيفساء ، وهي ألوان خرز توضع فى الجدار وتموه بالذهب . فقالا : « لم تكن من فعله وانما كان عاملا لغيره » : قلت لهما : « كان هذا بمحضر من التابعين وأئمة الاسلام ، وما سمعنا أن أحدا أنكره » . قالا : « فى البخاري عن ابن عباس: « يحمرونها ويصفرونها ثم لا يعمرونها الا قليلا »، وهذا ذم الرقم للمساجد » . ※ قلت لهما : « هذا ثبت فى البخاري معلقا وحكم المعلق معروف ، وفى الاحتجاج به ما فى علمكما ، ثم ان الذم انما توجه نحو اهمالها وعدم الصلاة فيها مع اظهار العناية بها ، فهذا موجب الذم أو الأمران معا ولا يلزم من ذمهم على مجموع فعل الأمرين الذم على فعل أحدهما » . وطال فى ذلك البحث الى أن سلمت لأنهما رضي الله عنهما اعتلا باشغال المصلين ، فلم أجد عنه مندوحة فدعا رضي الله عنه برمح وخط خطا وقال: « يزال ما دون هذا الخط (الذي هو مظنة اشغال المصلين) ويكف عن رقم الباقي من الجامع فما لنا بالبدع حاجة » . فرضي الله عنه

2 ــ فقلت : فى «ر» .

ومن هذا النمط ما جرى ذكره فى اطالة الكم ، وقد أشار به بعض من حضر من أصحابنا وكأنه استحسن ما اعتاده فى ذلك أهل المشرق فقال : « نحن نريد أن ننقص البدع وما هو منهي عنه فى الشرع » . فكيف نزيد وهذه اشارات يدل آحادها على كثرتها وترشد الى سيرته فيها رضي الله عنه .

الباب الرابع والعشرون

في طهارة مجلسه رضي الله عنه / من الأخذ في الاعراض والتعرض للحرم والغيبة جملة (وفيه فصول)

الفصـــل الأول

في الأدلة الدالة على تحريم الغيبة وذمها

* والأدلة الدالة على تحريمها ، من الكتاب والسنة ، متظاهـــرة ، وايراد معظمها يخرج عن الغرض . فلنورد بعض ما يدل على ذلك . قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا » ، (الآية) . وقال تعالى : « مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » . وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت » . وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : « قلت : « يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ » قال: « من سلم المسلمون من لسانه ويده » . (متفق عليه) . وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يضمن لـــي مـــا بـــين لحييـــه ومـــا بـــين رجليـــه ، أضمـــن لـــه الجنـــة » (متفـــق عليـــه) . وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : « يا رسول الله ، حدثني بأمر أعتصم به ». قال : « قل: ربي الله ، ثم استقم »، قلت : « يا رسول الله ، ما أخوف ما تخاف علي ؟ . فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا » (رواه الترمذي وقال : حديث حسن وصحيح) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكرروا الكلام بغير ذكر الله ، فان كثرة الكلام ، بغير ذكر الله ، قسوة للقلب وان أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي (رواه الترمذي) . * وعن أبي سعيد رضي

الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا أصبح ابن آدم فان الاعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول : « اتق الله فينا فانما نحن بك ، فان (1) استقمت استقمنا ، وان اعوججت اعوججنا » . (رواه الترمذي . قلت : « وذكر البغوي رحمه الله هذا الحديث فى شرح السنة فقال فيه : فان الاعضاء كلها تكفر للسان بالامين فى اللسان، قال : ومعناه تذل وتخضع فعلى هذا يظهر معنى الحديث) . وعن معاذ رضي الله عنه قال : قلت : « يا رسول الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ » قال : « لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة / كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل من (2) جوف الليل » . ثم تلا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ : « يعملون » . ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ، الجهاد » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : « بلى ، يا رسول الله » . فأخذ بلسانه فقال : « كف عليك هذا » ، قلت : « يا رسول الله ، وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ » فقال : « ثكلتك أمك ، وهل يكب * الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم ؟ » (رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح) . وعن أبي بكر رضي الله عنه (3) : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يوم النحر فى حجة الوداع : « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » . ثم قال : « ألا هل بلغت » . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : « حسبك من صفية كذا وكذا » (قال بعض الرواة : تعني قصيرة) . فقال لها : « لقد تكلمت بكلمة لو مزجت بالبحر لمزجته ». قالت : « وحكيت له انسانا » فقالت : « ما أحب

---

1 ــ فاذا : فى «ر» .
2 ــ فى : فى «ر» .
3 ــ رضي الله عنه : غير موجود فى «ر» .

أني حكيت انسانا وأن لي كذا وكذا » . وعن أنس رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظافر من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : « من هؤلاء يا جبريل ؟ » قال : هؤلاء الذين (4) يأكلون لحوم الناس ويبغون في أعراضهم » (رواه أبو داود) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « اذا قلت في أخيك ما فيه مما يكره فقد اغتبته ، وان قلت فيه ما ليس فيه فذلك البهتان » (ورويناه من طرق بألفاظ مختلفة) .

* الفصل الثاني
في ذكر بعض الآثار الواردة في ذلك والأشعار

قال رجل لابن سيرين : « اني وقعت فيك فاجعلني في حل » . فقال : « ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك » . وقال رجل للحسن بن أبي الحسن البصري : « اني اغتبت فلانا وأنا أريد أن أستحله » فقال له : « لم يكفك (1) ان اغتبته حتى تريد أن تبهته » . وقال حذيفة : « كفارة من اغتبته أن تستغفر له » . وقال عدي بن حاتم : « الغيبة مرعى اللئام » . وقال أبو العالية : « الصائم في عبادة ما لم يغتب » / ولهذا ذهب بعض السلف الى أن المغتاب مفطر ، وأما التحلل منه فلا يكفي فيه عند الجمهور الا أن يذكر له ما اغتابه به مفصلا ولا يكفي في ذلك الاجمال . وقال أبو حازم : « أربح التجارة ذكر الله ، وأخسر التجارة ذكر الناس » . وقال الفضيل بن عياض : « ذكر الله دواء وذكر الناس داء » . وقال رجل لعمرو بن عبيد : « اني أرحمك مما أسمع

4 ــ الذين : غير موجود في «إ» .
1 ــ يكفيك : في «إ» .

الناس يقولون فيك » . فقال له : « وما تسمعني أنا أقول فيهم » . قال : « ما سمعتك تذكر الا خيرا » . قال : « فاياهم فارحم » . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه : « قال لي أبي : « يا بني ، اني أرى أمير المؤمنين يدنيك ويقربك ، فاحفظ عني ثلاثا : اياك أن يجرب عليك كذبة، واياك أن تغتاب أحدا، واياك أن تفشي له سرا » . فقال ❋ له رجل : « يا أبا عباس ، كل واحدة خير من ألف . » فقال : « بل كل واحدة خير من عشرة آلاف . »

قال الشاعر : (من الرمل)

احذر الغيبة فهي الـ فسق لا رخصة فيه
انما المغتاب كالآ كل لحم لأخيه

ولآخر : (من السريع)

وكل غياب له منظر مشتمل الثوب على عيب

ولآخر (من الوافر)

وأخزى من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال أخو العيوب

ولمحمود الوراق : (من المتقارب)

تحر من الطرق أوساطها وعد عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق (2) به
فانك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

وهذه الخصلة المذمومة قد عمت البلوى بها وعظمت السيئات بسببها ، فلا مصيبة أعظم من عدوى اللسان ولا أمر من الرمي بالباطل والبهتان .

2 ـ القول : في «ا» ، ولكنه مصحح على الهامش .

ولو أوردت من آفات اللسان ما حضر ، لخرجت عن القصد فى هـذا المختصر .

الفصـل الثـالث

فيما اختص به مجلس مولانا المرحوم من الطهارة من هذه الرذيلة وما حازه من الطهارة والفضيلـة

قد قدمنا ، فيما أسلفناه من أعماله اليومية والليلية ، ما استغرقت فيه أزمانه وعرف سبيله وشأنه . أجرى يوما الحاج أبو الحسن عـلي * ابن الفقيه الصالح أبي زيد الناميسي / ذكر فقيـه مـن القضـاة ، فتعرض فى ذكره لقدح ، فابتدره رضي الله عنه بالنهي والاغلاظ فى القول وقال له : « مجالسنا مطهرة من هذا » ووبخه وكان عنده مكرما . ومهما جرى عنده ذكر أحد بما يقدح أو بما (3) يشعر بقدح ، يجيب مـن يصدر هذا منه بما نصه : « لا يا رجل (4) ، بالله لا تفعل » . ثم لا يكرر ذكر هذا بوجه ، الا أن كان مما يترتب عليه حق شرعي . وايراد الجزئيات فى هذا تطيل المجال .

3 ــ بما : غير موجود فى «ر» .
4 ــ راجل : فى «إ» .

الباب الخامس والعشرون

فى نبذه رضي الله عنه أبواب السعاية والنميمة (وفيه فصول)

الفصـــل الأول

فيما جاء فى قبح ذلك من الأدلة الدالة عليه كتابا وسنة

قال تعالى : « هماز مشاء بنميم » . وقال تعالى : « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » . وروينا فى الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة نمام » (متفق عليه) . وعن ابن عباس رضي الله عنه : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : « انهما ليعذبان ، وما يعذبان فى كبير ، بلى انه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكـــان لا يستتر من بوله » ، (متفق عليه . ومعنى قوله عليه السلام فى كبير أي فى ظنهما أو فى تركه عليهما) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا * أنبئكم ما العضه من النميمة القالة بين الناس » (رواه مسلم) ، (العضه بفتـــح العـــين المهملة واسكان الضاد المعجمة على وزن الوجه . وروي العضه بكسر العين وفتح الضاد على وزن العدة وهو الكذب والبهتان . والعضـــه مصدر على الرواية الأولى) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا ، فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر » . (رواه أبو داود والترمذي) . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشراركم ، أيها الناس ، المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون لأهل البراء العثرات » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « من كـــان يؤمن بالله

واليوم الآخر فلا يرفع الينا عورة مسلم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة فتان » . وعنه صلى الله عليه وسلم « اياك ومهلك الثلاثة ـ قال ـ رجل سعى بأخيه المسلم الى سلطانه فقبله ، فأهلك نفسه وأخاه / وسلطانه » .

الفصل الثاني
فى الآثار الواردة فى السعاية والنميمة والأشعار

قال كعب : « أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى ، عليه السلام ، فخرج موسى ، عليه السلام ، يستسقي ببني اسرائيل * فلم يسقوا ، ثم خرجوا فلم يسقوا ، ثم خرجوا الثالثة فلم يسقوا . فأوحى الله اليه : « اني لا أستجيب لك ولا لمن معك ، فان معكم نماما » . قال موسى ، عليه السلام : « يا رب ، ومن هو حتى نخرجه من بيننا » . فأوحى الله اليه : « يا موسى ، أنهاكم عن النميمة وأكون نماما » . فتابوا فأرسل الله عليهم الغيث » .

وذكر السعاة عند المأمون فقال : « لو لم يكن من عيبهم الا أنهم أصدق ما يكونون ، أبغض ما يكونون عند الله . » وروي أن رجلا سعى بجار له عند الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد : « أما أنت فتخبرنا بأنك جار سوء ، فان شئت ، أرسلنا معك ، فان كنت صادقا أبغضناك وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت تركناك » . قال : « فاتركني يا أمير المؤمنين » ، قال : « قد تركناك » . ووشى للاسكندر واش فقال له : « ان شئت قبلناك على صاحبك بشرط أن نقبله عليك ، وان شئت أقلناك » . فقال : « أقلني » قال : « أقلناك على أن تكف عن (1) الشر يكف عنك الشر » . قال الزاهد الامام أبو بكر بن الوليد : « ومن العجب الذي لا عجب بعده ، أن الرجل يشهد عندك فى تافه فلا تقبله حتى تسأل

1 ـ على : فى «إ» .

عنه هل هو من أهل الثقة والعدالة والأمانة أم لا ، ثم ينم لك بحديث فيه الهلاك وفساد الأحوال فتقبله » . وقال يحيى بن زيد « قلت للحسن ابن * علي رضي الله عنه لما سقي السم : « من سقاك السم ؟ » فدمعت عيناه وقال : « أنا فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة وتأمرني أن أغمز » فرضي الله عنه . وقال رجل للمهدي : « عندي نصيحة ، يا أمير المؤمنين » ، قال : « لمن نصيحتك هذه ؟ لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك ؟ » قال : « لك يا أمير المؤمنين » ، قال المهدي : « ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ، ولا يخلو من أن يكون حاسد نعمة فلا يشفي غيظك ، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك » ثم أقبل على الناس فقال : « يا أيها الناس ، لا ينصح لنا ناصح الا بما فيه لله رضى وللناس صلاح » . وسعى ساع للفضل بن سهل فوقع على ظهر سعايته : « نحن نرى قبول السعاية من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل / على شيء كمن قبل وأجاز ، لأن من فعل شر ممن قال :

وفى المثل السائر : « من أطاع الواشي ، ضيع الصديق » . ويقال : « من قبل (2) فى صديقه السعاية ، رضي بقطع مودته ، وما قطع أبدا لا يرجع » . قلت : لما دخلت الى مبرك الناقة بالمدرسة الشهابية من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم برسم السكنى هنالك ، ألفيت على باب البيت : (من البسيط)

احفظ صديقك لا تقطع مودته   لا بارك الله فيمن خان أو قطع

* ان المنازل تبنى بعد ما خربت   وليس يرجع رأس بعد ما قطع

2 — رضي : فى «ر» .

وقيل فى النمام والكذاب : (من الكامل)

ـي حيلـــة فيمـــن ينــ م وليـس فى الكـذاب حيلــة
ـن كـان يخلــق ما يقــو ل فحيلتــي فيـــه قليلـــة

وأنشد آخر : (من الوافر)

اذا الواشي بغـى يومـا صديقـا فلا تدع الصديـق لقـول واش

ولمنصور الفقيه : (من البسيط)

هبني تحرست بالكتمان فكيف لي باحتــراس مــن قائــل البهتــان

ومنه قول آخر : (من الوافر)

فلا تسع (3) الــى أحـد ببغــي فان البغــي (4) موقعـه وخيـم

ولآخر : (من الوافر)

بغيت فلـم تقـع الا صريعـــا كذاك البغـي يصرع كـل بـاغ

ولآخر : (من الطويل)

لعمرك مـا سب الأمـير عـدوه ولكنمـا سـب الأمـير المبلـغ

وقال آخر : (من الكامل)

لا تقبلـن نميمـة مـن قائـــل وتحفظن مـن الـذي أنبأكهـا
ان الذي أهـدى اليـك نميمــة سينم عنك بمثلهـا قـد حاكهـا

3 ـ تسعى : فى الأصل ، وهذا لملاءمة التفعيل .
4 ـ السعي : فى «ر» .

الفصـــل الثـــالث

فيما احفظ لامامنا رضي الله عنه من هذا الباب

قد قدمت الحكاية التي صدرت عنه ، وعارضت بها صنيع الصاحب ابن عباد رحمه الله ، وها أنا أورد حكاية تشمل على أنواع من الفضل مما خصه الله به . لما هم رضي الله عنه بالحركة التي وصل فيها الى مجمع وأقام فيها ما أقام لأغراض معظمها نشر العدل وسماع * الشكيات ، اذا كثرت من بلاد (1) تجين ومغراوة وجبال تلك الوسطى ، ولم يجد فى ذلك من عين له من أصناف الناس ثقلت على كثير من الناس ، فأكثر أهل الفضول ومن فى قلبه بغض من القول / واسناد أكاذيب (2) لكاهن ومنجم مكذوب عليه . فألفيت براءة فى المجاز من الدار للجامع (3) تشمل على نوع من هذا فمحا أثرها وتحدث بها ، فلما كانا فى بعض الأيام وقـد دخلنـا للمقصورة لصلاة العصر ، وكان قيامي فى الصلاة عن يساره رضي الله عنه ، وربما أضع فى أحيان (4) يدي اليمنى فى السجود على سجادته (5) ، التي يصلي عليها ، فلما وضعت يدي فى آخر سجدة ، أحسست بشيء تحت يدي ، ما عرفت ما هو ، فاستثبت عند آخر الجلوس والسلام ، فاذا هي شبه براءة مطوية فنازعتني نفسي فى ابقائها وفى أخذها ، وقلت : « لعله يفطن لها فتوجد ، وقد اشتملت على شيء مما كنت أسمع ومن يبرئني من عدم العلم بها ؟ » ، فرأيت أن أخذها أحوط (6) وأسلم ، فأخذتها وأخفيتها فى كمي ، فلما قام داخلا الى زنقة المشور ، وقفت

1 ـ بلاد : غير موجود فى «ر» .
2 ـ احاديث : فى «ر» .
3 ـ الى الدار من الجامع : فى «ر» .
4 ـ أحيانا : فى «ر» .
5 ـ سجاده : فى «إ» .
6 ـ احفظ : فى «ر» .

في الباب (7) وناديت بالمؤذن صاحب النوبة في بسط السجادة ، فخوفته وتوعدته ، فحلف أنه ما شعر بها ، فسمعني ثقتهم الفاضل أبو حسون فسألني ، فأخبرته ، فقال لي : « وأي شيء فيها ؟ » فقلت له : « والله ، لا أعلم » . فقال لي : « وما تصنع فيها ؟ » ، فقلت : « أمحو ✻ أثرها »، فوافقني ودخل ، وخرجت أنا الى منزلي ، فهممت بالقائها في النار ، ثم توقفت حتى أرى هل يبلغ خبرها أم لا ، فبينا أنا واقف أدبر في ذلك ، اذا برسول يدعوني ، فلما دخلت ، ألفيته رضي الله عنه ، وهو في غاية الانحراف علي ، وقابلني بما لم أعهده منه وقال لي : « هذه منك خيانة أمانة » . فقلت له : « يا مولاي ، وما أعطيتني حتى أخون في عدم ابلاغها ولا قصدت الا صيانتكم عن الوقوف على ما يغيركم على بعض خدامكم ، ووالله ، ما عرفت ما فيها وقد علمت منكم كراهيتكم في السعاية والنميمة ». فقال لي : « نعم ، وهل تعلم أني تقبل (8) ما يقال ، لو سمعت ما يقال في الناس ، مابقي أحد منكم في محله » . فقال له الفقيه عبد المهيمن رحمه الله ورضوانه : « على ما كان بيني وبينه ، يا مولانا ، هذا هو الحق الذي عمل الفقيه ، رأيت الفقيه أبا طالب العزفي ، وهو أحد خدامكم ، وجد براءة فيالقصبة ، عند قبة الينشتي ، رميت هنالك فقال: «احرقوها» . فقال قائل : « يا سيدي : لو وقفتم على ما فيها » . فقال له : « لو كان حقا ، لاستظهر به صاحبه ، ولا يعمل هذا الا فيما هو باطل » . فأمر بها ، فأحرقت » . فقال امامنا رضي الله عنه : « هذا هو الحق » ، وقد كنت جئت بها وقرئت / فألفي فيها من الأباطيل والتعرض لبعض أهل الحضرة والقاضي والشهداء . فأمر بها مولانا ، فغرقت ومحيت في صهريج المشور . ثم أن مولانا ✻ رضي الله عنه قال : « والله، ما عندي أقبح من ورود سعاية علي ، ولا أكره شيئا كما (9) أكره النميمة وأصحابها » . ثم دعا (10)

---

7 — بالباب : في «ر» .
8 — أقبل : في «إ» .
9 — ما في «إ» .
10 — دعي : في «ر» .

بشيخي الفقيه أبي موسى ابن الامام ، فلما وصل قال له مولانا رضي الله عنه : « يا فقيه ، أنت شيخنا ، وهذا ولدك (يعنيني) ، وقد خلوته اليوم وخرجت عليه فى شيء سلك فيه مسلك الحق وما عرفه مني » . فشكره الشيخ ، وقبلت يديه واستمرت عادة كل بطاقة لا يسمى صاحبها ، وتشمل على نميمة ، تطرح ولا ترفع . وفى مسلم : « ان النميمة تفسد الدول وتخرب الملك وتفسد القلوب ومن استقرأ هذا علمه ومن عرفه تحققه ، فلا يشك أنها مفسدة للقلوب واذا فسدت البواطن تبعتها الظواهر » . (وحسبنا الله ونعم الوكيل) .

الباب السادس والعشرون

فى اقالته العثرات وستره ذوي الهيئات (وفيه فصلان)

الفصــل الأول

فيما ورد مما يدل على فضيلة هذه الخصلة الزكية

قال الله تعالى : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » . وروينا فى الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يستر عبد عبدا فى الدنيا الا ستره الله يوم القيامة » (رواه مسلم) . وروينا فى الصحيح عن أبي هريرة أيضا رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول : « كل أمتي معافى ، الا المجاهرين * وان من المجاهرة أن يعمل الرجل (1) بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : « يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا » ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عليه » (متفق عليه) . وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا زنت الأمة فتبين زناها ، فليجلدها الحد ، ولا تثريب عليها ثم ان زنت ، فليجلدها الحد ، ولا تثريب عليها ، ثم ان زنت الثالثــة ، فليبيعها ولو بحبل من شعر » . (التثريب : التوبيخ) . وعنه قال : « أتي النبي برجل قد شرب ، فقال : « اضربوه » . قال أبو هريرة : « فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه ، فلما انصرف ، قال بعض القوم : « أخزاك الله » . قال : « لا تقولوا هكذا ، / ولا تعينوا عليه الشيطــان » .

1 ـ أحد : فى «ر» .

الفصـــل الثـــاني

فيما حفظناه عنه (رضوان الله عليه) من هذا النمط

كان امامنا ، تغمده الله برضوانه ، ألحظ الناس للناس وأشدهم حياء ، كما سبق ، وأرعاهم لذوي البيتات ، واقالتهم لذوي العثرات ، ولنذكر بعض ما فى الحفظ من جزئيات تدل على هذا المعنى . كان الفقيه التعاليمي الامام أبو عبد الله محمد بن يحيى بن النجار (المتقدم الذكر) مبتلى (كما تقدم) بالسكر ، وكان يسمع بعلمه ونبله ومعارفه ، فأمر بحضوره ، وألزمه الحضور وقال لي لمكان قرابتي منه : « أوصه بالتحوط فى * أوقات يطلب فيها » . فأوصيته جهدي وحذرته . فخرجت يوما فى امتثال ما أمرني به ، وهو شراء موضع يعرف بأوعشية اشتراه ثقتهم الأرضى برسم التحبيس على زاوية العباد . فغبت مع ثقتهم أبي حسون معظـــم يومنا فلما عدنا (1) الى المدينة عشية ، استدناني رضي الله عنه وقال لي : « يا فلان ، أتعرف ما اتفق لي اليوم ؟ ، استدعيت ابن النجار ، لتركيب رخامة التوقيت بالموضع المعروف بأبي فهر داخل تلمسان ، فلما دخل وقفت معه لتركيب الرخامة ، فألفيته طافحا لا يشعر بما يقول ولا بما يسمع ، فخجلت منه وقلت له : « يا فقيه ، عرض لي اليوم شغل منعني من الحضور معك لتركيب هذه ، فدعه اليوم وانصرف الى غد ، ان شاء الله تعالى) » ، فالله الله ، اجتمع به ولا تشعره أني عرفت بوجه ولا حال وان أمكنك ألا يصل بالغد ، ان شاء الله ، الا وهو سالم ، فافعل واني والله أخاف أن يعلم أني فهمت عنه ، فتحشم واشتد خجله ، تاب الله علينا وعليه » . ففعلت ما أمرني به ، « فان قيل هذا حق فتعين القيام به » . (قلت : « ان أردت الوقوف على ايثار الستر من الحكام ، فانظر ترجمة أبي القاسم بن بقي فى المدارك لعياض ، ففيها ما يشفـــي الغـــرض فى الباب ») . ولما انصرف من المغرب متوجها الى سبتة ونزل بطنجة ، خرج

1 ــ عدنا : غير موجود فى «ر» .

أهلها وفيهم حدة واقدام ولهم * دالة بسبب سبقيتهم للدخول فى ايالته رضي الله عنه ، فعرضوا له عند خباء الجلوس ورفعوا أصواتهم بالشكوى بقاضيهم الفقيه أبي محمد بن المليق ، عفا الله عنه ، فافحشوا فى الشكوى وأطلقوا القول فيه بما لا يليق أنْ ينسب له ، فعجل رضي الله عنه فى الدخول وأمر باسكاتهم / وبادرهم الوزير : « ان مولانا نصره الله، قد عزله عنكم » ، ففرق جمعهم وأمر بصرفهم وقال : « انما عملت هذا خوفا من أن يصرحوا بما فهمته عنهم من ذكره بالسوء ، فيكون فى ذلك فضيحة شيخ من أهل العلم وقديم الهجرة ، ثم توعدهم بأشد العقوبة ان تعرضوا له بسوء وأجرى عليه مرتبا ، فكان فى أحسن حال » . تنبيه نبيه : لما نزل بهذاالفقيه ما نزل،لم يزل عاكفا على كتبه ملازما لمنزلهوباديته خاملا مغموصا عليه الى أن نزلت بظاهر طنجة أنا والفقيه القاضي أبو اسحاق ابراهيم ابن أبي يحيى ، وقد أمرنا مولانا رضي الله عنه بحمل الشهداء الذين كانوا بالجزيرة ، المستشهدين (2) بواقعة طريف ، الى شالة ، أقمنا هناك لانتظار وصولهم أياما ، فكان هذا الفقيه يخرج للاجتماع بنا كل غدوة ، فرأيت من مشاركته فى علم الحديث والفقه وكلام المتصوفة ما أعجبني ، وقضيت منه (3) العجب مما أصيب به ، فلما كان يوما خرج على العادة فتذاكرنا الغزالي * فوقع فيه أقبح وقوع فبادرت للانكار عليه . فقال لي : « انما قلت ما قال غيري » . فقام وانصرف بغير مقيد ، واذا به قد جاءبكتاب يتضمن الرد على الغزالي وتكفيره فى مواضع من الاحياء لشخص يعرف بالقلنبا ، من أهل قرطبة ، فلم أزل مع الفقيه أبي اسحاق نأخذ معه ونبطل قول هذا الرجل ونتعقبه ونبدي خطأه وخطأ نظره وفساد فطرته ، الى أن سلم وأحرقنا الكتاب . فقلت : « الآن يا فقيه ، عرفت من أين أتيت ، فتب الى الله واستغفر الله مما كنت تعتقده وسترى بركة هذه التوبة وتحمد عقباها » . ففعل ، والله ، ما قضينا

2 — المتشهدين : فى «ر» .

3 — منه : غير موجود فى «إ» .

الوظيف وعدنا الى فاس حتى وصل ابن حكامة من طنجة ، وكان من أشد الناس عليه ، يرغب فى اعادته قاضيا اليهم ، وكتب هو يتبرأ من الولاية ويتوسل فى أن تصرف عنه ، فأسعف بما طلب وانعكس نظر أهل طنجة فيه فعادوا لجميل الاعتقاد فيه ، وهذا ببركة الغزالي ، نفع الله به وبكتابه ، ويكفي من فضل كتابه ثناء شيخ الشيوخ سيدنا أبي مدين عليه ، فانه قال : « نظرت فى مناقب الأولياء من لدن أويس القرني الى عصرنا هذا ، فما رأيت مثل أبي يعزى ، ونظرت فى سائر الكتب المصنفة ، فما رأيت كالاحياء ، وذكرت بهذه الحكاية حكاية الشيخ الفقيه الولي / الصالح أبي الحسن علي بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم الفاسي المدفون خارج باب الفتوح أحد أبواب * مدينة فاس المحروسة ، وذكرها غير واحد من أشياخنا رضي الله عنهم ، قال : « اعتكفت على قراءة احياء علوم الدين للغزالي فى بيت ، مدة عام ، فجردت المسائل التي تنتقد عليه ، وعزمت حرق الكتاب ، فنمت ، فرأيت قائلا يقول : « جردوه واضربوه حد الفرية ، فضربت ثمانين سوطا . فلما استيقظت (4) ، جعلت أقلب ظهري ، وكنت أجد الألم الشديد من (5) ذلك الضرب ، فتبت الى الله مما اعتقدت ، ثم تأملت تلك المسائل ، فوجدتها موافقة للكتاب والسنة » . هكذا حكاها بعضهم مختصرة ، وزاد بعضهم : « أنه أوقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه هو الذي أمره بجلده ، وأنه كان يرى أثر الضرب فى ظهره (6) » . وابن حرزهم هذا شيخ سيدنا أبي مدين رضي الله عنه وأخبرني سلطان الاندلس، حاطها الله ، أمير المسلمين بها أبو الحجاج يوسف

---

4 ـ استيقضت : فى «ر» .

5 ـ فى : فى «ر» .

6 ـ جلده : فى «ر» .

ابن أمير المسلمين أبي الوليد ، رحمه الله وبرد ثراه ، غير مرة قال : « كان يقع في مجلسي بين الفقهاء ذكر الغزالي ، وكان بعض فقهائنا يقع فيه » . قال : « فوقع في نفسي احتقار الغزالي واعتقاد السوء في جهته ونسبته لما لا يليق بمكانه ، فرأيت في ليلة بت فيها معمور القلب ، مشغول الفكر بذلك ، كأن شيخا حسنا جميل البزة والهيئة في مجلس ، فأردت الدخول عليه ، فاعترضني دونه رجل أسود طويل مرعب بصورته وشكله ، فأخذ بطوقي ولففني في ثوبي ، وأراد أن يوقع بي . فقلت له : « وما * ذنبي ؟ » . فقال لي (7) : « بوقوعك في شيخ الاسلام أبي حامد الغزالي ». قال : « فتبت واستغفرت فوقع في نفسي أنه الشيخ رضي الله عنه ، فاستيقظت (8) وأنا تائب مستغفر معظم لقدر هذا الشيخ رضي الله عنه » . فكان اذا ذكر عنده يعظمه ويعيد الاستغفار والتوبة ويتوسل به الى الله في قضاء حوائجه ومطالبه ، نفعه الله .

وكان لامامنا رضي الله عنه فيه جميل اعتقاد ، نفعه الله تعالى (9) بذلك بمنه وفضله . ومن غريب ما يؤثر عنه (10) ، رضوان الله عليه ، في هذا الباب ما يقضى منه العجب العجاب ، وهي قضية ابن الحرار ، سمعتها من فلق فيه ، جدد الله عليه الرحمة . حدثني رضي الله عنه وقال لي : « والله ، لولا أن هذا المحكي عنه مات ، ما حدثت بحديثه » / (مع أنه لم يصرح باسمه ، وانما استفدت اسمه من بعض أصحابنا . قال : « استأذنني متولي الأشغال يوما ، وأنا بالدار البيضاء ، في أن يدخل من المال المودع ما شذ على العادة في المال اذا اجتمع في المودع البراني » .

7 – قال : في «ر» .
8 – استيقضت : في «ر» .
9 – تعالى : غير موجود في «ر» .
10 – عنه : غير موجود في «ر» .

قال : « فأذنت لهم فأدخل المال وصب فى خرائط حتى يجتمع للشد » ❊ ، قال : « والكتاب بين يدي ، فلمحت هذا الشخص قد مد أطناب غفارته أو برنسه على خريط منها ، وفى كل خريطة ألف دينار ذهبا ، وضمها اليه ، فأطرقت ببصري ، فلما دخل الشدادون واجتمع المال ، افتقدوا الخرائط ففقدوا واحدة ، فطاشت عقولهم وجعلوا يقع بعضهم فى بعض ، فقلت لهم : « لا سبيل أن يتكلم أحد فى هذا بكلمة » . وقلت : « المقالة المأثورة عن بعض الخلفاء : « من أخذها لا يردها ومن رآه لا يفضحه » . قال : « فانصرفوا ، فلما كان الغد ، سألت عنه ، فقيل : « هو مريض » . فقلت : « لابد من حضوره ، فعرفه لا يعمل عمل الا بحضرته » . قال : « فلما دخل ، وقد ظهر عليه أثر الخوف وشاهد الريبة » ، قلت له : « لعلك توهمت من قضية أمس أو حدثتك نفسك أنك من اتهمت أو توهمت أن قولي : « أخذها من لا يردها » عنيت به أحدا ؟ ، فاياك أن تتوهم ، وعد الى عملك وحياطة نفسك فى شغلك » . وأمنته ، واطمأن . وصرفته مكرما ولم أذكرها الا بعد موته » . هذا ما سمعت منه رضي الله عنه ، وهذه المكارم ، وهكذا فلتكن المناقب ، وبمثل هذا يفتخر الملوك ، لا ، والله ، كزيد ولا عمرو ، وحق لهذه الحكاية أن تكتب بماء الذهب ، وبالله ما ذكرتها قط فى مجلس ، الا وتفيض العبرات وتتوالى الدعوات تقبلها الله تعالى وأدام بركتها فى عقبهم الطاهر وأبقى لهم ذكر هذه المآثر ❊ والمفاخر ، بمن الله وفضله .

ومن هذا النمط ما أقصه من قضية أبي عبد الله بن أبي خالد ، المنعوت بالسليطن ، كان هذا الرجل من ذوي البيتات وجده هو صاحب شريش المخرج منها حين استيلاء النصارى عليها واستوطن هو وذريته مراكش ، فنشأ هذا الرجل فى نعمة وثروة ، وتربى أحسن تربية واشتغل بلذته ونعمته ، ولم يخالط الناس واقتصر على غلات أملاكه فأسرف فيها

بما (11) يناسب حاله ، فلما تمكن من الكهولة اضطر لمعرفة الناس والاختلاط بهم ، فلم يحسن التصرف في البيع والابتياع ، وجرت بينه وبين بعض كبار / مراكش منافرات أوجبت تعرضه لمعرفة نواب السلطة بمراكش . فاقتضى نظر من عرض به للخسران أن أشار بتوليته الحبس ، وهو كثير المؤونة ، خطة معروفة بالشغب بمراكش ، لأنها تستدعي التفرغ للنظر ومباشرة أمور الفلاحة لكثرة الأحباس في الخارج عن المدينة ، فوليها مدة أعوام فحصلت بينه وبين قاضي مراكش اللاطون وخطيبها مناقضة أوجبت مطالبته والرفع فيه . فلما نزلنا مراكش ، رفعوا لامامنا رضي الله عنه فيه وأكثروا ، وفهم منهم رضي الله عنه الميل اليه وقصد الاذاية وانفاذ (12) الغرض . فأعرض عنهم . فلما كان يوم صدورهم رضي الله عنهم من مراكش ، وقف الناس متأهبين * لركوبهم ، رحمهم الله ، وقد ملهم المركوب ، وكنت واقفا مع أصحابنا الطلبة واذا به قد التفت يمينا وشمالا ، فلما وقع بصره عليه دعاني وأسر لي بأن جد في خلاص كتب التواريخ في ألواح الرخام الذي نفذ للرخامين الأمر بكتبها يتضمن ما حبسه رضي الله عنه على مواضع متعددة بمراكش وبلاد السواحل لتجعل كل رخامة على الموضع الذي يخصها . فقلت له : « يا مولاي ، قد بيضت لهم ما يكتبون » . فقال لي : « بل ترسمه لهم بخطك المشرقي » . فقلت : « السمع والطاعة » ، وبدا علي انكسار بسبب تخلفي عنه ، وكان لي شديد تشوف لفاس لتكميل عقدة نكاح ، فلما رأى ما عندي قال : « هذه هينة ، وقصدي بجلوسك أخرى لم أجد من يقوم بها غيرك » . فقلت له : « وما هي » ؟ . فقال لي : « هذا ابن أبي خالد ، من ذوي البيتات وممن قلبت بهم الدنيا ظهر المجن . وفهمت من هؤلاء المراكشيين الحمل عليه واني آمرك بأن تحضر وتحضر القاضي والخطيب والعدول والأمناء ووجوه القشاشين وهم المتصرفون

11 ـ ما : في «ر» .
12 ـ انفاد : في «ر» .

فى بيــع الأملاك وابتياعها والمعرفة بقدر غلاتهـــا ، ويحاسب بمحضرك وبالعدول والامناء والانصاف وإياك أن يجري عليه من أعدائه غلظـــة أو اسقاط حرمة ، وخذ معه يأجرك الله ولو يخلص عنه من مال المخزن ، ووددت لو كان ما يدعى (13) عليه فى مخصتي حتى أرفع عنه المحاسبة والمطالبة » ، فالله الله ، ألقى الي هذا سرا ، ثم استدعى ❋ بالوالي ، فقال له : « جهز لفلان موضعا ، وامتثل أمره فيما يأمرك به » ثم ركب وسائرته الى خارج المدينة فرد فى ورد أهل مراكش من تلك المنزلة وأمرهم بالحضـــور عنـــدي فأحضرت الكتبـــة والجرائـــد / ومـــن أمر بحضوره . وشرع فى محاسبة الرجل . فلم يتمالك القوم أن اندفعوا بالحمل عليه ، وتعاضدوا وتعاونوا . فبادرتهم بالانتهار وعرفتهم قدر ما فهمته عنه،واستدنيت الرجل وأكرمت نزله وتوعدت بعض الرعاع من خدامهم المتعرضين له وأخرجت بعضهم وأمرت على (14) من أطلق لسانه بالادب ، فكأنما نشر الرجل . فقال لي : « رحمتني ، رحمك الله » . فقلت له : « انما رحمك من امتثلت فيك أمره رضي الله عنه » . فبكى فلما استقرت المحاسبة وكشف عن أصول الداخل والخارج بالشهادة العادلة ، وعقدت الجمل وجملت التلاخيص وظهرت البقية ، وكانت نحوا من ثلاثة آلاف دينار من الذهب فى زعمهم ، فظهرت أقل . وأمرتهم باعادة عملهم ، فتولاها عدلان فاضلان عارفان ابن سرية ، وكان سريا ، وأبو محمد الزجندري ، وهم يباشرون ذلك كله حتى برزت (15) البقية فاستفسر عنها ،فظهرت (16) عقوده على أناس ببقيات عليهم ، فأحضروا ، فأقروا بها، غير أنه كان يؤتي بالرجل ، فاذا حضرت يقول : « هذا ضعيف مسكين نعتقد أنه يعسر اذا طلب » ، أو يجحف بنفســـه : « اكتبوا علي ❋ بقيته » ، فاجتمع من هذه الألقاب على هذا الوجه سبعمائة دينار ذهبا

---

13 ـ ولوددت ما كان يدعي : فى «ر» .

14 ـ على : غير موجود فى «ر» .

15 ـ أصل : فى «ر» .

16 ـ فاظهر : فى «إ» .

تحملها فى ماله شفقة على من رفعت عليه . فلما تعينت قال للأمناء العارفين بالاملاك : « انظروا فى أملاكي أي الاملاك تحظي هذا القدر من الثمن بزيادة واشهدوا علي أني سلمته فى هذه البقية طيبة نفسي بذلك » . فقلت له : « أما وقد انتهى العمل وتخلص على هذا الوجه وظهرت البـــراءة من التفريط والضياع والخيانة التي ادعى بها على خدامك ، فلا بــد من المطالعة » . وبعد صدور الأمر العلي بما يصدر به يمضى العمل بما ذكرت . فكتب سجل بالموطن مستوفى بخطوطهم وبموافقــة جميعهـــم ووجهنا بذلك مطالعة فجاء الجواب الكريم ، يتضمن حمدا لله على براءة الرجل مما نسب اليه وشكر ما صنعته وأمـــر بوصـــول الرجـــل ، صحبتي ، وارجاء الامر فيما أراد أن ينفذه حتى يصل . فلما قضينا ما صدر به الامر العلي من الاعمال ، قدمنا جميعا على الحضرة العلية بفاس ، فأحضره رضي الله عنه مجلسه ورفع عنه الوظائف المخزنية وكتب له بالاعتناء والاحظاء ودعاه لتقلد عمالة ، فاعتذر بعجزه فعرضت عليه الخدمة فى الحضرة وأن يلحق بالاحظياء فيها ، فأجاب وانصرف ليستعد لذلك / فحج وجاور وعاد فلقينا بتونس رحمه الله . فهذا كان دأبه رضي الله عنه ❊ فى الابقاء على ذوي الحسب والبيتات .

ومن هذا النمط ، قضية أبي العباس بن حسن البلياني التلمساني . كان هذا الرجل نخبة فى عصره فىحسن الخط والتصرف فيه معطلب وأدب ونبل وكان سبط الفقيه أبي زيد الابدي ، أحد العدول الحسباء التلمسانيين ، وانتقل لفاس فاستوطنها ، ونشأ هذا فى تربيته بفاس وعاد لتلمسان ، وطنه ، وكان ، عفا الله عنه ، (17) غير مبخت ، فاستولى عليه الهجران من سلطان تلمسان ، لكونه كان كاتبا لعدوه . ابن عمه يتحرف بتجارة ، وكان قاضي الجماعة يستخلصه ويستكتبه فى الكتب الملوكية . فلمـــا استولى امامنا المرحوم على تلمسان ، قدم عدلا . قدمه القاضي الصالح

17 — ناقص فى «ر» .

أبو عبد الله بن أبي عمرو . فعينه مولانا في شهداء البيت ، وهي أشرف خطط العدالة ، يشهدون على الحاصل في بيوت الاموال ، الداخل والخارج ، ويرجع اليهم سائر الاعمال وترفع لهم الجرائد . فتقلد العمل واستنهضه امامنا المرحوم واستنبله واستحسن خطه . وكان قد رفع اليه من خطه ما أعجب به ، فدلاه الشيطان بغروره وخدعه من كره موافقته من صحابته ، ففاوضوه في أن يغيبوا على بعض السلع الرفيعة وحسنوا له هذا القبيح ، فتمنع ثم انخدع ، فواطأهم الى أن توسط الباب بالخروج وقد احتضن في حجرته (18) وتحت ثيابه عدة من رفيع الثياب ※ ، المقومة بكبير من المال . فأمسكوه وفضحوه وأخرجوا من تحته ما أخفاه على رؤوس الأشهاد ، ورفعوا الأمر لمولانا المرحوم ، فكان من جوابه : « اني ، والله ، أستحي أن أراه ، لاسيما والرجل غريب بين هؤلاء وهو من أهل تلمسان الذين لحقتهم العفة ، وغرضنا استجلابهم وتأنيسهم ، فاصرفوه بخير ولا سبيل أن يثوب عليه » ، فانصرف وبقي وقد لحقته الحشمة وأخملته (19) هذه الفعلة . ثم تخطط بعد وحسنت حالته ، وهذا ما حضرته وشاهدته هكذا والا فلا نفعه بذلك وجدد عليه الرحمة .

وأعرف شخصا من الخدام ، جرى ذكره غير مرة ، سمعته رضي الله عنه يقول : « قال لي مولاي أبو سعيد رحمه الله : « يا علي ، يا بني ، فلان لك عنده عشرة آلاف دينار ذهبا محققا ، فلأي شيء تتركها له ؟ » قال : « فاستحييت منه لكونه (20) تقدمت له / خدمة مولاي أبي سعيد ، ولقد كلفته عمل كذا ، وهو عمل كبير قام بأحمال من مال (21) ، فرفع لي من لا يكذب أنه قد صار قبله منه مال ، فمنعني الحياء وطلب الستر

18 — حجزته : في «ر» .
19 — أجملته : في «ر» .
20 — بكونه : في «ر» .
21 — المال : في «ر» .

عليه من طلب الاول والآخر » . فقال له أبو زيان عريف : « قد سمعته يحلف فى المواضع المكرمة أنه ما خان قط » . فقال له : « وما عرفتك به أجلى من الشمس » . فقال له : « ومن يمنعك من مالك ؟ » فقال : « الحياء والستر » . فقال له : « انه على انقضاء وموته قريب ، ومالك عائد اليك » . فوالله ما كان الا أن مات ، فلم يعرض لورثته ، مع اتلافهم له بما لم يعد عليهم بنفع * .

الباب السابع والعشرون

فى قبوله المعاذر (وفيه فصول)

الفصـــل الاول

فيما ورد فى فضل هذه الخصلة

روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اعتذر اليه أخوه المسلم ، فليقبل معذرته ما لم يعلم كذبه » . والآثار فى الباب والأشعار كثيرة . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا تلم أخاك على ما يكون العذر منه فى مثله » . وقول الاحنف مشهور : « اياك وما يعتذر منه فانه قل ما اعتذر أحد فسلم من الكذب » ، (وهو عجيب) . واعتذر رجل الى قتيبة بن مسلم فقبل منه ، ثم قال له : « لا يدعونك أمر تخلصت منه الى الدخول فيما لعلك لا تتخلص منه » . وفى الاحاديث التي أخرجها ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسلـــم : « ألا أنبئكـــم بشراركم ؟ » قالوا : « بلى يا رسول الله » ، قال : « من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ، لا أنبئكم بشر من ذلكم ؟ » ، قالوا : « بلى » ، قال : « من يبغض الناس ويبغضونه » . وقال : « قال علي رضي الله عنه : « الصحبة اقالة العثرة ، ومسامحة العشرة والمواساة فى العسرة » .

وله : (من البسيط)

اقبــل معاذير من يأتيك معتــذرا أبر فيما أتى من ذاك أو بحرا (1)
فقــد أطاعك من يرضيك ظاهــره وقد أجلك من يعصيك مستتــرا

وله : (من البسيط)

اذا محاسني التــي أدل بهــا كانت ذنوبا فقل لي كيف أعتذر ※

(وهو معنى مليح جدا) . ولآخر : / (من الطويل)

وما كنت أخشى أن ترى لي زلــة ولكن قضاء الله ما عنه مهــرب
اذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه وكل امرىء لا يقبل العــذر مذنب

ولمحمد بن داود القياسي : (من البسيط)

العــذر يلحقه التحريف والكذب وليس في غير ما يرضيك لي أرب
فان أســأت فبالنعمى التي سلفت لمــا مننــت بعفــو ما له سبــب

وكان يقال : من وقف لحسن الاعتذار خرج من الذنب .

ولمحمود الوراق : (من الطويل) :

أرانــي اذا ما زدت مالا ورغبــة وخيرا الى خير تزيدت فى الشــر
فكيف بشكر الله اذ كنت انمــا أقــوم مقــام الشكر للــه بالكفر
بأي اعتــذار أو بأيــة حجــة يقول الذي يدري من الأمر ماأدري
اذا كان وجه العذر ليس بواضح فان اطراح العذر خير من العــذر

ولآخر : (من الكامل)

1 ـ فجرا : فى «ر» .

لا تــرج تـــوبــة مـــذنــب خلط احتجــاجــا باعتـــذار

ولآخر فى الاعتذار بالقدر : (من البسيط)

هي المقــادير فلمنـــي أو فـــذر ان كنت أخطأت فما أخطأ القـــدر

ولآخر فى عكسه : (من البسيط)

وعاجز الرأي مضياع لفرصته (2) حتى اذا فات أمر عاتب القدرا *

ولآخر : (من الطويل)

اذا غيروا قالوا مقاديـــر قـــدرت وما العار الا ما تجر المقاديـــر (3)

ومن أحسن ما قيل فى الاعتراف لله : (من الطويل)

أيا رب قد أحسنت بدءا وعــودة الي فلم ينهض باحسانك الشكـــر

فمن كان ذا عذر لديك وحجــة فعذري اقراري بأن ليس لي عـــذر

الفصـــل الثاني
فى سيرة مولانا المرحوم فى قبول المعاذير

هذا فصل لا تنضبط (1) شواهده ولا تحفظ لكثرته صلته وعائده . كان رضي الله عنه لين الجانب ، قليل العتاب ، أسرع الناس قبولا (2) للمعاذير واقامة الحجة ، وقد قدمنا ما كان / عليه من الحياء رضي الله عنه ، والحياء هو الذي يبعث على قبـــول المعـــذرة وكثـــرة الحشمـــة يمنع من الاستقصاء فى البحث عن العثرة . كان يأتيه الرجل غالبا ،

2 ـ لفرصة : فى «ر» .
3 ـ مقادر : فى «ر» .
1 ـ تضبط : فى «ر» .
2 ـ لقبول : فى «ر» .

فيسأله عن الأمر فيجيبه عن السؤال بما يفهم منه الاقناع ، فيستقصي بعض الحاضرين البحث فيقول : « بالله ، لا تفعل يكفيك منه هذا » .
حضرت يوما بين يديه ، وقد جرى ذكر كتب كتاب الله فى الحجم الصغير ، فتجعل له أغشية وتعلق فى جواء عـودة وتميمـة ، وجـرى مـا فى ذلك لأئمتنا وما نقل من الكراهة (3) فى كتبه على هذا النحو من (4) مالك رضي الله عنه ، ثم انجر ذكر التهاليل ، وكان هذا كله والتوطئة عليه من شخص من الوزراء ، فلما أفضى الحديث الى هذا أشار هذا الوزير الى التهليل * الذي عنده . فقال : «مثل هذا وهذا» ، كانت نيته وغرضه، فاستخرجه وشوق للنظر اليه ، فاستدعى به مولانا رضي الله عنه ، فلما دفعه له ألفى فى وسطه ورقة كانت عنده بخط امامنا رضي الله عنه يقتضي أنه كتبها له فى حال متقدم فى حياة والده ، وكان والده وزيرا لهم والبراءة تتضمن وعده بالجميل والتقديم لخطة الوزارة بشريطة التوفية ، فأخذها رضي الله عنه وقرأها ، وما أراد صاحبها بها الا اقامة الحجة عليهم رضي الله عنهم ومطالبتهم بتوفية العهد وانجاز الوعد . فقال له : « يا فلان ، هلا استظهرت بهذا ابتداء ولا تحتاج الى التوطئة وهلا تأملتها ووفيت بشرطها ؟ » ثم قال : « أراد أن يقيم علي حجة » . فقال المستظهر المذكور : « لا والله، يا مولاي، ما قصدت ولا نويت ولكنه حديث انجر ولا عندي علم بها بل هي فى هذا الموضع من يوم كتبتها » . فقال له رضي الله عنه : « قبلنا معذرتك وعرفنا طلبتك فارددها الى موضعها ، حتى اذا تأملتها وعلمت أنك قد وفيت حقوقها فاستظهر بها ولا حرج عليك » . ووالله ، ما زاد على التبسم وبسط الوجه مع أن بعض الحاضرين شنع وأوردها فى صورة نكرة . فرحمه الله وغفرانه لديه .

3 – الكراهية : فى «ر» .
4 – عن : فى «ر» .

الباب الثامن والعشرون

فى قبول الشفاعات والمسارعة لقضاء الحاجات * (وفيه فصلان)

الفصل الاول

فيما ورد فى هذا الباب

روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : / اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » . وروينا فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ليرفع الي عرفاؤكم أمركم » . وروى الحافظ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « استعينوا على حوائجكم بالكتمان ، فأي ذي نعمة محسود » . وقال محمد بن واسع لقتيبة بن مسلم : « اني أتيتك لحاجة رفعتها الى الله قبلك ، فان أذن الله فيها قضيتها وحمدناك وان لم يأذن فيها لم نقضها وعذرناك » .

وقال يونس رحمه الله : (من البسيط)

أنزلت بالحر ابراهيم مسألة   أنزلتها قبل ابراهيم بالله
فان قضى حاجتي فالله يسرها   هو المقدر لها والآمر الناهي
اذا أبى (1) الله شيئا ضاق مذهبه   على الكبير العريض القدر والجاه

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه : « حاجة الرجل لمن أحب فتنة لهما ، ان أعطاه شكر من لم يعطه وان منعه ذم من لم يمنعه » . وقال خالد بن صفوان : « لا تطلبوا الحوائج عند غير أهلها ولا تطلبوها فى غير حينها ، ولا تطلبوا ما لا تستحقون منها ، فان من طلب ما لا يستحق

1 ـ قضى : فى «ر» .

استوجب الحرمان » . وكان يقال : « اذا طلب عاقل الى كريم حاجة انقضت لأن العاقل لا يطلب الا ما يمكن والكريم اذا * سئل ما يمكن لم يمنع » . وقال رجل للعباس بن محمد : « أتيتك في حاجة صغيرة » ، قال : « فاطلب لها رجلا صغيرا » . وقال رجل للأحنف ابن قيس : « أتيتك في حاجة لا ترزأك ولا تنكأك » . قال : « اذا لا تقضى لك ، أمثلي يؤتى فيما لا يرزأ ولا ينكأ » . وقيل في طلب الحاجة من الكريم : (من الكامل)

واذا طلبت الى كريم حاجة ... فلقاؤه يكفيك والتسليم

واذا طلبت الى لئيم حاجة ... فألح في رفق ولست تريم

وفي منع طلبها من اللئيم (من الكامل) :

لا تطلبن الى لئيم حاجة ... واقعد فانك قائم كالقاعد

يا خادع البخلاء عن أموالهم ... هيهات تضرب في حديد بارد

الفصل الثاني

كان امامنا رضي الله عنه قد فتح باب قبول الشفاعات وعود قضاء الحاجات . حدثني / والدي رضي الله عنه : « لما توجهت من تلمسان لفاس ، في غرض الرسالة والسفارة في عقد المصالحة ، عرض لي جماعة من أهل تلمسان أخبروني بأن أحمد بن قاسم بن الحاج ، وكان من وجوه أهل تلمسان ، قد شدد عليه الثقاف وضيق عليه لكونه اتهم بأن العيون والجواسيس الذين يصلون من تلمسان ينزلون به فيؤويهم ويفيدهم ما يرجعون اليه (1) من الأخبار » . قال : « فلما دخلت وانقضى المجلس

1 ـ به : في «ر» .

الأول ، وهو مجلس السلام ، خرج معي من قبة المشـور ❋ المولـى أبو الحسن ، فسلمت عليه وقلت له : « لي اليك حاجة » ، فقال : « وما هي » . فعرضتها عليه ، فسكت ولم يجبني ، فعرض لي خجل ، غير أنه قال لي : « اني نعتقدك (2) ونرغب (3) فى صالح دعائك ، فاجلس معي ساعة أتشفى منك » . قال : « فقلت : «نعم» . فأسر الى خديم له أمرا ما عرفت له فيه مقصدا ، فسألني عن الحال وأجابني لما طلبت منه من المصالحة والمعاونة فى ذلك عند والده رضي الله عنه ، فلم أشعر الا والمشفوع فيه واقف بين يديه . قال : « هو هذا ؟ » . قلت : « نعم » . فأمر له بكسوة ، وانصرف . فعرفت أنه انما جلس مشغلة لوصول المشفوع . وكان رضي الله عنه يسأل أهل حضرته اذا رآهم يتكلمون يقول ، قولوا : « ما أردتم » . فيتكلمون فيه ويشفعون . وما عسى أن أثبت من هذا لباب ، فكم شفعنا عنده وكم نلنا من مثوبة على يديه رضي الله عنه .

2 ـ أعتقدك : فى «ر» .
3 ـ أرغب : فى «ر» .

الباب التاسع والعشرون

فى تودده الى الناس عموما وخصوصا (وفيه فصول)

الفصــل الاول

فى الأدلة الدالة على فضل الحب فى الله والمودة فى ذاته ، اذ كان هذا طريقه رضي الله عنـه

روينا فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليــه ممـا سواهما ، وأن يحب المرء ، لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكــره أن يقــذف فى النــار * » . (متفق عليه) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله .. » (الحديث المتقدم) ، وفيه رجلان تحابا فى الله . وعنه رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / ان الله تعالى يقــول يــوم القيامــة : « أيــن المتحابــون لجلالي ؟ اليوم أظلهم فى ظلي يوم لا ظل الا ظلي » . (أخرجه مسلم) . وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والــذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا الســلام بينكــم » . وعن معاذ رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : « المتحابون فى جلالي لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء » . (قال الترمذي : حديث حسن صحيح). وعن أبي ادريس الخولاني رضي الله عنه قال : « دخلت مسجد دمشق فاذا فتى شاب براق الثنايا واذا الناس معه ، فــاذا اختلفــوا فى شــيء

أسندوه اليه وصدروا عن رأيه » ، فسألت عنه فقيل : « هذا معاذ ابن جبل رضي الله عنه » . فلما كان الغد هجرت ، فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي ، فانتظرته حتى قضى صلاته ، ثم جئته من قبل وجهه ، فسلمت عليه ، ثم قلت : « والله اني لأحبك لله . » فقال : «ألله ؟» . فقلت : «لله» . فقال : «ألله؟» . فقلت : «لله» . فقال : «آلله ؟ » فقلت : « لله » . فأخذ بحجزه ردائي ، فجذبني اليه فقال : « أبشر فاني سمعت ﷺ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تبارك و(1) تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في والمتزاورين في والمتباذلين في » (أخرجه مالك فى الموطأ) . وعن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا أحب أحدكم أخاه ،فليخبره أنه يحبه » (رواه أبو داود والترمذي ، وهذه الأحاديث كلها واقعة فى الصحيح) . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « مداراة الناس صدقة » . وعنه عليه السلام : « رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس » . وعنه عليه السلام : « أمرني ربي بمداراة الناس ونهاني عن ملاحاتهم » .

الفصل الثاني

فى الدليل على أن محبته لأهل الخير كانت لوجه الله

لا خفاء أن منصبه رضي الله عنه منصب الاستغناء عن الناس والاعتماد على الله عز وجل ، فان أحب أحب لا بجلب منفعة ولا دفع مضرة ، فانه ليس بينه وبين الله من مخافة سواه ، عز وجل . لمحبته لأهل الخير وزيارته لهم وتودده انما كان لوجه الله عز وجل ، وهذا لا / يحتاج الى ايضاح زيادة ولا لنصب دلالة ، كتب الله له أجرها وأجزل له فى الآخرة ذخرها بمن الله وفضله .

1 ـ تبرك و : غير موجود فى «ر» .

الفصـــل الثـــالث

كان رضي الله عنه ونفعه (1) فى هذا الباب آية . سمعت الفقيه القاضي قاضي القضاة أبا (2) عبد الـرزاق رحمـه الله * يقـول : « سلطاننا يسبي العقول بتودده نحمد الله الذي هو داعيه للخير » . ولو كان والعياذ بالله غير ذلك لافتتن ملازموه من شـدة تـودده واستجلابه القلوب ، ولنذكر سيرته مع من يوده ويحبه . كـان رضي الله عنه لا يختص بطعام ولا بدونه حتى يبعث به الى خواصه ، فلا يرى ليلا ولا نهارا الا تحفه وهداياه ، قل ذلك أو كثـر ، ولا سيمـا لمن لاذ بجانبه من الفقهاء والطلبة ولمن يرد من الضيـاف (3) ووجـوه الناس ولصلحاء البلدة التي يرد عليها ويقيم فيها ولفقهائها وخصوصـا من فى خدمته والانقطاع اليه من الغرباء ، كنا نحضر طعامه غـداء وعشاء ، المنتخب على ما هو معروف ببابهم العلي ، ومع ذلك فلكـل منا جراية من طعام حلاله الخاص به . كنا بسبتة سني حصر الجزيرة ، فكان يبعث الينا بطيفور الفاكهة لكل واحد من من ثلاثتنا القاضي ابـن أبي يحيى والسطي والمصنف ، وآنية هذا الطيفور جميعها من صفـر مزجج مذهب (4) تمويها فانقطعت عني ليتلين بعد استمرارها ، فدعاني فى الثالثة وقال لي : « يا فلان ، أين الدالة وأين طرح الحشمة ؟ ما لك لم تتكلم على ما (5) لم يصل اليك فى هاتين الليلتـين ؟ » . فقلت : « يا مولاي ، نعلم أن هذا ان وقع عمدا ، فهو لعذر ممن تعمده ونعلم أني لم أحدث ما يوجب قطع نعمة مولانا عنـي (6) ولا أن مـولاي رضي الله عنه ينسى عبده » * . فقال لي : « قالوا : « امساك الظروف

1 ـ ونفعه : غير موجود فى «ر» .
2 ـ ابو : فى (ا) .
3 ـ ضيوف : فى «ر» .
4 ـ بالذهب : فى «ر» .
5 ـ بما فى : «ر» .
6 ـ على : فى «ر» .

يقطع المعروف ، وقد اعتل الخدم بأنك أبطأت عليهم بتوجيه الأواني». ووالله لقد كنت مرارا فى ليالي ذوات عدد بعد أن أنام يطرق الباب طارق من قبله بما يتحفني به رضي الله عنه من أمثال هـذا ، وهـذا فعله مع أصحابنا ، وفعله فى هذا يضرب به الأمثال ، فلم ير مثلـه فى هذا النوع تغمده الله برحمته ، نعم ، رأيت من سلك سبيله ، وقال : « منه تعلمنا وببركته استفدنا » ، السلطان المرحوم أمير المؤمنـين المستنصر بالله أبو اسحـاق ابراهيـم / سلطـان تونـس وافريقيـة رحمه الله . وماذا عسى أورد من هذا النوع ؟ ، هذا فى الطعام وكذلك فى اللباس ، فجميع ما كنا نلبسه جله من ثياب بدنه رضي الله عنه ، فكم والله اكتسبت منها وكم تجملت بها ولم تزل عندي مع ما انضاف اليها من ثياب الموالي أولاده رضي الله عنهم ، حتى استولت عليها يد العداء (7) وحصلت مع ما حصل فى جملة ما استلبه من أنصف الله تعالى منه وأخذه على يد مولانا القائم بالحق رحمه الله للخلق مولانا أمـير المسلمين فـارس ، ضاعف الله أجـره وأجـزل ذخـره وأيـد نصره وأعلى قدره وأسمى فخره بمن الله وفضله ، وكانت عدة أحمـال ولو استقصيت طرحه الحشمة م ع من والاه وما يتحفهم به لاستقل بذلـك تأليف ❋ .

7 ــ العدوان : فى «ر» .

الباب الثلاثون

في مقابلة الهدايا والتحف يفوق ما يؤمله المؤمل من ذلك

هذا الباب يشتمل على فصل واحد وسيأتي الكلام في فضل الهدية ومشروعيتها في باب هداياه رضي الله عنه للملوك ان شاء الله تعالى .

كان طريق مولانا رضي الله عنه يثيب على الهدية وسيأتي أن هذه سنة مأثورة وسيرة نبوية مشهورة ان شاء الله في الباب المذكور . فاستمرت على هذا العمل عادته وجرت عليها نفعه الله سنته . أهدى له الفقيه الحسيب أبو عبد الله محمد (1) ابن الفقيه الرئيس أبي زكرياء العزفي ، رحمه الله ، كتابا ألفه في ذم الخمر ومعايبه ، وهو من أنبل الكتب وأجلها ، فاستحسنه من مثله رضي الله عنه ، وكان قد تخير نسخه بخط فاخر فجاء سفرا ضخما في ضخم التهذيب المدمج فأمر أن يجعل له في كفة والدراهم من دار السك في الجهة الأخرى . وأهدى اليه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن السيل التعاليمي أسطرلابا من عمله كبيرا ، فاستحسنه ، فبينما هو يستحسنه أنشده الفقيه قاضي الجماعة أبو اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى عجز البيتين المشهورين : (من البسيط) « أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه » ، وذكر له قصتهما . فدعا بخازنه ، فأحضر وأمره بأن يجعله في كفة ودنانير الذهب في كفة . وأهدى اليه رجل من المشرق زجاجا كثيرا له قيمة وبال ، فأمر به * فقوم فدفعت له القيمة / وزجاجة . وهذا كان أكثر فعله يثبت عليها ويردها لأربابها لينتفعوا بها ، الا ما كان مما يهديه من هو من حاشيته وخدامه والملوك . واستقصاء الوقائع في هذا يطيل ما قصد به الاختصار .

1 ـ محمد : غير موجود في «ر» .

الباب الحادي والثلاثـون

فى المنقبة الشريفة ، التي هي من جمال الملوك وفى حلاهم المشرقة وسطى السلوك ، وهي الوفاء بالعهد (وفيه فصول)

الفصل الأول
فى فضل هذه الخصلة (1) الشريفة والمنقبة الرفيعة

قال الله تعالى : «وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » . وقال تعالى : «وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا وأوفوا بالعقود » . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما تفعلون » ، الآية .

وروينا فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » ، (متفوق عليه) . وعن جابر بن عبد الله عنهما قال * : « قـال لـي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، اذا اؤتمـن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » . (متفق عليه) . وعن جابر عن عبد الله رضي الله عنهما قال : « قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » ، فلم يجيء مال البحرين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضي الله عنـه ،

---

1 ــ الخصلة : غير مووجد فى «ر» .

فنادى فى الناس : « من كانت له عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عدة أو دين فليأتنا » فأتيته وقلت : « ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لي : « كذا وكذا » ، فحثى لي حثية ، فعددتها ، فاذا هي خمسمائة فقال : « خذ مثلها » (متفق عليه) . وحكى الحافظ أبو عمر (2) عن اسماعيل عليه السلام : « اذا أثنى عليه بقوله انه كان صادق الوعد » ، قال : « قال كعب : كان لا يعد أحدا شيئا الا أنجزه » ، قال : « وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم / انتظر رجلا وعده فى موضع (3) من طلوع الشمس الى غروبها » .

وقال الشاعر : (من البسيط)

فلا تعد عدة الا وفيت بها ولا تكن مخلفا يوما لما تعد

وفى ذم خلف الوعد قيل : (من الطويل)

وان جمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل

وقال ابن زهير : (من البسيط)

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها الا الأباطيل

ولآخر : (من الطويل)

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيثرب *

قال الكلبي عن أبيه : « كان عرقوب رجلا من العماليق ، فأتاه أخ له فسأله شيئا ، فقال له عرقوب : « اذا طلع نخلي فائتني » . فأتاه

---

2 – عمرو : فى «ر» .

3 – فى موضع : غير موجود «ر» .

وقال له : « اذا أبلح » . فأتاه حين أبلح ، فقال له : « اذا أزهى » . فلما أزهى أتاه ، فقال له : « اذا أرطب » . فلما أرطب أتاه فقال له : « اذا أتمر » . فلما صار تمرا جده ليلا ولم يعطه شيئا ، فضرب العرب به المثل فى خلف الوعد . وقال غيره : « عرقوب جبل مظلل بالسحاب ولا يمطر شيئا » .

وقال الحكماء : « من خاف الكذب ، أقل من المواعيد » . وقالوا : أمران لا يسلمان من الكذب : كثرة المواعيد وشدة الاعتذار » . ولعمر ابن أبي ربيعة : (من الرمل)

ليت هندا أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد
ولقد قالت لجارات (4) لها   ذات يوم وتعرت تبترد (5)
أكما ينعتنني تبصرنني   عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها   حسن فى كل عين من تود
حسد حملنه من أجلها (6)   وقديما كان فى الناس الحسد

وقال عباس بن الأحنف : (من الكامل)

ما ضر من قطع الرجاء ببخله   لو كان عللني بوعد كاذب *

قلت : وأنشدني بعض أشياخي بالديار المصرية ما ينظر بمعنى هذا البيت الذي أنشدته لعباس : (من الرمل)

أيها الماطل ديني   أملي ومماطل
علل القلب فاني   قانع منك بباطل

4 ـ لجارة : «ر» .
5 ـ للنشر : فى «ا» .
6 ـ شأنها : فى «ر» .

/ وقد عني (7) جماعة من أصحابي بتخميسهما حسبما أودعته في غير هذا .

الفصل الثاني

كان امامنا رضي الله عنه أوفى من شاركه في خطته بعهد . كان من واقعة القيروان ما لم يخف علمه من تمالىء العرب واجتماعهم على الغدر به والنكث لعهده ، وتحزبهم عليه حتى تخلص رضي الله عنه على الوجه المشهور والأمر المعروف ، فدخل الى (1) تونس واستقر بها ، وورد عليه من تولى كبر هذه الخدعة من أولاد أبي الليل جميعا ، ولم يتخلف منهم غير واحد منهم بقي في الغابة ينتظر الاذن ، أو يرى ما يفعل بقومه . فدخلوا بمن أقاموه خليفة بينهم وهو أحمد بن أبي سعيد عثمان بن أبي دبوس ، وقد غدروا به وجاؤوا به مقبوضا عليه ، فلما مثل بين يديه وصرفه (على الوجه الذي قدمنا ذكره) حانت صلاة الظهر ، فدخل رضي الله عنه من رحبة الصلاة في المجاز للمقصورة ، فعرض له في أثنائها الأشياخ منصور بن أبي طالب بن مهلهل وأبو هلال الكثري ويحيى بن حرون الظاغني فأكبوا على قدميه وقالوا : « يا مولاي ، قد أمكنك الله ممن عمل ما عرف من غير عهد ولا توثقة ولا أمان منك ولا من * خدامك ، ولم يبق من الجميع الا فتينه وها هو في الموضع الفلاني ، ومعنا جميع أشياخ كعب وعلاق وأمكنك الله من الجميع ، فخذهم ونحن معهم واملأ منهم جفنا من أجفانك ووجهنا (2) لبلادك يصف (3) لك هذا الاقليم ونسترح من الشغب للأبد ولست على هذا بملوم ». فنهرهم رضي الله عنهم

7 ـ عمد : في «ر» .
1 ـ الى : غير موجود في «ر» .
2 ـ وجهها : في «ر» .
3 ـ يصفو : في «ا» .

نهرة سمع صوته على بعد ، وقال لهم : « والله لو باشرني بهذا أحد من خدامي ونأسي لعاقبته أشد عقاب ، هذه عوائدكم أنتم فى بلادكم هذه وأما أنا ، فأرجو الله أن ألقاه بغير خيانة ولا خفر عهد » . فقال له بعضهم : « يا مولاي ، وأي عهد سبق لهم ؟ » ، فقال : « انما قدموا على ذلك لأنهم علموها عادة منا ، فأقدموا على ما فعلوه وثوقا بما استفاض عنا ، فهذا بمنزلة العهد ، انصرفوا فى كرامة الله ، وقد عرفت لكم قدر نصحكم وحبكم » . وذاكرت بهذه الحكاية صاحبنا المرحوم أبا زيان عريف بن يحيى رحمه الله فقال لي : « هذا بعينه جرى له فى القيروان وهو محصور وقد حاولت على فتيته حتى دخل ووجهت له رضي الله عنه بمثل هذا المعنى ، فلما دخل قدم أخوه عمر وجميعهم على موافقتهم له على الدخول » ، وقالوا : « ان أمسكه تمكن من رقابنا كلنا » / فدخل على اختياره وخرج بكسوته رضي الله عنه ومركوبه ، فما كان الا أن (4) دخل تقدم اليه من حضره وقال له (5) : « يا مولاي ، قد مكننا الله من عدونا فما ضرنا لو أن أمسكناه * حتى يرتحل هؤلاء » . فأجابهم بمثل جوابه الذي حضرته . قال : « وبعث لي بمثل هذا الجواب ، فلما خرج على هذا الوجه لم يستقر ببيته حتى عاد لخلافه وزحف بقية يومه للقتال » (فرحمة الله على مولانا وجزاه خيرا) .

ومن هذا ، لما نزلنا بظاهر قسنطينة وقد استقبلنا افريقية ، تلقاه رضي الله عنه سائر طوائف أشياخ العرب على اختلافها من رياح (6) وسليم جميعا ، فاجتمعوا فى خباء الساقة ، فاجتمع المرابط الأنصح الأصلح أبو راشد يعقوب بن علي بن أحمد ، وهو شيخ أولاد محمد

4 – أن : غير موجود فى «ر» .
5 – له : غير موجود فى «ر» .
6 – رياح : فى «ر» .

من رياح (7) الدواودة بل شيخهم جميعا ، وعبد الكريم بن منديل السدويكشي والفاضل الكبير أبو يعقوب يوسف بن منصور بن مزني بالشيخ أبي زيان عريف بن يحيى ومصنف هذا معه فقالوا : « لنا نصيحة نؤديها الى مولانا رضي الله عنه » . فسألناهم فقالوا : « قد أمكنه الله من جميع طوائف العرب وشرار الوطن الذين أخربوا البلاد وخرقوا المعتاد وأظهروا فى الأرض الفساد ، فلو قبض عليهم قدم على افريقية وقد خلت من الشرار وأمنت من الفساد طول الدهر » ، فدخل اليه من دخل منهم ، فأجابه بمثل ما قدمناه .

وقد قدمت حكاية الجنويين الذين دخلوا سبتة بغير عهد ولا وعد ، فكان من جوابه مثل هذا . فعلى هذا الأسلوب * كان يجري وهذه السيرة كان يسلك نفعه الله ونفع به بمنه وفضله .

الفصل الثالث

فى انجازه الوعد ووفائه به

هذا كان سبيله رضي الله عنه . رأيت يوما رجلا من الحشم من بني فودود وقد رفع له يخبره أنه عقد النكاح وأن مولانا نصره الله كان وعده بالانكاح . فقال رضي الله عنه : « يعلم الله ما أذكر هذا ولكني لا أرده » . فأمر له بصداقه . وصداقهم معروف القدر ، ما سمعت من يتغالى فى الصدقات تغاليهم . وأمثال هذا لا يحصى كثرة نفعه الله بذلك .

7 — رباح : فى «ر» .

الباب الثاني والثلاثون

فى رعايته لذوي الأقدار والأحساب وشفقته عليهم (وفيه فصول)

الفصـــل الأول

فى الأدلة الدالة على هذا المعنى

قد قدمنا فيما أسلفناه مما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنزلوا الناس منازلهم .. » وسلف ما في ذلك كله .

الفصــــل الثـــــاني

فيما شاهدناه من لحظه لهذا المعنى ، وان تعجب فاعجب مما تقف عليــه ان شاء الله تعالى

حضرت بين يديه يوما بمجلسه السعيد من مشور مراكش بالقبة المحملة على الساقية وقد جرى ذكر الموحدين وآثارهم وانقراض دولتهم رحمهم الله فقال : « ترى هل بقي فى هذه المدينة أحد من ذريتهـــم وعقبهم ؟ » . فقال الفقيه أبو الفضل بن أبي مدين * وغيره : « نعـــم يا مولاي ، ها هنا شيخ ظريف المنزع ، حسن الهيئة ، سري الهمة ، متعفف ، متقلل صالح ، ملازم (1) لمواضع الخير ، قد طعن فى السن وقارب الهرم » . فقال لهم : « وبماذا يتعيش ؟ » فقالوا له : « سبب ضعيف » . فقال لهم : « ولم لم يجر له من المخزن ما يتعيش به » . فقالوا : « ما نعلم له سببا » . فقال : « علي به الآن » ، وهذا بعد طلوع الشمس ،

1 ــ متعففا متقللا صالحا ملازما : فى «ا» .

وكان ذلك فى شهر رمضان ، فذهبوا فى طلبه ، فغير بعيد واذا به قد استؤذن عليه ، فدخل ، وكان شيخا ظريفا ، حسن السمت والشكل ، لطيف الخلق ، ظاهر السن ، منحنيا انحناء يسيرا ، جميل البزة ، فاستقبل الخلافة بما يجب لها وعمل عمل أبناء أكابر الملوك . فقربه مولانا رحمه الله وأدناه وأجلسه بين يديه (2) حذاء خاصتهم أبي زيان عريف فأقبل على سؤاله عن حاله ، فأجاب (3) بحسن عبارة وحلاوة منطق : « عبدكم يتقلب فى أنعم الله عز وجل ببركة ايالتكم وعموم رحمتكم » . فسأله عن نسبه ، فأخبره أنه أبو جعفر بن فلان بن يحيى بن المنصور . ثم سأله هل يعلم من عقبهم بمراكش غيره ذكرا أو أنثى ، فأجاب بأن لا . ثم سأله من أدرك من أسلافه الخلفاء ، فأخبره بأنه أدرك أيام السعيد بعمره وأنه يذكر أيام * المرتضى تفصيلا . فسأله عما عرض له . فأجابه أبلغ جواب وأحسنه وحاضره محاضرة جميلة واستحضر نبذا صوفية وأبياتا حسنة وكرامات لبعض الصالحين بحسب ما اقتضته المحاضرة الوقتية ، فبينما هو كذلك اذ بالمستأذن يستأذن على الحاج أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي يعقوب عم مولانا وهذا / هو الذي كان قدم للخلافة ثم خلع فى مجلسه وبويع لمولانا أبي سعيد حسبما تقدم ، فأمر مولانا رضي الله عنه ثقتهم الأرضى وحاجبهم الأقرب أبا حسون علال بأن يأذن له فى الدخول ، فدخل وهو المعروف بعثمان بن قضيب فجاء يخب ، وكان قد ظهر عليه السن والكبر ، فصافحه مولانا رضي الله عنه وأكرمه وأجلسه الى جنبه يمنة ، ثم سأله عن حاله ، فشكر النعمة ودعا وقال : « تعرفت مقدمكم على هذه المدينة ، فمن حين قدومكم و (4) أنا أهم بالدخول للسلام عليكم وأداء شكر نعمتكم فيمنعني ما ترونه من حالي » . وكان مستقره فى موضع سوغه له مولانا

---

2 — يديهم : فى «ر» .
3 — فأجابه : فى «ر» .
4 — و : غير موجود فى «ر» .

رضي الله عنه بأحواز مراكش (5) فأنسه ، ثم أقبل مولانا على الشيخ أبي جعفر فقال له : « يا شيخ ، متى عهدك بهذا الموضع ؟ » فقال : « يوم عيد الفطر من سنة كذا دخلنا على سيدنا أمير المؤمنين المرتضى للسلام عليه ، واجتمع جميع القرابة منا بين يديه » ثم التفت لأبي سعيد فقال له : « وأنت ؟ » . فقال : « دخلت على مولاي أبي يعقوب (يعني والده وسلمت عليه يوم عيد مثل ما قال هذا) . فأنشدت للحين متمثلا :

(من الطويل) .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجرود العواثر

واستعبرت فاستعادهما مني مولانا المرحوم ، فأعدتهما وقلت : « لا اله الا الله ، هذا لسان كل واحد منهما في هذا الموضع » . فاستعبر مولانا والحاضرون . وكان قد أسر لثقتهم أبي حسون والفقيه أبي الفضل شيئا ما عرفنا ما هو . فانصرف أبو سعيد مكرما ملحوظا ، وقد أمر له بكسوة فاخرة وباحسان له ولأهله وأولاده ، فبينما نحن في المجلس وقد استحلى مولانا رحمه الله تعالى ❊ كلام أبي جعفر اذ بثقتهم أبي حسون قد أقبل ، فأشار اليه بيده كالمستفسر ، فأشار أبو حسون برأسه أي (6) نعم ، فدعا أبو حسون (أدام الله عليه حرمتهم) (7) بالشيخ وأقامه فتوارى عنا فاذا به قد أقبل بلباس مولانا نصره الله (8) فعاد ملكا في هيئته ، ثم دعاه الى سقيف دار الحزب فاذا بزوجته ، وكان قد سأله : « **هل لك أهل؟** » فقال: « **عجوز تقوم بي**» فذكرت / بخير ، فتوجه لها فتى من الصقالبة فجاء بها ونحن

5 ـ من هنا الى بداية اللوحة 215 لا يرد في «ر» .
6 ـ أن : في «ر» .
7 ـ غير موجود في «ر» .
8 ـ رحمه الله : في «ر» .

لا نشعر ، فخرجت وقد لبست من ثياب أهل مولانا وقدمت لها بغلة فارهة يقودها وصيف على أحسن زي وأجمله وجيء بشد من ثياب جدد للتفصيل برسم الشيخ ، فقدم بين يديه وبخريطة من ذهب قريبة العهد بالضرب وبخريطة من دارهم وقدم هذا كله بين يدي الشيخ . ثم دعي بابن أبي عمرو الوالي كانا بمراكش ، فقيل له : « خلصت ما أمرت به ؟ » قال : « نعم » ، فقيل للشيخ : « بسم الله » ، فقدمت له رمكة من مراكب الخلافة بجهاز سلطاني ، فركب الشيخ والوالي بين يديه يقدمه (9) الى دار قد اشتريت له باسمه من أحفل الدور ، واذ هي قد اشتملت على جميع ما يستعد في مثلها من سائر المتاع وأنواع المرافق من الفرش الرفيع الى الاواني والخدم ، فدخل الشيخ وقبض عقد الدار وجميع ما اشتملت عليه ، ثم دعا لأداء شكر هذه النعمة فأجلسه مولانا الى جنبه وقال له : « هذا موضعك ، تتردد الينا وتتعاهدنا بزيارتك ومحاضرتك وترفع الينا جميع حوائجك » . فبالغ الشيخ في الشكر ومنعه من تقبيل قدميه ومن تكرار تقبيل يديه واستطرد الشيخ الكلام الى أن ذكر والده وأمه ومحبتهما فيه وبروره بهما ، فقال في كلامه : « وقد أخذ علي عهدا أن ألازم الدار التي كانت سكناهما وولدت فيها وهي اليوم خراب ، فعاهداني عند موتهما على تعاهد هذه الدار ، والوقوف عليها غدوا وعشيا والدعاء لهما ، فأنا أفعل ذلك فربما أبطيء فيهذين الوقتين ، فهذا يمنعني ». فاستضحك * مولانا رضي الله عنه ، وكان رضي الله عنه هو الذي فهمها دون جميعنا ، ثم التفت رحمه الله لأبي زيان عريف وقال له : « فهمت غرض الشيخ ؟ » فقال له : « لا » . فقال له : « هذا الشيخ توهم أن تقريبنا له وأمرنا بتعاهدنا كل وقت يوجب أن نحمل عليه السفر معنا ، فانه سمع أن أهل الحضرة لا يفارقوننا سفرا ولا حضرا ، فقدم هذه المعذرة قبل أن نعرض عليه هذا ، ألله يا شيخ ، أهكذا ؟ » هو قال :

9 ـ بين يديه يقدمه : غير موجود في «ر» .

« نعم ، والله يا مولاي » . فقال له : « كن آمنا من هذا وأوف بعهد أبويك ، وتعاهدنا مدة اقامتنا بهذا الوضع وادع لنا في الغيبة » . فبكى الشيخ وزاد في الشكر . فلم يزل يتعاهد المجلس ، والاحسان يتعاهده والطعام في كل ليلةيصل اليه / والتحف والألطاف حتى صدرنا عن مراكش ونحن لا نعلم له حالا بعد . ودعونا لمولانا يوم أحسن اليه بمن أحسن، فقال: « أليس من ذوي الأحساب ومن أبناء الملوك وممن خانه الزمان ، فان لم يصنع المعروف مع مثل هذا والا فمع من يصنع ؟ » . فهكذا هي المفاخر .
ولقد ذكرتني هذه القصة قصتين ذكرهما أهل التاريخ ، احداهما قصة الامام العلامة النحوي عيسى بن عبد العزيز بن يلبخت (بفتح الياء المسفول وفتح اللام المشدد ، قالوا وهو مقتضب من يــلا البخت ومعنى يلا ، في لسان المصامدة له أو عنده والبخت السعد) الجزولي وهو المشهور المعروف ، كبير النحاة من غير مدافع ، جمع بين العلم والانتهاء في الزهد والورع نفع الله تعالى به . لما نمي للمنصور من بني عبد المؤمن خبــره وقرر له ما هو عليه من الدين والزهد والورع والتقشف والاعراض عن الدنيا والانقطاع الى نشر العلم والبعد عن التعرض لأهل الجاه من الامراء والولاة ، وكان دأب عبد المؤمن وبنيه التنفر عمن هذه حاله والكشف عن باطن أمره متخوفين ثورته وخروجه عليهم ، فأمر كبير وزرائه أبا زيد بن يوجان ونقيب طلبة العلم حينئذ أبا القاسم بن أبي محمد المالقي ، فأمرهما بالتوجه اليه واحضاره * بين يديه ، وأوعز الى وزيره أنه ان وافقه على الوصول معه استصحبه مكرما مبرورا ، وان بدا منه تأب أو تلكؤ ضرب عنقه في مجلسه وجاء برأسه ، فتوجها اليه ، فلما دخلا عليه أما نحوه ، فلم يعبأ بهما ولا عرف من هما وظنهما ممن قصد اليه لاقتباس العلم ، ولما انتهيا اليه ، سلما عليه ، فرد عليهما السلام ومر في ما أوقع في نفوسهما اجلاله ، ثم دنا له الوزير وقال له : « أجب أمــير المؤمنــين فاننا رسولاه اليك » ، فسبحل وحسبل وحوقل وقال : « ما لي وللأمير

المؤمنين ؟ » وأخذ يكررها . فتشاغل عنه الوزير بالتكلم مع بعض من وليه من حاضري مجلسه من طلبة المجلس وأشار اليه (10) نقيب الطلبة بأن يهون عليه اجابة الدعوة والعمل على مرضاة أمير المؤمنين ويعرض له بما تجر له (11) الاباءة من ذلك مما يحذر عليه ، فلم يزل يستلطفه ويستعطفه حتى أجاب لما دعي اليه على كره منه وتوجه معهما وأخذ أبو القاسم يؤنسه ويلقي اليه صورة لقائه المنصور كيف يكون / ويؤكد عليه في موافقة أغراضه حتى انتهيا الى مجلس المنصور ، فدخل عليه متلفعا في عباءة مؤتزرا بقطعة ثوب صوف ، فعجب من هيئته واختبره بكل وجه واستنطقه ، فألفاه أحد رجال الكمال فصاحة ودينا وفضلا وعلما ، فقربه وأدناه ولاطفه في المكالمة حتى أنسه وأمره بنزع ما عليه من الثياب ولبس كسوة كاملة قد أعدت له ، فامتثل الامر عملا على اشارة أبي القاسم ، ثم صرفه مكرما منوها به وأصحبه الفقيه أبا القاسم بن المالقي مؤنسا له ، فلما انتهينا الى باب السادة ، أحد أبواب القصر للقصبة الى داخله وخارج مراكش ، قدمت اليه بغلة فارهة قد عينت لركوبه ، فأشار عليه أبو القاسم بركوبها وتوجه معه نحو مراكش حتى دخلا على باب القصر ، وهو الجاري عليه اسم باب الرب ، وأبو موسى لا يعرف أين يتوجه حتى أفضيا الى دار بمجلة هرغة ، فدخلا اليها ، فوجداها مشتملة على جميع ما يحتاج اليه طالب العلم * المتمرن من كتب العلم منوعة الفنون وعبيد واماء وبسط وفرش ومعلقات ومواعين وأثاث وخرثي وأطعمة على اختلافها وتوابل ووقود وفخار وغير ذلك ، ولما استقرا بالدار ونظراها علوا وسفلا واطلعا على جميع ما فيها أعلمه أبو القاسم أنها وجميع ما اشتملت عليه له ، وأسلمها اليه وأقره فيها وانصرف عنه ، ولم يزل أبو موسى بعد ذلك شديد التمكن عند المنصور ، ولم يزل المنصور شديد العناية بأبي موسى ،

---

10 ـ الى : في «ر» .

11 ـ اليه : في «ر» .

راعيا له مقتضى عوارفه لديه متعهدا أحواله متبركا به وبرؤيته وقدمه للخطبة في جامعه الاعظم المتصل بقصره حين أتم بناءه ، وكان أول خطيب خطب به واستمرت حاله معه على ما ذكر من التنويه واعتقاد الخير التام فيه ، ولما حضرت المنصور الوفاة عهد الى بنيه أن يتولى غسله . (تكملة) : حكى ابن عبد الملك في تكملته أن الصالح الورع أبا سعيد يخلفتن بن تنفليست المترازي رحمه الله متى أشكل عليه شيء من علم العربية تعرض لأبي موسى في طريقه التي جرت عادته بالمرور عليها من داره متوجها الى المنصور أو منفصلا عنه ، فيستفتيه فيما يعرض له ، وأبو موسى راكب فيهم بالنزول اليه والمواعدة معه في الوصول الى منزله والاجتماع به (12) في أحد المساجد / القريبة من موضع تلاقيهما والوقوف معه حتى (13) يفرغا فيأبى ذلك أبو سعيد الا مماشاته على قدميه وأبو موسى راكب ، فكان أبو موسى يقلق لذلك كثيرا تواضعا منه واجلالا لأبي سعيد ولا يسعه الا مساعفته ، فيأخذ معه فيما قصد اليه بسببه حتى يقضي أربه وينفصل عنه أبو سعيد متأسفا عليه مسترجعا قائلا : « أي رجل استمالته الدنيا واستهواه زخرفها » . وكان هذا القول من أبي سعيد بناء على حالته التي ستره الله فيها وأعانه عليها ، والا فأبو موسى رحمه الله لم يتلبس من الدنيا الا يتظاهر (14) به بين أبنائها تقية منه على نفسه فأما في باطن أمره وخفي حاله ، فانه كان على أرفع درجات الزهد والتقلل من الدنيا ، نفعه الله * ونفع به . وكان أبو سعيد هذا كبير الشأن أيضا نفع الله بجميعهما بمنه .

والقضية الأخرى نسبها بعضهم لأبي مروان بن زهر ونسبها آخرون لغيره وهو أن أحد خلفاء بني عبد المؤمن سمع به وثبت عنده مكانه من

12 ـ معه : في «ر» .
13 ـ حتى : غير موجود في «ر» .
14 ـ يتظاهره : في «ر» .

العلم وحسن مشاركته وجودة اطلاعه على علوم من علوم الأوائل مع حفظ حظ وافر من العلوم الشرعية ، فأشخص وأقدمه على حضرته ، قالوا : فلما قدم عليه استنطقه ، فأعجبه واستحسن مذاهبه ، وكانت فيه مع ذلك مداعبة ، فسمع أهل الحضرة يتخاطبون بينهم باللسان المصمودي ، فتشوق لتعلمه وقال : « يا سيدنا ، أمير المؤمنين ، غبطت اخواني الذين يشاركون فى فهم هذه اللغة فلو أذنتم للمملوك فى تعلمها » . فأجابه الى ذلك وأمر أن تكتب له تلك اللغة . فغاب زمانا وحضر يوما بين يدي الخليفة فقال له : « ماذا صنعت فى تعلم اللسان ؟ » فقال : « يا سيدنا، صعب علي تعلمه ولي زمان طويل أحاول فهمه وتعلمه ، فلم أحفظ منه الا لفظة واحدة فى هذه المدة الطويلة . » فقال : « وأي شيء هي هذه اللفظة ؟ » فقال له : « يا مولاي ، أوش » . فضحك الخليفة وقال له : « السمع والطاعة » . (ومعنى هذه اللفظة : أعطني) ، فأعجبه ذلك وأعطاه ما أرضاه ، ثم قال : « امض على تعلمك . فغاب عنه قدر تلك المدة وأكثر ، ثم جاء فسأله : «هل علمت (15) شيئا ؟» فقال : « نعم ، يا مولاي، لفظة أخرى » . « فقال : « وما هي ؟ » قال : « أرنوا » . فضحك وأعجبه وقال له : «السمع والطاعة . » وأعطاه وضاعف له العطاء (ومعنى هذه اللفظة / فى ذلك اللسان : زدني) . ثم قال له الخليفة : « ان وجدت لهما ثالثة فافعل » . قالوا : ولما طال به المقام عنده ، اشتد وحشه لطفل صغير تخلفه فى الأندلس ، فتذاكر يوما بين يدي الخليفة شوقه لولده فأنشده * : (من المتقارب)

ولي واحد مثل فرخ القطا صغير قليبي رهين لديه
لقد طال شوقي فيا وحشتاه لذاك الشخيص وذاك الوجيه

---

15 ـ تعلمت : فى «ر» .

تشوقتـــــي وتشوقتـــــه فيبكـــي علـــي وأبكـــي عليـــه
لقــد تعــب الشـــوق مـــا بيننـــا فمنـــه الـــي ومنـــي اليـــه

قال: فقال له: « يجمع الله بينكما ان شاء الله ». ثم قال له : « اذا تعرفت ان أحدا من قوادنا وخدامنا يتوجه لعدوة الأندلس ، فارفع الينا ذلك ليؤمر بوصوله اليك » . ولما خرج وانفصل المجلس دعا الخليفة (رجلا) (16) يقال بابن مسعود واحضر بين يديه وقال له : « اني أكلفك أمرا لا بد منه فان أتيت به على الوجه الذي أحده لك والا ضربت عنقك » . فقال : « الاستعانة بالله ونية سيدنا أمير المؤمنين وما هو يا مولاي ؟ » فقال : « اذا كان مثل هذا الوقت من مثل هذا اليوم من الجمعة المقبلة ولم تأتني بما أكلفك به ، أوقعت بك ما توعدتك عليه ، فلتذهب الآن الى سلا تصل فى ذهابك الليل والنهار فاذا وصلت اليها ، دفعت قطعتين من أجفانـك وتتوجه فيهما الى اشبيلية ثم الى الموضع الذي عينه له وفيه أهل ابن زهر ، فاقصد الى داره واحمل جميع أهله فى القطعتين ، فاذا وصلت الى سلا فاحمل جميعهم على ما يليق بهم من المطايا والظهر مكرمين ملحوظين معاملين بما يعامل به أهل أمير المؤمنين ، وهذا فلان الصقلبي يخرج فى اليوم المعين لك فى الساعة المعينة ، فان وافقك قد وصلت الى الحضرة والا فيأتني برأسك » . فودعه وانصرف لينفذ ما صدر به الأمر العلي عنده فعمل ما مر به على الوجه (17) * الذي عين له والعمل الذي حد له ، فلما كان فى اليوم الموعود وحان الوقت ، دعا الخليفة بالفتى الصقلبي وقال له : « اخرج للقاء فلان فان ألفيته هنا خارج (18) الحضرة بحاجته فخذ الولد منه وائتني به مختفيا والا فتوجه على طريقه ، فحيث لقيته فجئني برأسه » . فخرج المأمور الى لقاء من ذكره ، فألفاه حذاء سور

16 ـ « كذا » (ملاحظة على هامش نسخة الرباط) ، يعني : بدون كلمة بين « الخليفة » و « يقال » .

17 ـ «بقي من هنا أوراق كذا فى النسختين» (ملاحظة فى «ر») .

18 ـ بخارج : فى «ر» .

البلد / فأخذ منه الصبي وجاء بـه الـى الخليفـة ، فلمـا وصـل به اليه جعله خلف ستر واستدعى نائبه ، فلما حضر ، سأله عن حاله وعن شوقه ، فعاد الى ذكره وشوقه ، فقال له : « أرأيت ان حضرك الآن » ! فقال : « هيهات يا أمير المؤمنين » ، فدعا به الخليفة ، فخرج من وراء الستر ، فلما أبصر به لم يهش اليه ولا أظهر سرورا به ، فقال له : « أليس هذا هو » ؟ فقال : « نعم يا أمير المؤمنين ، ولكني اشتهيته فى ذراع أمه » . فقطب الخليفة فى وجهه وقال له : « فقم حتى ينظر فى أمرك » فأخذ بيده الفتى وأخرجه . قال : « فما شككت أنه خرج بي للايقاع بي أو لاتلافي بالكلية ، اذ لم أشكر صنيعه ولا ظهر علي المعرفة بقدر ما عمل معي » ، قال : « فخرج بي عن القصر جملة وأنا أزيد ظنة وخوفا ، ثم مر بي لناحية فيها يعاقب من يعاقب ، فلم أشك فى الشر وأيقنت بالهلاك ، فرجعت على نفسي بالملامة ثم أشغلتها بالذكر والدعاء * فأفضينا الى دار شامخة البناء ، فلما دنونا منهـا فتحت ، فاذا هي ذات رحاب ، فوجدنا فيها بعض الخدام » ، قال (19) : فقلت : « وفى القضاء لطف ، هذا ثقاف تكرمة » . ثم فتحت الابواب الداخلة ، فخرج فتى حسن البزة والهيئة ورجع عني الموكل بي » ، قال : « فقبل هذا الفتى قدمي . فقلت له : « من أنت ، ومن أنا عندك ؟ » فقال : « ألست بفلان ؟ » قلت : « نعم » . قال « أدخل » . فلما هممت بالدخول ، اذا بامرأتي قائمة بالباب وولدي فى ذراعها وقد لبست لباس الملوك ، فدخلت الى دار عظيمة قد اشتملت على جميع ما تشتمل عليـه دور المعتبرين الذين تمكنت حضارتهم وعافيتهم وعظمت أموالهم من الرقيق والفرش والغطاء والوطاء والتخوت من الثياب والامتعة المنوعة والكتب المختلفة . (هذه الحكاية فى محفوظي تلقيتها بهذا المعنى من شيخنا الفقيه أبي اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى . ووقفت على هـذه

---

19 ـ فقال : فى «ر» .

الابيات منسوبة لغير المسمى باختلاف ألفاظ ووقفت بعد على من عرف بالمسمى وأهل بيته ولم أقف فى أخبارهم على هذه الحكاية ، وايـراد مثلها لا يهمل فى التعريف ، لاسيما ابن عبد الملك وابن الأبار وغيرهما ، ورأيتها فى بعض التواريخ منسوبة لغير من ذكر فالله أعلم) . قلت : وانما أوردت الحكايتين لمناسبتهما لقضية امامنا مع أبي جعفر على أني أقول (20) ان قضية / امامنا رضي الله عنه أكمل فى بـاب المكرمـة * وعلى الفضل أدل وذلك أن كل واحد مـن الرجلـين الجزولـي وابن زهر محتاج اليهما و (21) يفتقر الى علمهما ويستفاد ما لديهما من علم النحو والطب وما انضاف الى ذلك فهذه المعاملة التي قوبل بها على سبيل الاستجلاب للاستفادة منهما فهي معاوضة وعطية فى مقابلة فائدة وما ظهر من امامنا رضي الله عنه لا يقابله عوض ولا تجتنى بازائه منفعة الا مجرد الفضل وقصد وجه الله عز وجل . فامامنا رضي الله عنه أتم منهما فضلا وأوسع منهما كرما وأخلص الله منهما عملا فرضي الله عنه ونفعه ونفع به وحسبنا الله ونعم الوكيل .

20 ـ نقول : فى «ر» .

21 ـ أو : فى «ر» .

الباب الثالث والثلاثون

فى سبيله رضي الله عنه فى الاستخارة والرأي والمشورة

وهذا باب عظيم وقاعدة جليلة يفتقر اليها وتتفاوت الملوك فيها ، وقليل منهم من وفقهم الله اليها وعمل بمقتضاها وسلك سبيلها ، فحمد عقبى أمره ، وكثير منهم آثر الاستبداد فظهرت عاقبة خسره (وفيه فصول) .

الفصل الأول

فيما يدل على فضيلتها وطلبها شرعا

اعلم أن أفضل الخلق عند الله المعصوم بعصمة الله ، المحفوظ بالله ، المخبر عن الله ، المؤيد بروح القدوس من عند الله ، محمد رسول الله ، قد أمره الله (عز وجل) بهذه الخصلة فى محكم كتابه ، فقال تعالى مخاطبا له : « وشاورهم فى الامر » . وعلمنا صلى الله عليه وسلم الاستخارة ❊ فاذا هما مقدمتان بين يدي الاعمال الاستخارة والمشاورة . روينا فى الصحيح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الامور كلها كالسورة من القرآن يقول : « اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي فى ديني ومعاشي

وعاقبة أمري (وقال : وعاجل أمري وآجله) فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وان كنت / تعلم أن هذا الامر شر لي فى ديني ومعاشي وعاقبة أمري » (أو قال : عاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني وأصرفني عنه وقدر لي الخير حيث كان ، ثم أرضني به) (قال : ويسمي حاجته) (أخرجه البخاري) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « ما شاور قوم الا هداهم الله لأرشد أمورهم » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « لن يهلك امرؤ عن مشورة » . وعنه رضي الله عليه وسلم : « المستشار مؤتمن » . (ذكرهما ابن عبد البر) .

الفصل الثاني

فى الآثار الواردة فى الباب والحكم والأناشيد

قال * الحسن : « ان الله لم يأمر نبيه عليه السلام بمشاورة أصحابه حاجة منه الى رأيهم ولكن أراد أن يعرفهم ما فى المشورة من البركة » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « شاور فى أمرك من يخاف الله (عز وجل) » . وقال عمر رضي الله عنه أيضا : « الرأي الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع » .

وقال الاستاذ أبو بكر ابن الوليد رضي الله عنه : « اعلموا أن المستشير وان كان أفضل رأيا من المشير ، فانه يزداد به رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوءا ، فلا يقعن فى روعك أنك اذا استشرت الرجل ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك ، فيقطعك ذلك من المشاورة ، فانك لا تريد الرأي للفخر به ولكن للانتفاع به وان أردت الذكر كان أفخر لذكرك وأحسن عند ذوي الألباب لتأسيك أن يقولوا : لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من اخوانه ، فلا يمنعك (1) عزمك عن انفاذ رأيك وظهور صوابك

1 — يمنعك : فى «ر» .

لك عن الاستشارة ، ألا ترى الى ابراهيم (عليه السلام) لما أمر بذبح ولده ، عزيمة لا مثنوية فيها ، فحمله حسن الادب وعلمه بموقعة فى النفوس على استشارة فيه ، فقال لابنه : « فانظر ماذا ترى » . وهذا من أحسن ما يرسم فى هذا الباب .

قيل لرجل من عبس : « ما أكثر صوابكم ؟ » قال : « نحن ألف وفينا حازم واحد ونحن نشاوره ونطيعه ، فصرنا ❊ ألف حازم » . قال سليمان بن داود لابنه : « يا بني لا تقطع أمرا حتى تشاور رشيدا ، فانك اذا فعلت ذلك (2) لم تندم . » وكان يقال : « من اجتهد رأيه وشاور صديقه ، قضى ما عليه . » وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : « ما نزلت بي قط عظيمة فأبرمتها حتى أشاور عشرة من قريش ، فان أصبت / كان الخطأ لي دونهم ، وان أخطأت ، لم أرجع على نفسي بلائمة » . وقيل : « تفاخر رومي وفارسي ، فقال الفارسي : « نحن لا نملك علينا من يشاور » . وقال الرومي : « نحن لا نملك علينا من لا يشاور » . وفى حكم الهند : قال بعض الملوك : « ان الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة ، كما يزداد البحر بمواده من الأنهار ، وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوة والجلد . ولم يزل حزمة الرجال يستحلون مرائر قول النصحاء كما يستحلي الجاهل المساعدة على الهوى » . وقال بعضهم : « انفاذ الملك للأمور بغير رؤية ، كالعبادة بغير نية » . قال الطرطوشي : « ولم يزل العقلاء على اختلاف مذاهبهم يشهدون العيوب ويستشيرون صواب الرأي من كل أحد ، حتى الأمة الوكعاء . هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « رحم الله امرأ أهدى الينا عيوبنا » . وكان يقال : « من أعطى أربعا لم يمنع أربعا ، من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ❊ ومن أعطى الاستخارة ، لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب » . وقال أعرابي : « ما عثرت قط

2 ــ ذلك : غير موجود فى «و» .

حتى عثر قومي » . قيل له : « وكيف ذلك ؟ » قال : « لا أفعل شيئا حتى أشاورهم » وفي حكم الهند : « من التمس من الاخوان الرخصة عند المشورة ومن الأطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه ، أخطأ الرأي وازداد مرضا وحمل الوزر » (هذا الكلام بليغ عجيب في معناه) . ومر حارثة بن زيد بالاحنف بن قيس فقال له : « لولا أنك عجلان لشاورتك (3) في بعض الأمر » . فقال : « يا حارثة ، أجل ، كانوا لا يشاورون الجائع حتى يشبع والعطشان حتى يقنع (4) والاسير حتى يطلق والمضل حتى يجد والراغب حتى يمنح » . ويقال : « لا تدخل في رأيك بخيلا ، فيقصر فعلك ولا جبانا فيخوفك ولا حريصا فيعدك (5) ما لا يرجى » .

وأنشد ابن الاعرابي : (من الطويل)

وأنفع من شاورت من كان ناصحا　　شفيقا فأبصر بعدها من تشـــاور

فليس يشـاقيك الشفيق ورأيـــه　　عزمت ولا ذو الرأي والصدر واغر

ولآخر : (من الطويل)

خليلي ، ليس الرأي في صدر واحد　　أشيرا علي اليــوم ما تريـان

ولصالح بن عبد القدوس : (من المتقارب)

وان بات أمر (6) عليك التـــواء　　فشـــاور لبيبـا ولا تعصـــه

وان نـاصح منك يـوما دنـــا　　فـلا تنـــأ عنه ولا تقصـــه *

/ وقال آخر وأحسن ما شاء : (من المتقارب)

اذا الــرأي أشكـــل انفـــاذه　　ولم تر منه سبيــــــلا فسيحا

---

3 ــ لشاورتك : في «ر» .
4 ــ ينقع : في «ر» .
5 ــ فيبعد لك في «ر» .
6 ــ أمرا : في «ا» .

فشـــاور بأمرك فى ستـــــــــرة　أخاك اللبيـــب المحب النصيحـــــا
فربتمـــا كشف النـــاصحـــــون　وأبدوا من الرأي رأيا صحيحـــــا
ولا يلبث المستشـــير الرجـــال　اذا هو شـــاور أن يستـــــريحا

ولصالح بن عبد القدوس أيضا : (من السريع)

وخير من شـــاورت ذا حكمـــــة　فى واضح الأمر وفى لبســـــــه

الفصـــل الثالث

فى سيرة امامنا رضي الله عنه فى الاستخارة والمشورة

كان رضي الله عنه اذا عرض عليه الأمر أو عرض له يقول : « نستخير الله قبل » ، فكان لا يترك الاستخارة فى جميع أموره ، ثم يستعمل بعد المشاورة ، فيتحدث فى الأمور فى مجلسه ويفاوض فيه أهل حضرته على قدر كبر الأمر وصغره وعلى حسب اختلاف المناصب والمراتب ، اذا لخص الأمر وجمع الآراء فان كان فى مثل حركة أو اقدام على أمر يأمر بأن يشير كل واحد على انفراد بما يظهر له ، ثم يأمر باحضار أشياخ بني مرين، أعزهم الله ، وأشياخ عربه ، فيعرض عليهم الأمر ويرد اليهم الشورى ويوقف عليهم النظر ويرفع عنهم الحشمة ، فيقول : « ليقل كل امرىء ما * يعرض » وربما تقع المشاورة للمشايخ على حسب ترتيب (1) مناصبهم فى التقديم والتأخير فاذا تلخص أمر نظر فيما صار اليه الاكثر وضرب الرأي بالرأي فما ظهرت فيه المصلحة الظاهرة واجتمع عليه أكثر القوم عزم عليه.ولقد حضرت فى مواطن يقع فيها الخلاف بين القوم والملاحاة حتى يتخلص من النظر ما يتلخص ، فيفتخرون بذلك ويشرفون به وينشطون فيما تقع عليه العزيمة ويجتمع عليه الهمة ، ولما نزل المدية متوجها الى بلاد افريقية قدمني رسولا

1 ـ تقديم : فى «ر» .

مع الوزير أبي عمران موسى بن ابراهيم بن عيسى الزياني الى بجاية لأن نعرض على الامير أبي عبد الله ابن الامير أبي زكريـــاء يحيى ابن السلطان أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ما أمرنا بانهائه اليه ، فوصلنا بجاية وكان بيننا وبينه من الحديث ما كان عرض لنا فقهاؤها وصلحاؤها طالبين وصول امامنا اليها ودخولهم تحت ايالته ، فانفصلنا عنه عـــلى ما انفصلنا وأدركناه رضي الله عنه بوادي وانوغة وهو رضي الله عنه / راحل ، وكان الناس قد اختلفوا فمنهم من هواه بتونس ، فقصد التقديم اليها لغرض كالشيخ الفاضل الاكبر أبي محمد بن تفراجين ومن تابع هواه من أصحابه ، ومنهم من أراد نزول بجاية ليصفو أمرها ، فسألني رضي الله عنه * على انفرادي وسأل صاحبي ونظر الى ما اقتصاه نظري واشارتي وكذلك مع الآخر ، فنزل رضي الله عنه بعد عزمه على قصد بجاية وحزمه بذلك ، ثم انه جمع النـــاس عـــلى اختـــلاف طبقاتهـــم ومنازلهم واستشارهم جموعا ، فأشـــــار بعضهم بقصدها ومنازلتهـــا وان تمنعت ، فبمحاصرتها ولا يتعدى ، فان في تعديتها وصمة توجب تمنع غيرها وسقوط الهيبة ، وأشار الآخرون بالتقدم الى قاعدة البـــلاد وحضرة ملك افريقية وانها ان حصلت حصل جميع ما اليها من المعاقل والبلاد وجرت بين الفريقين مناظرات،قال فيها زيان بن آمديون : «يا مولاي من يشير عليك بمحاصرة بجاية فهو غاش ، فانك ان نازلتها وتمنعت سقطت الحرمة الا أن يكون ارسالك اليها جاؤوك بمفاتيحها (2) فبسم الله » . فأجابه الفقيه أبو محمد عبد المهيمـــن : « أو ما علمـــت أن مفاتيحها قد جاءته » . فقال له : « وأين هي ؟ » فتناول حمالة السيف من عنق زيان وقال له : « هذه هي مفاتيحها ومفاتيـــح غـــيرها » ، فاستحسن ذلك المولى رضي الله عنه ، ولما رأيت التنازع والاختلاف تقدمت اليه وقلت : « يا مولاي ، أبدا لكم عما ظهر من منازلتهـــا ؟ ،

2 ـ بمفاتحتها : في «ا» .

فقال لي : « لا ، ولكن أردت أن لا أخلي القصد مــن استشارة وان يظهر لنا صواب رأينا ، فنشكر الله ، وان ظهر لنا أن الصواب في غيره نظرنا فيه » ، فهذا كان دأبه : يعزم على الشيء ويبرمه ويتبعه الاستخارة لهذا الغرض * فرحمه الله ورضوانه لديه ، ويعرف لصاحب النظر المسدد بسداد رأيه ويندم ان رأى ظهور الصواب في غير ما دبره . كان لما عزم على السفر الى افريقية ، اختلف عليه الناس : ولنذكر هنا عارضة تشتمل على فضله عموما وفضله علي خصوصا وتبين مكانتي عنــده « وأما بنعمة ربك فحدث » : كنت ليلة داخلا اليه ومؤذن المغــرب يؤذن بالصلاة ، فقبل أن يستقر بي الجلوس ، دعاني واستــدناني وقال لي : « أقول لك قولا لا سبيل أن تطلع عليه أحدا » . فقلت : « نظركم ، وما تأمرون به » فقال لي : « توفي أبو يحيى » . (فسبق الى فهمي الفقيه ابن أبي يحيى ، وكان قد خدر وحمل من تلمسان الى فاس وبعــد / وصوله خف أمره ، فكتب الي بشمــاله أحــرفا من فاس ، يخبرني بتوجهه الى الراحة ونحن بتلمســان) فقلت : « سبحان الله ، يا مولاي ، أمس وصلني كتبه » ، فنظرني رضي الله عنه نظر متعجب من قولي منكرا له ، فقال لي : « كتاب من ؟ » فقلت : « كتاب سيدي ابراهيم بن أبي يحيى » ، فضحك وقال لــي : « انمــا أردت السلطان أبا يحيى صاحب تونس » ، فقلت : « سبحان الله ، انا لله وانا اليه راجعون » . فتأسف هو أيضا رضي الله عنه وذكره بخير ، ثم قلت : « يا مولاي ، الآن تدعونا الحركة اليها » ، فقال لي : « ولم وله خليفة وهو ولده أحمد ولا يسعنا الا التوفية له » ، فأجرى الله لساني أن قلت : « ولعلهم يختلفون ويصير الأمر اليكــم » * فقال : « الله أعلم وأي شيء تقول في هذا ؟ » فقلت : « هذا والله أحبه من وجه وأكرهه من وجوه ، أما الوجه الذي أحبه من أجله باتصال طريق الحجاز واتحاد البلاد ، وأما الأوجه الأخــر ، فما في افريقيــة من الشغب والبعد عن الوطن وتحمل المشاق » . فقال لي : « نختار

هذا ان شاء الله » . ونحن فى الطريق للصلاة . فأمسكت وصمت عن الخبر ، فوالله ، ما أعلم أني نطقت به لا فى الخلاء ولا فى الملأ . فلما كان من الغد ، صلينا الظهر ودخلنا معه فى المشور ، فتقدم اليه الحاج شعيب بن أبي مدين ، فأسر اليه شيئا ، فسمعته يقول : « من قال لك هذا ؟ » . قال له : « ابن مرزوق » . فالتفت الي رضي الله عنه التفاتة ونظرني شزرا . فقلت : « وما ذاك ؟ . « فسكت عني ونحن ماشون خلفه لداره ، فأعلنت رافعا صوتي بالاستفسار وقلت لشعيب : « أراك ذكرتني » . فقال لي : « لم أعنك وانما عنيت عمك سيدي أبا عبد الله ».

فالتفت رضي الله عنه وقال له : « هكذا قل يا انسان ، قل ، تعال ، كيف قلت » ؟ فقال له : « زرت الآن ضريح سيدي أبي مدين ، فاجتمعت بالشيخ أبي عبد الله بن مرزوق ، فأخبرني أن مسافرا ورد من المشرق الآن وها هو ذا أخبرني بوفاة السلطان أبي يحيى » فسري عني وثاب الي عقلي وكان كتم خبره لئلا يتعرفه ولده أبو العباس الفضل وأخته العروس الموجهة اليه ومن معها من خدام أبيها ، ثم لما وقع ما قدر من اختلاف أولاده وقتل أبي حفص عمر لأبي العباس * ولأخويه أبي البقاء خالد وأبي فارس عبد العزيز ووصلت كتب افريقية على اختلاف أصنافها وطبقاتهم بالدخول تحت ايالة امامنا واللجأ اليه مما دهمهم من الأمر المكروه ، استخار الله عز وجل واستشار ، فأشار جماعة / بعدم حركته اليها ، منهم الشيخ عيسى بن الحسن ، وخاطبه فى ذلك مرات وجماعة من بني مرين أعزهم الله ، وكان هذا هو الذي كشف القناع فى ذلك ، ومن الفقهاء شيخنا أبو موسى بن الامام رحمه الله ، والفقيه أبو محمد عبد المهيمن ، ومن الصلحاء الشيخ عبد الهادي ، وكانت له معه فى ذلك قصص يذكر بعضها ان شاء الله فى محله ، وعمي وصنو أبي أبو عبد الله محمد أجرى ذكر هذا بين يديه وقال له فى ذلك قولا شديدا استعظمته فحمله بفضله .

وممن كان يكره ذلك فى الخلوة ولا يوافق عليه ويحذر عاقبته ومايتشأ عنه ثقتهم وخاصتهم أبو حسون علال ، والقضاء سابق والقدر سائق وما شاء الله كان . فلما حصلنا بافريقية وظهرت مبادىء أمورها المنكرة، كان يذكر المنفرين منها بخير ويستصــوب آراءهم ، فــكانت سيرته الاستشارة ودأبه الاستخارة وكان يفاوض جلساءه ووزراءه أولا فى الأمر ثم سائر الناس . وكان وزراؤه رحمهم الله خير وزراء ، فلنذكرهم ان شاء الله تعالى .

الباب الرابع والثلاثون

فى ذكر وزرائه رحمهم الله تعالى وعفا عنهم ٠ (وفيه فصول) ❋

الفصـــــل الاول

روينا فى الصحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » (أخرجه البخاري) . وعن « عائشة رضي الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ، ان نسي ذكره وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله به غير ذلك ، جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنــه » (رواه أبو داود باسناد جيد على شرط مسلم) . وقيل فى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « واجعل لي وزيرا من أهلي هارون . لو كان السلطان يستغني عن الــوزير ، لكان أحق الناس بذلك ، كليم الله .. وقد نبه موسى عليه السلام على حكمة ذلك فقال : « اشدد به أزري وأشركه فى أمري » . والوزارة مشتقة من حمــل الوزر وهو الثقــل / فالوزراء يحملون أثقـــال المملكة وقيل : « ان أول ما يستفيده الملك من الوزراء علم ما كـــان يجهله ويقوى عنده علم ما كان يعلمه ، فيزول شكه ، فالوزير يسعد والوزير يهلك » . قال وهب بن منبه : « قال موسى عليه السلام لفرعون : « ائمن بي ولك الجنة ولك ملكك » . فقال : « حتى أشاور هامان » فشـــاوره ، فقـــال لـــه : « بينمـــا ❋ أنت الاهـــا تعبـــد اذ صرت

تعبد ؟ » . فأنف واستكبر ، وكان من شأنه ما كان . قالوا : « أشرف منازل الآدميين النبوءة ثم الخلافة ثم الوزارة » . فالوزير عون على الأمور وشريك فى التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة . والوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه . وفى الأمثال : « نعم الظهير الوزير » . وأول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى استنخاب الوزراء واستنقاد الجلساء ومحادثة العقلاء ، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله ، وبهذه الخلال يجمل فى الخلق ذكره ، ويجل فى العيون قدره وترسخ فى العقول عظمته . والمرء موسوم بقرينه .

وفى كتاب كليلة : « لا يصلح السلطان الا بالوزراء والاخوان الا بالمودة والنصيحة الا بالرأي والعفاف » . قالوا : « ومثل السلطان مثل الطبيب ومثل الرعية مثل المرضى ومثل الوزير مثل السفير بين المرضى والاطباء ، فان كذب السفير بطل التدبير وكما أن السفير اذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه ، فاذا شفاه الطبيب على وصف السفير هلك العليل ، وكذلك الوزير ينقل للملك ما ليس فى الرجل ، فيقبله الملك . ويحذر الملك أن يولي وزيرا لئيما ، فان اللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوي الفضل والانصاف . ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد * بن أبي مسلم قال له عمر بن عبد العزيز : « سألتك بالله ، يا أمير المؤمنين ، أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتابك اياه » . فقال له : « يا أبا حفص ، اني لم أجد عنده جباية درهم ولا دينار » . قال عمر : « أوجدك من هو أعف منه فى الدرهم والدينار » قال : « ومن هو ؟ » . قال : « ابليس ما مس دينارا ولا درهما وقد أهلك هذا الخلق » .

وفى الأمثال : « اذا سكتت الدهماء خافت الوزراء » . وقيل : « لا تغتــر بمودة / الأمير اذا غشك الوزير واذا أحبــك الوزيــر فلا تخش من الامير » . ويقال : « من الخرق مماراة الامراء ومعــاداة الوزراء » . ويقال : « السلطان كالدار والوزير بابها ، فمن أتى الدار من بابها ، ومن أتاها من غير بابها أزعج » .

الفصــل الثــاني

كان لامامنا رضي الله عنه وزراء على سنته وطريقته ، يحافظون على الاديان ويحذرون البغي والطغيان ، وكانوا (1) له خير أعوان واقفين عند ارادته . أدركت منهم من عاصرته وعاشرته وفاتني منهم جماعة تقدموا زمن ملازمتي لأبوابه رضي الله عنهم ورحمهم . فأدركت وخالطت من أسميــه :

وأبتدىء بمن ارتسم بهذه الخطة وجرى عليه رسمها ظاهرا ، أبــو ثابت عامر بن فتح الله ، ربي نشأتهم ونشأة نعمهم هو وأبوه . كانت لأبيه مكانة مكينة عند الملك العابد المولى أبي يوسف المجاهد ، وكان أحد سيوف الله المسلولة على الكفار ، وممن اشتهر بالبسالة والاقدام كل الاشتهار ، وربي فى خدمة مولانا أبي سعيــد ❊ رحمــه الله ، وملازمته فى محله ، مطلعا على ما لا يطلع عليه سواه من أسراره ومتصرفاته ، ولما حضرته الوفاة ، أوصي عليه امامنا كما تقدم ، فقدمه وزيرا فكان خير وزير ، أخلاق رضية ونفس زكية وهمة سرية ومكارم برمكية . يكتب الخط الرائق ويجيد الكتابة ويستحضر الشواهد ، جميل المحاضرة ، حسن المذاكرة ، ذكي المباسطة ، حلو الممازحة ، كثير العطاء ، كبير السناء يقوم باكرام العلماء وتعظيم الصلحاء وتأدية حق الشرفاء

1 ـ كان : فى «ر» »

2 ـ مرضية : فى «ر» .

والمعرفة بحق الادباء . له انتماء الى كبار من الاولياء كسيدي أبي زيد الهزميري وأبي عبد الله بن تيحلات المراكشي وأمثالهما . كان أحـد الوزراء المعظمين وأول الخواص المقربين . ينفذ الاموال بخطه ويرفع الشكيات وينفذ أحكامه بين الناس . يعرف ذوي الأقدار ويشتد على الأشرار ويشارك فى الرأي والتدبير ويفاوض فى القليل والكثير ، توفي رضي الله عنه شهيدا فى واقعة طريف وهو على خطته .

الوزير الجليل القديم الهجرة ، الصادق اللهجة ، الكريم النسب ، الرفيع المنصب ، أبو مجاهد غازي بن الكأس (لقب جرى بل كان علما على أمه) نشأ مع مولانا رحمهما الله ، واختص بخدمته وتميز بجهته . كان رحمه الله حازما / واقفا مع الأوامر ، صبورا على الخدم ، وقورا مهيبا ، بعيدا عن المزاح ، سديد النظر ، شديد الصريمة (3) فى انفاذ الأوامر ، لا يبالي فى حق الله وحق مولاه لومة لائم ، حواطا على ما يؤتمن عليه ، طاهر الجيب ، عفيفا ، مقبوض اليد عن الأموال ، ذا * حرمة ، مقداما بين يدي مولاه على الجواب عنهم رضي الله عنهم بما يعلم أنه لابد من صدور الجواب على النحو الذي يبرزه فيه لاسيما ان كان فيما يدرك الحشمة المجاوبة به ، جميل الاعتقاد فى أهل الله ، فظا غليظا على الولاة والظلام ، حاد العبارة ، سهلا ممتنعا ، بطلا فارسا . كان يتولى الوزارة ويقوم بأعبائها ويوفي لها حقها ، لم يزل رحمه الله مستمرا على خطته الى أن فقد شهيدا فى واقعة طريف . نفعه الله تعالى وتقبله بمنه .

أبو حركات عسكر بن طلحة بن تاحضريت (لقب بل اسم لجدته لأبيه) الورتاجني ، تقدم وزيرا بعد واقعة طريف بمشاركة ثقتهم المقرب أبي حسون علال ، فانه الخاص المقرب المشاور فى الأبعد والأقرب ومساعدة أبي زيان عريف بن يحيى ، فلما تولاها أخذ القوس باريها * فقام

3 ــ العزيمة : فى «ر» .

بأعبائها وأقام مجدها وحفظ منصبها ، غير أنه أتى الرفعة من أعلاها وسلك فى أولها أقصاها فاستبد بنفسه ولم يعرج على أحد من أبناء جنسه واشتد على الولاة وأحكم محاسبتهم ومطالبتهم لأنه كان قد شاركهم فى الخطة ، فضبط الأموال ، غير أنه تعدى فى ذلك الاعتدال وشمخ بأنفه على من توسط فى وزارته وقابل وده باظهار عداوته واغتر برتبته واعتز بخطته وزل فى اطلاق يده واستقل برأيه فى كثير من تصرفاته واعتد بظهور المصلحة لمولانا فى رأيه ووثق بأنه ليس بينه وبين مولاه من يقبح رأيه ولا من يفسد سعيه ، فجرى على طلقه ، فوقع فى أمور تنكرها السلطنة وتأباها المملكة من موالاة غير سلطانه عاملا على أن ذلك مما يحمد له ويعده من مساعدته على حظوته وأعوانه ، فخاب (4) مسعاه ونفذ فيه حكم الله الذي قضاه ، فأخذ بعد عوده من عدوة الاندلس مدة حصر الجزيرة أخذا رفيقا ، فاستصحب اعتقاله الى أن أشخص الى تلمسان ، فاعتقل فيها مدة ثم سرح ولم يعد لوزارته وتوفي على هذا الحال . على أن الرجل قد جمع من الفضل وجودة العقل وبذل اليد وحسن المشاركة والدهاء والنبل والكرم / العام ما لم يجتمع فى غيره مع شدة الغيرة على حق مولاه واقامة المعاذير عنه . حدثني الفقيه الثقة الصدوق الفاضل أبو الحسن بن سعود أنه كان أيام كونه فى جبل الفتح ، اذا أخرج المال للعطاء يخرج (5) مالا من عند نفسه جسيما . فاذا اشتكى ، من يستحق الزيادة والاحسان ، باقلال ، أعطاه من ماله ويشعره أن العطاء (6) من مال مولانا . واذا رأى من فيه نجدة واقدام ، يعطيه ويحسن اليه كذلك ، فيخرج عليه وقت العطاء وقد خرجت من يده أموال نفعه الله بها ، غير أنه فاتته السياسة ولم يحكم التدبير .

4 ــ فخابه : فى «ر» .
5 ــ أخرج : فى «ر» .
6 ــ المال : فى «ر» .

والوزير الساذج الخير أبو سرحان * مسعود بن عمر الفودودي ، ولم تزل الوزارة فى هذا القبيل على القدم ، قدمه مولانا رضي الله عنه وزيرا بعد الواقعة ، فكان رحمه الله قائما بما يحد له ، لا يتعداه ولا يشارك فيما عداه ، مختصرا فى جميع أحواله ، بعيدا عن الدهـاء ، سالما من الخدع ، ثقة ، أمينا ، متبدلا ، عفيفا ، دينا ، مأمون الغيب ، لا يعرف الضرر ولا يدري الا الخير ، يرفع الشكيات ولا يقضي الا فيما لا يقف فيه متوقف ، ويردع الظلام . استمرت وزارته الى أن توفي بتونس فى عهدي ، والله أعلم ، فى الوباء ولم أحقق الآن وقت موته ولا محلها . رحمه الله .

الوزير أبو عبد الله محمد بن العباس بن تاحضريت ابن عم عسكر ، تقدم وزيرا واستمرت وزارته الى أن توفي مولانا رضي الله عنهم . كان هذا الرجل قد حمدت فى الجزيرة سيرته وشكرت طريقته ، فقدمه مولانا رضي الله عنه لوزارته ، فلم يقم بأعبائها ولا نهض بوظائفها . وكان ذلك بين يدي سفرنا لتونس وتخلف هو حتى وردها مع أحد أولاد مولانا وهو أبو عامر الاصغر عبد الله . وكان رجلا ساذجا ، جوادا ، سريا ، استمرت حياته الى أن توفي فى خلافة المولى أبي سالم ، فيما أظنه والله أعلم .

والوزير الفاضل أبو زيـد عبد الرحمن بن عـلي بن ماسائي (7) الفودودي المدعو برحو من بني فودود . كان قبل وزيرا لولدهم أبي عبد الرحمن يعقوب ، ثم قدمه مولانا رضي الله عنه وزيرا فلم تطل حياته . وكان رجلا خيارا حيبا ، فاضلا ، سهلا ، سمحا ، جوادا ، حسن الخلق والخلق ، شديد الخجل محتشما ، وكان مولانا رضي الله عنه يؤثره ويوفره رحمه الله .

---

7 ـ موسى : فى «ر» .

الوزير النبيل الفاضل المشارك أبو عمران موسى بن ابراهيم بن عيسى اليرنياني ، وزيـرا ابن وزير ، ربي فى / حجـر مولانا المرحـــوم واختص به فى صغره ولم يزل يطمح لهذه الخطة ويتشوف لتقلد هذه العهدة ، ومولانا رضي الله عنه يستعمله فى وظائفها ويشغله فى أعمالها من غير أن يجري عليه مسماها ولا أطلق عليــه * لفظها وان قلــده معناها الى أن تقلدها . فقام بها قيام من ولد فيها وأحاط بمعرفة معانيها ، والرجل شديد اليقظة والنبل ، عارف بالقضاء فى المشكلات والفصل ، متخلق بأخلاق أهل السماحة والفضل ، ممتحن بطوارق الزمان وعوارض الامتحان ، ملطوف به فى الابتلاء ، محسود من النظراء ، وان كان نخبة فى الوزراء . ولا أدري الآن هل تقلدها وورد موردها أو اكتفى بالكفاية والعافية ، التي هي فى طلب السلامة النهاية والغاية .

وممن أغفلته ، وكان متقدما عمن ذكرته وهو ممن أدركته ، الوزير الخير ، الثقة ، الادين أبو علي حسون بن عبد النور ، وهو من الحشم الذين لهم أصالة فى الوزارة وسابقة فى الدولة المرينية فى الرئاسة ، كان هذا الرجل أشد الناس حياء وأحسنهم هديا وألينهم جانبا وأجملهم اعتقادا فى أهل الخير وأقلهم كلاما ، يديم السكوت ولا تعتريه غفلة من ملاحظة مولانا المرحوم له فى الغالب ، وما أظنه كان يبتدىء كلاما ولا ينشىء خطابا ، وكان مشهورا بالدين والعفاف والصدق وقبض اليد. توفي رحمه الله فيما يغلب على ظني فى حركة الجزائر ، والله أعلم .

والوزير الأشهر الشهم ، أبو معرف (8) محمد بن يحياتن العسري ، خديم مولانا أبي سعيد وخاصته ووصيفه المكين لديه . كان هذا الرجل شهما ، مقداما ، ذا غلظة وفظاظة (9) وانطلاق يد وقساوة . فكان

8 ـ معروف : فى «ر» .

9 ـ فضاضة : فى «ر» .

مولانا رضي الله عنه يستعمله فى الامور التي يفتقر فيها الى هذه الصفات ، ثم استعمله فى الولاية والقيادة ، فلما ظهرت عاديته وبان منه الجور والظلم ، أخره عن خطته وعزله عن عمله وألزمه الوقوف ببابه للخدمة بين يديه ، ثم أجرى عليه لقب الوزارة وخططه بها فى مكاتباته (10) ومخاطباته وذلك حين تخلص عن خدعة العرب ومكيدة أولاد أبي الليل ، لما هموا بانتزاع الامير عمر من يده ، على ما هو معروف ، فتقلد الوزارة وولي الخطة واستمرت (11) حياته الى أن توفي فى ايالة المولى أبي عنان على حال * فاقة وشدة عادت عليه ظلاماته ، فأورثته / الذلة والفقر ، نعوذ بالله من سوء الخاتمة . وكان أشد الناس كرما . كان يقال فيه « النهاب الوهاب » ، فيا ليته لم يهب ولم ينهب . ما قام خيرك يا زمان بشره .

وممن كان يتعرض لهذه الخطة ويزعم أن مولانا قلده اياها مع وعده السابق له بها ، ولم يزل يتشوق اليها ويتهالك عليها ، أبو محمد عبد الله بن سعيد اليابانى ربي فى حجر مولانا رضي الله عنه وفى احسانه وبين يديه وفى خدمته ، وقدمه وزيرا لولده الأرضى الأسعد أبي علي الناصر رضي الله عنه . وكان جملة حسنة ذاتا وأدواتا ، جميل الخلق حسن الخلق ، فاضلا ، جوادا ، نبيلا ، يقظان ، وقورا ، خوافا من الأمر ، مسارعا لانفاذ الأوامر ، استقل بالنظر فى سبتة . وكان يزعم أن مولانا عندما ودعه قلده الخطة وأجرى عليه السمة ، ولم يكن الأمر فيما علمت كذلك ، ثم تقلدها بعد للمولى أبي عنان رحمه الله ثم خف وتقلدها لغير (12) عقب مولاه ، فنقم عليه ذلك المولى أبو سالم فلم يقلده اياها ، وتوفي سليما معافى وخلف من عمل العظائم وارتكب الجرائم ، واستحل المحارم ولده عمر (عمر الله به زوايا الجحيم، وجدد عليه العذاب

10 ــ مكاتبته : فى «ر» .

11 ــ واستمرت : غير موجود فى «ر» .

12 ــ بغير : فى «ر» .

الاليم وكتب لمولانا مبيده الثواب الجسيم والأجر العظيم ، بحرمة محمد نبيه الكريم) .

وممن كان عنده بمنزلة الولد الأنجب والمودود الأقرب لا يخفي عنه أمرا ولا يدبره دونه ولا يختص بتدبيره دون مشاركته ، يطلعه على أحوال أهله ويأذن له فى الدخول الى محله ، قد تولى تربية الأصاغر وتدبير أمر الأكابر ، فهو مع الاولاد ومع الفتيان ومع الوزراء ومع الجلساء ومع الكتاب والأمناء ، ومع الخواص والأحظياء ، بل هو المقدم والمتقدم والمرفع بين الجميع والمعظم ، أبو حسون علال بن محمد الهسكوري ، رضيعهم المجتبى ووليهم المنتقى ، اذا أحضر الوزراء فهو أولهم واذا اجتمع الجلساء فهو واسطة عقدهم ، تمكن من الدولة تمكنا لم يلحق به غيره فيه ولا نال أحدا من الحظوة ما نال هو من مواليه ، وقد استمرت على هذه الحظوة أحواله وجرت على وقف سعادته أقواله وأفعاله ونال من الحظوة والتقريب كل محبوب وبلغ ما وعده به المولى (13) أبو يعقوب .

وممن كان من مولانا المرحوم بمنزلة الصاحب والخليل ، الذي تسقط معه مؤنة التكلف (14) / فى الغالب ، الشيخ الفاضل الطاهر الأصيل أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي ثم الزغبي ، أحد رجالات الكمال الحائزين من كمال الخصال ما سارت به الأمثال . كان هذا الرجل قد منح فى السعد والبخت ما لم يحظ به أحد من صنفه فيما علمت . ألقى عليه محبته ووضع له فى الارض القبول وكساه حلة السعد ، فلم يكن لقائل فى الأغلب فيه ما يقول ، قد جمع لجمال الشكل حلية الفضل . وسأورد حكاية هي عنوان حاله . سمعت شيخنا الفقيه

13 ـ الولي : فى «ا» .
14 ـ التكليف : فى «ر» .

القاضي الأعدل الخطيب أبا عبد الله بن عبد الرزاق فى مرضه الذي مات فيه يقول : « وددت أن ألقى الله ، عز وجل ، بعمل عريف » . فقيل له : « ومثلك يقول هذا ؟ » . قال : « نعم ، لازمت مجلس السلطـان أبي سعيد وولده المولى أبي الحسن ، فما رأيت قط حسنة مضيت الا وله فى امضائها سبب ، ولا مصيبة دفعت الا وله فى دفعها أعظم سبب » . صدق وأنا أقول مثل مقاله ، ما سمعته قط نطق بكلمة الا وهي تشتمل على جلب مصلحة أو دفع مفسدة . كان حسن الوساطة ولا يكاد يصدر أمر الا وله فيه معرفة ، فكان مولانا لا يخفي عنه من أموره القليلـة والجليلة شيئا ، وكان يداعبه ويباسطه ويحفظ النوادر التي يبسطه (15) بها ، فاذا رآه قد انحرف أو ظهرت عليه دلائل الغضب على أمر أورد ما يبسطه به على أحسن ترتيب وأبدع نظام وألطف مخلص ، فكم له فى ذلك من أجور . وكان لي فيه خير صديق ، عاهدني على الود والحب واني ان حضرت وفاته وان حضر هو وليها (16) ، فكان كذلك ❊ توفي فى حجري فى قصة غريبة لولا اطالة لأوردتها وذلـك بسـلا فى صحبـة المولى أبي عنان ودفن حيث طلب الى جانب خليله المولى أبي الحسن سنة خمس وخمسين رحمهما الله وخلفـه خـير خلف أحيـا طريقتـه وسلك سيرته (تولى الله معونته) .

ولنكتف فى هذا الباب بهذه النبذة التي أوردناهـا والأخبار التي سردناها والله حسبنا ونعم الوكيل .

---

15 ـ بسطه : فى «ا» .

16 ـ كذا ، والصحيح : واني ان حضرت وفاته وليتها وانه ان حضرت وفاتي وليها .

الباب الخامس والثلاثون

فى جلسائه

هذا الباب قد تقدم أكثره ، فمعظم جلسائه الفقهاء والوزراء وقد تقدم ذكر الفريقين / واستوفينا من حضرنا ذكره من الصنفين ، نعم ، كان له رضي الله عنه جلساء اختصهم لمجالسته وتخيرهم لعمارة حضرته من غير من ذكرنا . فاختص شيخا من بني تنالفت يعرف بعثمان بن عبد الواحد التنالفتي كان يخف عليه ، فيلزمه حضور مجلسه وحضور العشاء والغداء بين يديه ومؤاكلته أحيانا . وكان جميل الخلق ، ذا قامة تامة ورواء حسن وكان مع ذلك خفيفا على النفس يحاضر محاضرة مثله ويتكلم فى الحوائج ويسعى فى تحصيل المصالح وخصوصا لقبيله ويحضر ويشارك فى الرأي ويشاور ويطلع على كثير من السر ويساير فى الموكب ويقدم فى المحافل . وكان (عفا الله عنه) حسن الوساطة سليم القلب ، لا يتعرض لعرض ولا يستحسن المتعرض له عليه مهابة ، بعيد عن الخدع والريب ،لم يزل ملازما الى أن فارق مولانا المرحوم قريب وفاته رضي الله عنه ومات فى خلافة المولى أبي عنان .

والشيخ الحسيب الفاضل أبو حسون زيان بن حسون بن آمديون صهرهم رضي الله عنهم وزوج أختهم . كان مولانا رضي الله عنه يحضره مجالسه ويشاركه فى الرأي ويطلعه على كثير من سره ويفاوضه فيما

يفاوض فيه أبا سعيد عثمان بن عبد الواحد . وكان ❊ سريا ، نزيها ، ذا همة عالية ، صعب المجاز والخلق ، نجب فى حصر قصبة تونس وعمل الأعمال المستحسنة ، فزاد به مولانا اغتباطا ، واستمرت حياته وخلفته فى المغرب حيا ولا أذكر له وقت وفاة .

والشيخ الفاضل الحسيب الحاج أبو عطية العباس بن عمر بن عثمان العسكري ، ممن اختصه بالمجالسة أخيرا لسبب أذكره . كان هذا الرجل ممن قصر ذراعه وقعد به جنبه بما يقال الى أشياء نقمت عليه ، فحطت عند مولانا منزلته ، فتوجه حاجا سنة سبع وثلاثين ، فلما حج اجتمع بمولاي الوالد رضي الله عنه بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكى له خموله مع كبر بيته وذكر له حاجته واقلاله واهماله فأشار عليه بأن يستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم لمولانا السلطان ، فكتب له استشفاعا بقبره الشريف على العادة فى ذلك وشهد له فيه بخطه وشهد كبار أهل الحرم من الفقهاء والمجاورين وجاء بها صحبته ، فأمسكها عنده ولم يقدر لها معنى الى أن أجرى ذكرها مع بعض أصحابه / فأشار عليه أن يجعلها فى ضريح سيدي أبي مدين ويعلقها هنالك . فوافق حضور امامنا المرحوم للزيارة ، فوقع بصره عليها فسألني عنها ، فتناولتها وقرأتها عليه ، فبكى واستعظم قدرها وقال : « بماذا أقابل من جاء يستشفع لي بمن أرجو شفاعته » . فاستدعاه وهو بالروضة وبازاء القبر وأحضره هنالك وقال له : « اطلب مني أي شي تريده » . فقال : « يا مولاي ، ليس الا رضاك وأنت تعلم بيتة العبد ولمن يقرن نفسه » (وأشار الى عيسى بن الحسن صهره) . فقال له : « نعم » .فأعطاه ثيابه التي كانت عليه ومركوبه وأمر له بذهب لا أذكر الآن قدره وأعطاه من البلاد ما تشوف اليه وصيره من جلسائه وخواص أهل حضرته ، فلازم المجالس الى أن قدم للقيادة ببجاية ، ثم لبلد قسنطينة ، وكان من أمره فيهما ما كان (عفا الله عنه) .

ومن مشايخ بني مرين ، الشيخ أبو مهدي عيسى * بن الحسن ، كان صاحب المجلس وشيخه حتى استقل بجبل الفتح وكان من أمره ما الله أعلم به .

والشيخ الحاج أبو زيان سلطان بن مهلهل خال أبيه رضي الله عنه . كان من أهل المجلس قديما لم أشاركه بالحضور معه .

والشيخ عثمان بن مهلهل ، أقام أشهرا ملازما للمجلس على طريق أخيه وتوفي (عفا الله عنه) ، وكان صالحا مباركا .

والشيخ أبو الحسن علي بن سلطان المذكور لم يزل ملازما المجلس الى أن توفي .

والشيخ الفاضل الأصيل الماجد الذي خلف والده أحيا طريقته أبو يعقوب ونزمار بن عريف المتقدم الذكر . كان اذا قدم يخلي له والده العشيات ، فيقوم مقامه ويجري حسن الوساطة وجميل الطريقة على ما عهد من أبيه بل زاد سراوة ومكارم وله فى الخدم المرضية الأعمال التي لا تدانى والفعلات التي قصر عنها كثير من فضلاء الأوائل (أجزاه الله على أفضل معتاده وبلغه من رضى الله ورضى خليفته غاية مراده بمن الله وفضله) .

الباب السادس والثلاثون

فى كتابه (وفيه فصول)

الفصل الأول

فى فضل خطة الكتابة

لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تخير لكتابته الفضلاء من صحابته وهذا أدل دليل على فضيلة هذه الخطة الشريفة . وروي عن بعض أهل التفسير أنه قال فى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ / عليم » . قال : « كاتب حاسب » .

والذين كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الخلفاء الاربعة ، وبهذا استفتح الحافظ الامام أبو عبد الله بن الأبار كتاب اعتاب الكتاب ، فنقم عليه وحفظ عليه ، فكان من أشد الاشياء عليه رحمه الله ونفعه .

وكتب له صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت ، وهو الذي كان أمره صلى الله عليه وسلم ﷺ أن يتعلم كتاب السريانية ليجيب عنه من كتب اليه بها فتعلمها فى ثمانية عشر يوما وكتب له أبي بن كعب ومعاوية وحنظلة بن الربيع وخالد بن سعيد بن العاص وأبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وشرحبيل بن حسنة والزبير بن العوام وجهم بن الصلت وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعبد الله بن الارقم وكان كاتبه المواظب على كتب الرسائل والاجوبة .

وعلم صلى الله عليه وسلم أصول الكتابة وجمعها ، مع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، خصوصية كمال في حقه دون غيره ، فقال : « ألق الدواة وحرف القلم وأقم الباء وفرق السين وحسن الله ومد الرحمان وجود الرحيم » . وأمر أبو جعفر المنصور بسجن طائفة من الكتاب ، فكتب اليه بعضهم من الطريق : (من الوافر)

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبين

فعفا عنهم ، والقصة مع غيرها مما تشابهها في اعتاب الكتاب ، وهو من أنبل التصانيف وأجلها ومن أحسن موضوعاتها رحمه الله .

وفي الحكم : « كاتب الملك مستقر أسراره ولسانه الناطق عنه في آفاق مملكته والمخصوص بقربه ولزومه دون نظرائه » . ويقال : « ظهير الأمير وزيره وزينه صاحبه ولسانه كاتبه ورسوله عينه » . ويقال « الكتابة قوام الخلافة وقرينة الرسالة وعمود المملكة » . ويقال : « للكاتب على الملك ثلاثة ، يرفع الحجاب عنه ويتهم الوشاة عليه ويفشي سره اليه .

الفصل الثاني

في كتاب امامنا ، رضي الله عنه . كتابة الرسائل والبطائق

اجتمع له (1) رضي الله عنه من هذا الصنف صدر لم يجتمع مثله قط لملك . كان متولي نيابة العلامة ، ومن اليه الرياسة في الكتابة ، من يحق له (2) أن يحلى برحلة الوقت وأعجوبة الزمان ، شيخ وقته وامام عصره أبو محمد عبد المهيمن ، قد قدم / ذكره في علماء الحضرة .

ولنذكر * أعلام هذا الصنف اجمالا فاستيفاء تحليتهم وذكر ما لهم من منظوم يستحسن، نخرج به عن الغرض المقصود ، فلا غرض الا في نشر

1 ــ له : غير موجود في «ا» .
2 ــ له : غير موجود في «ر» .

الفضائل المختصة بالجهة العلية ، فان قلت : « ذكرك لوزرائه وجلسائه لا مجال لهذا العرض المقصود فيه » ، قلت : « بل فيه ما يدل على شموخ مملكتهم وشرف دولته ، فالملك بالرجال » .

ومن كتابه الأحظياء الذين أدركتهم وعاشرتهم : الفقيه أبو محمد عبد الله المرسي السبتي . كان فاضلا ، مشاركا ، نبيلا ، محسنا ، مجيدا ، شاعرا ، سري الهمة ، نزيه النفس ، حسن الهيئة ، وقورا ، لم يزل كاتبا للعزفيين (3) فانتقل الى الحضرة وكان مشاركا فى علوم .

ومنهم الفقيه أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن الأشقر الفاسي من أهلها ، كاتب بارع ، أديب شاعر ، مشارك فى علوم ، صدر من الصدور . قرأ على الأستاذ ابن أجروم وعلى جماعة. كان ينشىء ويجيد ويشارك الفقيه الصدر أبي علي بن تدرارت فى كتابة الكتب الملوكية وأشباهها . وقور ، منقبض الا فيما لابد له (4) منه ، دين سليم الصدر ، ذاكر بالتأريخ وأيام الناس . كتب هو وولده عبد العزيز ولم يزل معدودا فى جملة الكتاب الى أن توفي بفاس المحروسة .

والفقيه المشارك التعاليمي الفاضل ، الطبيب ، الاديب ، النباتي ، النخبة ، أبو العباس أحمد بن شعيب ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة فى قرض الشعر عالية (5) واماما فى التعاليم وواحدا فى المعرفة بالاشجار والنبات ، بارع الخط يحسن الكتابة . وكان مولانا رضي الله عنه ينفر عنه، لموجب الله أعلم بحقيقته،ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن فى طريقته فى المعتقد ، ولقد خبرته وذاكرته وباحثته علم الله غير مرة ، فما اطلعت والله منه الا على ما يرضي ، تجاوز الله عنا وغفر لنا أجمعين بفضله ورحمته ، * وبالجملة فكان من صدور العلماء .

3 ـ الفربيين : هكذا فى تحقيق ليفي ـ بروفنسال .
4 ـ له : غير موجود فى «ر» .
5 ـ عالية : غير موجود فى «ر» .

والفقيه الامام الرحالة النخبة الصدر المحدث الرواية العلامة أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله ابن الحاج النميري (6) عالم وقته ومحدث زمانه وحافظ عصره . تقدم للكتابة حين ورد على الحضرة باستدعاء من مدينة قسنطينة وكان كاتبا للامير أبي عبد الله ابن أمير المؤمنين أبي يحيى ، فلحق بعلية العلماء وأئمة الحضرة ومشيخة / الكتاب ، وهو من فحول الشعراء ، له التقدم فى طريقة أشعار العرب والمحدثين . وله التصانيف العديدة والاوضاع المفيدة ، له رحلة جامعة فى عدة أسفار ، وصنف فى علوم ، استمر على الكتابة الى أن رحل حاجا وجاء مستعفيا . ثم خلص للمولى أبي عنان ، فتقدم لمشيخة الكتاب وكتابة السر حين تأخر كاتبهم الأرضى الفقيه أبو القاسم بن رضوان . ثم فصل الى وطنه فتقلد القضاء فى اقليم بلده حتى الآن .

والفقيه ، الفاضل ، العلامة ، الخطيب ، أبو القاسم عبد الله (7) بن يوسف بن رضوان ، وقد تقدم ذكره فى علماء الحضرة ، تخطط بالعدالة ثم بالكتابة ثم بالخطابة ، ولم يزل يترقى وينتقل من درجة الى أرقى ، جمع من أدوات الاهلية وتحلى به من الصفات السنية الى أن خلف الامام أبا محمد عبد المهيمن .

وانما ذكرت من الكتاب من كان يقضى منه فى معارفه العجب العجاب (8) .. فقيه فاضل مشارك تقلب ،، فحمدت سيرته وشكرت طريقته . كان من خيار الفضلاء الصلحاء ومجيدا للشعر ، يروي ويروى ويجمع ويضبط ويناظر ويبحث فى علوم ، بارع الخط (نفعه الله ونفع به) . توفي فى الوباء بمدينة فاس (9) المحروسة . عاشرته رحمه الله كثيرا (10)

6 ــ النمري : فى «ا» .

7 ــ ابن عبد الله : فى «ر» .

8 ــ الجملتان التاليتان ممسوحتان فى كلتا المخطوطتين وترد على هامش نسخة الرباط : « هنا بياض فى النسخة هكذا » .

9 ــ فاس : بياض فى نسخة الاسكوريال .

10 ــ كثيرا : غير موجد فى «ر» .

وقيدت من شعره وفوائده . وحضرت وفاته وجنازته ولي معه فى ذلك قصــة (11) ..

فهؤلاء كتابه ، أعلام من علماء الاسلام ، وأئمة من فضلاء الانام ، وكفى بهذا شرفا وفخرا . كل واحد من هؤلاء يفيد ويبدي فى ضروب العلوم ، ويعيد ما بين قاض وخطيب وسري ماجد وحسيب ، وغير * هؤلاء ممن لم يلحق بطبقتهم تركته لذلك .

الفصــل الثالث

كتاب الخراج والديوان وأهل الحساب والمساحة

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب أموال الصدقة وهما : الزبير بن العوام وجهم بن الصلت ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب خرص الحجاز .

كذلك أئمة أعلام ، فمنهم الفقيه الفاضل الحسيب ، أبو الحسن القبائلي وقد تقدم ذكره فى أهل الحضرة من علمائها . والفقيه الحسيب أبو الفضل ابن الفقيه السري ، الماجد ، الفاضل ، الشهير ، الاوحد أبو محمد عبد الله ابن أبي مدين العثماني / كان من سراة الفضلاء وكبار الحسباء وقد قدمت ذكره وولايته للعلامة .

والفقيه ، الحسيب ، الفاضل ، الاوحد ، أبو الحسن علي بن محمد بن سعود . وقد قدمت ذكر هذا الفاضل من أنبل الفقهاء وأحذق النبلاء وأشد الناس جدا واجتهادا فى تحصيل الفوائد والمعارف ، محدث ، راوية ، شاعر مجيد ، عفيف ، طاهر ، منقبض ، نزيه النفس ، متحفظ على نفسه وصون حرمته . لم يزل على علمه الى الآن ، كما قدمنا .

---

11 — هنا بياض فى الاصل وتنبيه هذا على هامش نسخة الرباط . والجملـة التاليـــة هي ممسوحة فى كلتا المخطوطتين .

تنبيه : من فضائل مولانا رحمه الله ، أنه لم يستعمل أحدا من أهل الذمة فى هذه الخطة ، كما استعمله غيره ، وهذا معروف بالمشرق الآن ، وقديما عهد بالمغرب والاندلس ، ولم يتخذهم أطباء ، كما فعله غيره ولا خزنة أموال ، كما تقدم لغيره . وقد اشتهر ما صدر عن الزاهد الامام أبي اسحاق ابراهيم بن مسعود الالبيري نفع الله به ، فى التحريض على قتل يوسف بن اسماعيل بن يوسف اليهودي لعنه الله :

(من المتقارب) (1)

ألا قل لصنهاجة أجمعين   بدور الزمان (2) وأسد العرين *
(3) مقالة ذي مقة مشفق   يعد النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيدكم زلة   تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا   ولو شاء كان من المؤمنين (4)
فعز اليهود به وانتخوا   وتاهوا وكانوا من الارذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى   وقد جار ذاك وما يشعرون (5)
فكم ذل من مسلم راهب (6)   لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم   ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى بهم (7) فى الأولى (8)   من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلو   ن وردهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا باخراجهم   عليهم صغار وذل وهون

1 ـ هذه القصيدة نشرها ايميليو غرسيا غومس فى كتابه عن أبي اسحاق (مدريد 1944) صفحات 38 ـ 40 وهنا أشير الى الاختلاف بينه وبين نص ابن مرزوق .

2 ـ الندي : فى تلك الطبعة .

3 ـ لا يرد هذا البيت فى تلك الطبعة .

4 ـ المسلمين : فى تلك الطبعة .

5 ـ فحان الهلاك وما يشعرون : فى تلك الطبعة .

6 ـ فكم مسلم فاضل قانت : فى تلك الطبعة .

7 ـ فيهم : فى تلك الطبعة .

8 ـ الالي : فى «ر» وفى تلك الطبعة .

/ وقموا المزابـل (9) عن خرقـه ملوثة (10) لدثار (11) الدفـين
ولـم يستخفـوا بأعلامنـا ولم يستطيلـوا علـى الصالحـين
ولا جالسوهـم وهـم هجنـة ولا واكبوهـم مـع الأقربـين
أباديـس أنت امـرؤ حـاذق تصيب بظنك (12) نفـس اليقـين
فكيف اختفت عنك أعباثهـم (13) وفى الأرض تضرب (14) منها القرون
وكيـف تحب فـراخ الزنـاء وقد (15) بغضوك الـى العالمـين
وكيـف يتـم لـك المرتقـى اذا كنت تبنـي وهـم يهدمـون
وكيـف استنمت الـى فاسـق وقارنتـه وهـو بئـس القريـن
وقـد أنـزل الله فى وحيـه يحـذر عـن صحبـة الفاسقـين
فـلا تتخـذ منهـم خادمـا وذرهـم الـى لعنـة اللاعنـين
فقد ضجت(16) الأرض من فسقهم وكـادت تميـد بنـا أجمعـين
تأمـل بعينيـك أقطارهـا تجدهـم كلابـا بهـا خاسئـين
وكيـف انفـردت بتقريبهـم وهم فى البلاد مـن المبعديـن *
علـى أنـك الملـك المرتضـى سليـل الملـوك مـن الماجديـن
وان لك السبـق بيـن الـورى كمـا أنت مـن جلـة السابقـين
وانـي احتللـت بغرناطـة فكنـت أراهـم بهـا عابثـين
وقـد قسموهـا وأعمالهـا فمنهـم بكـل مكـان لعـين
وهم يقتضـون (17) جباياتهـا وهم يخضمون وهـم يقضمـون

---

9 – المراجل : فى «ا» .
10 – ملونة : فى تلك الطبعة »
11 – لديار : فى «ا» و «ر» .
12 – بطبك : فى «ا» .
13 – أعيانهم : فى «ر» .
14 – يضرب «ا» .
15 – وهم : فى الطبعة المذكورة .
16 – صجن : فى «ر» و فىالطبعة المذكورة .
17 – يقبضون : فى الطبعة المذكورة .

وهم يلبسون رفيع الكسى ... وأنتم لأوضعها لابسون
وهم أمناؤكم على سركم ... وكيف يكون أمينا خؤون (18)
وهم يأكلون غيرهم درهما ... ويقصى ويدنون اذ يأكلون
/ وقد ناهضوكم الى ربكم ... فما تمنعون (19) ولا تنكرون (20)
وقد لابسوكم بأسحارهم (21) ... فما تسمعون ولا تبصرون
وهم يذبحون بأسواقها ... وأنتم لأطرافهم (22) تأكلون (23)
ورخم قردهم داره ... وأجرى اليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فانا الى ربنا راجعون
ولو قلت فى ما له انه ... كمالك كنت من الصادقين
فبادر الى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه ... فقد كنزا كل علق ثمين
وفرق عراهم (24) وخذ مالهم ... فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر فى تركهم يعبثون
فقد نكثوا عهدنا عندهم ... فكيف تلام (25) على الناكثين
وكيف تكون لهم ذمة ... ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم ... كأنا أسأنا وهم يحسنون *
فلا ترض فينا بأفعالهم ... فأنت رهين بما يفعلون

18 ــ حؤون أمين : فى الطبعة المذكورة .
19 ــ يمنعون : فى «ا» .
20 ــ ينكرون : فى «ا» .
21 ــ اسمارهم : فى الطبعة المذكورة .
22 ــ لأطريفهم : فى «ا» .
23 ــ آكلون : فى «ر» وفى الطبعة المذكورة .
24 ــ عداهم : هكذا ترد فى «ر» .
25 ــ يلام : فى «ا» و «ر» .

وراقب الاهك فى حزبه فحزب الاله هم الغالبون

ولما بلغت هذه الكلمة لصنهاجة ، ثاروا عليهم ، فقتلوهم وكانوا ألف رجل وتسعمائة واحدى وخمسين امرأة . وقال السالمي : « بلغ القتلى من اليهود نيفا على أربعة آلاف رجل وقتل من خالطهم من المسلمين » . وانما أوردتها لأن الفقيه أبا محمد عبد المهيمن كان أنشدها لمولانا المرحوم فأعجب بها واستحسنها واستعادها مرات . وحكى الطرطوشي أن بعض الادباء دخل على بعض الخلفاء فوجد عنده ذميا ، كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال : (من السريع)

يا ملكا طاعته لازمة وحبه مفترض واجب /
ان الذي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى الذمي وقال له : « سله » ، فسأله ، فلم يجد بدا من أن يقول : « هو صادق » ، فاعترف بالاسلام . ولو لم يكن لسلطاننا رضي الله عنه وولده وبنيه الا هذه الحسنة فى محو آثار أعداء الله وأعداء رسله ، وقد تقدم لهم ظهور فى مدة من قبلهم ، وكان من ابن رقاصة فى السعاية فى قتل الناصح المقرب عبد الله بن أبي مدين ما هو معروف . ولما استولى مولانا على تلمسان ، جرى ذكر يهودي كان بها مشتهرا بالمهارة فى الطب ، وكان عجبا فى نوعه ونحن بفاس ، وكان قد عرض لمولانا رضي الله عنه فى باطن كوعه الايمن وجع بسبب بلغم تحجر فيه ، فعاناه جهده ، فقال قائل : « نبعث عن اليهودي المذكور » . فلم يعرج عليه ، فلما وصلنا الى تلمسان جرى ذكره ، فقال لي : « وجه عنه » . فجاء ، فسئل عن الشكية ، فاستفسر عن السبب وعما عولجت به الشكية ، ثم تحدث فيها ، فبالغ فى الاجادة وشرح * السبب والعلامات وذكر العلاج ، فأطنب الحاضرون فى استحسانه فقال لثقتهم علال : « اذهب به » ، وقال له : « ان أسلمت قربناك وأدنيناك وجعلناك أمينا

وطبيبا » . فحاوله فلم يجد فيه قابلية ، فحرضني على محاولته ، وكانت لي به معرفة سابقة ، فحاولته جهدي بكل وجه فلم أزدد الا اليأس منه ، فلما عرفت مولانا رحمه الله قال لي : « ونحن قد أغنانا الله به وبأهل الاسلام عن معاناته » ، وكان قد صنع مرهما فرد عليه ولم يقبل منه ووصف علاجا ، فلم يقبل منه وقيروطا ، فلم يعمل بمقتضاه حتى أجمع عليه أبو علي المغيلي وأبو العباس بن شعيب من أطباء الحضرة ، ثم عاناه له أبو علي حسن المراكشي القسنطيني ونحن بظاهرها .

الباب السابع والثلاثون

فى تمهيده طريق الحج والعمرة وعنايته بذلك (وفيه فصول)

الفصـــل الاول

فى فضل هذين النسكين ، وهذا مما يتسع القول فيه فلنقتصر على عيونه

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : « لما جعل الله الاسلام فى قلبي ، أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : « ابسط يدك أبايعك » قال : فبسط ، فقبضت يدي فقال : « ما لك يا عمرو ؟ » قال : « قلت : « أشترط » . قال : « تشترط ماذا ؟ » قلت : « أن يغفر لي » . قال : « أما علمت أن الاسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم ما قبلها وأن الحج يهدم ما قبله ؟ » (أخرجه مسلم) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتى البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » (أخرجاه وفى لفظ الدار قطني من حج واعتمر) . وعن عبد الله رضي الله عنه قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من جاء حاجا يريد وجـه اللـه * غفـر اللـه لـه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ويشفع فيمن دعا له » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » (أخرجاه) (1) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (2) صلى الله عليه وسلم قال: « جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة الحج والعمرة » ، (أخرجه النسائي) . وعن أبي هريرة رضي الله عنــه

1 ـ أخرجاه : غير موجود فى «ر» .
2 ـ غير موجود «ا» .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة،الغازي والحاج والمعتمر».
وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحجاج والعمار وفد الله ، ان سألوا أعطوا وان دعوا أجيبوا وان أنفقوا أخلف عليهم ، والذي نفس أبي القاسم بيده ما أهل مهل ولا كبر مكبر على شرف من الأشراف ولا هلل ما بين يديه وكبر تكبيره ، حتى يبلغ منقطع التراب » (أخرجه الطبري محب الدين عن تميم الداري وأبي الفرج ابن (3) الجوزي وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس دعوات لا ترد : دعوة الحاج حتى يصدر ودعوة الغازي حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى ينصر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الاخ لأخيه بالغيب أسرع هؤلاء الدعوات اجابة » (أخرجه الطبري أيضا عن ابن الجوزي وغيره) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من خرج مجاهدا فمات ، كتب الله له أجره يوم القيامة ، ومن خرج حاجا فمات ، كتب الله أجره الى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات ، كتب الله له أجره الى يوم القيامة » . وجاء فى فضل النفقة فى الحج ، كالنفقة فى سبيل الله ، الدرهم بسبع مائة ضعف / فهذا ما يدل على فضل الحج والعمرة باختصار أوردت منه هذه النبذة .

الفصل الثاني
فى فضل الزيارة

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المدينة فيها قبري وبها بيتي وتربتي ، وحق على كل مسلم زيارتها » ، (أخرجه أبو داود) . وعنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

3 — ابن : غير موجود فى «ر» .

« ما من أحد من أمتي له سعة ولم يزرني فليس له عذر » (أخرجه الحافظ ابن عساكر فى فضل المدينة) . وعنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة » (أخرجه ابن الجوزي) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حج ولم يزرني فقد جفاني » . وعنه رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني فى حياتي » (أخرجه الدارقطني) . وفى رواية حاطب : « ومن مات فى أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامـــة ») .

الفصـــل الثـــالث

لما كان هذا العمل أفضل الأعمال المبرورة والاعانة عليه من أجل المساعي المشكورة ، حسبما تقدم فى الأحاديث التي جلبناها (1) ، كان عمل امامنا رضي الله عنه فى تمهيد سبيله ما هو مأثور عنه رضي الله عنه ، وكان دأبه المعونة على الوجهة لهذا العمل ، فكان يجهز الركوبات دائما من المغرب . ولما نزل تلمسان وحاصرها ، كان أعظم ما نقم (2) عـــلى صاحبها تعرضه للمتوجهين من المغرب برسم الحج ، ويرى تمهيد الطريق بمنازلتها والاستيلاء عليها وعده من أكبر الأعمال ، وحصل له من أجر المعونة على هذا العمل ما يتقبله الله منه بفضله . فكل من طلب هـــذا العمل منه سوغه له وأعانه عليه . وسيأتي ذكر ما أعان به المتوجهين صحبة الربعة المكية المباركة فى فصل هداياه للملوك ان شاء الله تعالى ، ولما فتحت تلمسان صار يعين فى كل سنة ركبا متوجها ، وسيأتي ذكر المصاحف التي * خطها بيده ووجهها للمساجد الثلاثة التنبيـــه عـــلى ذلك ان شاء الله .

1 ــ جلبها : فى «ر» .
2 ــ هم : فى «ر» .

الباب الثامن والثلاثون

فى أعماله فى الجهاد وغزو الكفار (وفيه فصول)

الفصــل الاول

أما الآيات الواردة فى الباب ، فبحيث لا تضبط فى مثل هذا المقتضب. وكان امامنا رضي الله عنه كثيرا ما يحرضني على أن يكون المقروء فى الخطبة على قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجــارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ » الآية . والأحاديث أيضا كثيرة ، وقد جمعت منها أربعين مسندة . فروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أي الأعمال أفضل ؟ » . قال : « ايمان بالله ورسوله » . قيل : « ثم ماذا ؟ » ، قال : « الجهاد فى سبيل الله » . قيل « ثم ماذا ؟ » قال : « حج مبرور » « متفق عليه » . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : « يا رسول الله ، أي الأعمال (1) أحب الى الله » ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : « ثم أي ؟ » قال : « بر الوالدين » ، قلت : « ثم أي ؟ » قال : «الجهاد فى سبيل الله» (متفق عليه). وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : «يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل» ؟ قال : «الايمان بالله والجهاد فى سبيله » (متفق عليه) . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . قال القاضي عياض فى المشارق : « الروحة بفتح الراء : من زوال الشمس الى الليل ، والغدوة مثلها ». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تضمن الله لمن

1 ــ العمل : فى «ا» .

يخرج فى سبيله ، لا يخرجه الا جهاد فى سبيلي وايمان بي وتصديق برسلي ، فأنا ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه الى منزله * الـذي خرج منه بما نال من أجر وغنيمة . والذي نفس محمد بيده ، ما من كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك . والذي نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني . والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو ، فأقتل » . (أخرجاه) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » . وعن عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أغبرت قدما عبد فى سبيل الله ، فتمسه النار » . وعن / زيـد بـن خالد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا ، (متفق عليه) .

الفصـل الثاني

اعلم أن امامنا رضي الله عنه كان أشد ملوك الأرض قياما بهـذا الفرض بنفسه الكريمة وماله ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه . أما جهاده بنفسه فقد علم مباشرته لذلك رضي الله عنه نفسه واجازته البحـر لذلك وحرصه على مباشرة ذلك بنفسه نفعه الله به ، وأما اقامته حال المجاهدين فلم يزل ذلك دأبه رضي الله عنه فلا يزال طول دهـره معمور الفكر ، مشغول الظاهر بالجهاد ، فلا تمر سنة الا وله فيها تجهيز أسطول وتجهيز غزاة رجالا وركبانا فى كل وجه وجهة فى أيام الحرب

عملا وفى أيام السلم استعدادا ، فأكثر أمواله التي جمعها وصارت له رضي الله عنه فى سبيل الجهاد أنفقها ، وفى أعماله أنفذها ، لا يدخل تحت حصر ولا يرجع لاحصاء ، وما من سنة تمضي بل وفصل ينقضي الا وهداياه يتصل وصولها الى الأندلس * ، من الناض والمتاع والعدة والكراع ، ينفد ذلك أحمالا عديدة ، وأمواله تفرق على البلاد الراجعة لنظرهم ، كجبل الفتح والجزيرة أيام كونها للمسلمين وأعمالها ورندة وأعمالها حتى أن المرتبات لتعم فى الغالب جميع سكان هذه البلاد على اختلافها ، يعرف هذا من خبره حسبما ننبه على بعضه بعد ان شاء الله تعالى . وأول آثاره الجميلة ومآثره الكريمة ، التي بها أحيا الله الاسلام وارتفع الضيم عن عدوة الأندلس ، وكان فيه للمسلمين أجل المنح استخلاص جبل الفتح ، الذي هو فرضة المجاز ، وهو الجبل الذي لا نظير له فى العدوتين ، هو باب عدوة الأندلس ومغلقها ومفتاحها على القدم وقفلها منها ، استفتحت فى القديم ، وكان للمسلمين بفتحه فيها الأثر العظيم ، وهو الذي استقر فيه طارق بن زياد ، حين أجاز البحر على ما هو معروف عند أهل التواريخ ، وعلى الاختلاف فى جوازه ، هل كان بمواطأة من يليان (1) ، الذي كان ملكا بسبتة أو بغير ذلك وكان بينه وبين لدريق ما كان (ويقال فيه لدريق (2) باللام وردريق بالراء ، حكى القاضي عياض فيه الوجهين . قيل وهذه تسمية لكل ملك ، ملك الأندلس فى الدهور الأولى / كالقياصرة للروم والأكاسرة للفرس والنجاشي للحبشة / وخانان للترك وفرعون لمصر وأشباه ذلك من سماة ملوك الأمم المتعارفة ، وهي فائدة ذكرها القاضي فى كتابه الموسوم بالفنون الستة فى أخبار سبتة ، لم أرها لغيره . ولما ملك النصارى هذا الجبل ، اشتد ضررهم وكثر عداهم فى الأندلس وصاروا عيونا على المسلمين ، لا يتحرك لهم راسية ولا تسير لهم

1 – بليان : فى «ر» و فى «ا» .
2 – للدريق : فى «ر» .

سائرة الا وقد عرفوها ، فان استقلوها وثبوا عليها ، على هذا كان عملهم مستمرا فى زمن السلم والحرب وأعيا أخذه جميع من تعرض له لمنعته فلم يزل مولانا رضي الله عنه ينفق أمواله ويعمل فى استخلاصه أعماله ويستعد بذلك بكل * (3) وجه من وجوه الاستعدادات ويحاول على استنقاذه أحسن المحاولات ، يشن عليه الغارات وأخذ بمخنقه من كل الجهات الى أن نازلته جيوشه مع ولده وخواصه ولم يزل يضيق عليه الى أن استنقذه ، بل استنقذ به سائر بلاد المسلمين بالأندلس بلا نزاع ، والخبر فى استخلاصه ووجه فتحه يستدعي تأليفا مستقلا فاستولى عليه رضي الله عنه ولما دخله خدامه ألفوا فيه من الشراعات والقلع والمراسي والعدد البحرية ما لا يصدقه السمع مما حصلوا عليه فى المجاز من الزقاق . فصار خبره فى الآفاق وسارت بهذه البشرى الرفاق . كنت يوما فى مجلس الامام العلامة القدوة ، أبي زيد ابن الامام بتلمسان والمجلس بالمسجد الذي كان يقرأ فيه من مدرسته ، قد غص بمن عوائده الحضور ونحن ننتظره واذا به قد جاء على عادته رضي الله عنه فلما استوى جالسا ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أبشروا معشر المسلمين ، هذا جبل الفتح قد أعاده الله للمسلمين وجبر صدعهم وعاد الفتح الأول كيف كان » . فارتفعت الأصوات بالحمد والشكر وجرت العبرات ، عبرات السرور . ثم قال للشيخ ، الفقيه ، الصالح ، العالم ، الولي ، المجاب ، أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي (وكان من أولياء الله الصادقين ومن العلماء العاملين ، صاحب مقام وحال ، يسميه أهل مكة « البكاء » ، أجرى عليه هذا الاسم الشيخ الامام الأوحد ، شيخ الحرم ، أبو محمد

---

3 ـ « أنظر الفنون الستة فى أخبار سبتة لعياض ، رحمه الله » : ملاحظة على هامش نسخة الرباط .

الدلاصي نفع الله به) : « يا فقيه أبا محمد ، ادع الله لنؤمن على دعائك لمن فتحه الله على يديه » فارتفعت الأصوات بالدعاء وانطلقت الألسنة بالثناء .

وكان بين سلطان تلمسان ، وهو اذ ذاك أبو تاشفين عبد الرحمن / بن موسى وبين مولانا المرحوم من العداوة والمحاربة ما كان ، ومع هذا فلم يبال شيخنا رحمه الله ولا من حضر ، وكان والدي ، رحمه الله ورضي عنه ، من جملة الحاضرين والداعين ، فنمى الخبر للسلطان المذكور * فأسره فى نفسه وجرت تغيرات منه على من حضر ، فنسبت لما وجد فى نفسه من هذا المجلس .

ولما حصل فى ملكه ودخل تحت ايالته كان أهم الأشياء عنده (4) صرف الوجه اليه بالعمارة والبناء ، فوجه أحمال الذهب وأهل النجدة من الخدام لذلك ، فابتدؤوا ببناء الحصن ، فأحكموا سوره ودوره ومواجله وآثاره ، وتحصين المواضع التي يحذر منها عليه وبناء جامعه ومخازنه والسفن أثناء ذلك تشحن (5) زرعا وأدما ومرافق وعددا بحرية وبرية بما تذهل العقول عند رؤيته وتحار الأفكار فى جميع قدره (6) فى الزمن اليسير فكان المجتمع فيه آية للناظرين وفخر للسلمين . ولما تم ذلك كله ونازله العدو الكفور برا وبحرا والتأمت النصرانية كلها عليه وجيشه المنصور يحدق له مع ولده الأرضى فصبروا فى الله صبر من أخلص عمله لله فخيب الله آمال العدو الكفور فكانت للمسلمين ، والمنة لله ، الطائلة والظهور .

فرأى رحمه الله أن يحصن سفح جبل الفتح المذكور بسور

4 ـ اليه : فى «ر» .
5 ـ تحشن : فى «ا» .
6 ـ جمع قدرته : فى «ر» .

يحيط به من كل جانب حتى لا يطمع عدو فى منازلته ولا يجد سبيلا لمحاصرته ، فاستعظم الناس من ذلك ورأوه من قسم المحال العادي ، فأخرج الأموال وعين العمال وتخير الثقات والأمناء ، وصحبت ذلك نيته الصادقة والمقادير السابقة ، فأحاط بمجموعه وهو مقدر بأمثال ذوات عدد سور ممشى وأبراج ، قد اتخذ فيها محارس ومساكن من البحر الى البحر ، تأييدا من الله ومعونة منه ، وصارت التربة الحمراء بالمباني الحافلة ، والمساكن العالية بيضاء . وصارت بها أسواق وجامع للصلاة والخطبة وحمام وتعددت فيها المساجد وفى غيرها من سفح الجبل مواضع اتخذت فيها قرى ومساكن ، واحتفل فى بناء دار الحاج يعيش منها وهو الموضع الذي نزل فيه مولانا المرحوم عند جوازنا الى العدوة ، فصار دار مملكة ، وعمر هذه الأبراج كلها * بالسكان المرتبين ، والذهب والقمح يشملهم فى كل شهر وشحن مجموع أبراج الجبل والسفح ودوره بالأبطال والشجعان من الرجالة والفرسان ، يجري على / كل منهم ومن معهم من العيال والأولاد المرتبات الكافية ، واستمر على ذلك العمل الى الآن .

الفصل الثالث

فى عمله فى حربه وسلمه مع المجاور له صاحب قشتالة

كانت أزمانه وبلاده كلها معمورة بالاستعداد والجهاد (نفعه الله بذلك). هذا ومدينة رندة والبلاد الدائرة بها الراجعة اليها والى جبل الفتح حماهما الله تعالى ، جار عليهما المرتبات الوافرة ، وقد باشرت العطاء فيها سنة ، وتطوفت عليها . وكان ذلك شأن مولانا رضي الله عنه فى كل سنة يوجه من يتطوف عليها شكيات أهلها ، وينظر فيما يعوزهم . فحملت من مال الزكاة المجتمع فى تلك السنة مائة ألف دينار من الذهب أوصلتها الى سبتة ، وتوجهت رسولا الى غرناطة ، وفى عودي من غرناطة توجهت للتطواف على البلاد

الاندلسية وكتبت جميع ما أمرت به ، وتوجه معي كتاب الجبل ورندة . فقضينا العجب من كثرة ما يخرج عنه فيها فى كل سنة ، ووصلت الى الصخرة وحصن أريولة (1) وما دار بها ، ووقفت على الحدود بين المسلمين والنصارى ، وسمعت شكيات أهل الملتين ، وقبض أهل كل موضع ما يخصهم ، وشمل أهل ذلك الاقليم كله احسانه وانعامه (لا ضيع له أجر ذلك) .

وفى بلد رندة من آثار البناء المحدث عن أمره والمعاقل المحصنة والابراج الشامخة والآبار المعينة والزوايا والخانات ، وسائر البلاد الأندلسية الراجعة لنظره ما حضرها وألحقها بالحواضر المعتبرة (كتب الله له أجر هذه الحسنة) .

وسيأتي ذكر ما أنشأه من المحارس والآثار فى غير هذا الباب ان شاء الله تعالى . وأما ما أجازه الى الاندلس من الزرع ، فلا يحصى قدره ولا يضبط حصره بطول مدته (2) رضي الله عنه . ومن سنة ولاية المولى أبي سعيد والده ، رضي الله عنهما ، لم تزل المراكب تترى وتتعاقب شفعا ووترا فى كل فصل من القراقر والمراكب والغزويات والقوارب والشواني كراء وشراء صيفا وشتاء الى سنة تسع وأربعين . فكم فى ذلك من حسنات ، فله فى كل حبة عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى ما لا يعلم قدره الا الله . وروينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف » (أخرجه الترمذي) / فهكذا فلتكن الأفعال والمفاخر ✽ وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون (3) .

وفى كل حصن من هذه الحصون ، ومعقل من هذه المعاقل عدة مخازن وينضم الى الزرع ما يحتاج اليه من الأدم ويفتقر الى ادخاره من الحبوب

---

1 ـ كذا فى الاصل وممكن أنها هي « ولبيرة » .
2 ـ من هنا الى بداية اللوحة 263 (نسخة الرباط) يرد فى بداية اللوحة 265 .
3 ـ وفى ذلك فلينافس : فى «ر» .

وسائر الأقوات ، وما يحتاج اليه فى عمل آلات (4) من الخشب والحديد والنحاس والرصاص والقصدير والجلد والجبن والشحم والزيت للتأدم والمراكب مما اذا رآه الناظر يعجب مما (5) يجتمع من اجتماع مثل (6) ذلك المقدار فى المعمور (فسبحان من شرف قدره وأعظم أجره وأجزل فى الدارين فى ذخره) .

الفصل الرابع

وأما ما يتعاهد به سلطان الاندلس (أيدهم الله (1)) ويمده به من الاموال والخيل والعدد والزرع والذخائر مما أقام الله عز وجل بـه عدوة الاندلس فى مدة حياته ، فشيء يعرف من عرف العوائد الاندلسية، فوجه من الخيل من الخمسمائة بجهازها الى العشرة ، وقل سنة يخلو من هذا ، والمال بالأحمال ذهبا وفضة ، والزرع بالآلاف من الاوساق .

الفصل الخامس

وهو عنوان ضخامة ملكه وكبر قدره وقدر أعماله الجهادية المبرورة ، ومساعيه المقبولة ، انا لما نزلنا سبتة لمواجهة لعدو المحاصر (2) للجزيرة ، كان الخارج عنه بطول حولين كاملين لأهل المرتب خاصة من جيش الاندلس وجيش امامنا المؤيد بجبل الفتح ، وداخل الجزيرة خمسين ألف دينارا من الذهب فى هلال كل شهر ، لا يفتر عن ذلك عدا ما يمد به من فى داخل الجزيرة * وما يرزق به من معه فى سبتة . قلت : انما عرفت

3 ــ الآلات : فى «ر» .
4 ــ مما : ناقصة فى «ا» .
5 ــ مثل ناقصة فى «ر» .
1 ــ أيادها : فى «ر» .
2 ــ المحاصرة : فى «ر» .

هذا من جهة أن (3) سلطان الأندلس رحمه الله كان قطع البحر طالبا من مولانا المرحوم مائة ألف دينار من الذهب أو سبعين ، على أن يدفعها للنصراني ويرتحل عن الجزيرة ، فأنف رضي الله عنه من هذا بناء منه على أن الزرع فى الجزيرة وافر والعدو منها آيس ، فراجعه فى ذلك الشيخ أبو زيان عريف ، ورغب منه اسعاف السلطان بهذا الغرض فرده ، فدخلت عليه وهو يقول له : « يا سلطان ، الذي تحققت بما أخبرني به كتابك أنك تخرج فى كل شهر خمسين ألفا فى هذه الحركة عدا ما يخرج عنك هنا ، وفى الجزيرة ، فهذا قدر الذي يخرج عنك فى شهرين » . فقال له : « نعم » ، فعرفت من هذا المبلغ وقدره (فالله يضاعف له أجره بمنه وفضله) . ومن هذا النمط / أنه رضي الله عنه أمر بأن يباع لأهل الجزيرة الزرع الذي اختزنه فيها بطول مدة الحصر بسعره قبل أن تحصر ، حتى لا يكابدوا غلاءه بطول حصرها ، فهذا ما يدلك على بذل (4) ✻ نفسه النفيسة وماله الوافر وولده الاعز ، فقد تقدم أنه رضي الله عنه قدم ولده الامير المجاهد الشهيد بين يديه ، رضي الله عنه ، فصح بمجموع هذا أنه دخل تحت مقتضى الآية التي كان يجريها على لسانه ، ويأمرني أن أقرأ بها فى (5) عشر الخطبة وهي قوله تعالى : « يا أيها الذين آموا هل أدلكم .. (الآية) . وقوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . وقد باع واشترى وربح فخر الاولى وذخر الاخرى ، ولولا الوقوف مع غرض الاختصار وأن يخرج هذا المجموع عدة أسفار لأوردت من ذلك مسانيد أخبار ومجموعات آثار .

---

3 — ان : ناقصة فى «ر» .

4 — هنا تبدو اللوحة 265 (نسخة الرباط) مواصلة اللوحة 262 .

5 — غير موجود فى «ر» .

(1) الباب التاسع والثلاثون

فى انشاء المحارس والمناظر فى جميع بلاد السواحل وهي مواضع الرباط (وفيه فصول)

الفصـــل الأول

لاخفاء بفضل الرباط والحراسة فى سبيل الله . وقد روينا فى الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » . وعن سلمان رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يوم * فى سبيل الله وليلة (2) خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات فيه جرى عليه عمله الـــذي كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان (3) » . (رواه مسلـــم) وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل ميت يختم على عمله الا المرابط فى سبيل الله ، فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة ، ويؤمن من فتنة القبر » . (رواه أبو داود والترمذي . وقالا : حديث حسن صحيح) . وعن عثمان رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » . (رواه الترمذي . وقال : حديث حسن) . والاحاديث والآثار فى الباب كثيرة ، والرباط والحراسة فى سبيل الله من أفضل الأعمال .

---

1 ــ ومن : فى «ر» .

2 ــ وليلة : ناقصة فى «ر» .

3 ــ الفتانان : فى «ر» .

الفصل الثاني

أنشأ هذا المولى رضي الله عنه من المحارس / والمناظر ما لم يعهد مثله فى عصر من الأعصار . وحسبك أن مدينة آسفي وهي آخر المعمورة الى بلد الجزائر ، جزائر بني مزغنان (4) آخر وسطى (5) الغرب وأول بلاد افريقية ، محارس ومناظر ، اذا وقعت النيران فى أعلاها تتصل فى الليلة الواحدة أو فى بعض ليلة وذلك فى مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين ، وفى كل محرس منها رجال مرتبون ، نظار وطلاع ، يكشفون البحر ، فلا تظهر فى البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين ، الا والتنبير يبدو فى المحارس يتحذر (6) أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم ، فأمنت السواحل فى أيامه السعيدة ، ما كان يستمر (7) فيها من أسر أهل البوادي وتصبيحهم (8) والاستيلاء على كثير من أهل العمود الذين يأوون الى البلاد الشطية والسواحل .

الفصل الثالث *

من أعجب ما أنشأه من هذا النمط رضي الله عنه ، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العمارة قبل أن تنشأ لا يتصور بناؤها على الوجه الذي قدره وأورده ، فجاءت على أتم الوجوه من الاحسان . فمنها برج الماء الذي أنشأه داخل البحر ووسط الامواج ببحر بسول من ساحل سبتة ، وقد حضرت انشاءه ، وكان قد اجتمع

4 — بني عنان : فى «ر» .
5 — وسط : فى «ر» .
6 — يتحذر : ناقصة فى «ر» .
7 — ينتهز : فى «ر» .
8 — تصحبهم : فى «ا» .

الملأ على عدم امكان بنائه هنالك ، فنقلت الصخور التي هي كالروابي والأحجار التي لا يتزحزح مثلها الا بهندسة وأحكام وعجل . فألقيت فى تلك التروش وضم اليها أمثالها حتى صارت جزيرة فى وسط البحر ، فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف هناك . ثم أمر بعمل جسر يمر من الساحل الى هذا البرج ، بحيث يتمكن مشي البهيمة عليه واتصال ممشاه من البر الى البرج . صان ذلك البرج جميع المرسى ، فلا يتهيأ لأحد من المراكب الدخول لذلك المرسى الا أن يكون صديقا ، والا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته وهو من أعاجيب معمورات المعمورة.

ومنها البرج الذي يلي المشحن أيضا من المدينة المذكورة ، وآخران من هذا النمط بالجبل المحروس .

الباب الاربعون (1)

فى بنائه الجوامع والمساجد والصوامع (وفيه فصلان)

الفصل الأول

روينا عنه صلى الله عليه وسلم الحديث المشهور المسند : « من بنى مسجدا / ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة » . وقد دلت الآية على هذا المعنى وهو قوله تعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله » . ولعمري لقد اتصف رضي الله عنه بهذه الصفات، فالمرجو أن يكون من أهلها . والأخبار فى هذا الباب متعددة .

الفصل الثاني

فى تهممه رضي الله عنه (2) ببناء ذلك وانفاقه فيه الأموال الجسيمة

لم يزل دأبه رضي الله عنه ذلك فى (3) حال امرته وخلافته ، فله بمدينة فاس (حرسها الله) الآثار الجميلة * والبنايات الحفيلة ، كمسجد الصفارين ومسجد حلق النعام ، وكل واحد منهما غاية فى الكبر (4) والضخامة ، وصومعة كل واحد منهما غاية فى الارتفاع والحسن ، ومساجد عدة وصوامع وبالمدينة البيضاء كذلك وبالمنصورة من مدينة سبتة الجامع المتصل بالقصر السعيد وهو جامع حافل

1 — هنا تنتهي اللوحة 267 . القطعة التالية موجودة فى اللوحة 272 (نسخة الرباط) .
2 — رضي الله عنه : ناقصة فى «ر» .
3 — فى : ناقصة فى «ر» .
4 — الكبير : ناقصة فى «ر» .

وصومعة حافلة ومساجد كذلك بها كثيرة . وبمدينة طنجة وسلا وشالة ما يقضى منه العجب ، وبقصبة مدينة تازى وبمكناسة ومراكش .

وأما ما أنشأه بمدينة تلمسان ، فمما يرجى من الله اعـادة رسمه وتجديد آثاره ، فكان مما لم يعهد منه فى سالف (5) الازمان ولا سبق شكله فى قواعد البلدان ، فمن ذلك جامع القصبـة المشتمـل عـلى المحاسن التي لم يجتمع مثلها فى مثله من حسن وضعه وجمال شكله وترتيب رواقاته واعتدال صحنه وحسن ستاره ومعين مائه واتسـاع رحابه واحتفال ثرياته الفضية منها والصفرية وغرابة منبره .

وأما الجامع الكبير فقد اتفق الرحالون وأجمع المتجولون عـلى أنهم لم يروا له ثانيا . أما أن جامع بني أمية تم حسنه لما كمل ترتيب وضعه ، ولو كملت تتمات هذا الجامع لما قصر عنه ، وجامع المنصور بمراكش الذي يضرب به الأمثال ، وان كان أكبر مساحة ، الا أن ما كان فى هذا من الرخام والاحكام أغـرب وأعظـم ، ولا شـك أن صومعته لا تلحق بها * صومعة فى مشارق الأرض ومغاربها صعدتهـا غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر ، وهو رحمه الله على فرسه وأنا على بغلتي ، من أسفلها الى أعلاها ، و (6) كأن فى وطء من الأرض . وكانت على الباب / الجوفي منه ولها ممـران ، يطلـع فيهمـا الـى أعلاها . وكانت محكمة البناء والنجارة فى الأحجار بصناعة مختلفـة من الاحكاء فى كل جانب . ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح ، وهو من حديد يشبه أن يكون صاريا . وأما الثريا ، فكان عملهـا على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها فى أسفلها بخطي ، على ما هي عليه الآن فى جامع تلمسان ، وتشتمل على ألف مشكاة أو نحوها ، وعهدي بقدر وزنها مرسوم فى أسفلها ، وهي على مقدار كـرم (7) .

---

5 ــ سائر : فى «ر» .
6 ــ ناقصة فى «ر» .
7 ــ ومبين على مقدار جرمها : هكذا فى تحقيق ليفي ــ بروفنسال .

وأما المنبر ، فقد أجمع الصناع يومئذ على أنه لم يعمل مثله فى المعمور ، وقد اتفقوا على أن منبر قرطبة ومنبر الكتبيين بمراكش أحفل منابر المعمور صناعة ، فان أهل المشرق لم يجد لهم فى بنائهم احتفال فى نقش الخشب . فبلغ من منبر قرطبة عدة قطعات وعورضت بما اشتمل عليه هذا المنبر فلم يوجد بينهما مناسبة فيه من الأشكال المنقوشة ، قدر البندق والحمص ، وفيه من التحاشي قدر البرة ونحوها ، اذا رأيته ، رأيت العجب ، فالله حسيب من تسبب فى خراب ذلك كله ، وهو مجازيه ، فلقد محا رسوما يفخر بها أهل الاسلام ويعتز بها الدين ما بقيت الأيام .

ومساجد عدة ، منها عند باب الحجاز (8) وعند باب هنين وعند باب فاس . وأجرى لهذا الجامع الأعظم * نهرا يشق من أصل المدينة الى الجامع المذكور فى ساقية تمر ، تجري منها سقايات متعددة . ومنها الجامع الذي أنشأه بمدينة هنين ، وكان شراء موضعه على يدي ، وهو مسجد خطبة وصومعة فيه كبيرة مختلفة . واشترينا المساحة المزيدة فى الجامع القديم بمال جسيم والمزيد فى جامع الجزائر كذلك .

وأما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ ، وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفين أبي مدين شعيب بن الحسين (9) رضي الله عنه ، فهو الذي عز مثاله واتصفت بالحسن والوثاقة أشكاله . أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما ، وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي . اشتمل على الوضع الغريب ، وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة

8 ــ المجاز : هكذا قراها ليفي ــ بروفنسال .

9 ــ الحسن : فى «ا» .

بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى فى الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة ، فلا يختلج فى النفس شك / ولا يعرض لها وهم ، انها أشكال منجورة ، منقوشة ، وهي كلها مبنية احكاء بالآجر والفضة واشتمل على المنبر العجيب الشكل ، المؤلف من الصندل * والعاج والأبنوس المذهب ذلك كله . وقد تقدمت حكاية رقم الصدر منه . وأما الباب الجوفي ، الذي ينفتح على المدرج الذي ينزل فيه الى قبر الشيخ رضي الله عنه والى الشارع ، وهو باب النحاس ، المشتمل على مصراعين ، كل مصراع منهما مصفح بالنحاس (10) المخرم ، المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة . فهو من غريب ما يتحدث به السفار . أخذ على صناعة المصراعين الصفارون نحوا من سبعمائة دينار ذهبا عينا ، هكذا وجدته بخطي (11) عدا ثمن النحاس والحديد والخشب والأصبغة . على مدرجه قبة ، من عمل المقربص ، غريبة الشكل ، قليلة المثل . وصومعته كذلك فى غاية من الحسن والاتقان ، كل جهة من جهاتها الأربع تخالف الأخرى فى النوع والاحكاء (12) وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين دينارا ذهبا نفعه الله بذلك وأجزل ذخره وأعظم أجره .

وأما المساجد فى الزوايا وسائر البلدان والمناهل ، فلا تدخل تحت الضبط ، ولنقتصر على هذه النبذة ، لما ملنا اليه من الاختصار فى هذا المجموع * .

10 ــ مذهب بالنحاس : فى «ر» .

11 ــ يخطي : هكذا قرأها ليفي بروفنسال .

12 ــ الاحكام : هكذا قرأها ليفي ــ بروفنسال .

(1) الباب الحادي والأربعون

فى انشاء المدارس (وفيه فصلان)

الفصـــل الأول

لا خفاء فى فضيلة نشر العلم وبثه حسبما دللنا عليه فى بابه من هذا المجموع ، ولا يحفظ العلم الا بمعونة طلابه على طلبه وبعثهم عـــلى تعليمه وتعلمه (2) فان تعليمه وتعلمه (2) يمنعان من التسبب ويقطعان عن الطلب (3) ، فاذا حصلت المعونة وكفيت المؤونة ، ارتفعت المعذرة وانقطعت الحجة ، وللمعين على ذلك أجر المباشر والتجر فيه من أربح المتاجر ، فلا حاجة الى الاستلالال على ذلك .

الفصـــل الثـــاني

قد قدمنا أن انشاء المدارس ، كان فى المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد ، الملك العابد ، مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس وبعدوة القرويين منها . ثم أنشأ مولانا السلطان أبو سعيد والد امامنا رضي الله عنه ، مدرسة / العطاريـــن ومدرســـة المدينـــة البيضـــاء بمشاركتـــه رضي الله عنه . ثم أنشأ نفعه الله تعالى المدرسة المختلفة بالعدوة ، عدوة الاندلس من فاس ، وهي مدرسة الصهريج . ثم أنشأ المدرسة الكبرى ،

---

1 ــ ومن : فى «ر» .
2 ــ تعلمه : ناقصة فى «ر» .
3 ــ الطلب ناقصة فى «ر» .

مدرسة الوادي ، وهي التي يشق في وسطها الوادي الاعظم بالعدوة . ثم المدرسة الكائنة جوفي جامع القرويين ، وتعرف بمدرسة مصباح لأنه ولي التدريس فيها ، وهو الامام المعروف بالكراس ، فانه كان يستظهر في النقل بكراس يسردها (1) في دولته كل غداة رحمه ونفع به .

ثم أنشأ رضي الله عنه * في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة . فأنشأ بمدينة تازى قديما مدرستها الحسنة ، وببلد مكناسة وسلا وطنجة وسبتة وأنفى وازمور وأسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وبالعباد ظاهر تلمسان وحذاء الجامع الذي قدمت ذكره (2) ، وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان . فمدرسة سبتة غاية وأعجب منها مدرسة مراكش ، وتليها مدرسة مكناسة . وكلها قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغريبة والمصانع العديدة والاحتفال في البناء والنقش والجص والفرش على اختلاف أنواعه من الزليجي (3) البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش والمياه النهيرة (4) . مع ما ينضم الى ذلك من الأحباس التي تقام (5) بها ويحفظ بها الوضع ، مما يصلح به ويبنى ويجرى في المرتبات على الطلبة والعونة (6) والقيم والبواب والمؤذن والامام والناظر والشهود والخدام ويوفر من ذلك . وهذا يرشدك الى قدر ما يحتاج اليه في كل مدرسة من (7) هذه المدارس ، هذا (8) مع ما

1 ــ فيردها : في «ر» .
2 ــ الجملة التالية ناقصة في «ر» .
3 ــ الزليج : في «ر» .
4 ــ نميرة : في «ا» وفي تحقيق ليفي ــ بروفنسال .
5 ــ يقيم : في «ر» .
6 ــ الفولة قرأها ليفي ــ بروفنسال .
7 ــ و : في «ر» .
8 ــ هذا : ناقصة في «ر» .

حبس في جلها من أعلاق الكتب النفيسة والمصنفات المفيدة ، فلا جرم كثر بسبب ذلك طلب (9) العلم وعدد (10) أهله . وثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته بلغه الله ذلك ، وغاية ما يحفظ لملك من الملوك في المشرق مدرسة واحدة أو ما يقرب منها ، فكم من شخص أجرى عليه الرزق الى انقضاء عمارتها (وثوابه له نفعه الله بذلك) . وروينا في الخبر الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وعمل صالح ينتفع به وولد صالح يدعو له » / ولا أفضل من هذه الأعمال الجارية (تقبلها الله تعالى منه ورضي عنه) .

9 ـ طلب في «ر» .
10 ـ تعدد : في «ر» .

(1) الباب الثاني والأربعـون

فى انشائه الزوايا (وفيه فصول)

الفصـل الاول

فى ثواب هذه الأعمال .

لا شك أن الثواب بقدر الاعمال والاجور على حسب الانفاق وتعدد المنافع ولهذه أصول فى الشرع * .

الفصـل الثاني

أما اتخاذ الزوايا فقد استدل غير واحد من علمائنا على أن الأصل فى استعداد الزوايا والخوانق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألزم فقراء أصحابه الكون فى الصفة، وهو موضع معروف بالمدينة حذاء مسجده صلى الله عليه وسلم . وقد زعم كثير من المتصوفة أن هذا هو الاصل فى اطلاق هذا اللقب على المتصوفة . ولأئمتنا رضي الله عنهم فى ذلك كلام متسع . ورأيت أن أورد ما حضرني لكثرة تداول الكلام فيه والتشوف الى معرفته ، فمن الناس من ذهب الى أنهم أجري عليهم هـذا الوصف للباسهم الصوف ، واحتجوا على ذلك بما رويناه من حديث أنس رضي الله عنه أنه كانا يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف فهو لباس الانبياء (عليهم

1 ـ ومن : فى «ر» .

الصلاة (2) والسلام) » . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يأمون البيت الحرام » .

وقول الحسن البصري : « لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف » . فنسبوا فى الظاهر للبسه لما قطعوا كل سبب ولم يعرفوا سواه سترا لحالهم ، وهذا هو الذي اختاره كثير منهم واستدل عليه بما سنذكره .

حدثني شيخنا شهاب الدين أحمد بن عبد الرحيم السمرنائي بزاويته من القاهرة بمقربة من باب الخوخة عن أبيه ، قال لنا : قال جمال الاسلام شهاب الدين الشهروردي : « ما يقال من أنهم سموا صوفية بغير هذا المعنى ، يفتقر الى دعوى واذا كانت التسمية للباسهم الصوف بعدوا عن الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم ، وأيضا فان لباسهم الصوف حكم ظاهر على الظاهر ونسبتهم الى غير ذلك نسبة الى باطن والحكم بالظاهر أوفق وأولى ما نقول بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف أليق وأقرب الى التواضع » (3) . قال : « ويقرب أن يقال لما أبرزوا الخمول والتدلل والتواضع والانكسار * والتخفي والتواري كانوا كالخرقة الملقاة ، والصوفة المؤمنة التي لا يرغب فيها ولا يلتفت اليها » . فيقال : صوفي نسبة الى الصوف كما يقال : كوفي نسبة الى كوفة . وهكذا ذكره بعض أهل العلم ، ورجح بعضهم ما قدمناه من نسبتهم الى الصفة وان كان الاشتقاق بعيدا ، لكن رجحه بعضهم بتشاكل أحوال أهل الصفة للمتصوفة رضي الله عن جميعهم ، وفيهم نزل قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ».

---

2 ــ الصلاة : ناقصة فى «ر» .
3 ــ الجملة التالية ناقصة فى «ر» .

وقد أطنب بعض العلماء فى صحة هذه النسبة فى هذه التسمية ، وهذا مجال يتسع الاخذ فيه . وفى كتاب العوارف شفاء المتشوف الى هذا المعنى . وأجاز غير واحد أنهم انما سموا بهذا الاسم للصفاء من الاكدار والمباعدة من الاغيار . وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي فى الأحكام : « ولباس الصوف شعـــار المتقين ولباس الصالحين ، وشارة الصحابة والتابعين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس لينا وخشنا وجيدا ومقاربا (4) ورديئا » . واليه نسب جماعة من الناس الصوفية لأنه لباسهم فى الغالب ، فالياء للنسبة والهاء للتناسب ، وقد أنشدني بعض أشياخهم ببيت المقدس (من البسيط) :

تشاجر الناس فى الصوفي واختلفوا فيه وظنـــوه مشتقـــا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوف

وقد استوعب الكلام على هذا الامام جمال الدين أبو الفرج الجوزي فى كتبه وخصوصا أول الصفوة فيما حدثنا به شيخنا شهاب الدين أحمد ابن محمد الفارابي عن الامام عز الدين الحراني عن ابن الجوزي فى الكتاب المذكور .

الفصـــل الثالث

وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها فى المشرق الربط والخوانق ، والخانقات علم على الربط وهو لفظ أعجمي ، والرباط فى اصطلاح الفقهاء (1) عبارة عن احتباس النفس فى الجهاد والحراســـة . وعند المتصوفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة . وعن الامام سري

4 ـ مقاربا : ناقصة فى «ر» .

1 ـ الفقراء : فى تحقيق ليفي ـ بروفنسال .

السقطي رضي الله عنه / « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ✻

« أصبروا عن (2) الدنيا رجا السلامة وصابروا عند القتال بالثبات (3) ورابطوا لهواء النفس اللوامة ، واتقوا ما يعقب لكم من الندامة لعلكم تفلحون غدا على بساط الكرامة » . وقيل : « اصبروا على بلائي وصابروا على نعمائي ورابطوا فى دار أعدائي واتقوا محبة من سوائي » . قيل : « وهذه شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق وترك الاكتساب اكتفاء بكفاية مسبب الأسباب » .

الفصل الرابع

فى وجه مشابهة أهل الزوايا أصل الصفة

حدثنا شيخنا أبو العباس أحمد بن عماد الدين شيخ المشايخ عبد الرحيم ، حدثنا الامام أبو حفص البكري ، حدثنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد البزاز ، أخبرنا علي بن عيسى الوزير ، حدثنا عبد الله البغوي ، حدثنا وهبان بن بقية ، حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن أبي هند عن أبي حارث بن الاسود عن طلحة رضي الله عنه قال : « كان الرجل اذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فان لم يكن له بها عريف نزل عن أهل الصفة » . (وكنت فيمن نزل الصفة) . قال الامام أبو حفص البكري : « فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة » . ووضع الرباط لهذا المعنى أن يكون سكانه بوصف ما قال الله سبحانه : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » . والمقابلة

2 ــ على : فى «ر» .
3 ــ بالثبات : ناقصة فى «ر» .

باستواء السر والعلانية ، ومن أضمر لأخيه سرا (1) فليس بمقابل له ، وان كان وجهه اليه . فأهل الصفة هكذا كانوا فهذا وجه المناسبة على ما ذكر الامام أبو حفص .

قلت : والظاهر أن الزوايا عندنا فى المغرب هي المواضع المعدة لارفاق الواردين واطعام المحتاج من القاصدين . وأما الربط على ما هو (2) المصطلح عليه فى المشرق فلم أر فى المغرب على سبيلها ونمطها الا رباط سيدي أبي محمد صالح والزاوية المنسوبة * لسيدنا أبي زكرياء يحيى بن عمر (نفع الله بهم) بسلا غربي الجامع الاعظم منها ، ولم أر لهما ثالثا على نحوهما فى ملازمة السكان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر نفع الله بهم .

---

1 — سترا : فى «ر» .
2 — مر : فى «ر» .

الباب الثالث والاربعون

فى بناء المارستانات

/ جدد امامنا رضي الله عنه رسم المارستان بمدينة فاس وغيرها . وهو عبارة عن الموضع المتخذ لمداواة المرضى ومعاناتهم . ولأهل المشرق بها عنايات كبيرة ، وذاكرني (1) يوما الفقيه الحسيب الفاضل الكاتب (2) المشارك أبو الحسن علي بن محمد بن سعود (3) (ذكره الله فى الصالحات) فقال لي : « هل تجد فى الشرع أصلا فى اتخاذ المارستانات ؟ » فقلت له : « لا أذكره » فقال لي : « بلى ان فى حديث العرنيين أدل دليل » . فرأيتها من أعظم الفوائد التي أهداها الي وتفضل بها علي ، ومن نظر فى مدلول الحديث ووجه الأخذ معه رأى برهانه لائحا ودليله الظاهر واضحا ، فان هؤلاء المرضى لما شكوا مرضهم ووجههم صلى الله عليه وسلم لمحال اللقاح ليشربوا من أبوالها وألبانها ، دليل على تخصيص المحل والمعاناة من السبيل الى غير ذلك مما يؤخذ منه ولا يخفى وجهه . وكان هذا الفاضل شرع فى تصنيف كتاب لا نظير له فيما علمت ذكر فيه أصول الاعمال الكتابية والولايات الاصطلاحية من الشرع ، وجاء من ذلك بالعجب العجاب ولعل الله يسر فى اكماله . وبالجملة فهو غريب حسن . وكان لمولانا رضي الله عنه بهذا أعظم اعتناء وقد أحيا سبيله من بعده فيه ولده أبو عنان رحمه الله ، والولد سر أبيه .

---

1 ــ ذكرني : فى «ر» .

2 ــ الكامل : فى «ر» .

3 ــ ابن سعيد : فى «ر» .

(1) الباب الرابع والاربعون

فى انشائه القناطر والجسور التي يتهيأ عليها العبور ، والسقايات التي يتيسر فيها تناول الماء للشرب والطهارة والانتفاع وفضل الماء وسقيه، واعانة (2) اللهفان به لا يخفى ما فيها من الأجر * المدخور والثواب الموفور وما لامامنا رضي الله عنه فيه من الآثار معروف .

الفصل الاول

أخبرني الفقيه الامام نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن فرحون اليعمري بالمدينة (شرفها الله) قال : « ما مررت فى بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه (3) للشرب والوضوء ، فسألت عنها ألا وجدتها من انشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله » . وصدق فان أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وسقي الدواب بفاس وبلاد (4) المغرب معظمها من بنائه رضي الله عنه وكذلك أكثر الميضآت . وكان له / على ذلك شدة حرص رغبة فى ثوابه فالمواضع التي بفاس لا تحصى . وأما عمله فى جلب الماء لداخل مدينة سلا وانفاقه فى ذلك الأموال الطائلة حتى أوصله من الموضع المعروف بمرج (5) حمام الى الجامع الأعظم بداخل المدينة وذلك أميال (فالله يكتب له أجره) وكذلك عمل فى تلمسان فى منشر الجلد وسويقة اسماعيل وغيرها بتلمسان وغيرها ، فى مواضع لم يعد فيها جري الماء والانتفاع به . ولما

1 ــ ومن : فى «ر» .
2 ــ اغاثة : فى «ر» .
3 ــ ميـاه : فى «ر» .
4 ــ ببلاد : فى «ر» .
5 ــ برج : فى «ر» .

دخل مدينة تونس (حاطها الله) لم يكن عنده أهم من النظر فى رد مائها الجاري فى القديم الى الجامع الأعظم جامع الزيتونة فأمر بجمع الرصاص وعمله ، وعين الطيفور الذي ينتقل (6) لوسط الجامع وموضع الميضاة ، فسبق قدر الله ونفذ حكمه وقضاؤه فتعذر ذلـك ، (والله يكتب لـه أجره فانه هم بالحسنة وشرع فيها) .

الفصــل الثــاني

وأما القناطر فلا يخفى ما فيها ، فقد عمل فيها الأعمــال العجيبــة ، فقنطرة وادي ردات وقنطرة بني بسيل وقنطرة الوادي بداخل فاس وقنطرة الرصيف وقنطرة وادي سطفسيف بتلمسان وقنطرة باب الجياد وسد سيرات وقنطرة ميناء : هذه كلها من انشائه وفى حسناته ولا يحيط الوصف بها ولا يقدر قدر ما أنفق من الأموال الطائلة فيها (فنفعه الله بها) . وهذه الأمور هي التي يشترك فى الانتفاع بها القوي * والضعيف والبادي والحاضر وهذه الآثار المتعددة لم تعهد لملك قبلـه فى سالف الأزمــان .

6 ــ ينقل : فى «ر» .

الباب الخامس والاربعون

فى حنوه على الأيتام وشفقته عليهم (وفيه فصلان)

الفصل الاول

قال الله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر . » وقال تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين فذالك الذي يدع اليتيم » . وروينا فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث سهل بن سعد (1) أنه قال . « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » . (2) (وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما) (رواه البخاري) . قال أئمتنا : « كافل اليتيم القائم بأموره » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كافل اليتيم له ولغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة (وأشار رواية وهو مالك بن انس رضى الله عنه بالسبابة / والوسطى) رواه مسلم . وقوله صلى الله عليه وسلم : « اليتيم له أو لغيره معناه قريبه وأ الأجنبي منه ، والقريب مثل أن تكفله أمه أو جده أو أخوه أو غيرهم من قرابته » . وعن أبي شريح خويلد ابن عمرو والخزاعي رضي الله عنه قال : « قال النبي (3) صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة » (حديث حسن) رواه النسائي باسناد جيد . قالوا : ومعنى : « أحرج الحق » الحرج وهو الاثم بمن ضيعهما بتضييع حقهما ، وحذر من ذلك تحذيرا بليغا وازجر عنه زجرا كثيرا .

1 ـ سعد بن سهل : فى «ر» .
2 ـ كهاتين : فى «ر» .
3 ـ رسول الله : فى «ر» .

الفصـل الثاني

سن امامنا رضي الله عنه سنة كتب الله أجرها وأجر من يعمل (1) بها ، وهي أنه أجرى لسائر الأيتام من سائر القبائل ما يتمشى به أحوالهـم ويستغنون به عن التكفف والعالة ، فسوغ لهم فيما علمت محرث (2) زوجين ومجباها في كل وطن بحسب خراجه وجبايته وفيه كفاية حتى اذا بلغ حد الخدمة ، ألحق بمن عاده فلا يكاد يقع بصرك على يتيم في بلاد المغرب الا وهو مكفول . ومن صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنها هو أن في كل عاشوراء من * سائـر بـلاده يجمـع الأيتـام الذين يفتقرون الى الختان فيختـن كـل واحـد ويكسـوه قيمصـا واحراما ويعطي عشرة دراهم وما يكتفي به (3) من اللحم فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام (4) من سائر البلاد ما لا يحصى . وهو عمل مستمر في بلاده وسنة جارية قام بها الخلفاء من أولاده رضي الله عنهم أجمعين .

---

1 ـ عمل : في «ر» .

2 ـ حرث : في «ر» .

3 ـ فيه : في «ر» .

4 ـ الأمم : في «ر» .

(1) الباب السادس والاربعون

فى رعايته الشيوخ ومن غلب سنه (وفيه فصول)

الفصل الأول

فيما يدل على ذلك .

رويناه فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم شيخا (2) قيض الله له فى سنه من يكرمه » . وروينا فى الحسن عن أنس ابن مالك (3) رضي الله عنه قال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما من معمر فى الاسلام أربعين سنة الا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء الجنون والجذام والبرص ، فاذا بلغ الخمسين لين الله عليه الحساب، فاذا بلغ الستين رزقه الله الانابة الى ما يجب ، فاذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل / السماء ، فاذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته وتجاوز عن سيآته فاذا بلغ التسعين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله فى أرضه وشفع فى أهل بيته » . وروينا حديث يحيى بن أكتم القاضي : « من طرق .. » وفيه أنه (جل جلاله) أوقفه بين يديه وقال له خلطت علي يا يحيى » (وفى لفظ : « يا شيخ السوء ») . فقال : « ما هكذا حدثت عنك يا رب . « فقال : « وما حدثت به عني » . فقال : « حدثني فلان عن فلان عن نبيك صلى الله عليه وسلم عنك (وفى رواية : « عن جبريل عنك ») أنك قلت : « اني لأستحيي أن أعذب ذا شيبة فى الاسلام » . فقال (جل جلاله) : « صدق جبريل وصدق محمد

---

1 ــ ومن : فى «ر» .
2 ــ شيبه : فى «ر» .
3 ــ ابن مالك : ناقصة فى «ر» .

نبيي وصدق فلان وصدق فلان (4) ، اذهب (5) فقد غفرت لك » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « من شاب شيبة فى الاسلام كانت له نورا يــوم القيامــة » .

الفصــل الثاني
فيما جاء مما يدل على الاستعاذة من الكبر والهرم

قال تعالى : « ومن نعمره ننكسه فى الخلق » . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اني أعوذ بك أن أرد الى أرذل العمر » (وقد * اختلف المفسرون فى تحديده والذي اختاره غير واحد أنه يختلف باختلاف البنية وهذا ظاهر لاخفاء به ، وبلا شك أن من ضعفت قواه وتعذر عليه تصرفه وممشاه فقد حل به من البلاء ما دهاه) . وقيل لشيخ قد هرم : « كيف تجدك ؟ » فقال : « أجدني يسبقني من بين يدي ويدركني من خلفي وأنسى الحديث وأذكر القديم وأنعس فى الملأ وأسهر فى الخلاء واذا قمت قربت الأرض مني واذا قعدت تباعدت مني » وأنشد :

(من الرجز)

اسمع أنبئـك بآيـات الكبــر   نوم العشاء وسعـال فى السحـر
وقلـة النـوم اذا الليـل اعتكـر   وقلـة الطعـم اذا الـزاد حضر
وتركي الحسنى فى قبل الظهر (1)   وحــذر أزداده الــى حــذر
والناس يبلون كما يبلـى الشجـر

وللغزال فى مثل ذلك : (من الرجز)

تسألني عـن حالتـي أم عمــر   وهل ترى ما حـل بي من الغيـر

---

4 ـ وصدق فلان : ناقصة فى «ر» .
5 ـ زاد فيه : فى «ر» .
1 ـ لا يرد هذا البيت فى «ر» .

وما الذي تسأل عنه مـن خبـر وقد كفاها الكشف عن ذاك النظر
وما تكون حالتـي مـع الكبـر اربد مني الوجه وابيض الشعـر
/ وصار رأسي شهرة من الشهـر ويبست نضرة وجهي والشعـر (2)
ونقص السمع بنقصـان البصـر وصرت لا أنهـض الا بعـد شـر
لو ضامني من ضامني لـم أنتصر فانظر الـي واعتبـر ثـم اعتبـر
فان للبيب في معتبـر

مر أعرابي وهو شيخ كبير ببعض الغلمان فقال له : « من قيدك أيها الشيخ ؟ » قال : « الذي يقيد قيدك » وأنشد : (من الكامل)

الدهـر أبلانـي ومـا أبليتـه والدهـر غيرنـي ومـا يتغـير
والدهـر قيدنـي بخيـط مبـرم فمشيت فيه وكـل يـوم يقصـر

ولمحمود الوراق : (من المتقارب)

ألا رب ذي أمـل كـاذب بعيـد الرجـاء قـوي الطمـع
تمنـى البقـاء فـأدي بـه أخـل البقـاء ومـاذا صنـع
تخـرم أكثـر جثمانـه وفـرق مـا كـان منـه اجتمـع
ودل المشيب عـلى رأسـه وأعقب من بعد شيب صلع *
وقد قوس الظهر بعد اعتدال (3) وأنبت في الرجـل منـه الضلـع
فمـن ذا يسر بطـول البقـاء اذا كـان يبـدع هـذي البـدع

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : « من تمنى طول العمر فليوطن نفسه على المصائب أقلها فقد الأحبة والقرابات » .

2 ـ والشعر غير موجود في «ر» .
3 ـ وقوس منه اعتدال : كذا في الاصل وصوابه على هامش نسخة الرباط .

ولمحمود أيضا : (من الطويل)

يحب الفتى طول البقاء وانه ... على ثقة أن البقاء فناء

زيادته فى الجسم نقص حياته ... وليس على بعض الحياة نماء

اذا ما طوى يوما طوى اليوم بعضه ... ويطويه ان جد المساء مساء

جديدان لا يبقي الجميع عليهما (4) ... ولا لهما بعد الجميع بقاء

وقف رجل على باب معاوية بن أبي سفيان فقال للحاجب : « اعلم أمير المؤمنين أن بالباب رجل له مائة سنة » فأمر بادخاله فلما دخل عليه (5) قال له : « أنت الرجل الدهري؟ » قال : « نعم / يا أمير المؤمنين » قال : « فما علمك أنك بلغت من السن (6) ما بلغت » . قال : « يقول الله : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » . قال : « فما أحسن ما رأيت من الدنيا ؟ » . قال : « عقل زين بمروءة يراد بذلك وجه الله والدار الآخرة ». قال : « فما أقبح ما رأيت من أمر الدنيا (7) ؛ قال : « الرقة فى السيد والخفة فى ذوي الاحسان والخيلاء فى الفقر والحرص فى الحكم . » فقال معاوية : « لقد سألتك فرأيت فاسئلني أعطك » . فقال : « والله ما أريد أن أحتكم على أمير المؤمنين وما أراد بنا خيرا فيستأمرنا (8) فأمر لــه بمائة ألف درهم .

وروي عن الحارث بن كعب أنه قال لولده : « يا بني انه قد أتت علي مائة وستون سنة ما صافحت يميني يمين فاجر ولا تعنقت بحلة غادر ولا بخلت بصديق بيسير ولا وضعت مومسة عندي قناعها ولا صبوت

4 ــ لديهما : هكذا فى «ر» .

5 ــ عليه : غير موجود فى «ر» .

6 ــ السنين : فى «ر» .

7 ــ من أمر الدنيا : لا ترد فى «ر» .

8 ــ وما أراد بنا خيرا فيستأمرنا : لا ترد فى «ر» .

بابنة (9) عم ولا كنة ولا بقي أحد على دين عيسى بن مريم غيري وغير أسد بن خزيمة فبديني فتمسكوا وعلى شريعتي فموتوا ولالاهكم فاتقوا ، يصلح لكم أعمالكم ومعصيته فلا تنتهكوا فيحل بكم البوار وترخص منكم الديار ، يا بني : كونوا جميعا لا تفرقوا ، يا بني : الدهر صرفان صرف رخاء وصرف بلاء ، والناس رجلان رجل معك ورجل عليك ، وزوجوا النساء من الأكفاء ❋ وليكن أطيب طيبهن الماء ، يا بني : أكلت مع أقوام وشربت بأدواتهم وعبروا وكأني بهم قد لحقت . وأنشأ يقول :

(من المتقارب)

أكلت شبابي فأفنيته وأحصيت من بعد دهر (10) دهورا
ثلاثة أهلين صاحبتهم فبادوا وأصبحت شيخا كبيرا
حسير القيام كسير العظام وقد ترك الدهر قيدي قصيرا
أبيت أراعي نجوم السماء أقلب أمري بطونا ظهورا

ووفد شيخ هرم على معاوية فى قصة ذكرها أهل التأريخ فقال له معاوية : « كيف أنت أيها الشيخ » ؟ فقال له : « ما تسأل عني يا أمير المؤمنين . كثر مني ما كنت أحب أن يقل ، وقل مني ما كنت أحب أن يكثر فأجممت النساء وكن الشفاء وفقدت المطعم وكان المغنم وكثر سهري وقل لهوي وتقارب خطوي وثقل على وجه الارض بدني فسمعني رفات / ونومي سبات ونفسي تارات » . فرق له معاوية وبكى وأحسن اليه .

قال قائل : (من الوافر)

أتطمع أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
فقد كذبتك نفسك ليس ثوب جديد كالرفات من الثياب

9 ــ لابنة : فى «ر» .
10 ــ دهري : فى «ر» .

ولمحمود : (من الطويل)

اذا ما دعوت الشيخ شيخا هجوته وحسبك مدحا للفتى قول يا فتى
أشبه أيام الشباب التي مضت وأيامنا فى الشيب بالفقر والغنى

أنشدني غير واحد من أشياخنا بسندهم الى الزاهد أبي عمران المارتلي (نفع الله واياي أعني) : (من الوافر)

أرى الأيام تسلبني مشيبي وتذهب مثل ما ذهب الشباب
وتدفعني وأدفعها الليالي ويوشك أن يكون لها انقلاب
ذهبن بقوتي ورضضن عظمي فحين أقوم يعرض لي اضطراب
وأنهض حين أنهض بعد (11) لأي تثقلني لدى الخطب الثياب
اذا بلغ امرؤ ستين عاما فقد أشفى وجد به الذهاب ※
وقد بلغتها وازددت سبعا وزدت غواية فمتى المتاب

وله رضي الله عنه : (من الوافر)

الى كم ذا أسوف بالمتاب وهذا الشيب يؤذن بالذهاب
والهوى والمنايا غائلات تجد ولا تقصر فى طلابي
بلوت شبيبتي وزمان شيبي فلا شيبي حمدت ولا شبابي
شباب قد تقضى فى انهماك وشيب ما يكف عن النصاب

وأنشد : (من الكامل)

شيآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى يوذنا بذهاب
لم تبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

---

11 ــ وهو : فى «ر» .

صدق رحمه الله ورأيتهما فى ديوان المارتلي منسوبين له وسمعت من زعم أنها للمتقدم ، والله أعلم . أنشدني غير واحد من مشايخنا عن الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله المطري / امام المسجد الاقصى ، قال : أنشدني بهاء الدين محمد بن محمد بن عبد القادر المفسر لنفسه (من الرمل) :

كبر مع ركب مع كرب ... أنا منها دائما فى تعب
ان أقم أحتج لمن يسعدني ... وكذا أحتاج من يقعد بي
قد مضى العمر ولم يبق سوى ... ما أقضي عيشة فى نصب
ليس فى موت الفتى من عجب بل ... فى حياة المرء كل العجب
رب ، جد بالعفو واختم لي اذا ... حان حيني ببلوغ الأرب

وقد تغلغل القول بنا فى هذا الفصل والمرء اذا عرف الشيء وجربه أكثر منه ، فاسأل الله أن يختم لنا بالحسنى ويتوفانا على الاسلام تائبين مقبولين ، وأن يقبضنا فى أحد الحرمين وهو راض عنا بفضل الله وجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثالث

كان مولانا رضي الله عنه أشفق خلق الله على من علت سنه ووهنت قوته وقد أجرى على من اتصف بالشياخة من الضعفاء ولازم الخير رواتب تكفيهم ورسمهم فى جرائد عماله شيوخ * الجامع ، وبنى لهم دورا شبه الربط كما قدمنا وأجرى لهم كساء فى كل عام تكفيهم ، وهذه منقبة عظيمة وفضيلة جسيمة (نفعه الله بها وأعظم له أجرها) . ولولا الخروج عن الغرض لأوردت من ذلك ما يطول ايراده ولاستطردت الكلام

فى الخطاب (1) . وجرت سنته رضي الله عنه فى ذلك مستمرة . حضرت يوما مجلس ولده المولى أبي عنان (تغمده الله بالرضوان) ، وقد وقف بين يديه شيخ نقي الشيب شديد السواد وقد ادعى عليه بما لا يغفر مثله (2) * فقال له الفقيه الاستاذ الصالح أبو عبد اللـــه الصفار : « كانوا رضي الله عنهم اذا شاب العبد فى خدمتهم اعتقوه وأكرموه » . فانصرف مكرما مقضي الحاجة . وهذا وصف مصنفه والله المسؤول أن يعتقنا من الذنوب التي اقترفناها . والحقوق التي ضيعناها لجلاله الأعلى ولسلطانكم المؤيد ومثلكم من قابل بما ورثه عن سلفه الفاضل .

1 ـ خضاب فى «إ» .

2 ـ « سقطت أبواب من هنا » ، هذا مكوب فى نسخة الرباط والبباض مماوء بيـد أخرى .

الباب السابع والاربعون

في تمهيده طرق المسافرين (وفيه فصلان) /

الفصـــل الاول

لا خفاء أن تأمين السبل وتمهيد الطرق من أفضل الأعمال كما أن اخافة السبل من أقبح المعاصي ، وهذا مما لا يحتاج الى تمهيد الدلائل عليه .

الفصـــل الثاني

كان هذا العمل عند امامنا المرحوم من أهم الاعمال وآكد ما تنصرف همتهم الشريفة اليه ، فرأى أن يعمر طرق المسافرين من حضرته بفاس الى مراكش والى تلمسان والى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب (وهي خيام) ، يأمر بسكناها على مقدار اثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك اقطاع من الارض يعمرونها على قدر الكفاية ثوابا على سكنى المواضع المذكورة ، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما * يحتاج اليه المسافرون من الأدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون اليها ، هم وبهائمهم ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم ، فان ضاع بينهم شيء تضمنوه فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله،في ذهابه واقباله.وقد جرى هذا النمط واستمر والحمد لله في بلاد المغرب (فالله يعظم أجره ويجزل ذخره بمنه وفضله) .

الباب الثامن والاربعون

فى توكله على الله (عز وجل) ولجئه (1) اليه فى الشدائد

وهذا باب واسع جدا ، فلنورد فصوله باختصار (ان شاء الله تعالى) .

الفصل الاول

التوكل مقام الاولياء وشعار الأنبياء وخلق الأصفياء والكلام فيه فسيح المجال ، وقد كنت جمعت فيه تأليفا من كلام الأئمة واستوعبت الأدلة الدالة على عدم منافاته السبب وبسطت فيه القول على القضاء والقدر بما وصل اليه فهمي وما بلغ اليه علمي ، وجاء فى عدة كراريس على أن الحق فى جهة مني أن يقبض عن مثل هذا العنان ويدرج عنه ، فليس بعثه الا أن يفتح الله علي (2) به فى مستقبل الزمان ، فلنقتصر على بعض من كل من (3) فصوله . ولما كان امامنا رضي الله عنه متوكلا فى جميع أحواله مفوضا لله (عز وجل) فى جميع أقواله وأفعاله احتجت الى ذكر ما أشرت اليه وبالله / الاستعانة . أما فضيلة التوكل فحسبك قول الله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ❊ (قال المفسرون معناه : « كافيه ») . وقال تعالى : « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » . وروينا فى الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت الأمم بالموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم ، فقيل لي :

1 ـ لجائه : فى «إ» .

2 ـ عليه : فى «إ» .

3 ـ على : فى «ر» .

« أرضيت ؟ » قلت : « نعم » قال : « ومع هؤلاء (4) سبعون آلفا يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين (5) لا يكتنون (6) ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » . فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : « يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعله منهم » . فقام آخر ، فقال : « يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبقك بها عكاشة » .

قلت : « احتج بهذا كثير ممن ذهب الى أن التوكل ينافي السبب وأن الرقي والاكتواء يخرجان من فعلها من مقام التوكل ولا حجة فيه فانه صلى الله عليه وسلم رقى واسترقى ، وكان يرقي الحسن والحسين ويعوذهما ، ورقاه جبريل » .

وأما الاكتواء فقد اكتوى بعض الصحابة وجاء أنه صلى الله عليه وسلم كوى غيره ، ومع ثبوت هذا فلا بد من حمل الحديث على أن الاعتماد متى كان على الله (عز وجل) وتعاطى المرء السبب فهو متوكل ، ومتى كان على عكس هذه الحالة فهو غير متوكل ، فمن سكن الى الأسباب دون الاعتماد * على الله لم يكن متوكلا ولا يضر المتوكل السبب فى توكله اذا كان أحدثه الله . اذا علمت هذا فاعلم ان جميع ما يجيء ظاهره من الاخبار والآثار مباينا للتوكل ومنافيا للسبب ، انما هو الاعتماد هذا هو (7) ملخص القول فيه وان أطال فيه المطول . وعلى هذا تجري الأحاديث الصحيحة فىاستعمال الأسباب ، فجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيها الناس تداووا فان الله تعالى لم يخلق داء الا وخلق له دواء

4 ــ هذا : فى «ر» .
5 ــ هم الذين : غير موجود فى «ا» .
6 ــ يكتنون : فى الاصل .
7 ــ هو : ناقصة فى «ر» .

الا الهرم (وفي رواية : : الا السام وهو الموت) » . وعليه يحمل قول الصديق رضي الله عنه ، وقد قيل له في مرضه : « ألا ندعو لك طبيبا ؟ » فقال : « انه قد رآني » . قيل له : « ما الذي قال لك ؟ » . « قال لي (8) : « افعل ما أريد » . وروي نحوه عن ابن مسعود وعلي ومن جرى هذا المجرى يعنون انهم لا يركنون في الاعتماد / على الأسباب ، وانما ركونهم مسببها : « لا الاه الا هو » والناس فيه على حسب مقاماتهم رضي الله عنهم وكل ينطق على قدر منصبه ، وعليه يمشي قول أبي موسى الديلمي : « قيل لأبي يزيد (9) البسطامي رحمه الله : ما التوكل ؟ ، فقال لي : « ما تقول أنت ؟ » . قلت : « ان أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك » . فقال أبو يزيد : «نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يتعذبون ثم وقع * عليك تمييز عليهم خرجت من التوكل » . قال مشايخنا : « وذلك أن حقيقة التوكل هو الاعتماد على الله مع الاعراض عن الأسباب الا اذا أمر الشرع بها ، والعقارب والحيات هي أسباب مؤذية (10) عادة ، فمتى رأى باليقين انه لا فعل لغيره لم تلتفت النفس للعقارب ولا للحيات » ، وقوله : وهذا قريب ، يعني جار على هذا النمط فهو تصحيح له وارتفع بهمته الى الجنة والنار التي الجنة أفضل نعيم والنار أشد عذابا ، وكلاهما قد عبره من قضى له به ، فوقع له تمييز ، وقالوا : مراده «بالتمييز» : «اختيار اختاره لنفسه لأنه لا يعلم مصلحته في أي جهة منها لا في النعيم ولا في العذاب ، وهذا لا يصح في عذاب الآخرة الذي هو عقاب على الاجرام ولا في نعيم الجنة الذي هو ثواب على التقييد للأحكام ، وانما يحس ذلك نظرا للعذاب

---

8 — لي ناقصة «ر» .

9 — زيد : في «ر» .

10 — مودية : في «ر» .

والنعيم من حيث هو عذاب ونعيم مطلق ، وانما ذكر عذاب النار (11) من حيث أنه أشد وكذلك نعيم الجنة من حيث كونه أكثر نعيم ، ولم يرد أنه لا يقع بينهما تمييز من حيث كونهما جزاء على الطاعات والسيئات فان هذا التمييز والترجيح والتفرقة لابد منه شرعا . ومن أراد استيفاء الأخبار والآثار الواردة فى التوكل ، فعليه بمحله من كتاب الاحياء للغزالي ، فانه شفى ووفى . والكلام فى فصل التلفيق بين السبب والتوكل بديع * فى سراج المريدين للقاضي أبي بكر بن العربي وفى سراج الملوك لشيخه الزاهد أبي بكر بن الوليد الطرطوشي رضي الله عنهما . والتواكل ينبني على قاعدة القضاء والقدر ، ومذهب أهل الحق الأيمن بالقضاء والقدر وان كلا من الكائنات لا يخرج عن علمه وقضائه وقدره ، والكلام بين أهل الحق والقدرية طويل عريض ، وقد أشبع أئمتنا فيه من المتقدمين والمتأخرين من / المحدثين والمتكلمين . والمعتقد الحق أن كل ما يجري فى العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وايمان وكفر وطاعة ومعصية ولا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه أو رجليه ، ولا تسقط ورقة ولا تطرف بعوضة ، الا بقضاء الله وقدره وارادته ومشيئته ، كما لا يجري شيء من ذلك الا وقد سبق علمه به،ومن خالفنا فى القضاء والقدر وافقنا فى العلم. قال بعض أئمتنا : «أعظم دليل لنا على القدرية هو أنهم ان جحدوا العلم كفروا وان أقروا بالعلم أفحموا » . ونسب بعضهم هذه المقالة للامام أبي عبد الله بن ادريس الشافعي رضي الله عنه . والقدرية يوافقون فى العلم ويخالفون فى القدر وبسط هذا وتقريره يستدعي طولا . ومن أحسن من رأيته تكلم على هذه المسألة الشيخ أبو الحجاج ابن الشيخ فى كتابه الذي سماه ألف باء والامام ناصر الدين ابن منير فى تفسيره . ومما استحسن فى * القضاء والقدر من كلام بعض الأئمة قول الامام علي رضوان الله عليه ، وسئل عن القدر فأعرض عن السائل فأبى الا

11 ــ النار : ناقصة فى «ر» .

الجواب ، فقال علي كرم الله وجهه : « أخبرني ، أخلقك الله كما تشاء أو كما يشاء » فأمسك . فقال علي رضي الله عنه للحاضرين : « أترونه يقول كما أشاء اذن والله أضرب عنقه » . فقال الرجل : « كما يشاء » . فقال علي كرم الله وجهه : « أيحييك كما يشاء أو كما تشاء ؟ » . قال : « كما يشاء » . قال : « أيميتك كما تشاء أو كما يشاء » . قال : « كما يشاء ؟ » . قال : « أفيحشرك كما يشاء أو كما تشاء ؟ » . فقال : « كما يشاء » ، قال : « أفيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء ؟ » ، قال : « حيث يشاء » . قال : « فقم فليس لك من الأمر شيء » .

وروي أن رجلا قدريا ومجوسيا تناظرا ، فقال القدري للمجوسي : « ما لك لا تسلم » ؟ فقال المجوسي : « لو أراد الله لأسلمت » . فقال القدري : « قد أراد الله أن تسلم ولكن الشيطان يمنعك » . فقال المجوسي : « فأنا مع أقواهما » . وروي في الاسرائيليات أن نبيا من أنبياء الله تعالى مر بفخ منصوب واذا طائر قرب منه ، فقال الطائر : « يا نبي الله هل رأيت أقل عقلا من هذا الصبي ينصب الفخ ليصيدني به (12) وأنا أنظر اليه ؟ » . قال : فذهب ثم رجع ، فاذا بالطائر في الفخ . فقال له : « عجبا لك ألست القائل كذا وكذا ؟ » . فقال : « يا نبي الله اذا جاء / الحين لم يبق أذن ولا عين » . قال رجل من الخوارج لعلي رضوان الله عليه : « أرأيت من جنبني سبيل الهدى وسلك بي سبيل الردى ، أحسن الي أم أساء ؟ » ، فقال علي عليه السلام : « ان كنت قد استوجبت عليه حقا فقد أساء ، وان كنت لم تستوجب عليه حقا فهو يفعل ما يشاء » .

ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب : « أنت أدهى الناس ، فكيف طرحت نفسك في يد سليمان بن عبد الملك ؟ » فقال موسى بن نصير : « ان الهدهد يهتدي

12 ــ به : غير موجود في «ا» .

الى الماء فى الارض الفيفاء ويبصر القريب منه من البعيد على بعده من التخوم ، ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة والحبة فلا يبصره حتى يقع فيه » . ويقال . « الهارب مما هو مقضي منه كالمتقلب فى كف الطالب » .

وأنشد به (13) (من الكامل) :

واذا خشيت من الامور مقدرا وفررت عنه فنحوه تتوجه

ولما قتل كسرى برزجمهر وجد فى منطقته كتاب فيه : « اذا كان القدر حقا فالحرص باطل ، واذا كان الغدر فى الناس طباعا فالثقة بكل أحد عجز ، واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق » .

وفى التفسير فى قوله تعالى : « وكان تحته كنز لهما » ، قال جماعة من السلف : « كان الكنز لوحا من ذهب فيه مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت * لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها ، لا اله الا الله محمد رسول الله » .

وحكى الطرطوشي رضي الله عنه قال : « من لطيف ما وقعت عليه فى مجاري القضاء والقدر وان الهارب من المقدور كالمتقلب فى يد الطالب ، ما نزل بنا فى مدينة الاسكندرية ، وذلك أن رجلا من خدام السلطان أخل بخدمته وغاب أياما ، ثم ظفر به غرماؤه فقادوه الى السلطان فخشى من سطوة السلطان فبينما هم يقتادونه اذ مروا على بئر بشارع الطريق ، فانساب منهم وترامى فى البئر ، ولهذه المدينة أسراب تحت الارض يمشي فيها الرجل قائما من أولها الى / آخرها ، فما زال هذا الرجل يمشي فى نفق من الأرض الى أن وجد

---

13 ــ به : ناقصة فى «ا» .

بئرا صاعدة ، فتعلق بها ، واذا البئر فى دار السلطان ، فلم يشعر أهل الدار الا والرجل قد طلع عليه من البئر ، فقبضه السلطان ، واذا به يفر بزعمه من قوده الى السلطان كرها ثم مشى برجليه اليه طائعا فهكذا تفعل الأقدار .

الفصل الثاني (1)

كان امامنا رضي الله عنه لا يفتر عن الاعتماد على الله قولا وفعلا . فكان اذا قال له أحد من خدامه ورجاله فى أمر : « يا مولانا نفعل كذا ونقابل كذا على وجه كذا » . فيقول : « بالله قل بالله قل فانا نتوكل على الله فى جميع أمورنا » . واذا قال قائل : « غلبنا أو ظهرنا » ، زجر القائل ونهاه ويشتد ❊ عليه فيقول : « قل بعون الله ونصر الله » .

الفصل الثالث (2)

كان رضي الله عنه اذا سئل عطاء أو يستكثر ما يخرج من يده من العطاء والبذل ، يقول : « انما ننفق من خزائن الله متوكلين على الله وخزائنه مفتوحة » . وكان الفقيه الكاتب أبو العباس بن شعيب أنشدني للامام الولي أبي الفضل ابن النحوي رضي الله عنه بيتين قال : « كثيرا ما كان ينشدهما ، فلما حفظتهما عنه وأنشدتهما لمولانا المرحوم رحمه الله ، فحفظهما فكان لا يجري هذا الغرض ولا يقع هذا المعرض ، الا أنشدهما ، ويقول : « السلطان أحق بانشاد هذين البيتين لكونه مطلوبا من كل أحد ، وهما (من الرمل) :

يا الاهي يا الاهي ... ليس يخفى الحال عنكا
كلهم يطلب مني ... وأنا أطلب منكا

1 ـ الثالث : خطأ فى «إ» .
2 ـ الرابع : خطأ فى «إ» .

وكان ينشد لابن النحوي المذكور مما أنشدنيه ابن شعيب له وقال أنه لما ودع أهله متوجها الى الحج سألوه النفقه فأنشدهم (من السريع) :

ان الـــذي وجهت وجهي له ... هو الـــذي خلفت فى أهلـــي

لأنـــه أرأف منـــي بهـــــم ... وفضـــله أوسع من فضـــلي

ولـــه قصـــة .

الفصـــل الـــرابع (1)

ومن صدق توكله ﷺ على الله واعتماده عليه ما كان / عليه من التبرؤ من النظر فى التنجيم وعدم اعتبار أهله .

حدثني رضي الله عنه غير مرة قال : « كان الامام أبو العباس أحمد عثمان الأزدي المعروف بابن البناء يفد على مولاي أبي سعيد ومكانه من التعاليم مكانه وشهرته بالتنجيم شهرته فيقيم عنده الأشهر ذوات العدد . وأنا أصابحه وأماسيه ، فكان مولاي أبـــي سعيـــد يقـــول : « العجب من ابني علي لا يسأل هذا الرجل عن أمر ولا يتحدث معـــه في شيء » . وكان ابن البناء يقول : « ما رأيت أعجب من هذا الأمير ما زادني قط على السؤال عن الحال زيادة » . واشتهر بذلك رضي الله عنه . حضرته يوما في سبتة وقد كنا على الجواز وكان ثم من أهل الشأن جماعة كابن شعيب وكان غاية عندهم وابن أخت السنيل مـــن تلمسان وغيرهما ، وكان لابن أخي الوزير غازي عناية بهذا الشأن يتحدث مع الوزير عامر وغيره فى اختيار وقت الجواز وغيره ، فأجرى الكلام بين أيديهم رضي الله عنهم ، فتوعد عمـــر ابن أخي الـــوزير

1 ـ الخامس : خطأ فى «إ» .

المذكور علي أخذه في هذا ، ونهى عنه من أجرى الحديث في ذلك .
ووقفت معه رضي الله عنه يوم خروجه من تلمسان متوجها في خروجنا * لافريقية ، فرأى عبد العزيز بن عبد الوهاب وابن شعيب (2) واقفين يتحدثان فالتفت الى أبي زيان عريف والي وقال : « هذان يتحدثان في هذا الوقت وما يقول فيه أهل التنجيم ولو علمت هذا حقا لعاقبتهما » . فقال لي أبو زيان : « يا فقيه اسأل أنت ابن النجار عن هذا الوقت الذي خرجنا فيه » فقال رضي الله عنه : « والله لا فعلت » فامتثلت أمره رضي الله عنه .

واستعمل رضي الله عنه في ذلك السنة ، وما عليه المحققون من أهل هذه الملة ، فقد جاء في ذلك من الأخبار والآثار وأقوال الحكماء والأشعار ، ما نورد بعضه ان شاء الله ، وقد أمليت في ذلك جزءا جمعت فيه ما لأئمتنا المحققين من المحدثين والفقهاء والأصوليين ، ما وقعت عليه . وعلى الجملة فاستعمال السنة هو الذي تعبدنا به ووجب علينا استعماله ، فلم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه استعمل الاختيار (3) ولا اعتبر الأرصاد ولا نص على السعادة والمنحسة في كوكب ولا زمان .

ومن الفقهاء : الغالي في سد الباب كابن رشد ، ومنهم المرخص ومنهم المتوسط كالامام / أبي عبد الله المازري وشيخه القاضي أبي بكر بن العربي . وبالجملة فقد أخرجت النظر في هذا الجزء المذكور على أقسام الشرع الخمسة حسبما قررته ولا يخفى هذا الاجراء على مشارك : وقد انعقد الاجماع على تكفير معتقد التأثير ، وموضوع * الخلاف من لم يعتقده وأجراه مجرى الأمور العادية ،

2 — عبد العزيز وابن عبد الوهاب في «ر» .
3 — الاختبار في «ر» .

فالأكثرون على هذا الصنف المعتقد عدم التأثير ، وان العادة قد تختلف غير مفسق ولا محرج ولا مذموم شرعا أن الاختيار ترك الالتفات الى ذلك بكل وجه على ما جرى عليه امامنا ، وقد اقتضت الأحاديث الصحيحة ذم الالتفات الى هذا المعنى . روينا فى الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » (رواه أبو داود باسناد صحيح وأخرجه الحافظ أبو عمر (4) ابن عبد البر) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر » (عهدي به فى النسائي وأبي داود) . وعنه صلى الله عليه وسلم : « اذا ذكر القدر فأمسكوا واذا ذكر أصحابي فأمسكوا واذا ذكر النجوم فأمسكوا » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (5) « تعلموا من النجوم ما تهتدون (6) به فى ظلمات البر والبحر ثم أمسكوا » .

وللخليل بن أحمد : (من المديد)

أبلغا عني المنجم أني ... كافر بالذي (7) قضته الكواكب
عالم أن ما يكون وما كا ... ن قضاء المهيمن واجب

ولآخر فى المعنى : (من الكامل)

علم النجوم على العقول وبال ... وطلاب شيء لا يقال ضلال *
هيهات ما أحد مضى ذو فطنة ... يدري متى الارزاق والآجال
الا الذي هو فوق سبع عرشه ... ولوجهه الاعظام والاجلال

4 ـ عمرو : فى «ر» .
5 ـ رضي الله عنه : ناقصة فى «ر» .
6 ـ تهتدوا : فى «إ» .
7 ـ بالذي : فى الاصل ولكن لا يقوم به الوزن .

ولأبي العباس الناشىء : (من المتقارب)

سألت المنجم عن رحلة أرحل برا عليها وبحرا
فقال المنجم لي لا تسر فانك ان سرت لاقيت شرا
فان كان يعلم أني أسير فقد جاء بالنهي لغوا وهجرا
وان كان يجهل سيري فكيف يراني اذا سرت لاقيت ضرا

/ لمنصور الفقيه : (من المجتث)

قول المنجم شيء دعا اليه التوهم
فلا تصدق بشيء مما يقول المنجم

وله : (من الرجز)

من كان يخشى زحلا أو كان يرجو المشتري
فانني منه وان كان أبي (8) الأدنى بري

وله : (من المتقارب)

ان كنت تزعم ان النجوم تضر وتنفع ما تحتها
فلا تنكرن على من يقول بأنك بالله أشركتها

وله : (من المجتث)

لو أن نجما تكلم لقال صكوا المنجم
لأنه قال جهلا بالغيب ما ليس يعلم

ولابن عبد ربه * : (من الهزج)

(و) أين الزيج والقانو نا والأركند والكمه
وأين السند هند البطـ ـل والجدول هل ثمه

8 – ابني : في «ر» .

سوى الافك على الله ... تعالى منشر الرمه
اذا كان أخو النجم ... يرى الغيب فما ضمه
الى أن يطلب الرزق ... طلاب العاجز الهمه
وهذي الأرض قد وارت ... كنوزا عدة جمه
فلا والله ما للـ ... ـه خلق يحتذي علمه

قلت ومن أحسن ما سمعته فى ذلك ما رويته عن بعض أشياخي ولم أعزه الآن : (من البسيط)

دع النجوم لطرقي يعيش بها ... وانهض بعزم صحيح أيها الملك
ان النبي وأصحاب النبي نهوا ... عن النجوم وقد أبصرت ما سلكوا

وما أنشدنيه أيضا بعض أشياخي للبهاء زهير رحمه الله : (من البسيط)

دع التواني فى أمر تهم به ... فان صرف الليالي سابق عجل
سابق زمانك خوفا من تقلبه ... فكم تقلبت الايام والدول
واعزم متى شئت فالاوقات واحدة ... لا الريث يدفع مقدورا ولا العجل
لا ترقب النجم فى أمر تحاوله ... فالله يفعل لا جدي ولا حمل
* مع السعادة ما للنجم من أثر ... فلا يضرك مريخ ولا زحل
/ الأمر أعظم والأفكار حائرة ... والشرع أصدق والانسان يمتثل

والبيتان المشهوران المتداولان (من الوافر) .

أيا أهل النجوم أحلتمونا ... على علم أرق من الهباء
علوم الارض لم تصلوا اليها ... فكيف بكم الى علم السماء

وحكى الحافظ أبو عمر عن أحمد بن محمد بن عبد ربه أبو عمر المؤرخ الكاتب الشاعر قال :

« دخلت على الوزير ابن جهور اثر الصيف وكان القحط قد تمادى والغيث قد احتبس واغتم الناس لذلك وتحدث المنجمون بتأخير الغيث مدة طويلة ، فوجد عنده ابن عزراء المنجم وجماعة من أصحابه وقد أقاموا الطالع وعدلوا وقضوا بتأخير المطر شهرا ، فقلت للوزير : « ان هذا من أمور الله المغيبة وأرجو أن يكذبهم الله بفضله ، ثم خرجت عنه وأتيت داري ، فجاء أول الليل والسماء قد غيمت ونمت ساعة فما أيقظني الا نزول الماء ، فقمت وقربت مني المصباح ودعوت بالدواة والقلم فما رفعت يدي حتى سنحت لي هذه الأبيات ثم صابحت بها الوزير فسر بها وهي : (من السريع)

ما قدر الله هو الغالب ... ليس الذي يحسبه الحاسب
قد صدق الله رجاء الورى ... وما رجاء عنده خائب
وأنزل الغيث على راغب ... رحمته اذ قنط الراغب
* قل لابن عزراء السخيف(1) الحجي ... أزرى عليك الكوكب الثاقب
ما يعلم الشاهد من حكمنا ... كيف بأمر حكمه غائب
وقل لعباس وأشياعه ... كيف ترى قولكم الكاذب
خانكم كيوان فى قوسه ... وغركم فى لونه الكاتب
فكلكم يكذب فى علمه ... وعلمكم فى أصله كاذب
ما أنتم شيء ولا علمكم ... قد ضعف المطلوب والطالب
تغالبون الله فى حكمه ... والله لا يغلبه غالب
/ فخبرت الخبر الذي ما له ... فى فهمه ند ولا صاحب
قد أشهد الله على نفسه ... بأنني من جهلكم تائب

8 ــ النحيف . فى «ر» .

وأنشد أبو عمر لعيسى بن قرلمان : (من البسيط)

هــذا بــأن الله ما شــاء قــدره ... وليس فيما قضى كيوان والقمــر
لو كان عند النجوم السابحات بما ... يجري على الخلق من أنبائهم خبر
لــم يحتلل بذراهم ريب حــادثة ... بل كان ينجيهم الانــذار والخبــر
هل لا تنخل منهــم عــالم ولــدا ... فى ساعة ما بهــا نحس ولا كــدر
تقيــه أنجمه صرف الزمان فــلا ... تأتي عليــه ولا يفنى لــه عمــر
هيهات ذلك أمــر لا يــطاق ولــكن ... الفتى ينتهي حيث انتهى القدر

* قلت : وأنا أطلب فى هذا الفصل اعلاما بأن امامنا المرحوم كان على بصيرة فى انكاره لهذا المعنى ولما عم من الافتتان هذا فى كثير من الأقاليم مع التقارب بين الناس في ذلك ، وهذه سيرة مر عليها المولى أبو عنان رحمه الله ، وكان للمولى المرحوم أبي سالم لها التفات بسعي من ينصف الله منه فلم يسعد بها والله غالب على أمره .

الباب التاسع والاربعون

فى شكره لله سبحانه عند تجدد النعم (وفيه فصلان) .

الفصل الاول

اعلم أن الشكر شكران . شكر اللسان وشكر القلب والجوارح (ولسنا نفضل بين هذه) ، ونذكر الأدلة الدالة عليها ونفضل بعضها على بعض فهذا يخرج عن الغرض ، ومن أراده ففي السراجين والاحياء ما فيه غاية الشفاء . فالشكر على الاطلاق مطلوب وهو كفيل بالزيادة وقد عرف الزاهد أبو بكر شكر القلب فقال : « هو اعتراف القلب بانعام الرب على وجه الخضوع » . وشكر اللسان « بالثناء على المحسن بذكر احسانه » . وشكر الجوارح : « باستعمالها فى الطاعة » ، ففي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم / قام حتى تورمت قدماه ، فقيل له : « يا رسول الله أتفعل هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك ؟ » فقال : « أفلا أكون عبدا شكورا (1) ؟! » .

ولمحمود الوراق : (من الطويل)

الهي لك الحمد الذي أنت أهلـه　　على نعـم ما كنت قط لها أهـلا
* متى ازددت تقصيرا تزدني تفضلا　　كأني بالتقصير أستوجب الفضـلا

ولبعضهم : (من الطويل)

أيا رب قد أحسنت بدءا وعـودة　　الي فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديـك وحجـة　　فعذري اقراري بأن ليس لي عذر

1 ــ سكورا . فى «ر» .

الفصـــل الثاني

كان امامنا رضي الله عنه اذا أنعم الله عليه بنعمة قابلها بالشكر والصدقة فيسجد لله شكرا ويخرج الصدقات شاهدنا ذلك منه ، فهذا كان دينه ودأبه ، لا جرم زاده الله (عز وجل) من عنايته وفضله وقد آثرت فى بقية الأبواب الاختصار خوفا من الاطالة المملة (وبالله التوفيق) .

الباب الخمسون

في ضخامة ملكه وعلو همته (رضي الله عنه) .

لا خفاء على ذي معرفة بأخبار الناس وأحوال الملوك أن ما انتهى اليه رضي الله عنه في دنياه ومملكته لم يعهد في الأعصر القريبة من زمانه والدول المتقدمة قريبا منه مثله فقد امتد ملكه زائدا على ملك من قبله من الجهات الأربع وضم من الجيوش ما لم يضمه غيره ودخل في طاعته من الملك والمماليك ما لم يتقدم لغيره فقد خطب له على منابر المغرب على الولاء وكثير من منابر قواعد الاندلس ، وامتد ملكه من آخر المعمور بالمغرب الى حدود برقة ووقف علمه على جبل * عرفة وجهر له الخطيب في الموقف بالدعاء ودعى له على المقام . وكثرت في دولته العمارات وامتدت الآمال ولكن قدر الله غالب . وبنى رضي الله عنه بلدين مستقلين أنشأ جميعهما بما اشتملتا عليه من جوامع وحمامات وفنادق وهما المنصورة بسبتة ومنصورة تلمسان ، التي لم ير الراؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل / وصفها . وأما قصرها ومسكن الامام بها رضي الله عنه فقد رأيت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق ومباني مصر والشام والمباني القديمة في الأندلس ومراكش ، أجمعوا على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره ، والحق ما قالوه . أما دار الفتح والبستنة (2) وما اتصل بهما والمشور فما أظن المعمور اشتمل على مثلها ، فلحا الله من خربها . ولقد حضرت ما أحكيه (3)

---

1 ـ مثل : ناقصة في «ر» .

2 ـ بستة : في «ر» .

3 ـ أحكمه : في «إ» وهكذا قرأها ليفي ـ بروفنسال .

مما يدلك على اقتداره رضي الله عنه على ذلك وضخامة ملكه وشموخ همته وعلو قدره : وذلك أن ابنة السلطان المرحوم أبي يحيى (4) أبي بكر ابن الأمراء الراشدين ، لما توجهت قبله مع خطابها وهم أبو زيان عريف بن يحيى والفقيه أبو عبد الله السطي والفقيه أبو الفضل بن أبي مدين ومن معهم، وقاربوا تلمسان فوردت ✻ كتبهم من البطحاء ، دخل ودخلت معه تتمشى لينظر لها في دار تختص بها، فلما تطوف على الدور قال لي : « والله ما هو من النظر ولا من الاعتناء بهذه الواردة أن تسكن في دار سكنها غيرها ، وما الوجه الا أن يبنى لها موضع يختص بها . » فقلت له : « لو كان هذا على وسع لكان ممكنا . » فقال : « وأين يظهر الاعتناء وما أنعم الله علينا به ؟ علي بأرباب الصناعات من البنائين والنجارين والجباسين (5) والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين » . فأحضروا بين يديه فقال لهم :

« أريد دارا تشتمل على أربع قباب مختلفة ودويرتين تتصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس (6) والزليج والنقش في الأرز المحكم النجارة والصناعات المشتركة ونقش ساحة الدار وفرشها زليجا ورخاما بما فيها من طيافير الرخام والسواري . والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم المشتركة المذهونة ، والأبواب بالصناعات المؤلفة والخزائن والخوخ جميعها . والحلية في جميع ذلك من النحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر » .

ورسم لهم ✻ قدر ساحتها في كاغد ووقع الوفاق لجميعهم على ذلك قطيعا وأوضح لهم عملها ، فلما تم هذا قال لهم : « اني أريدها في مثل

---

4 — بن : مكتوب هنا في «ر» .
5 — الجباصين في «ر» .
6 — بالجبص : في «ر» .

هذا اليوم يكون (ان شاء الله) دخولي اليها » . فقالوا : « نقدم الاستعانة وسعادتك » فما (7) انقضى الأجل وتم الأمد / وجاء اليوم المعلـوم الا وهو يتمشى فيها وأنا بين يديه على الوجه المشروع والغرض الموصوف، وهذه غاية فى الضخامة والاقتدار على ما وراءه (8) .

الفصل الأول

وأما علو همته رضي الله عنه فحدثني غير مرة أنه ما لمس قط بيده دينارا ولا درهما ولا يعرف له ملمسا . وحدثني رضي الله عنه يوما قال لي : « يا فلان ، حدث عني بأني ما لبست قط ثوبا فصل لغيري » ، وكانت ثياب والده رضي الله عنه وسلفه كلهم وأثواب ملوك تلمسان وغيره قد صارت اليه ، فلم يستعمل قط منها ثوبا للباسه ولا لفرشـه رضي الله عنهم فهكذا فلتكن المفاخر .

8 — من هنا تنتهي اللوحة 307 فى نسخة الرباط والقطعة التالية موجودة فيما بعد .

7 — فلما : فى الاصل .

الباب الحادي والخمسون

فى هداياه للملوك (وفيه فصلان)

الفصـل الاول

جاء فى الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلـم قبـل الهدايا ووردت عليه من أقطار مختلفة ، وقد ذكرنا عددها وأنواعها فى كتاب شرح الشفاء فى الفصل الذي ذكره فيه القاضي رضي الله عنه . وروينا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تهادوا تحابوا » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « لو أهدي الي كراع لقبلته » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « تصافحوا فان التصافح يذهب غل الصدور وتهادوا فان التهادي يجلب المحبة . »

وقال الشاعر : (من الوافر) .

هدايا النـاس بعضهـم لبعـض تؤكـد فى قلوبهـم الوصـالا
وتزرع فى الضمـير هـوى وودا وتكسوهـم اذا حضروا جمـالا

وقيل : (من الكامل)

ان الهديـة حلـوة كالسحـر بجلـب القلوبـا
تدنـي القلـوب مـن الهـوى حتـى تصيرهـا قريبـا

قال الأصمعي : « أخبرني ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال : قال عروة لبنيه : « يا بني لا يهدي أحد منكم الى ربه ما يستحي أن يهديه الى كريمه ، فان الله أكرم الكرماء وأحق وأكرم من اختير له » وكان يقول : ثلاثة تدل على صاحبها ، الهدية على المهدي والرسول على المرسل والكتاب على الكاتب » فلهذا أوردت هذا الفصل .

الفصـــل الثاني

/ لم يــر الراؤون ولا سمــع كهدايا امامنـــا رضي الله عنـــه ، وقد شهدت هذا : أهدى رضي الله عنه لسلاطين منها هدايا لصـــاحب الأندلس فى كرات ، ومنها هدايا لملوك النصارى ، ومنها هدايا لسلطان السودان ، ومنها هدايا لسلطان افريقية وملك مصر (نفعه الله بها) اشتملت من الذخائر على ما لم يجتمع مثله فلنذكر ما ضبطته من ذلك ونقلته من نقل متوليه وهي هديته رضي الله عنه للملك الناصر محمد ابن قلاؤون (1) رحمه الله ملك مصر صحبة الربعة التي اختطها بيمينه رضي الله عنه ، وسيأتي ان شاء الله ذكرها . تفسير ما اشتملت عليـــه : أما الأحجار فمنها الياقوت والزبرجد والزمرد والجوهر . أما الياقوت : فمائتان وخمسة وعشرون حجرا من الياقوت الفاخـــر العظيم القـــدر والمقدار . وأما أحجار الزمرد : فمائة وثمـــانية وعشرون حجـــرا من الدباني العجيب . وأما أحجار الزبرجد : فثمانية وعشرون . وأما الجوهر النفيس الفاخر المقدار فثلاثمائة وأربع وستون حبة .

وأما الثياب ، فمنها الحلل المرموقة المذهبية والأنساق المذهبة وغيرها . أما الحلل ، فثلاث عشرة حلة ذهبية والأنساق عشرون ذهبيـــة . وأمـــا الخلادي (وتسمى القدود) ، فست وأربعون مذهبة . والقنع ستـــة وعشرون قناعا مذهبا . ومن المحررات القائمة المختمة مائتان شقة . ورضاق عشرون شقة وأكسية محررة أربعة وعشرون . وبرانس محررة ثمانية . ومن المشفف خمسون زوجا ، مائة شقة . ومن أحارم الصوف والمحرر عشرون . ومن شقاق الملف ست عشر شقة (3) ومن الفضالي المنوعـــة عدل . ومن الفرش : مخاد (بين منسوق وحلل) مائتان ، وأوجه ألحف مذهبة عشرون وحائطيان من حلة ونسق ، وحنابل مائة وتسعة عشر

1 — من هنا فى نهاية اللوحة 307 (نسخة الرباط) .
2 — الدبابي : فى الاصل .
3 — القطعة التالية موجودة فى اللوحة 285 (نسخة الرباط) .

حنبلا منها اثنان من حرير وباقيها مجرز وصوف وفرشه من جلد مخروزة بالذهب والفضة .

ومن آلات الركوب والعدد ، ما يذكر : سيوف محـلاة بالـذهب الخالص المنظوم بالجوهر وسروج عشرة ركبها ذهب كلها ، ومنها ميز عشرة كذلك وثلاثة من الركب فضة كلها وما تشتمل عليه العدة ومزججة ومذهبة ستة . ومضمتان من ذهب منظومتان . وشاشية مطوقة بالذهب المكلل / المنظومة ، لزمات فضة كلها عشرة ، سروج (3) بالفضة عشر ، علامات معششة مذهبة عشرة ، رايات مذهبة عشرة ، بواقع مذهبـه عشرة أشلة مرموقة ثلاثون ، جلد شركي أربعة آلاف ، من (4) درق اللمط (5) مائتان ، منها اثنتان بنهـود الذهب وثمانيـة عشر بنهـود الفضة . ومن المضارب (وهي الأخبئة والمساكن) : قبة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب ، قبة أخرى من ستة وثلاثين بنيقة ، مبطنة بالحـلة المذهبة ، ووجهها حرير أبيض وشرائطها من حرير ملون وركيزها من العاج والأبنوس مؤلفا وأكابرها من فضة (6) مذهبة * ومن البـزاة الأحرار أربعة وثلاثون ، ومن الخيل ثلاثمائة وخمسة وثلاثون ما بين ذكور واناث ، ومن البغال بين ذكور واناث مائة وعشرون ، ومن الجمال سبعمائة . ولنصل ذكر هذه الهدية بما زود به الحجـاج المتوجهون صحبة الربعة المكرمة والهدية الجسيمة ، حسبما وعدت بذلك فى باب تيسيره سبيل الحج وما وجه به معهم برسم الصدقة والحبس للحرة مريم (أم أخته أم ولد أبيه) ثلاثة آلاف وستمائة دينار من الذهب وكسى وبغلات . ولأبي زيان عريف بن يحيى ألف دينار مـن الذهب وكسوة . وللقاضي أبي اسحاق ابراهيم بن أبي يحيى ثلاثمائة دينار من الذهب وكسوة ، ولعثمان بن سليمان من أولاد حمامة مائة وخمسون

3 ـ سرج فى «إ» .
4 ـ غير موجود فى «إ» .
5 ـ لمط : فى «إ» .
6 ـ هنا تنتهي اللوحة 285 (نسخة الرباط) .

دينارا ذهبا وكسوة . ولأولاد مهلهل بن عطية ثلاثمائة دينار من الذهب وهما اثنان . ولعبد الرحمن بن القاضي المليلي خمسون دينارا ذهبا وكسوة (7). وللمزوار عبد الله بن قاسم أربعمائة دينار من الذهب وكسوة. ولابن جميلة خمسون دينارا ذهبا وكسوة . ولقائد الركب حسون ابن عمران أربعمائة دينار ذهبا (8) وكسوة . ولأبي عبد الله محمد ابن يوسف بن سيد الناس مائة دينار ذهبا وكسوة . وليوسف بن عبلة المدعو بيشو ستون دينارا ذهبا . ولا أذكر ما دفعه لشيخ الركب ، وهو أحمد بن يوسف بن أبي محمد بن صالح نفع الله بهم . ولسائر الحجاج خمسمائة وخمسة (9) وتسعون دينارا ذهبا . وبرسم العطاء للعرب فى الطرقات ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومن الكسى مائتان . وللنسوة اللائي سافرن مع الحرة ستمائة وسبعون دينارا ذهبا . ولسليمان بن أبي بكر العسكري مائة وخمسون . وبرسم الصدقة وشراء الأملاك / ستة عشر ألف دينار من الذهب وخمسمائة دينار من الفضة . هذا جملة الخارج الظاهر . وأما هديته لسلطان السودان ، وهو سليمان بن موسى ، سلطان مالي ، سمعت غير واحد من أصحابنا يقول : انها تزيد فى الذخائر على هذه » . وهديته للهونشو (10) ملك قشتالة (11) ، وهو الفنشي ، معروفة ، فاذا نظرت ❋ الى ما تكرر له من الهدايا تقل لها هذه . وكذلك ما أهداه لزوجه النصراني حين تقربت بخدمة لهم رضي الله عنهم ونصح ، فهي لا يقدرها مقدر ، وقد قدمنا قول عروة : « الهدية تدل على مهديها » . فذكرت ما حضرني حصره ليقيس عليه من يقيس . وهداياه لصاحب افريقية معروفة ، ولصاحب تلمسان زمن السلم (فنسأل الله أن يضاعف له الحسنات ويرفع له الدرجات بفضله ورحمته) .

7 — رتب الجملتين التاليتين مقلوب فى نسخة الرباط .
8 — من الذهب : فى «ر» .
9 — خمسة : ناقصة فى «ر» .
10 — للهنشة : فى «ر» .
11 — قشتيلة : فى «ر» .

الباب الثاني والخمسون

فى أسفاره وسيرته فى السفر (رضوان الله علير) (وفيه فصلان)

الفصـــل الاول

فى فضل السفر فى أعمال البر

قال تعالى : « أولم يسيروا فى الأرض فينظروا » . وفى غير ما آيـــة فتضمنت الآي الحث على السفر للاعتبار والنظر والآثار . وكان سفر هذا الامام رضي الله عنه لهذا المعنى . ولما كان يقصده غالبا من التطواف على الأقاليم والأقطار التي لنظره ليصل اليه المظلوم وذو الحاجة ، وفى هذا من الأجر ما لا يخفى (1) فهو من أكبر الأعمال ومن أعظم أسفار الطاعات . ويسافر لكف البغاة وللجهاد ، فأســـفاره كلها على هـــذا الوجه .

الفصـــل الثـــاني

فى سيرته فى سفـــره

كان رضي الله متقيدا فى سفره وحضره بالكتاب والسنة ، فوظائف الأعمال التي يعهدها فى الحضر لا يفارقها فى السفـــر ونوافل الخـــير كصيامه وقيامه ، نفعه الله بذلك ، فكان لا يرتحل بعد صلاة الصبح حتى يقرأ وظيفته من القرآن خلال ما يفرغ الناس من الرحيل ويجلس فى قبة معدة لذلك ثم اذا قضى وظيفته من القراءة ، استـــدعى وزراءه

1 ــ الجملة التالية ناقصة فى «ر» .

وكاتب سره فتعرض عليه القضايا وتعرض عليه الأمـور ويمضي من الأحكام ما يراه / وينفذ من الأوامـر مـا ارتضـاه ، ثـم اذا فرغ وكمل رحيل الناس ركب وقرعت الطبول وتقدم بين يديه علمه المنصور والمصحف الكـريم العثماني ومـا معــه من المساند التي * كـف الاسلام ومصابيح الأنام من سنن النبي عليه الصلاة والسلام ، وعـلى ذكر هذا المصحف المكرم فلنذكر نبذا من أخباره وان كان قد أكثـر الكلام فيه غير واحد من أئمتنا وذكروا تواريخ تختص به ، فاختصرناها فتقول : هذا المصحف الكريم هو مصحف عثمان بن عفان بأطباق أهل الأندلس حسبما ذكره ابن عبد الملك قال : « قال الرازي (1) في تاريخه : « وهو يوم الأحد لثمان خلون من جمـاد الآخرة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . احتمل المصحف المرتب في جامع قرطبة لقراءة الامام فيـه صبيحة كل يوم بعد صلاة الصبح (وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ومما خطه بيمينه) الى البنية الحكمية لاتصـال قطـع في المسجد بعضها ببعض احتمل المصحف المدعو بالامام المختـزن كـان بمقصورة هذا الجامع المرتب لقراءة امام الفريضة فيه كل يوم عنـد فراغه من صلاة الصبح ، وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان مما خطه بيمينه ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم واحتفـاء شديد وقال ابن بشكوال : أخرج هذا المصحف عن قرطبة وغرب عنها ليلة السبت الحادية عشرة من شوال من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وذلك في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره .

وفي ذلك قال الشاعر المجيد أبو عبد الله محمد بن حسن بن حبوس القاسي من قصيدة يمدح فيها أبا محمد عبد المؤمن المذكور (من السريع) :

سيشكـر (2) المصحف اكبابكـم عليـه اذ أوجـده الفقـد

1 ـ الراوي : في «إ» و «ر» .
2 ـ سنشكر : في «إ» .

أذكرتم الأيام ما أغفلت من سره اذ قدم العهد
مصحف ذي النورين عثمان ما كان لكم عن صونه بد
ما اختار شيئا مؤنسا غيره حين أتى واقترب الوعد
أوسعتم الدنيا اطراحا وما كان لكم الا به وجد
يحنو عليه العطف منكم ولا ينقصه (3) الاشفاق والود
/ صيانة منكم لم يكن يثيرها جمل ولا دعد
أحببتم المولى فأحببتم ما خطه من وحيه العبد
ألبستموه حلية لم تكن يسمخ للكف بها الزند
* عناية الله بكم جمة له عليه الشكر والحمد

وله من أخرى وهي بديعة جدا أولها : (من السريع) .

هذا كتاب الله جل اسمه بخط عثمان وفي رحله
خير امام آخر جاءه خير امام كان من قبله
اليه ينمي كلما مصحف تأنق العالم في نقله

غير أنه عفا الله عنه أساء الأدب فيما بعد هذا البيت وهو من القصائد الغر الجامعة بين الحلاوة والجزالة وقد استوعبها القاضي أبو عبد الله ابن عبد الملك استجادة لها واستحسانا ، وفي نحو هذا يقول الأديب أبو جعفر بن عبد الرحمن الوقشي يهنيء أبا يعقوب بن عبد المؤمن بعيد الفطر (من الطويل) :

ومصحف عثمان بن عفان أهملت ملوك الورى من حقه كل لازم
فأشفقت من جهل الجميع بشأنه وقبلته صونا له بر عالم

3 — غير مقروء في المخطوطتين .

ثم ذكر تحليته له ووصف ما كساه اياه يقول فيها :

فأصبح ذو النورين كاسم وليه وخير له فى بدئه والخواتم
فليت أبا عمرو يعاين شكله فيشكر أفعال الحفي المكارم

قال ابن عبد الملك : وقد أكثر شعراء دولة أبي محمد عبد المؤمن وبنيه بعده من هذا المعنى وتواطأت أقوالهم بناء على معتقداتهم أنه مصحف عثمان الذي كان بين يديه حين استشهد رضي الله عنه ويذكرون أن دمه كان منه (4) بموضعين أحدهما قوله تعالى : « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » والآخر قوله تعالى « فعقروا الناقة » . قال : « وهذا كما تراه وهو ظاهر التصنع » . قال : « وهو (والله أعلم) غلط بين متبع فيه بعض بعضا فان المتقرر من شأن مصحف عثمان أنه ضاع بالمدينة / فى بعض الفتن الطارئة عليها ، ولكن أبا بكر محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور بن شداد ابن هيمان السدوسي مولاهم ، قال : « رأيت بخط يعقوب جدي مما أجازه لي ، ثم حدثني به أبي أحمد بن يعقوب بعد عنه حدثني أبي ، قال : حدثني أبي * قال : « رأيت الامام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، قد بعث به أبو اسحاق أمير المؤمنين وهو المعتصم بالله ابن أمير المؤمنين أبي جعفر هارون الرشيد لتجدد دفتاه وتحليا فشبرت طول المصحف فاذا هو شبران وأربع أصابع مفرقة وعددت سطور بعض ورق المصحف فاذا فى الرق ثمانية وعشرون سطرا وفى بعضه سبعة وعشرون سطرا ، ورأيت أثر دم فيه كثيرا فى أوراق من المصحف كثيرة بعض الورق قدر نصف الورقة وبعض قدر الثلث وفى بعض الورق أقل وأكثر وعلى أطراف كثيرة من الورق ، ورأيت عظم الدم نفسه فى سورة والنجم فى

4 ــ كان منه : ناقصة فى «ر» .

أول الورقة كأنه دم عبيط أسود على ما أنزل الله بها من سلطان : « ان يتبعون الا الظن وما تهوي الأنفس » . ثم بعده رأيت نقطة من دم على هذا الحرف : « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » على موضع السين والياء من « فسيكفيكهم الله » ، فسألت الذي رأيت المصحف عنده ما لهذه دراسة ؟ فقال : « مما يمسح الناس أيديهم بها » ورأيت مسح الأيدي بينا وأثر النقطة بينا » . قال ابن عبد الملك : « ولا يمكن أن يكون هذا الذي كان بالأندلس ، كان فى الموضعين المذكورين لا غير بخلاف ما ذكر شيبة » . قال : « والذي يظهر لي (والله أعلم) أن هذا المصحف الذي كان بالأندلس هو أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله عنه الى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشأم فان يكن أحدها فلعله الشامي » (انتهى كلام ابن عبد الملك) .

وتعقبه أبو القاسم التجيبي السبتي ، فقال : « أما الشامي فهو باق محفوظ بالمقصورة العظمى من الجامع الأموي من محروسة دمشق (حرسها الله) وعمره بذكره وقد عاينته هناك فى صدر سنة سبع وتسعين وستمائة ❊ كما عاينت المكي أواخر سنة ست وتسعين وهو فى قبة اليهودية » قلت : « وهي قبة الشراب » قلت : « وقد عاينتهما مع الذي بالمدينة ، وقرأت / فيهما سنة خمس وعشرين وسبعمائة قال النخعي : « ولعله الكوفي أو البصري » وأقول (5) .. اني اختبرت الذي بالمدينة والذي عندنا بالمغرب وهو الذي كان فى الأندلس فألفيت خطهما سواء ولا يشك أنه أحد المصاحف العثمانية ، ومما أتعقبه على ابن عبد الملك وغيره ممن تقدمه أنهم يقولون فى وصفه مصحف عثمان الذي خطه بيمينه وهذا وهم . فان عثمان رضي الله عنه لم يخط واحدا منهما بيمينه فيما علمت وانما اجتمع على كتبها جماعة من أصحاب

5 — لعله التجيبي : هكذا مكتوب على هامش المخطوطتين .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما هو مكتوب على أول ورقة من المدني ، فان عليه على أول ورقة منه ، هذا ما اجتمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم : زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ، وذكر العدد جمعه عثمان رضي الله عنه من الصحابة على كتب المصحف (انتهى) •
وأجازه عبد المؤمن بن علي •

وقد ذكر هذا أيضا الامام شيخنا أبو عبد الله بن رشيد فى رحلته فى ترجمة ابن طفيل ، ووصف ما حلي به واتفق الجميع على ذكر ما احتفل فيه أبو محمد عبد المؤمن من العناية به •

وأنشد لابن طفيل قصيدة حافلة فى ذلك ، فكان الموحدون يحضرونه فى مجالسهم فى ليالي رمضان ويقرؤون فيه ، ويستصحبونه فى حركاتهم وأسفارهم متبركين به ، الى أن حمله المعتضد وهو السعيد أيضا أبو الحسن علي بن الميمون أبي العلى ادريس بن المنصور ، على عادة سلفه حين توجه الى تلمسان آخر سنة خمس وأربعين ، فقتل بمقربة من تلمسان فى آخر صفر سنة ست بعدها وقدم مكانه ولده أبو اسحاق ابراهيم ، ثم * قتل ثاني يوم تقديمه واختل الجيش ، ووقع النهب فى خزائن السلطان ، واستولت أيدي العرب وغيرهم على جميع من كان بالعسكر ممن لا قدرة له على مدافعة عن نفسه ، فكان مما نهب فى ذلك الوقت هذا المصحف الكريم ، ولم يعلم منتهبه قدرا له ولا قيمة ، فدخل به تلمسان وعرضه على البيع • قال ابن عبد الملك : سمعت الشيخ أبا الحسن الرعيني يقول : « رأيته بتلمسان بيد سمسار ينادي عليه بسوق الكتب بتلمسان سبعة عشر درهما وقد ضاعت منه أوراق ، فانتهى خبره الى صاحب تلمسان / حينئذ ، وهو أبو يحيى يغمراسن بن زيان الزناتي (6) من بني عبد الوادي ، وهو الذي

6 — الزياني فى «ر» •

قصده المعتضد أبو الحسن المذكور للدعاء له بالدخول فى طاعته ، فحين علم به انتزعه من يد الذي ألفاه عنده وأمر بصونه والاحتياط عليه ، ولم يزل يطمع به المرتضى من بني عبد المؤمن والمستنصر مـــن بني أبي حفص صاحب افريقية ، والغالب بالله أبا عبد الله محمد بن يوسف أمير الأندلس ابن الأحمر ، فلا يخلون منه بطائل حتى توفوا جميعا فى حياة أبي يحيى ، فأورثه بنيه ، فهو عندهم الى هذا التاريخ (انتهى كلام ابن عبد الملك) .

قلت : « ولم يزل هذا المصحف فى خزائن ملوك تلمسان من بني عبد الوادي الى أن افتتحها امامنا المرحوم فى أواخر شهر رمضان سنة سبع (7) وثلاثين وسبعمائة ، كما تقدم . فحصل على هذا المصحف الكريم وقال : « لو لم يحصل لنا من فتح هذه المدينة الا حصول هذا المصحف الكريم تحت أيدينا » . ثم لم يزل امامنا رضي الله عنه يعمل فيه بعادة الموحدين من تقديمه أمامه الى أن أصيب فى واقعه طريف ، فكان رضي الله عنه يتحير على فقده ثم لم يزل يجتهد فى البحث عنه الى أن وصل الخبر باستقراره ببلاد البرتقالي (8) فتلطف رضي الله عنه فى توجيه من يخلصه بما يطلب فيه من المال ، فتولى ذلك التاجر أبو علي الحسن بن جمي من مدينة آمزور * فورد به على مولانا رضي الله عنه فى شهور سنة خمس وأربعين (ونحن بمدينة فاس) فأنشدته رضي الله عنه مهنئا خمسة أبيات ، فقبلها واستحسنها على ما كانت عليـــه من الضعـــف والتلفيق ، فانتدب أصحابنا للتهلية به ، وكان افتكاكـــه بآلاف مـــن الذهب (نفعه الله بذلك) ، ولم يتغير فيه شيء الا أن أغشيته قد سلبت ودفتاه قد مزق ما عليهما من الوشي ، واستمر بقاؤه والمنة لله (9) فى

7 ـ ثمان : فى «إ» .
8 ـ برتقال : فى «ر» .
9 ـ رتب نسخة الرباط مقلوب هنا .

داره وعلى ملك أولاده وفى خزائنهم يجرون فيه على المعتاد نفعهم الله به .

قال ابن عبد الملك بعد ذكره لوصف ما يغشى به ويحلى ، وكان لسان حال هذه الهيئة يعني من حمل المصحف وكتب الحديث يقول : « ان هذه الراية منذرة باطلال صاحبها على مقصوده وانه داع الى ما يقتضيه الكتاب والسنة فمن أطاعة كان سلما له ومن عصاه حاربه بهذا الجيش الذي هو من حزبه . » / وذكر ابن عبد الملك هذا المصحف فى ترجمة أبي المطرف بن عميرة وفى ترجمة أبي الحسن بن القطان ، وذكره شيخنا أبو عبد الله ابن رشيد فى ترجمة ابن حيان ، وأسند خبره لابن طفيل ، وذكر رسالة جده أبي بكر بن طفيل ، يقول فيها : « وصل اليهم (أدام الله تأييدهم) قمرا الأندلس وأميراها المتخيران السيدان الأجلان أبو سعيد وأبو يعقوب (أيدهما الله) ، وفى صحبتهما مصحف عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، وهو الامام الذي لم يختلف فيه مختلف ، وما زال ينقله خلف عن سلف ، قد حفظ شخصه على كثرة المتناولين ودخره الله لخليفته المخصوص ، بمن سخر لخدمته من المتداولين . (وذكر بقية الرسالة والقصيدة التي نظمها فى معناها غريبة) .

ورأيت بخط المحدث التاريخي أبو القاسم التجيبي فيما ذيله على تكملة ابن عبد الملك فى هذا الموضوع ، قد كتب بحذاء (10) ذكر المعتضد ما نصه : قرأت بخط أبي علي بن منصور الجنب قال : سمعت الكاتب أبا الحسن الرعيني يقول : لما أراد المعتضد التوجه فى الحركة التي قتل فيها ، اجتمع اليه * أهله وأولاده للوداع ، فدعوا له بأن يرده اليهم سالما ، فكان من قوله لهم : « والله لا رأيتموني هنا أبدا » .

10 ـ كنت بحداء : فى «إ» .

قال : « وأعجب من ذا أن علي بن عبد الله المغيلي كان يقول : « وصل الي بربري من أهل آزمور فى الحركة التي مات فيها المعتضد برقعة قديمة فيها مكتوب بخط قديم : يقتل الملك الأحمر البربري الأشتر . فكان الذي خرج اليه من الحصن الذي تحصن فيه يغمراسن وهو تامزردكت رجلا أشتر . قال : وكان يقال : « من النوادر موت المعتضد وحده وكان جيشه نحو مائة وعشرين ألفا » . وقرأت عقب هذا بخط صاحبنا الفقيه القاضي أبي عبد الله المقري ما نصه : يقول محمد المقري : « حدثني الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق (يعني عمي شقيق والدي) الشيخ بالعباد أن أبا الحسن المعتضد (وهو السعيد) كان شبيها للسلطان أبي الحسن فى الصفة وموافقة الاسم » . فكان يقول : « أصاب بنو عبد الوادي أبا الحسن عليا (يعني السعيد) فملكوا ، وأصابهم أبو الحسن علي أمير المسلمين فهلكوا ، فسبحان من جرى حكمه وحكمته فى كل شيء » . (انتهى ما عرض ذكره ، عدنا الى ذكر / سيرته رضي الله عنه .

فاذا يمشي فى طريقه يحادث من يختاره لحديثه وتأنيسه ، وتقف له الجيوش ممر طريقه على حسب مراتبهم فى التقدم والتأخر صفوفا ، وأشياخهم معهم يسلمون عليه يمنة ويسرة ، وهو يرد عليهم ويتصفحهم ويتفقد من غاب منهم ، فيسأل عنهم رضي الله عنه واذا عرضت شكوى أو طلب حاجة أصاخ لصاحبها ، وأجاب بما يجريه الله على يده من ذلك . ثم اذا فرغ الناس من الصياح (11) تفرقوا ، وانضم الى الساقة من عادته أن يصحبه فيها حتى اذا قرب من المنزل وقفوا كما وقفوا عند الصباح للسلام عليه ، فيدخل الى خباء الساقة ، ويدخل الناس على حسب طبقاتهم واختلاف مراتبهم ، فتقدم الأطعمة كما تقدم فى

11 ــ الصباح : فى «ر» .

الحضر حتى اذا فرغوا قام الى خباء دونها ، وتمسى بخباء الجلوس ، فيؤتى بطعامه الخاص به ، فيحضره جلساؤه من الفقهاء * والوزراء حتى اذا قضوا ذلك ، دخل حتى اذا كان اثر صلاة العصر ، أو بعد الصلاة خرج ، فلا يزال جالسا الى آخر النهار ، ثم بعد صلاة المغرب يجتمع الخاصة للعشاء ، ثم يدخلون للسهر (12) بين يديه ما شاء ، وهذا كله فى عمل بر وطاعة (نفعه الله) .

12 ـ للسمر : فى «ر» .

الباب الثالث والخمسون

فى اختصاصه بوضع القبول فى الأرض (وفيه فصلان)

الفصل الاول

فى أن وضع القبول دليل على محبة الله عز وجل

روينا فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا أحب الله عبدا أمر جبريل ، فنادى فى ملائكة السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه » . ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

الفصل الثاني

لا خفاء على ذي فطرة سليمة وانصاف أن هذا الخليفة رضي الله عنه أجرى الله على ألسنة الخاص والعام مدحته وركز فى القلوب محبته فى حياته وبعد موته ، ولقد حضرت مشاهد فى مجالس من مناصبه بالعداوة ومخالفه فى القبيلة ، فما سمعت من انتصب فى منصة ملكه منهم الا وهو يعظم شأنه ويرفع مكانه ويعدد محاسنه واحسانه ، حتى لقد سمعت الكثير منهم يموله عند ذكره ولا يصده منصبه عن / الاعلان بشكره ، ولقد سمعت كثيرا من الناس يتوسل به فى دفع الناس ، وقد حفظت له أخبارا تدل على عناية الله به وبأوليائه فى حياته وبعد مماته ، فأثبت له وضع القبول وصف محبة الله له بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

الباب الرابع والخمسون

فى ثناء الاولياء عليه رضي الله تعالى عنه وشهادة أهل الله توجب التزكية وترفع الدرجة

وقد قدمت ما صدر من الولي عبد الله الكومي والولي أبي عبد الله الهزميري والولي أبي محمد عبد العزيز القروي، وأقول ان الشيخ الصالح الولي المكاشف * المخصوص برؤية الأموات ومحادثتهم ، وله فى ذلك الحكايات النادرة والأخبار العجيبة التي ينقلها العدول عن العدول ، أبا عبد الله محمد ابن موسى البحري البجائي (نفعنا الله به وأعاد علينا من بركاته) كانت بيني وبينه معرفة متأكدة ، وجرت لي معه غرائب لما نزلنا بظاهر بجاية صحبة الأمير أبي عمر تاشفين ابن مولانا المرحوم ، حين قدم من العدوة ونحن متوجهون الى تونس حيث امامنا المرحوم خرج الينا ، وكان اذاك لم يعدم بصره ، فانه كف بآخرة من عمره ، فاستدعاني وأمرني بالخلوة معه ، فلما خلوت معه ، قال لي : « كيف حبك فى السلطان أبي الحسن ؟ » فقلت : « يا سيدي كفى بما عندكم شاهدا . فقال لي : فانظر لي فارسين يطيران اليه طيرانا واكتب له وقل له : « لا سبيل أن يخرج فى طلب العرب للقيروان » فقلت له : نعم فخلوت بالوزيرين (1) محمد بن العباس وعبد الواحد بن ناصح ، وقلت لهما ما سمعته منه ، ونظرنا فيمن يتوجه ، فبعد زمن من النهار جاء قاصدا الينا وقال : « لا تبعثوا أحدا فقد قضي الأمر ، واعلم يا ولدي أن السلطان أبا الحسن يقل وجود مثله فى الملوك السابقة ، فكيف فى هذه الأعصار ؟ واعلم أن الله يضاعف له الثواب ، وسيموت غريبا ،

1 — بالوزير — وبعبد : فى «إ» .

وله عند الله منزلة » . ثم اجتمعت به فى سنة ست (2) وخمسين ببجاية ، وجرى بيني وبينه ما يعلمه الله مما كاشفني به فقلت له : « كيف حال امامنا السلطان أبي / الحسن »، فقال لي: « يتنعم فيما أعطاه الله من النعيم المقيم والدرجة الرفيعة » . وسمعت سيدي الشيخ عبد الهادي يقول : « السلطان أبو الحسن أفضل الملوك وأقربهم من الله » . وسمعت سيدي الشيخ الولي عبد العالي بن موسى الزيادي الكبير القدر رضي الله عنه يقول : « السلطان أبو الحسن فى منزلة علية فى الجنة » (أو ما هذا معناه) . وسمعت رجلا من العباد أرباب المكاشفات بمنزل العباد ، وقد أطال التأمل فى الجامع المجاور لضريح الشيخ نفع الله به * يقول : « يا ما أعد الله لك يا أبا الحسن من النعيم المقيم » .

وهذا باب يكثر ما وقع الي فيه ، وانما أوردت ما حضرني عند كتب هذا المقتضب ، وقل لعمري أن يقع بيني وبين أحد ممن أتوهم فيه الصلاح الا وألتمس له منه الدعاء ، فما جرى ذكره قط الا وقد شهد له بكمال الفصل وقد وردت علي من المشرق كتب تقتضي هذا المعنى . وسأذكر بعضه فى الخاتمة ان شاء تعالى فى ذكر المرشدي (3) نفع الله به .

2 ـ خمس : فى «ر» .

3 ـ المرشد : فى «ر» .

الباب الخامس والخمسون

فيما اختص به من نسخ كتاب الله تعالى

وانما أخرت هذا الباب وجعلته خاتم أبواب الكتاب لبركته والختم به (وفيه فصول) .

الفصـــــل الأول

لا فضيلة تعدل فضيلة الاشتغال بكتاب الله تعلما وتعليما وحفظا وتلاوة وكتبا وتفسيرا ، والأدلة على ذلك من الأخبار المتظاهرة والبراهين الظاهرة ، استقلت به تصانيف . فلنذكر ما يخص بكتبها : لا خفاء أن القرآن فى زمنه صلى الله عليه وسلم كان مفرقا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى الجريد والخزف واللخاف والطرز ، كما جاء فى الخبر (والجريد معروف ، واللخاف حجارة بيض رقاق واحدها لخفة ، والطرز حجر له حد كحد السكين والجمع طراز) الى أن استحر القتل باليمامة بالقراء فى زمن الصديق ، وقتل منهم نحو من سبعمائة ، فأشار حينئذ عمر على أبي بكر رضي الله عنهما (1) يجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرآن (2) كأبي وزيد وابن مسعود ، فندبا زيدا لذلك ، فجمعه غير مرتب السور / بعد جهد شديد ، والحديث بذلك فى الصحيح ، و (3) رويناه فى جامع البخاري وغيره ، وانه جمعه فى صحف وكانت عند حفصة رضي الله

1 ــ رضي الله عنه : «إ» .
2 ــ القراء : فى «إ» .
3 ــ و : غير موجود فى «ر» .

عنها الى أن طلبها منها عثمان رضي الله عنه حسبما ثبت فى الحديث الذي أشرنا اليه ، فتألف واجتمع فى هذا الجمع الذي وقع فى زمن أبي بكر رضي الله عنه ، وجمع عثمان رضي الله عنه القرآن فى مصاحف * كان سببه أن الناس اختلفوا فى القراءة بسبب تفرق الصحابة فى البلاد ، واشتد الأمر فى ذلك وعظم الاختلاف ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه مما رأى منهم ، فلما دخل المدينة (فيما ذكره البخاري والترمذي) دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك » . قال : « فيماذا ؟ » قال : « فى كتاب الله ، اني حضرت هذه الغزوة وجمعت ناسا من العراق والشأم والحجاز » ، وذكر له اختلافهم وقال : « أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتاب الله كما اختلفت اليهود والنصارى فى كتبهم (4) . فجمع عثمان الصحابة رضي الله عنهم ، فقال : « ما ترون فى المصاحف فان الناس اختلفوا فى القراءة حتى أن الرجل ليقول : قراءتي خير من قراءتك وقراءتي أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه بالكفر » فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما الذي عندك يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة فانكم اذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا » قالوا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين » . فأرسل عثمان الى حفصة أن : « أرسلي الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك . فأرسلت بها اليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينتسخوها فى المصاحف ، وقال : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء ، فاكتبوها بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم » . ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردوا الصحف الى حفصة ، فأرسل الى كل أفق بمصحف ، وأمر بما سوى

4 ــ كتابهم : فى «إ» .

ذلك من الصحف أن تحرق باجماع من الصحابة . (قلت : ويروى هذا الحرف بالحاء من التحريق بالنار ، أو التخريق بالمعجمة وهو التمزيق والتقطيع . فائدة : ومن هنا أخذ العلماء جواز تحريق الكتب التي فيها اسم الله ، وان ذلك اكرام لها وصيانة عن الانتهاك والوطء بالأقدام ، روي عن طاؤوس أنه / كان يحرق * الرسائل اذا اجتمعت عنده وفيها بسم الله الرحمن الرحيم ، حرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة ، وكره ابراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها ذكر الله ، والقول بالتحريق أصوب لفعل عثمان واجماع الصحابة على موافقته . وقال القاضي بأو بكر بن الطيب : « يجوز للامام تحريق الصحف التي فيها القرآن ، اذا أداه الاجتهاد الى ذلك . قلت (5) وسمعت من شيخنا برهان الدين السفاقسي بمجلس تدريسه من الصالحية بالقاهرة المعزية ، وقد سئل عن مصحف مكتوب بالذهب ، أراد صاحبه أن يحرقه ليسبك ما فيه من ذهب ، وقد احتاج الى ذلك . فقال : « هذه مسألة لا نص فيها لأصحابنا المالكية ، وقد اختلف فيها الحنابلة على قولين بالجواز وعدمه » ، ثم أورد ما يمكن أن يستدل به لكل من القائلين ، ولم يبد ترجيحا لأحدهما (6) قلت : والبخاري على ما قاله القاضي بأو بكر ، الجواز مع أن الاحترام ينافيه .

الفصل الثاني

كتب المصاحف لوجهين صيانة وحفظا لكتاب الله عز وجل وكلامه والقراءة فيه نظرا فهي أعظم أجرا ، قال بعض أئمتنا : « وانما كان أعظم أجرا من التلاوة عن ظهر قلب ، لأنه اذا قرأه عن ظهر قلب فانما يسمع أذنه (1) فيؤدي الى نفسه ، فاذا نظر فى الخط كانت العين

5 — قال : فى «ر» .
6 — لأحدهما : غير موجود فى «ر» .
1 — أذنيه : فى «ر» .

والأذن قد اشتركتا فى الأداء ، وذلك أوفر للأداء فتأخذ العين حظهـا كالأذن . وروى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطوا أعينكم حظها من العبادة » قالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ »، قال : « النظر فى المصحف والتفكر فيـه والاعتبـار عند عجـائبه » . وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن » . قلت : وفى هذين الخبرين ما أبان اعجازا وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن شأن المصاحف ولم تكن حينئذ فى * حياته صلى الله عليه وسلم .

الفصـــل الثـــالث

قال أئمتنا رضي الله عنهم : « ومن حرمة كتب المصاحف أن يجلل خطه اذا كتب » . فروي عن أبي حكيمة أنه كان يـكتب المصـاحف بالكوفية / فمر به علي رضوان الله عليه فنظر الى كتابه ، فقال له : « أجل قلمك » ، قال : فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ثم كتبت وعلي رضي الله عنه ينظر الى كتابي فقال : هكذا نوره كما نوره الله عـز وجل .

قلت : وعلى هذا النحو كـانت كتابة امامنـا المرحـوم وخطـه فى المصاحف التي كتبها رضوان الله عليه ونفعه بها .

الفصـــل الرابـــع

قالوا : ومن حرمة كتبه ألا يصغر جرمه . روى الأعمش عن ابراهيم عن علي كرم الله وجهه قال : « لا تصغر المصحف » .

وحكى القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل ، فقال : من كتبه ؟ . قال : أنا . فضربه بالدرة ، وقال : عظموا القرآن ، قال : وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال مسيجد ومصيحفة .

قلت : وجرى في مجلس شيخنا برهان الدين (المتقدم الذكر) عن مذهب الحنابلة أن من صغر مصحفا وقال مصيحف كانت ردة يستتاب . هكذا حكاه مطلقا وفيه نظر والوجه أن ينظر في قائل هذه المقالة ، فان كان مستهزئا بها مستخفا متهاونا ، فهذا كما قيل ، وان كان جاهلا ففي الحكم بتكفيره نظر ، وقد وقع لأئمتنا : من ألقاه والعياذ بالله قمدا في القذر والنجس كان كافرا ، والوجه ألا يعذر هذا بالجهل ، فلا يصدر مثله عن قلب سليم بالايمان وبالله التوفيق . وكان كتب امامنا رضي الله عنه لما كتبه من المصاحف في أجزاء ثلاثين في كل ختمة نفعه الله بذلك .

الفصل الخامس

قالوا : ومن حرمته ألا يكتب بالذهب ولا يحلى به ، فيخلط به زينة الدنيا . وروى مغيرة عن ابراهيم قال : « كانوا يكرهون أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رؤوس الآي أو يصغر » . وعن أبي * الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم . ورأى ابن عباس رضي الله عنهما مصحفا قد زين بعضه فقال : تغرون به السارق وزينته في جوفه .

قلت : وهذا الذي منع امامنا رضي الله عنه من كتبه المصاحف بالذهب ، ومن ترصيعها منظومة بالأحجار

النفيسة من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وهــذا هو الــذي أوجب انتزاعه / اياه بعــد أن حــلاه على هذا الوجــه من الربعــة التي حبسها بشالة على جده المرحوم أبي يوسف يعقوب رضي الله عنه ، فبعد أن تحقق هذه الأخبار وصح عنده وترجح لديه ، ترك ذلك ، جمع العلماء ، وشاورهم فيه ، فوقع وفاق جميعهم على نقضها ، وأن يشتري بها أملاك تحبس على القراء بالضريح المذكور ، اذ كان وضعها هنالك وقفا على أن يقرأ فيها قراء أجريت لهم جرايات (حسبما قدمنا ذكر ذلك) ، فلما بيعت هذه الجواهر ، اشترى بها ما زيدت منفعته للقراء وليعود النفع ويتضاعف بذلك على المقروء على ضريحه (تغمده الله برضوانه ونفعه بقصده وتقبل ما يهدى اليهم من الأعمال الصالحة والدعوات المقبولة فى المواضع المرفعة) .

الفصــــل الســادس

كان دأب امامنا رضي الله عنه العكوف على نسخ كتاب الله فى الزمن الذي يخلو له من النظر فيما طوقه ، حسبما قدمته فى وظائف أعماله ، لئلا يخلو له وقت من عمل صالح يتقرب به الى الله (لا حــرمه الله مضاعفة أجر ذلك) ، وكان قد أكد عنده هذا العمل ما منحه الله تعالى من اجادة الخط المصحفي ، وكان قد أخذه عن كتاب (1) وقته المنفرد بتجويد هذا الخط فى عصره المنجللي ، وكان قد بلغ فيه الغاية ، فتعلم منه أصوله حتى صار خطه يختلط بخطه رحمهما الله ، وكان فى النظر لوضعه الخط جمال لمبصره رضي الله عنه ، وتداول التناول * من يده والمباشرة له بذلك جماعة ، منهم الامام فى الرسم أبو عبــد الله محمد بن محمد بن أبي طلاق المراكشي وأخوه أبو القاســم والامام الصالح المجيد أبو العباس أحمد بن خليفة وكــان من الصالحين .

1 ــ كاتب : فى «ر» .

وخدمت ذلك من يده مرات رضي الله عنه بل لازمت كتبه للربعة الموجهة لمكة شرفها الله تعالى والمكتوبة برسم بيت (2) المقدس والمكتوبة برسم الخليل وكنت المعين للتوجيه بها لو ساعد القدر ولا راد لما سبق به القضاء .

الفصل السابع

كان رضي الله عنه قد كتب الربعة التي حبسها بشالة ابتداء ، ولما ورد عليه كتاب صاحب مصر (حسبما قدمناه) وعزم على أن يبعث أم ولد أبيه ـ حين توفيت والدته رضي الله عنهما وكانت هذه بمنزلتها عنده كتب هذه الربعة / المدنية برسم أن يوجهها الى مدينة النبي صلي الله عليه وسلم ، وقد تقدم ذكر ما وجهه برسم شراء الربع برسم سدنتها والقراءة فيها ، فلما أكملها فى شهر ربيع الأول من سنة أربعين ، جمع الفقهاء لقراءتها ، وتفقد ما تعذر من ضبطها ، وذلك حين تعين الركب المتوجه صحبتها فى القبة الكائنة بروض القائد هلال بضفة وادي سطفسيف شرقي تلمسان المحروسة ، وكان تمام ذلك يوم الجمعة قبل الصلاة ، فصلى فى جامع العباد ، وهي أول صلاة صلاها خلفي ، وكنت قد أوردت فى أثناء الخطبة فصلا يتضمن ما عني به من كتب كتاب الله تعالى وتسهيل طريق الحج والزيارة مع ما بسط من عدله ، وكان فصلا وقتيا شهده معي أعلام علماء المغرب الذين جمعهم لقراءة الربعة المعظمة ، فلما فرغت من الصلاة والدعاء له ، قبلت يده ، فقال رضي الله عنه من الكلام ما احتشم من ايراده ، وبعث الي من حينه بكسوته التي كانت عليه واحسان جزيل ومركوب ، وأمرني بملازمة حضرته ، ورفع حجاب الحجاب دوني ، وحفظ ذلك الفصل ،

2 ـ بيته : فى «إ» .

وتناقلته ※ السفار ، وقد أودعته والحكاية فى ديوان (1) خطبي ، ولما حضرت ليلة المولد ، ضمن شعراء الحضرة هذا المعنى فى قصائدهم المولديات ، وكان مما استحسن فى ذلك قول الأستاذ الشهير أبي الحجاج يوسف الطرطوشي ، وعلق بحفظي من كلمته بيتان وهما (من البسيط) :

يا مصحفا ما رأى الراؤون فى زمن   شبها له مصحفا من نسخ سلطان
فضيلة مثلها فى الدهر ما عرفت   من عهد عثمان الا لابن عثمان

ووجهت الربعة المذكورة صحبة من تقدم ذكره فى فصله الى المدينة شرفها الله تعالى ، وكان رضي الله عنه قد أصحب كتبا لمولاي والدي بالمدينة (شرفها الله تعالى) يطلب منه المشاركة فى شأنها ، فرغب منه أبو زيان عريف بن يحيى أن يتولى النظر فى شأنها ، فاعتذر بما قبل منه رضي الله عنه وخطبه للقفول الى المغرب ، فامتنع حسبما نذكره (ان شاء الله تعالى) فى موضعه ، وهي الآن مستقرة بالحرم الشريف النبوي (أدام الله بركة الانتفاع بها وأعان / خدام المقام العلي المولوي العزيزي ، أيده الله على التنبيه على تفقدها والازدياد من التحبيس عليها وعلى المكية والقديسية (2) فبالانتفاع بالتحبيس عليها تدوم العناية بها . وقد رأيت بمكة (شرفها الله) المصحف الذي بعثه عمهم المولى أبو يعقوب بخط ابن حسني ، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة ، فانتزع ما عليه وبقي فى قبة الشراف يقرأ فيه احتسابا ، وقد قرأت فيه فى أعوام ، وهذا شأن الناس فى الوقت على أن أحق من وضعت فيهم الصدقات ، وأجزلت لهم الصلات المجاورون بالحرمين الشريفين (نفعهم الله ونفع بهم)

1 ــ كتاب : فى «ر» .
2 ــ القريشية : فى «إ» .

ثم نسخ الربعة الكريمة التي توجه بها الفقيه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وأصحبها هدية حافلة وصلات لأهل الحرمين ، واشترى ما حبس عليها ، وحبس بفاس ربعا خاصا * بها وأسند النظر فيه لمن عينه لذلك ، وهو الآن على ما هو عليه ، وهذه الربعة أحوج لأن يحبس على قرائها فان التي بالمدينة استقر على القراء فيها حبس بظاهرها ، وأولى ما صرفت اليه العناية اشتراء أملاك بالشام أو بالقاهرة برسم التحبيس عليها (أجراها الله فى صحف أعمال مولانا أبي فارس وضاعف ثواب ذلك له) .

ثم نسخ رضي الله عنه الربعة الكريمة التي توجه بها أبو المجد بن أبي عبد الله بن أبي مدين وعثمان بن يحيى بن جرار ، وأصحبها رضي الله عنه كذلك هدية كبيرة وصلات للمجاورين جمة للمسجد الأقصى ، واستقرت بها وذلك سنة خمس وأربعين وحبس عليها كذلك .

ثم شرع فى نسخة برسم الخليل ، فوصلنا الى تونس حاطها الله تعالى حين قدمنا صحبته ، ولم يبق منها الا عدة أوراق وبقية تذهيب وضبط ، وتقدمت بها من بجاية الى تونس ، وشرعت فى جمع المسفرين لها ، وتقدم معي أبو القاسم بن أبي طلاق ، فجمعنا الناس لتكملة الضبط ، وكان أحمد الرياحي المعروف بابن الزمال قد خرج بالركب ، وكنت تعينت لمصاحبتها ، فلما طال فيها العمل وضاق الوقت لتوجه الركب واستقر مولانا رضي الله عنه بتونس، وقعت المفاوضة فى ذلك ، فأشار حينئذ بعض من سمح الله له ورحمه بتأخير توجهها فى الوقت حتى / تتعين هدية من تونس ويستعد لذلك بركب يناسب وتعلل بضيق الوقت عن توفية الغرض ولم يزل يبذل فى

ذلك جهده حتى وقع العزم على ذلك . وكنت قد تجهزت والقدر يضحك فمنعني مولانا رحمه الله وشدد فى المنع ، وجرت فى ذلك أمور يأتي ذكرها ان شاء الله اختصارا فى الخاتمة ، فبقيت فى تونس الى أن استخلص منها المولى أبو عنان ما استخلص وتمم ما تمم ، وتعرفت الآن عن (3) اشتغال مولانا المؤيد أبي فارس بتكملتها ، وأنا أسأل من فضل الله ألا * يحرمني قصدي الأول ، فالله يعلم أن خدمتي لها بين يدي مولاي المرحوم ، ومناولتي اياها له رضي الله عنه كان بهذا الغرض وبوعده رضي الله عنه ومثل مولانا رضي الله عنه من وفى وعد أبيه ، وأسعف بالبغية مؤمليه ، وله فى الصديق رضي الله عنه أسوة . ففي الصحيح : « من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليأتنا » . ووفى ما وفى به مما هو فى الصحيح مشهور ، وفى الخبر المسند مأثور : « بعد الرغبة فى حصول رضاهم .. » ولنقتصر هنا على تعداد ما عقدناه من الأبواب لمرض عرض منع من استيفاء ما تعلق به من ذلك الغرض ومن الله أرجو العافية والسلامة والمعونة على أداء الواجب (بمن الله وفضله واحسانه وطوله) .

3 ـ ان : فى الأصل .

الخاتمة لهذا المجموع (وتشتمل على فصول)

الفصـــل الأول

فى سبب اتصالي بهذا المولى رحمه الله

وتقدم تعرفي به ، قد قدمت فيما أسلفته ملازمة المولى المرحوم أبي سعيد للعباد أيام حصر تلمسان ، ومجالسته للشيخين والدي وعمي رحمة الله عليهما بطول الأيام مدة تلك الأعوام ، وانضم لذلك سبقيـة معرفته ومعرفة والده المولى أبي يوسف وأخيـه أبي يعقوب بجدي للأم ، أبي اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي ، وتبركهم به واعتقادهم فيه ومعرفتهم بكراماته وبقدره وبأخيه الامام أبي الحسن ، فانه لما نزل المولى أبو يعقوب بظاهر تلمســـان ، خرج له فى الرســـالة عن صاحبها ، وتردد بينهما الى أن فهم أن صاحب تلمسان اتهمه بالميل للسلطان أبي يعقوب ، فخرج وأقام عنده وبقي أهله بتلمسان بحال احـــتراس حتى يتجـلى أمـــره فـــوافـــق أن قبـــض / عـــلى أخي صاحب تلمسان العباس وبنيه ، ففادى بهم أهلنا فخـــرجوا وتمكـــن أبو الحسن التنسي من السلطنة ، وكان له فيها ما لم يعهد مثله لفقيه مكانة وحظوة ، وكان يغشى مجلس السلطان فى كل يـــوم يجلس ، وكان يقوم له يعظمه اعتقادا * فيه وفى أخيه أبي اسحـــاق ، وكان أكبر منه سنا وقدرا وعلما وورعا ، ولولا ما يجر ذكره من التزكية للنفس ، لأوردت نبذا من أحواله وكراماته ، ولما تمكن من الخلافـــة توجه رسولا الى تونس للأمير أبي عبد الله ، فآثاره محفوظة بتونس الى الآن ، ولما صدر عنها عرض عليه ما يناسب قدره من احســـان ،

وما كان فرش برسمه من فرش ولم يطأها فلم يرزأ من ذلك كله شيئا ، ولما وصل لتلمسان أتبع بذلك الاحسان صحبة رسول ورد من تونس ، وهو الوزير ابن يرزيجن ، فذكر ذلك للمولى أبي يعقوب ، فقضى به رضي الله عنه لوالدتي ، وقال له : « لا بد من جبر خاطر هؤلاء وأنت لا تأخذه فابنة أخيك به أولى » ، وقد كان عينها لوالدي رحمهما الله فتكفل رضي الله عنه باقامة حالهما ، وولى ذلك الفقيه الفاضل أبا (1) محمد عبد الله بن أبي مدين رحمه الله وكان هذا بمحضر المولى أبي سعيد ومشاركته ، فاستقر والداي (2) بتلمسان الجديدة (3) واشترى الشيخ ربعه بفاس المعروف الذي صار لي معظمه بالميراث ، وكان أصله من حل المال وخالصه ، ولم يزل على ملكي يجبى الي مجباه بتلمسان حين كانت لبني عبد الوادي ، ثم تمتعت بعد مسكنا واستغلالا حتى قضى عمر الباغي فيه قضاءه . والمرجو من الله ، والمؤمل من فضل مولانا أبي فارس ، أن يمضي فيه عدله ويوسعني فيه فضله ويتصدق به على أصاغر رمتهم يد الاغتراب الى أقاصي البلاد وذاقوا طعم الاقلال بعد التوسع فى نعم مقامهم الرفيع العماد . ولما تقدمت المعرفة من هذا الوجه وتردد الوالد لحضرة فاس رسولا ، سأله مرة المولى أبو سعيد هل ولد له من فلانة ولد أم لا . فأخبره بحالي وأعلمه أني مشتغل بالقراءة ، فوجه الي من احسانه ما كان أول ما تأثلته ومبدأ احسانهم الذي ألفته ، ولما بلغنا ، ونحن بأرض الحجاز حصر مولانا أبي الحسن رضي الله عنه بتلمسان * واقتضى نظر مولاي الوالد رحمه الله الانفراد ، وبعثني (4) للوطن فى / قصة يطول ذكرها ولمعاذير أبداها ومعوله منها على ما صرح أبي عند وداعي له تجاه قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بني ، وفاتي

1 ــ أبو فى الأصل .
2 ــ والدي فى «ر» .
3 ــ الجديد : فى «ر» .
4 ــ بعثني : فى الأصل .

قربت وأنا قد سألت الله أن أموت غريبا ، فلا تفسد علي عملي » .
ولما خرج معي من الحرم وقف معي جماعة من أهل المغرب لتوديعه ، منهم عثمان بن جرار والحاج ابن أبي يوجان وابراهيم بن الشنتوف وعبد الرحمن الاشبيلي ، من حضر فاس ، ومسعود القشبري العدوي ، فقال لهم : « سلموا على السلطان أبي الحسن وقولوا له انا هنا (5) نخدم عليه » . ثم التفت الي ، وقال : « يا بني أرجو الله أنك اذا وصلت اليه لا تقيم الا أياما يسيرة ، وتفتح تلمسان ، ويجتمع شملك بأهلك على ما تحبه ، والمرجو من الله أن يستر ما فيهـا مـن الذراري (6) الحرم (7) » . فقفلنا الى الوطن وتقدم بعض من حضر موطن (8) توديعي لوالدي وسمـع مقالته ، فأنهي ذلك لمولانا أبي الحسن ، فتشوف لوصولي ، فلما نزلت بوادي شلف تلقاني عبد الواحد بن محمد ، كاتب العسري بكتب من الحضرة ومن عمي (رحمه الله) يستحثني على الوصول ، ويعلمني رضي الله عنه بتقلد الخطابة بالجامع بالعباد ، فولاني وأحسن الي قبل أن يراني ، فوصلت الى تلمسان فى السابع عشر من شهر رمضان ، فدخلت لمولانا رضي الله عنه فى برج الكيس ، وتلقيت من قبوله واقباله ما ملك نفسي ، واستعاد مني ما سمعت من والدي ، فأخبرته ، فقال له أبو زيان عريف : « يا سلطان الآن طابت النفس بأخذ تلمسان » ، وذكر خيرا ، وكذلك يحيى بن موسى وكان حظيا عنده رضي الله عنه ، وكذلك الفقيه القاضي أبو عبد الله بن عبد الرزاق والفقيه أبو محمد عبد المهيمن ، ولجميعهم بوالدي رحمه الله معرفة حاله ، فانفصلت الى محلي فلما كان ليلة سبع وعشرين بعث عني للاحياء معه مع عمي رحمه الله فتعللت بشكيـة وتوجه العم ، فلما كان * صبح سبع وعشرين وصل الي عمي وقال لي : « السلطان

5 ــ هنا : ناقصة فى «ر» .
6 ــ ذراري فى «ا» .
7 ــ حرم : فى «ا» .
8 ــ موقف : فى «ر» .

يدعوك لأن تصل اليه الآن » فتهيأت ، ثم توجهت ، فلما وصلت الى البرج قيل لي : « هو نائم » ، فوقفت أنظر أن يهب من نومه وأنا أنظر الى الملعب ، فما كان الا أن وقفت واذا بفارسين قد اقتحما الملعب فدخلاه ، وتتابع الناس فركب (أيده الله) بالساقة ، فلقيته فبادرني أبو زيان عريف وقال لي : « ظهرت / بركة والدك وصدق الله خاطره » . فقال مولانا رحمه الله : « نعم » ، ثم أمرني بالوقوف معه حتى انقضى النهار فلزمت من يومئذ الحضرة مترددا الى واقعة الملند ، فتوجهت ولازمت الحضرة ولحقت بخواص أهلها .

الفصل الثاني

فيما كان عندي من تقدمة المعرفة باتصالي به وحظوتي لديه

كان والدي رضي الله عنه يقول لي بطول الأحيان : « يا بني انما أخشى عليك من خدمة السلطان ، فانك حينئذ تكثر حسادك وينصب لك الشرك أعداءك » . فلما عزمت على توديعه ، قال لي : يا بني قد توجهت لخدمة السلطان ، فاحذر ، والله المستعان ، وقد تأهلت يا بني لخطط ، فاحذر أن تتولى خطة القضاء أو خطة تكون فيها علاقة مال واقبل الخطابة » . وكانت اشارة منه بل تصريحا بالولاية . وها هنا أذكر قصة من أجلها عقدت هذا الفصل اثارا بما اشتمل عليه ، وطال ما استعاده مني مولانا المرحوم معجبا به رضي الله عنه وهو ما اتفق لي مع سيدنا ولي الله أبي عبد الله المرشدي الساكن بمنية مرشد بمقربة من فوة قاعدة بلاد الريف بين القاهرة والاسكندرية المحروستين ، وكان هذا الرجل آية فى عصره يتصرف تصرف سيدنا أبي العباس السبتي فى وقته وزيادة وكنت جمعت من كراماته جزءا طلبه مني سيدي الشيخ أبو الصفاء خليل المالكي محمد بن عبد الرحمن

امام المالكية بالحرم الشريف والموقف بعرفة ، فأنسيته عنده ، وكان من أولياء الله العالمين العارفين ومن أئمة * العلماء الراسخين ، تفقه بمذهب مالك ودرس التهذيب ودرسه فى ابتدائه ثم جذبته يد العناية الربانية ، واختصته بحضرة الحضور الخصوصية الالاهية ، فتلقى وترقى وحل من محل السائرين الى الله بالمحل الأرقى ، ملكه الله التصرف لما قطع عن غيره التشوف ، فكان الناس على فرقتين فى شأنه . فريق فى جنة اعتقاده وفريق فى سعير تعقب شأنه وانتقاده ، وكنت ممن اختص بسيدنا قاضي القضاة ولي الله تقي الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الاخناني المالكي قاضي قضاة الديار المصرية وصالحها وكان ممن تولى بولايته وساد ببركة اختصاصه به وعنايته ، فكنت أكتب بين يديه كراماته ، وأتلقى منه ومن غيره من العلماء والفضلاء أخباره ومقاماته ، وكان معظم أهل البلاد الشامية والمصرية علماؤها وصلحاؤها وملكها ما بين تلامذة له ومعتقدين ومسلمين وشذت طائفة ، فسلكت سبيل الانتقاد ، ولما حصلت من أخباره على ما دونته وقضي بفراقي لمولاي الوالد المرحوم (على ما قدمته) كان مما أوصاني به : « يا بني اذا عدت الى القاهرة فاعمل على لقاء الشيخ ، وقصد زيارته والاستفادة منه ، والوقوف عند اشارته كيف كانت بالاستمرار على الوجهة أو غيرها » ، فلما وصلت الى مصر ، نزلت على شيخي قاضي القضاة عز الدين ابن شيخنا قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي ، وأعملت من داره من مصر الحركة ، فعرفته بمقال مولاي الوالد ووصيته لي ، وكان رحمه الله متوقفا فى حال الشيخ وربما يعترض ، فصرفني عن ذلك ، فلم أقبل ابعاده ، وودعت شيخي قاضي القضاة ابن الاخنائي ، فاستحسن الوصية وأوصاني بابلاغ السلام لسيدي الشيخ ، فلما خرجت مسافرا توجه جماعة من أصحابي المصريين لتوديعي ، وحلفوا ألا يودعوني الا بالاسكندرية ، فقصدنا البحر واكترينا فى جفن متوجه الى الثغر ، فلما

طلعنا وأخذنا مجالسنا ، وكنت فى كيب مع أصحابنا ❋ أقلعنا ليلا ، فنام أصحابي ومنعني خوف ركوب البحر النوم ، فرأيت الى جانبي رجلا عليه زي الطلبة فسألني عن الحال سؤال متعرف النسب والحلية والوجه ، فأعلمته ، ولما أخبرته بقصد الزيارة للشيخ قابلني بالانكار وقال لي : « مثلك ممن حصل من طلب العلم ما حصلته يعمل الرحلة وشد المطي لغير ما يشد المطي له » . فدار بيني وبينه بحث طويل ، لولا الاطالة بأجنبي لأوردته . ثم ان النفس اشتغلت بالركون لقوله ، فلم يك الا أن عرض لي هذا الخاطر ، واذا بالنواتية يصيحون صيحة واحدة يحذرون من الحصول فى موضع يدور فيه الماء ، فمالوا عنه بمركبنا ، فصادفنا مركب كبير كان عاليا علينا ، فتكسر الكيب الذي كنت فيه ، وتعلقت ثيابي بمخطاف / وهو مرسى المركب الذي صدمنا ، فتعلقت به ، وانفصل المركبان ، فأقمت متعلقا مدة ثم سقطت الى البحر ، وأنا لا أحسن السباحة ، فوقع فى الحال فى خاطري أني أصبت بسبب ترددي فيما توجهت بسببه ، ونويت التوبة ، فسقطت على خشب يجمعونها ويربطونها بالأجفان يجلبونها الى القاهرة كذلك ، فجلست عليها فنادى (1) بعض أهل المركب بعضا (2) ، « هذا غريق » ، فاحتملوني وصعدوا بي الى مركبهم ، وكانوا نواتية ملاحين ليس معهم معتبر فتفاوضوا فى استلابي وطرحي فى البحر ، فنظر بعضهم الي طويلا ، وقال : « هذا ابن مولانا قاضي القضاة المالكي رأيته يقرأ عليه » ، فأحاطوا بي من كل جهة يخدمونني ، فتفقدني أصحابي فى مركبهم ، فأرسوا وجاؤوا على البر يطلبونني ، فأنزلونني ، ورجعت معهم ، فأخبرتهم أمري (3) وطلبنا الرجل الذي ناظرني ، فو الله ما وقعنا له على خبر ، ولا فى المركب من رأى صفته ، فعلمت انه شيطان . ثم قدمنا منزل الشيخ رضي الله عنه ووفادتي عليه وما جرى لي معه ، وما حفظت عنه يستقل به تأليف ، وانما أذكر الخاص بالغرض ، ولما صلينا

---

1 ــ فناداني فى : «ا» .
2 ــ بعضا : ناقصة فى «ر» .
3 ــ أمري : ناقصة فى «ر» .

معه صلاة الظهر وحضرنا ❊ الطعام الذي لم نر له جنسا ولا طعما حسبما أوضحته في غير هذا ، استدعى بنا للخلوة ، فتقدمني انسان من الأصحاب ثم نوديت باسمي وشهرتي ، فلما مثلت بين يديه قال لي : « تقدم واجلس هنا ، فان شعيب بن عبد الله تحت هذه النخلة ثلاثة أعوام » . فذهبت في شعيب كل مذهب ، فقال : « أليس سيدك وجارك وشيخ سلفك أبو مدين ؟ » ، قلت : «نعم» ، قال : « هو » ، ثم قال لي : « يا بني انك مكروب من أمرين أحدها والدك والآخر بلدك فلا تهتم منه فهو في هذه الساعة في الروضة بين القبر الشريف والمنبر وعن يمينه خليل المالكي امام المالكية وعن شماله أحمد الطبري قاضي مكة ، قدما المدينة زائرين ، وقد حصل لهما من أبيك خير ، وأما تلمسان فهي هذه ، (وخط دائرة في الرمل وطاف عليها) وهو يقول : « تلمسان تلمسان » ، ثم جلس ، فقال لي : « قضيت فيها الحاجة » . فقلت له : « على أي وجه ؟ . قال لي : « على الوجه الذي طلب والدك من الله يستر الله ما فيها من ذراري وحرم وتملكها علي ، وهو خير الملوك ، وستنال منه خيرا كبيرا » ، وهذا موضع الشاهد من هذه الحكاية ، ثم / قال لي من البشائر ما رأيت منها الدنياوي ، وأرجو حصول الأخروي (بفضل الله وبركة رسوله صلى الله عليه وسلم) . وهذا ما يختص بالمحل من هذا الفصل .

الفصل الثالث

فيما أولاني رضي الله عنه من المبرة والكرامة ، وما ألبسني من الحلية والشارة ، وما طوقني من النعم ، التي لا يأخذها الحصر ولا يفي بحمدها وشكرها العمر .

قلدني رضي الله عنه خطة الخطابة ، وأنا ما (1) طر شاربي ، وألحقني بعلية أهل حضرته ، ممن قرأ على بعضهم والدي ، كالقاضي أبى عبد

1 ـ كما : في الأصل .

الله بن عبد الرزاق ، وابن آبي يحيى وأبي محمد عبد المهيمن . وتقلدت الشهادة فى عقوده وما يختص بداره العلية وجهته المكرمة . وقلدني الامامة مددا عديدة فى تعذر * متقلديها وأهلني لأن كان يقرأ علي محفوظة من كتاب الله تعالى ، وقرأ علي سورا باللوح ، ولا أعلم من بقي على وجه الأرض ممن شركني فى هذه المكرمة (والمنة لله) . وأهلني لكتب صدقاته وصدقات أولاده ، وقدمني لسماع الشكيات، وائتمنني على أسراره ، واستعملني فى كتبها مدة عنه ولم يطلع عليها بشرا ولي فى ذلك قصص يطول ايرادها ، وأذكر قصة منها ، وذلك أن الفقيهين ابن يربوع وعبد النور كانا فى البرتة موضع فى سفح جبل الفتح مع السلطان أبي الحجاج سلطان الأندلس وكانا قد توجها رسولين ، وأقاما معه فى محلته بطول اقامته هنالك ، فكانا يكتبان بأسرار ، وكان ابن يربوع منهما أشد تقصيا وبحثا واقداما على ما يكتب به ، وكان حاملا على الوزير عسكر ، فكانت كتبهما ترد ، فيقررها مولانا رضي الله عنه ، ويأمرني بكتب أجوبتهما بخطي ويعلم عليه ، ولا شعور لأحد بذلك حتى صاحب العلامة رحمه الله تعالى وأمسك عندي الأصول ، فلحق من ذلك صاحب العلامة ما غيره علي فصدر لي منه ما أوجب انتصار مولانا رضي الله عنه لي ، ولولا التزكية ، لأوردت بعض ما وقع من ذلك ، على أنه كان شيخي وأكبر سنا وقدرا ومنصبا وعلما رضي الله عنه . وأهلني للسفارة وللرسالة / . وأهلني لاقراء بعض ولده رحمهم الله ، كما أهلني للاقراء فكنت أدرس بجامع المنصور الحديث والفقه ، وهو يسمع فى المقصورة أحيانا ، وبمحضر مشيختنا من أهل العلم . وأهلني للمسامرة والمحاضرة ، واختصني بالمفاكهة والمباسطة ، وأظهرني على النظراء ، وفضلني على الظهراء ، وأولاني من الاعتناء ما ارتقيت به الى أعلاء مراتب الاحظاء ، فشاركت مشيختي (2) وأشياخ والدي

2 ـ مشائخي : فى «ر» .

فى الخطة وساويتهم فى المنزلة وحصلت على ما لم يحصل عليه أحد * فيما علمت فى عصر من الأعصار ، ولا اتفق لأحد قبلي فيما أظن فى قطر من الأقطار ، فارتقيت أحدا وخمسين منبرا فى بلاد شتى من أقصى المغرب ووسطه وعدوة الأندلس والزاب وافريقية ، فما من قاعدة وحضرة ملك فى هذه البلاد الا وعلوت على منبرها ، وأخلصت الدعاء لمقلدها ، وها هنا ظهرت كرامة سيدنا الشيخ موليها رضي الله عنه ، وقلدني هذه الخطة اقتداء به وجريا على سننه واتباع سبيله ملوك الأندلس وبني عبد الوادي والموحدين (أعزهم الله تعالى) وانا لنرجو فوق ذلك من درجات الآخرة مظهرا بفضل الله .)

الفصل الرابع

فيما قابلني به رضي الله عنه مما دلني على منزلتي لديه وأبان به قدر مكاني عنده

وهذه الشواهد كانت تتكرر علي على الدوام ، فما عسى أن أعدده منها وأسرد ؟ ، ولكنني أذكر بعضها مما أستحضره وفى الوقت أذكره . عرض لي فى وقت (ونحن بسبتة أيام حصر الجزيرة) سفر لتلمسان لزيارة عمي رحمه الله حين بلغني أن المرض قد اشتد به ، فأذن لي رضي الله عنه فلما عزمت على توديعه ، قال لي : « يا أبا عبد الله، قد خلطناك بأنفسنا وأهلناك لمجالسنا ومحاضرتنا ، ومن تكملة ذلك أن نطلعك على أحوالنا ، فاذا قضيت غرضك من زيارة عمك فى ثلاثة أيام ، فاجعل طريقك فى ايابك على حضرة فاس » . ثم دعا بالفقيه أبي علي بن تدرارت وقال له : « أكتب للحرة ثقة دارهم فاطمة بنت سعيد وللحاج فرج شيخ الفتيان والفقيه أبي غالب بن أبي مدين كاتب الدار العلية بأنه : سيقوم عليكم / فلان ، فاذا وصل ، فتطوفوا به على جميع ما اشتملت عليه منازلنا وحوته مساكننا وضمته خزائننا ،

وأخرجوا له أصاغر الأولاد ، وعاملوه معاملة من ليس بأجنبي منا » (1) وحملت الأمر معي وانصرفت ، فلما قضيت حق العيادة وأقبلت على فاس ، تلقاني صاحب القصبة بها حينئذ الوزير الحسن * ابن سليمان ابن يرزيجن ، وكان ولي بعد الوزارة وأغفلته في ذكر الوزراء وابراهيم ابن خزر ، ثم تلقاني شيخنا الامام أبو عبد الله بن عبد الرزاق في طائفة من الفقهاء والشرفاء والصلحاء ، فأخبرني الوزير المذكور أن كتب المولى رحمه الله وصل اليه بالوصية بي وألفيت أمره بما كتب به صحبتي قد تقدمني لفاس ، فلا تسأل عما لقيت من الاعتناء ، وما رأيت من عجائب ما اشتملت عليه قصوره وخزائنه ، مما لم يجتمع قط ما يقاربه لملك من الملوك في المشارق والمغارب وهذا معروف (2) لا يحتاج الى بسطه (3) فاسأل الله أن يحفظها من دار على المسلمين ، فهي حجة في الأرض وعنوان للاسلام وذخيرة ثابتة لهم ، واجتزت في وجهتي تلك متوجها لتلمسان على بلاد الريف وقافلا على طريق فاس والهبط ، فما من موضع أمر به الا وحوائج تعرض وشكيات ترفع ومطالب يتشفع بي في قضائها لمقامهم العلي . فلما وصلت الى حضرته العالية ، عرفته بما كان ، فأقمت يوما فقال لي : « أين ما جئت به ؟ » فعرضت عليه (نفعه الله ما عندي) فأجريت حسناتها المضاعفة له ، وحصل لي أجر الدلالة وحزت فخرا وشرفا وظهورا ومعرفة في سائر بلاد المغرب ، ومن ذلك أني اعتراني مرض في مدينة مراكش ، وكان مسكني بدار الأوربي من القصبة بمقربة من القصر السعيد ، فكان الأطباء والمعتبرون من أهل حضرته يتعاقبون لعيادتي والأشربة وما يحتاج اليه من دواء وغداء من داره مع أحد الفتيان ، فلما نقهت دخل عليه أحد الأطباء (وهو أبو علي المغيلي) فقال له مولانا رضي الله عنه : « كيف هو ؟ » فقال له :

1 ـ منا : ناقصة في «ر» .

2 ـ معروف : ناقصة في «ر» .

3 ـ بسط : في «ر» .

« يا مولاى نقه والحمد لله » . فقال له : « المنة لله » . فقال له بعض الحاضرين « انما سألك مولانا عن ولده» (وكان أحد أولاده رضي الله عنه مريضا) . فقال له : « انما عنيت فلانا » (عني) فقال له رضي الله عنه : « فهمت عنك وليس برء ولدي عندي بأجل من برء فلان » (جزاه الله عني / خير جزائه) .

ودخلت عليه يوما وهو بظاهر تيمزوغت ، فوجهني فى غرض اليها مع قائدها موسى بن عيسى بن رحمون ، فلما قضيت * ما أمرني به وعدت ، وركبت فرسا شهباء لموسى المذكور سيارة معروفة بحسن السير مع جودة الأصل قصد السرعة ، فلما وصلت ودخلت اليه بجواب ما توجهت فيه ، جرى ذكر المركوب فقال له مولانا رضي الله عنه : « أي فرس هذه التي ركبها فلان ؟ » (4) فقال : « يا مولاي من شأنها وشأنها وهي التي قال لي عبدكم علال أنها تصلح لأحد أولاد مولانا » . فقال له : « وصلت وحصلت بيد من هو عندنا أحد الأبناء ، ومن هو أحق بها » .

وتوفيت لي بتونس جارية كان لها شأن ، ووجدت ألم فقدها ، فدخلت معه يوما فى البيت الذي يدخل منه الى رياض سكناه ، وجلست بين يديه برهة ، فدخل ثقتهم الأرضى أبو حسون ، فقال له : « يا علال ، كيف هي الجارية الحبشية التي تخلفها عبد المهيمن واشتريناها من تركته وهي من تربية ابن خلدون ؟ » . فقال له : « يا مولاي ، هي غاية فى الجودة ولمن يعطيها مولانا ان كان لأحد أولادنا (يعني أولاده رضي الله عنه) ، فنعم ، والا فما ينبغي أن تخرج من دار مولانا » . فقال له : « لمن هو عندنا بمحلهم وأعز » . فقال له : « لعله فلان » ! (يعنيني) . فقال : « نعم ، والا فمن ؟ » .

4 ــ فلان : ناقصة فى «ر» .

ولما نزلنا بمقربة من بجاية شاع أنهم عاملون على الحصر والقتال ، ووقع بينهم وبين العسري قتال ، فقلت : « يا مولاي ، أتقدم مع فقهائهم ويقع الحديث معهم وآتيك (ان شاء الله) بما يثلج الصدر » . فقال : « اذهب ، وتحوط على نفسك ، فوالله ان أصابك شيء لأصابن به كما أصاب فى أعز أولادي » . ثم قال : « يا عريف ، تقدم فى هذه القضية بركة والده ، لعل الله يعصم فيها من اراقة الدماء » . وهذا غاية ما يصل اليه المرء من درجات العناية عند من يعتني به أن يلحقه بأولاده فى اعتقاده ، فبأي لسان أودي شكر هذه النعماء أو كيف أغفل عن ملازمة الدعاء له فى جميع الآناء .

وأصابني مرض شديد بمدينة فاس ، فكان خالي على العادة يتمشى من داره * وطبيبه لعيادتي صباحا ومساء ، ودخل علي رضي الله عنه زائرا وآنسني وسلاني عن مرضي / ووافق أن مرض الشيخ أبو سعيد عثمان بن مهلهل ، وكان يسكن بمقربة مني ، والطبيب يتعاهدنا جميعا فى وقت واحد ، فقدر أن توفي عثمان المذكور ، فقال المولى رضي الله عنه للطبيب : « احذر أن تعرف فلانا بموته لئلا يتفجع وبالله ان عرفته لأعاقبنك » . فلما كان وقت صلاة الظهر سمعت السلام من باب السبع عليه رضي الله عنه ، فقلت فى نفسي : « انما يركبون رضي الله عنهم فى مثل هذا الوقت لمهم ولا أشك أن هذا الوقت لحضور جنازة ، فلعل عثمان هو الذي توفي » ، وكانت سنة وبية ، ولا أراه رضي الله عنه يهتم بجنازة غيره ، فلما دخل علي أحد الفقهاء من أهل الحضرة قلت له : « توفي فلان ؟ ». قال لي : «نعم» . ثم دخل علي الشيخ أبو زيان فقلت له : « توفي فلان ؟ » . فقال لي : « ومن قال لك هذا ؟ » وأخذ يسليني ، ثم توجه ، فعرف مولانا رضي الله عنه فدعا بالطبيب فلما وصل اليه هم بأن يضربه بسكينه التي بيده (5) ، وقال له : « نهيتك عن أن تعرف فلانا

5 – فى يده . فى «ر» .

وتفجعه ، ففعلت ما نهيتك عنه » . فقال الفقيه الذي سألني وقد كنت بسطت له وجه الفهم : « لم يعرفه هو ولكن أخبرني فلان بكذا » . وشرح له القصة فقال له : « حتى أحقق الخبر » فوجه الي واستحلفني وقال لي: « والله ، ما زلت اليوم بهمك خوفا أن يرد عليك هذا ، فيشتد بك الألم » .

ومرضت أيضا بمنصورة تلمسان فعادني ولما عرف أني توجهت للراحة بعث الي أحد المشوريات بداخل بابه وبين يديه (وهي بريكة) بعد أن عرفه الطبيب أني أقبلت على الطعام وأشار بالمشوي ، فجاءتني هذه المذكورة بصحن فيه دجاجة مشوية ، وقالت لي : « مولانا بعث بها معي لأشاهد اقبالك على الطعام وقال لي : « ان أعلمتني أنه أكل منها مايرضي، أعطيتك بشارة » ، فبالله لا تحرمني احسان مولاي » . فحضرني عمي رحمه الله تعالى فدعا بما يرجى قبوله ثم قال لي ✻ : يا والدي ، لا يفي بشكر هذا الاهتمام الا توجهك بنفسك ، فتعال حتى آخذ بيدك أنا وغيري ، اذا دخلنا المشور حتى تؤدي شكره » . ففعلت ذلك ، فلما دخلت ألفيته في المشور الصغير الذي يدخل منه لباب دار الفتح ، فأجلسني وناولني مخدة توكأت عليها ثم دعا بكأس من شراب العود وحركه (وجلال الله) باصبعه وناولني اياه بيده فشربته / منه وظهر من السرور براحتي ما لا يظهر مثله الا من والد ، واتبعني الى منزلي احسانا . (جدد الله احسانه اليه وأسبغ ظلاله عليه) ، وكم والله ناولني بيده الطعام في مؤاكلتي له وهذه مزية ، والمنة لله ، لا أعتقد أن على وجه الأرض من صنفي من شاركني فيها .

الفصل الخامس

فيما تحمله مني رضي الله عنه من جهالة حملتني عليها العزة وقلة المعرفة

دخلت يوما معه الى البستنة التي كان أنشأها ، فوقع بصره على شيخ قد سلم علي ، فرحبت به وأقبلت عليه ، فقال لي : « من هذا ؟ » .

فقلت : « شيخ صالح من معارف والدي ، وممن حج وجاور معه ».فقال: مثل هذا المسكين يتكلف هذه المشقة » . فاستدعاه وسأله عن حاله ، وقال له : « نعمل لك ما يكفيك من الخدمة » فقال : « أنا أريد أتعيش من عمل يدي وما آخذه عوضا عن عملي » . فقال رضي الله عنه : « فها هنا ما يتعوضه عن عمل يعمله (1) غير شاق ، وهو أن هذه الأصبغة التي يحتاج اليها الدهانون تحتاج لحفظ أمين تكون تحت يده يعطيهم منها بقدر ما يحتاجون اليه » . فقال له : « اعمل هذا العمل وتعوض عنه باجارة معينة » . ففعل (2) فضبط العمل ، وكان للصناع فيه منفعة وعيشة مما يتحيلون فيأخذهم منه ، فضاقوا منه ، وكان اذا أخرج قدرا معلوما ، وفضلت منه فضلة ، ردها في محفظة عنده حتى تستوفى (3) من عنده فحانت صلاة العصر فقام ، والمحفظة في يده ليصلي في جماعة ، فقال قائلهم : « هذا خان وانما رفع * المحفظة خيانة » . فجاء شاهدهم (وهو أحدهم) لمولانا من وراء القضية وزورها ، فقال له : « اصرفوه بخير ولا تعرفوا فلانا لئلا يحتشم » ، وجاءني الشاهد المذكور ويعرف بابن الحكيم ، تلمساني ، فعرفني القضية وأخبرني بها على الوجه الذي وقعت وأبرأ الشيخ مما نسب اليه ، فلم يمكنني في القضية حديث بوجه ، فبعد أيام جاءني أحد شاهدي البناء بالجامع الأعظم من المنصورة رافعا في رفيقه الذي كان شهد معه ، ونسبه للخيانة فجاءه الآخر ، فعكس القضية ولم أجد مصدقا لأحدهما فدفعتهما / وأبنتهما ، فترافعا للفقيه أبي الحسن القبائلي ، فردهما الي لأن مولانا رضي الله عنه كان كلفني بتعاهد الجامع المذكور واعلامه بالمزيد فيه ، فاقتضى نظر أحد الطلبة أن رفع القضية لمولانا (نصره الله) لعداوة كانت بينه وبين هذا الشاهد ، فأحضرا معا واستفسرا وعتب علي عدم مطالعته بشأنهما ، فاعتذرت بعدم ظهور قولهما وحملهما على المباهتة ، فتلاحا الشاهدان

1 ــ يعمله : ناقصة في «ر» .
2 ــ ففعل : ناقصة في «ر» .
3 ــ يستوفى : في الاصل .

الى أن بدر من أحدهما (ويعرف بالرهوني) ما قدمته عنه فى فضل الحلم ، فلما فصلهما ، حسبما قدمته ، التفت الي وقال : « هذا علمكم ؟، ترتهنون فيما لا خير فيه ، وتعرفونا بمن لا يصلح أن يعرف ؟ » ، « وخاطبني بشدة وحرج ، فقلت له رضي الله عنكم : « والله ، ما صدر مني ما يوجب حرجكم علي » . فقال : « ومن عرفني بهذا ؟ » فقلت له : « والله ما عرفته قط ولا هو من وطني ، ولا سبقت بيني وبينه سابقة ، بل ترتب فى الحزب مع الطلبة قبل مخالطتي لهم ، وانما جلبه من يعرفه » . فقال قائل : « انما عرف به سيدي ابراهيم بن أبي يحيى وسيدي أبو عبد الله السطي ، فقال لي : «مافيكم خير » ، فقمت اليه وقبلت يده وقلت له « يامولاي ، عرفتنا على أن فينا الخير وبعد أن ظهر لك مني ما ظهر ، فاتركني لله الذي عرفتني من أجله » وانصرفت ماشيا فى قبة المشور ، فلما قاربت الخروج قال لي : «ارجع» ، فقلت بجهالتي : « ما بقي لي وجه أرجع به » فأعاد علي ، فمضيت على حالي ، فأهوى الي على بن مهدي * بأن يجذبني ويردني اليه فنهرته ومضيت ، فنهاه ، فتبعني المزوار ، الآن علي بن محمد ، ففعلت معه مثل ذلك فقابلته بما قابلت به الآخر فقال لي رضي الله عنه : « هذا الذي تبرأت منه اليوم ورأيت أنك لا تعرفه كما ذكرت ولا عرفت به قد وقع لك مثله فى الشيخ الأندلسي الذي أؤتمن على الاصبغة » ، فقلت له : « معاذ الله أن يكون الشيخ بالوصف الذي نسب اليه ، وقد أخبرني الشاهد فلان وفلان (3) أن الأمر كان على كذا » . فانتقل العتب الشديد الى الشاهد ولو وجد حينئذ لما سلم من العقوبة . فمضيت على حالي وانصرفت الى منزلي ، وأخذت فى التهيئة للنقلة ، فما كان الا أن قضى سهرة ليلتئذ ، واذا بأحد الطواشية ، وهو مرجان / قد وصل الي وقال لي : « مولاي يدعوك » ، فتحيرت فى أمري ثم ورد آخر يستحثني فمضيت (4) معهما

---

3 — وفلان : ناقصة فى «ر» .

4 — فمضيتهما : فى «إ» .

الى داخل داره وفى موضع منامه ، فألفيته متخففا من لباسه فقال لي : « يا فلان ، اعتقدناك فى الله وحبا فى والدك وسلفك لله وقد خلطناك بأنفسنا ، وأنت عندي بأعز مكان ، وأنك لما صدر منك ما صدر تغيير باطني من تغيرك ، فلما أوردت أخذ مضجعي تذكرت شأنك ، فما أردت أن تبيت الا طيب النفس ، فأصرف عنك القبض واحتمل ما صدر مني ، وأريد منك ، يا فقيه ، أنك اذا كنت فى حضرة غيرك وفى الملأ ، فاياك أن تعمل مثل ما عملت من الرد والمقابلة بمثل ما قابلت به من الامتناع من الاجابة والرجوع ، فاني أخشى أن يصدر مثل هذا (5) منك ، فيصدر مني ما يقابله من الحرج عليك الذي أندم عليه فى كلام مثل هذا » ، وأنسني وانصرفت .

ومثل هذا أجرى لي معه رضي الله عنه حين منعني من السفر للحج ، ونحن بظاهر تونس ، فقلت له : « والله يا مولاي ، لا أجلس وقد عزمت وتجهزت » . فقال لي : « منعتك ولا أتركك » . فقلت له : « الله ، قد حلفت . » فقال لي : « نكفر عنك » فقلت : « لا يمكنني » . فقال لي : « فانصرف لنفسك وأنا لا أكتب معك ولا أعمل لك ما عملت لغيرك » . فقلت : « فى الله الكفاية » ، فى كلام طويل والمجلس غاص وشيخنا أبو موسى ابن الامام * يعض على أنامله ويشير الي بالكف عن مثل هذا وأبو علي بن تدرارت يدفع فى جنبي ، والشيخ أبو محمد عبد المهيمن من الجانب الآخر ، وأبو زيان عريف يسكتني ، فنهضت للقيام ، فأشار الي شيخنا ابن الامام بالتحذير ومنعني ابن تدرارت ، ثم انه رضي الله عنه قام ، فلما خرجت من البرج سمعت النداء : « يا فلان » . فدخلت الى ما وراء البرج فألفيته واقفا هنالك فقال لي : « يا فلان ، بالله ، لا تفعل ها أنت وحدك ، قل الآن ما شئت فأنا أحتمله ولا يسعني احتمال مثله فى الملأ » . وقال لي من الكلام ما يجدد الله ثوابه بفضله فقبلت قدميه

5 ـ ذلك : فى «ر» .

وانصرفت بعد أن قال لي : « نعوضك من الحج أجر الجهاد فتوجه الى سلطان الأندلس رسولا والى الثغور متفقدا بالعطاء والاحسان اليهم واردا ، / وهي وجهة لا تغيب عنا فيها طائلا ، وفي المستقبل (ان شاء الله تعالى) تحمل الربعة راشدا » ، فانظر هذه الملاطفة وتأمل هذه المقابلة ما أحسنها . أسأل الله أن يجدد نعيمه عليه ويضاعف ثوابه لديه بفضله وكرمه انه ولي ذلك والقادر عليه .

الفصل السادس (1)

في جميل ظنه بي

قد قدمت في ضمن هذه الفصول هذا المعنى وأزيده وضوحا . كان بيني وبين صهري الفقيه أبي عبد الله بن عمران رحمه الله ما يقع بين المتصاهرين غالبا اذا اختلفت الأغراض ، فاني حرصت على نقل ابنته معي حيث يممت وكانت منها موافقة على ذلك رحمها الله ، ومنه امتناع ، وكان (عفا الله عنه) في خلقه يشكو ويقرح وتمالأ مع بعض الحاضرين بفاس يومئذ على ذلك،فلما وقف رضي الله عنه على الكتب امتعض لي فأمر بتأخيره عن الشهادة بالمعصرة ، وكان يومئذ شاهدنا ، حتى تراجعنا ، فقبل شفاعتي وكنت يوما أسايره بمقربة من سيرات فسار أبا زيان عريفا فأوما الي بشكره وتقبيل يده ، ولم أدر ما وقع ، ففعلت ذلك فقال لي أبو زيان : ان مولانا ذكر فلانا فقال لي أكرهه لأنه تعرض لاذاية فلان . وكذلك فعل معي لما * شكى بعض أصحابنا التلمسانيين الفقهاء أني أميل لجهة شيخي ابني الامام ، وأودع فيهم ما ينقصهم فقابل ذلك كله بالانكار . كذلك وقع من أصحابنا الشرفاء العلويين رفعوا على يد ابن يربوع ، وهم يقولون : « نخشى أن يكون انما أسقط حظنا ابن مرزوق (2) ، بما يقع فيه في جهتنا » (ناوله الرفع ، وأنا حاضر) فالتفت رضي الله عنه الي وقال :

1 — الخامس : في «ا» .

2 — ابن مرزوق هو مؤلف هذا الكتاب : فائدة على هامش نسخة «ا» .

« قالوا ، والله، عنك باطلا والله ما تعرض قط لهم الا بخير لكنهم حسدوه » وكان ذلك سبب حرمانهم مما طلبوه فى بقية رفعهم ، وأمثال هذا كثير .

الفصـل السابـع (1)

فى ذكر فراقي له رضي الله عنه وآخر الصحبة الفراق .

لما نزل به بالقيروان ما نزل ، وكنت بقسنطينة ، وجرى فيها ما جرى مما أوضحـه / (ان شاء الله) فى كتـاب تأريخ مدته واستيفـاء أخباره بفضل الله ، وتجردت جهدي للخدمة والمحاولة ، وكتب الي بما نصه : « يا عبد الله ، قد تعرفنا عملك وشكرنا موقفك الذي فيه وقفت فجـزاك الله عنا الخـير والحمد لله الذي صدق فيك الخبر » . ثم أمرني بما اعتمدته ، فخرجت من قسنطينة عـلى الوجـه الذي أوضحه (ان شاء الله) فى الكتاب المذكور الى بسكرة ، فلما بلغني خروجه من القيروان وقصد لتونس ، لم أتمالك أن تجردت فى نفر ، وقصدته وكابدت مشاق عصم الله فيها من أمور ، فلما وصلت اليه تلقاني بما لا أوفـي بشكره ونشره ، ثم بعثني فى طلب محلته التي كان فيها ولده أبو عامر عبد الله ومعه أبو زيان عريف ووزيره محمد بن العباس فى جمع مـن بني مرين من الصبر ومحاولة وصولهم ومحاولة الدواودة (2) وأهل وطنهم ، ويسر الله ولحقتهم بمقربة من مقرة . فبذل الشيخان الأنصحان أبو يعقوب ابن مزني رحمه الله والمرابط أبو راشد يعقوب بن علي الجهد فى تيسير هذا الغرض ، وتجرد أبو راشد فجمع شيوخ الدواودة (2) وأهل الوطن وقدمنا عليه بتونس رجاء أن * يتحرك هو بنفسه فلما دخلت عليه قال لي : « الحمد لله الذي ما خاب فيك الظن » ، ثم اقتضى نظره توجيه ولده المرحوم الصالح أبي علي الناصر معهم ، فلما عزم على هذا وتعين وقت خروجهم ، دخلت عليه ليلة ، فقال لي : « يا أبا فلان ،

1 ـ السادس : فى «ا» .
2 ـ الزواودة : فى «ر» .

أنت قد بعت نفسك معنا وأتعبناك » ، فقلت : « معاذ الله ، يا مولاي ، وددت ، والله ، لو بذلت نفسي فى أقل مصالح أوردها عليك » ، فقال : « اقتضى نظرنا أن تتوجه صحبة هؤلاء ليكون حدك بسكرة ، فتحاول مع ابن مزني ويعقوب خروج أولادي من قسنطينة » ، وكان بعض أهلها قد كتب له خدعة وأطمعنا فى الانقياد ، فلما وقعت لتوديعه وهي آخر ساعة فارقته، قال : يا بني جزاك الله عنا خيرا أن قدر بالحياة نوفي لك بعض عملك » . فقلت : « يا مولاي ، فى لحظة من لحظات عنايتك بي نبذل النفس » ، فبكى لبكائي وانصرفت ، فلم أر من ساعتئذ الا مكابدات وان تخللتها من مولاي المرحوم أبي عنان عناية ، ثم من مولاي أبي سالم رحمهما الله فتوجهت الى بسكرة لهذا الغرض ، فبلغنا وصول من / وصل من جهة المولى أبي عنان برسم من فى قسنطينة مع والدته ، فكتب الي من تونس رضي الله عنه يأمر ببذل الجهد فى استخلاصهم ومرافقتهم ومحاولة ما أقدر عليه مع ولده المرحوم ، فتوجهت صحبة الأهل فتوفيت والدته رضي الله عنها بظاهر تلمسان ، وقدمت على المولى أبي عنان فأولاني جميلا ، ولم أجد للمحاولة سبيلا فتخلصت منه وقدمت تلمسان فحاولت مع ابن أجانا انقياد بني عبد الوادي له ، فكتبوا وكتبت ، ووجهت أحد أهل العباد ويعرف بعلي بن محمد الى تونس فوافى وصول مولانا للجزائر فدخل اليه بالكتب فسر رضي الله عنه وكتب لي أبلغ (3) كتب ولم يكتب لبني عبد الوادي فلما وصل كتبي دون * كتبهم اتهموني وسعى بي من سعى ممن أخذ الله منه الحق ، فأذنوا لي فى الانصراف ، ثم اتبعوني من جاء بي مثقفا ، وعرضوا علي الموت وأنا مصمم على حبي ، ثم انهم ثقفوني وأشاعوا أني مت ، فأقمت عاما ينقص بعض شهر الى أن تعدى مولانا المرحوم لمراكش ووقع بينه وبين ولده ما وقع فحينئذ أخرجوني . وأخبرني الشريف العلامة أبو القاسم الحسيني التلمساني أنهم لما توجهوا فى المصالحة لمولانا المرحوم للجبل ، فأول ما سألهم عني ، فلما أخبروه بحياتي

3 ــ كتاب : فى «ر» .

وخلاصي ظهر منه ما هو المعهود منه من المسرة بذلك ، ولما عرفت استقراره بالجبل ، اقترحت على أهل تلمسان فى الجواز للأندلس ، فأسعفوني بعد لأي ، فبلغني اذ ذاك وفاته كتب بها الي بخطه المولى أبو عنان رحمه الله ، وكابدت فى هذا الثقاف ما أرجو ذخره عند الله ووحق جلال الله ما ندمت على محبته ولا خرجت عن لزوم طاعته . وجرد علي السيف لأجل ذلك ، فأعان الله وخلص بفضله ، والمرجو من الله أن يديم محبته ويعيد بركته .

الفصل الثامن (1)

فى تمهيد أعذار عن أمور وقعت فى هذا التأليف لا يبعد أن يتعقب بها متعقب وينتقد علي بها منتقد .

فقلما تسلم الأغراض من الاعتراض ، وقل تأليف خلص من اعتراض فى التصنيف ، / فان قيل : « هذا التأليف لم يتخلص لتدري تأريخ بذكر الوقائع والأيام ، ولا لذكر المآثر مجردة مستوفاة » ، قلت : « انما قصدت ذكر المآثر التي انفرد بها رضي الله عنه وأسند بها بما قدمته بين يدي كل مآثره من الخير تبركا واعلاما بقدر المآثر واعتبار الشرع لها وثناء صاحبه صلى الله عليه وسلم على صاحبها . فان قيل : « مآثر مولانا رضي الله عنه فى كل فصل من الفصول ❊ التي أوردتها هي أعظم مما ذكرت وأوفى مما أوردت . » قلت : « هو كما قيل وانما قصدت الالمام بالوصف والاشعار بنوع من الصادر عنه ، والا فلو أفردت تأليفا فى كل مآثره لاستقل بها» .فان قيل : « قد أجحفت فى الاختصار وتجاوزت الى الاقتصار » ، قلت : « انما أوردت ما أوردته قصد أن يكون فى مجموع غير مفترق الأجزاء » . فان قيل : « فلم اقتصرت على ما اقتصرت عليه من الأبواب ، واقتصرت على ما اشتملت عليه الخاتمة » ، قلت : « عرض مانع المرض بما أشرت اليه وأمليت ما فيه ، وأنا ملتزم الفراش

1 ـ السابع : فى «ا» .

مرفوع الحرج والمرجو من الله تعجيل الشفاء » ، ولنختم هذا المجموع بحديثين ، أحدهما أفادنيه بعض أصحابنا المصريين وهو داخل فى مروياتي ، وقال : « هو حديث يحسن أن يقال فى مولانا أبي الحسن وهو حسني الطريق » ، قال : رواه أبو الحسن علي بن بلبان بسنده ، عن عقيل بن الحسن عن علي بن محمد الحسيني ، عن أبي المحاسن العلوي من ولد الحسن واسمه الحسن بن الحسن (1) ووجهه حسن ، قال : « حدثتني خالتي حسنة بنت علي بن الحسن وكل حديثها حسن أن الحسن بن دينار قال : أخبرنا الحسن حدثه ، عن الحسن ، قال : أخبرنا سعيد بن الحسان ، أنه سمع الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : « ان أحسن الحسن الخلق الحسن وأحسن ما يكون الخلق الحسن اذا كان معه الوجه الحسن » . وقد اجتمع فى مولانا المرحوم الوصفـان والحمـد لله رب العالمـين .

الحديث الثاني : أخبرني شيخنا (1) أبو التقي صالح الأشنوي ، حدثنا الامام أبو محمد بن قدامة ، حدثتنا العالمة شهدة بنت أحمد بن الفرج الكاتب ، حدثنا أبو الفوارس طراد / بن محمد الزينبي حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بشران ، حدثنا أبو علي الحسن بن صفوان حدثنا أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا داود بن عمر الضبي ، حدثنـا عبـد الله بـن المبارك ، عن يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زجر ، عن خالد بن أبي عمران * عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه :

« اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثارنا

1 ــ الحسن : ناقصة فى «ر» .

على من ظلمنا وأنصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ، (حديث حسن عال ، أخرجه الترمذي والنسائي فى اليوم والليلة) .

اللهم انا نتوسل اليك بنبيك ومحتباك وحبيبك ومصطفاك أن تتغمد مولانا المرحوم برحماك ، وأن تضاعف له فى دار النعيم نعمـــاك ، وأن تجمعنا فى فسيح جنتك ومستقر رحمتك وأن تجزيه عنا خير الجـزاء بفضلك ومنتك ، وأن تنصر مولانا المؤيد أبا فارس نجله الأرضى الخليفة المرتضى نصرا تعلي به كلمة الاسلام ، وتردي به عبدة الأصنام وتستأصل شأفة البغاة والظلام وأن تمد ملكه وملكه على المعمورة وأن تصـــل له السمو والظهور ، وأن تطيل عمره وتسعد ورده وصدره وأن تسخره لمن قدم له هذه الوسيلة وتجعلها للقبول ما هو له ، وأن تعطف قلبه على أصاغر نشؤوا فى احسانهم وأبعدهم القدر عن أوطانهم ، فهم يجأرون الى الله صباحا ومساء ، ويخلصـــون له ضراعة ودعـــاء يختمون التلاوة بالدعاء ، ويصلون قراءتهم بالرغبة الى الله فى أن يديم لمولاهم اتصال لاعتلاء طول البقاء وأن يمن عليهم بالمثول بين يديهم عـــلى أفضـــل الأحوال وأيسرها بين يديهم ومقامهم الأعلى من الجميع مخصوص بأتم السلام ، ومن اشتملت عليه حضرتهم العليا ومحاضرهم التي هي جنـــة الدنيا * بأتم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته .

/ وعـــذر من استعجـــل تقييـــده فى تســـع آخرها أوائل شهـــر رمضان المعظم من عام اثنين وسبعين وسبعمائة ما مول القبول عرف الله تعالى بركته وخيره بمنه وفضله .

القسم الثالث

الكشافات